

دار الشروق



الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين



تأليف
الدكتور محمد عثمان نجاتي

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حياد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلکس : 93091 SHROK UN
بريدت من ب . ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
رقيا . دانسبتي - تلکس SHOROK 20175 LE

الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين

الدكتور محمد عثمان نجاتي

أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت
وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً

دار الشروق

الإهداء

إلى روح والدتي

التي أضاءت بحكمتها طريق حياتي

وإلى زوجتي

رفيقة عمري وشريكتي في كفاح الحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

للعلماء المسلمين السابقين إسهامات كثيرة هامة في الدراسات النفسانية ، لم تحظ من قبل باهتمام الباحثين في تاريخ علم النفس لمعرفة دورها الهام في تقدم علم النفس وتطوره عبر عصور التاريخ . فالمؤرخون الغربيون لعلم النفس يبدؤون ، عادة ، بالدراسات النفسانية عند المفكرين اليونانيين ، وبخاصة أفلاطون وأرسطو ، ثم ينتقلون بعد ذلك مباشرة إلى المفكرين الأوربيين في العصور الوسطى ، ثم في عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وهم يغفلون إغفالاً تاماً ذكر إسهامات العلماء المسلمين في الدراسات النفسانية التي ترجم كثير منها إلى اللغة اللاتينية ، وأثرت تأثيراً كبيراً في آراء المفكرين الأوربيين أثناء العصور الوسطى وحتى بداية عصر النهضة الأوربية الحديثة .

وليس إغفال ذكر إسهامات العلماء المسلمين السابقين في الدراسات النفسانية مقصوداً فقط على مؤرخي علم النفس الغربيين ، بل إننا نجد أيضًا أن علماء النفس العرب المعاصرين الذين يدرسون في الجامعات العربية مقررات في تاريخ علم النفس ، يحذون حذو المؤرخين الغربيين في إغفال الإشارة إلى هذه الإسهامات . والمصدر الوحيد الذي يرجع إليه الفضل في معرفتنا الحالية بإسهاماتهم هو مؤرخو الفلسفة الإسلامية من العرب ومن غير العرب ، الذين أمدونا بملخصات مفيدة عن نظرياتهم في النفس . غير أن هذه الملخصات ، بالرغم من أهميتها الكبيرة ، فإنها غير كافية لإشباع رغبة علماء النفس العرب المعاصرين في معرفة الكثير عن آراء العلماء المسلمين السابقين في الموضوعات النفسانية المختلفة ، مما يمكنهم من تقدير القيمة العلمية لإسهاماتهم في تقدم علم النفس وتطوره عبر عصور التاريخ .

وقد تصدى مؤلف هذا الكتاب للقيام بهذه المهمة حينما قام بتدريس مقرر في « الدراسات النفسانية عند المفكرين المسلمين » لطلبة الليسانس بقسم علم النفس بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بالملكة العربية السعودية في الفترة ما بين ١٩٨٤ - ١٩٨٧ م . فقام المؤلف بإلقاء محاضرات عن الدراسات النفسانية عند الفارابي ، وابن سينا ،

وإخوان الصفا ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن تيمية وابن قيم الجوزية ، كما أعدَّ لطلبته بعض المذكرات في هذا الموضوع .

وحينما تركت التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في صيف عام ١٩٨٧ ، شغلتنى بعض الظروف عن متابعة الكتابة في هذا الموضوع . وفي حوالى شهر أكتوبر م ١٩٩١ م بدأت مرة أخرى في مواصلة الكتابة في هذا الموضوع . وكانت المذكرات التى كُتبت أعددتها لطلبتى الأساس الذى اعتمدت عليه في هذا الكتاب ، فأعدت كتابتها من جديد وأضفت إليها بيانات جديدة ، كما أضفت إلى الدراسة مجموعة أخرى من العلماء المسلمين .

وقد عُثِيت في هذا الكتاب ، بصفة خاصة ، بشرح آراء العلماء المسلمين السابقين الموضوعات النفسانية التى لا تزال تعتبر حتى الآن من موضوعات علم النفس ، مغفلاً ، الأغلب وعلى قدر الإمكان ، ذكر آرائهم الفلسفية في النفس التى لا تدخل الآن في موضوع البحث في علم النفس . فليس هذا الكتاب ، أساساً ، كتاباً في الفلسفة الإسلامية ، وإنما كتاب في تاريخ علم النفس عند العلماء المسلمين السابقين . وقد حاولت ، على قدر الإمكاا، المقارنة بين آرائهم في بعض الموضوعات وبين آراء علماء النفس المحدثين . وقد تبين لنا في كثير الحالات أثناء هذه المقارنة السبق العلمى للعلماء المسلمين ، فقد وصلوا إلى بعض الآراء والنظرة الهامة التى لم يصل إليها علماء النفس إلا في العصر الحديث . وسوف نكتفى في هذا النص بذكر أمثلة لذلك ، وسوف نقوم في فصول هذا الكتاب بذكر هذه الآراء والنظريات في شىء التفصيل .

فمن أمثلة ذلك أن ابن سينا قد استطاع بحذّة ذكائه ، ودقة ملاحظته ، أن يصل إلى م طبيعة عملية الارتباط الشرطى conditioning قبل أن يكتشفها إيفان بافلوف الفسيولو الروسى المشهور في العصر الحديث نتيجة للبحوث التجريبية التى قام بها . كما توصل ابن أيضًا إلى تفسير علمى للنسيان بإرجاعه إلى تداخل المعلومات ، وهو تفسير لم يصل إليه م النفس المحدثون إلا في الربع الأول من القرن العشرين . كما سبق ابن سينا أيضًا علماء الفسيولو وعلماء النفس المحدثين في قياس الانفعال على أساس قياس التغيرات الفسيولوجية التى تحدث مصاحبة الانفعال . ففى علاجه لمريض بالعشق ، حاول ابن سينا معرفة اسم الفتاة التى يعذ المريض حتى يمكن أن يوصى بطريقة ناجحة لعلاجه من عشقه . لقد ابتكر ابن سينا ط طريقة ، وهى أن يقول للمريض عدة أسماء لبلاد وأحياء وفتيات ، وكان يقيس أثناء ذلك ، نبض المريض لمعرفة مقدار الانفعال الذى تثيره هذه الأسماء . وقد استطاع ابن سينا بهذه الطا أن يعرف اسم الفتاة التى كان يعشقها المريض ، والمكان الذى تعيش فيه . وتعتبر هذه الطا

التي استخدمها ابن سينا إلهامًا مبكرًا لاختراع الجهاز الحديث المعروف باسم « جهاز استجابة الجلد الجلغرافية » ، والذي يسمى أيضًا « جهاز كشف الكذب » لكثرة استخدامه في التحقيقات الجنائية ، وهو جهاز يقيس الاضطراب الانفعالي على أساس ما يثيره في الجسم من تغيرات فسيولوجية . وفضلًا عن ذلك ، فإن ابن سينا بطريقته المبتكرة التي استخدمها لمعرفة أسباب الاضطراب الانفعالي عن طريق النطق بسلسلة من الكلمات أو الأسماء ، وملاحظة ما تثيره في الفرد من انفعال ، قد سبق أيضًا بعض المحللين والمعالجين النفسانيين المحدثين الذين استخدموا نفس هذه الطريقة ، وهي طريقة قوائم الكلمات ، لمعرفة أسباب الاضطراب الانفعالي عند مرضاهم .

ووصل الفارابي وابن سينا في دراستهما للأحلام إلى كثير من الحقائق التي سبقوا بها العلماء المحدثين ، وبخاصة دور الأحلام في إثبات الدوافع والرغبات التي قال بها سيجمند فرويد في العصر الحديث .

وقد سبق بعض العلماء المسلمين السابقين ، مثل الكندي ، وأبى بكر الرازي ، ومسكويه ، وابن حزم ، والغزالي ، وفخر الدين الرازي ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية المعالجين النفسانيين المحدثين من أتباع مدرسة العلاج السلوكي المعرفي في تركيز الاهتمام في العلاج النفساني على تغيير أفكار الفرد ومعتقداته السلبية أو الخاطئة ، على اعتبار أن أفكار الفرد ومعتقداته هي التي تؤثر في سلوكه . فهؤلاء العلماء المسلمون السابقون هم ، في الحقيقة ، رواد العلاج السلوكي المعرفي الحديث .

وعُني ابن حزم ، والغزالي ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية في علاج السلوك المذموم أو الخُلُق السيء بضده ، وهو أسلوب اتبعه المعالجون النفسانيون السلوكيون المحدثون في علاج بعض الاضطرابات السلوكية مثل الخوف والقلق .

ويجدر بنا هنا أن نشير أيضًا إلى أن ابن حزم قد أرجع أوائل العقل ، أو المبادئ العقلية الأولية المعروفة بالبدهييات إلى الحس ، وهو بذلك قد سبق بحوالى سبعة قرون ونصف الفيلسوف الألماني كَنت Kant الذي يعتبره مؤلفو الفلسفة الغربيون أنه هو الذي أرجع المعقولات البدئية إلى الحس .

كما يجدر بنا الإشارة أيضًا إلى أن فخر الدين الرازي قد أرجع أيضًا المعقولات البدئية إلى الحس ، كما فعل ابن حزم من قبل ، وبذلك يكون هو أيضًا قد سبق الفيلسوف الألماني كَنت في هذا الصدد .

وكان لابن رشد الفيلسوف الأندلسي تأثير كبير في التفكير الأوربي ، فقد عظم ابن رشد من شأن العقل والبرهان العقلي في النظر في الموجودات وفي الوصول إلى الحقيقة . وقد أدت آراؤه

ومنهج في التفكير إلى إطلاق عقول الأوربيين من عقالها ، ونشأت في أوروبا مدرسة رشدية تنشر آراءه ، وتنهج منهجه .

ويجدر بي أن أشير إلى أن هذا الكتاب الحالى الذى أقدمه اليوم ، بالإضافة إلى الكتابين السابقين للمؤلف وهما : القرآن وعلم النفس ، والحديث النبوى وعلم النفس ، إنها غدتا بكثير من المفاهيم النفسانية التى تساعدنا على تكوين صورة صحيحة عن الإنسان وحياته النفسانية فى التراث الإسلامى . فالكتابان السابقان اللذان تناولتا المفاهيم النفسانية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، يمداننا بصورة واضحة عن التصور الإسلامى للإنسان وحياته النفسانية ، والكتاب الحالى يمدنا بصورة واضحة عن تصور العلماء المسلمين السابقين عن الإنسان وحياته النفسانية . واعتقد أن معرفتنا بالمفاهيم النفسانية التى تناولتها هذه الكتب الثلاث تكون لنا أساساً يمكن أن تقوم عليه ، أو تنبعث منه ، دراسات جديدة فى علم النفس ذات توجه إسلامى ، يمكن أن تكون فى نهاية الأمر مدرسة جديدة فى علم النفس هى « المدرسة الإسلامية فى علم النفس » .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى تحقيق هدفى من تأليف هذه الكتب الثلاث .

وبالله التوفيق .

محمد عثمان نجاة

١٣ جادى الأولى ١٤١٣ هـ

٨ نوفمبر ١٩٩٢ م

المحتويات

| | |
|----|--|
| ٧ | تصدير |
| ٢٣ | الفصل الأول : الكندي |
| ٢٣ | حياته |
| ٢٤ | مؤلفاته |
| ٢٥ | تعريف النفس |
| ٢٦ | قوى النفس : |
| ٢٧ | ١ - القوى الخاصة |
| ٢٧ | ٢ - القوى المتوسطة : |
| ٢٧ | (أ) القوة المصورة |
| ٢٧ | (ب) القوة الحافظة |
| ٢٧ | (جـ) القوة الغضبية |
| ٢٨ | (د) القوة الشهوانية |
| ٢٨ | (هـ) القوة الغذائية |
| ٢٨ | (و) القوة المنمية (أو التامية) |
| ٢٨ | ٣ - القوة العاقلة |
| ٢٨ | العقل : |
| ٢٨ | ١ - العقل الذى هو بالفعل دائماً |
| ٢٩ | ٢ - العقل بالقوة |
| ٢٩ | ٣ - العقل الذى خرج فى النفس من القوة إلى الفعل |
| ٢٩ | ٤ - العقل الظاهر |
| ٣٠ | نظرية المعرفة |
| ٣١ | النوم والرؤيا |
| ٣١ | (أ) النوم |

| | |
|----|--|
| ٣١ | (ب) الرؤيا |
| ٣٢ | علاج الحزن |
| ٣٦ | السعادة |
| ٣٧ | الفصل الثاني : أبو بكر الرازي |
| ٣٧ | حياته |
| ٣٨ | مؤلفاته |
| ٤٠ | النفس |
| ٤١ | اللذة والألم |
| ٤٢ | إصلاح أخلاق النفس |
| ٤٣ | ضرورة تحكم العقل في الهوى |
| ٤٣ | قمع الهوى والشهوات |
| ٤٤ | نماذج من أخلاق النفس السيئة وإصلاحها |
| ٤٥ | العشق والإلف |
| ٤٦ | العُجب |
| ٤٦ | الحسد |
| ٤٧ | دفع الغم |
| ٥١ | الفصل الثالث : الفسارابي |
| ٥١ | حياته |
| ٥٤ | مؤلفاته |
| ٥٥ | تعريف النفس وماهيتها |
| ٥٧ | قوى النفس |
| ٥٧ | أولاً : النفس النباتية |
| ٥٨ | ثانياً : النفس الحيوانية : |
| ٥٨ | (أ) القوة المدركة |
| ٥٨ | الحواس الخارجية |
| ٥٨ | الحواس الباطنة : |
| ٥٨ | ١ - الحس المشترك |
| ٥٩ | ٢ - القوة المصورة |
| ٥٩ | ٣ - التخيلة |
| ٦٠ | ٤ - الوهم |
| ٦٠ | ٥ - الذاكرة أو الحافظة |

| | |
|----|--|
| ٦٠ | (ب) القوة المحركة |
| ٦١ | ثالثاً : النفس الناطقة |
| ٦١ | (أ) العقل العمل |
| ٦١ | (ب) العقل النظرى (العلمى) : |
| ٦١ | العقل النظرى ومراتبه |
| ٦٢ | ١ - العقل الهولانى |
| ٦٢ | ٢ - العقل بالفعل أو العقل بالملكة |
| ٦٣ | ٣ - العقل المستفاد |
| ٦٥ | وحدة النفس الإنسانية |
| ٦٥ | نظرية المعرفة |
| ٦٦ | السعادة |
| ٦٨ | المنامات وأسبابها |
| ٧١ | الوحى |
| ٧٣ | الفصل الرابع : مسكويه |
| ٧٣ | حياته |
| ٧٤ | مؤلفاته |
| ٧٥ | أرائه النفسية |
| ٧٥ | النفس وقواها : |
| ٧٦ | - القوة الناطقة (أو النفس الناطقة) |
| ٧٦ | - القوة الغضبية (أو النفس الغضبية) |
| ٧٦ | - القوة الشهوية (أو النفس الشهوية) |
| ٧٧ | - الحواس الخمس الظاهرة |
| ٧٧ | - الحس المشترك |
| ٧٧ | - القوة المتخيلة |
| ٧٧ | - القوة الحافظة |
| ٧٨ | - قوة الفكر |
| ٧٨ | - القوة العاقلة |
| ٧٨ | نظرية المعرفة |
| ٨١ | الأحلام والرؤيا الصادقة والنبوة |
| ٨١ | السعادة |
| ٨٣ | الأخلاق |

| | |
|-------|---|
| | نأديب الأحداث والصبيان |
| | الأمراض النفسانية ، أسبابها ، وعلاجها : |
| | حفظ صحة النفس |
| | ردّ الصحة على النفس |
| | علاج الخوف من الموت |
| | علاج الحزن |

| | |
|-------|--|
| | الفصل الخامس : إخوان الصفا |
| | منشأ إخوان الصفا |
| | عصر إخوان الصفا |
| | رسائلهم |
| | النفس وقواها : |
| | النفس النباتية |
| | النفس الحيوانية |
| | النفس الناطقة |
| | النفس الحكّمية والنفس الملكية والقدسية |
| | القوى النفسانية المدركة |
| | الحواس الخارجية : |
| | اللمس |
| | الذوق |
| | الشم |
| | السمع |
| | البصر |
| | القوى الخمس الروحانية : |
| | القوة المتخيّلة |
| | القوة المفكرة |
| | القوة الحافظة |
| | القوة الناطقة |
| | القوة الصانعة |
| | العقل |
| | وحدة النفس |
| | نظرية المعرفة |

| | |
|---------------------------------|-----|
| السعادة | ١٠٩ |
| آراؤهم التربوية | ١١٠ |
| الفروق الفردية | ١١٠ |
| فضل العلم وصفات المعلم والمتعلم | ١١١ |
| الفصل السادس : ابن سينا | ١١٣ |
| حياته | ١١٣ |
| عصر ابن سينا | ١١٥ |
| مؤلفاته | ١١٥ |
| علم النفس عند ابن سينا | ١١٧ |
| تعريف النفس | ١١٧ |
| تصنيف القوى النفسانية | ١١٨ |
| ١ - النفس النباتية | ١١٨ |
| (أ) القوة الغذائية | ١١٩ |
| (ب) القوة النممية | ١١٩ |
| (جـ) القوة المولدة | ١١٩ |
| ٢ - النفس الحيوانية | ١١٩ |
| (أ) القوة المحركة | ١١٩ |
| (ب) القوة المدركة | ١١٩ |
| ٣ - النفس الناطقة | ١١٩ |
| وحدة النفس الإنسانية | ١٢٢ |
| القوى النفسانية المدركة | ١٢٢ |
| القوى الحاسة | ١٢٣ |
| الحواس الظاهرة | ١٢٣ |
| البصر | ١٢٤ |
| السمع | ١٢٤ |
| الشم | ١٢٥ |
| الذوق | ١٢٥ |
| اللمس | ١٢٦ |
| التكيف الحسي وظاهرة الحجب | ١٢٧ |
| الحواس الباطنة | ١٢٧ |
| الحس المشترك | ١٢٩ |

| | |
|--|-----|
| المصوِّرة | ١٣٠ |
| المتخيَّلة | ١٣٠ |
| القوة الوهمية | ١٣٣ |
| الحافظة الذاكرة | ١٣٥ |
| النفس الناطقة أو العقل | ١٣٧ |
| العقل النظري ومراتبه | ١٣٨ |
| ١ - العقل الهولاني | ١٣٨ |
| ٢ - العقل بالملكة | ١٣٨ |
| ٣ - العقل بالفعل | ١٣٨ |
| ٤ - العقل المستفاد | ١٣٩ |
| تدرج القوى النفسانية المدركة من حيث تجرد إدراكاتها عن المادة | ١٣٩ |
| نظرية المعرفة | ١٤٠ |
| الانفعال | ١٤١ |
| السعادة | ١٤٣ |
| آراء ابن سينا التربوية | ١٤٥ |
| الفصل السابع : ابن حزم | ١٤٧ |
| حياته | ١٤٧ |
| مؤلفاته | ١٤٨ |
| تعريف النفس | ١٤٩ |
| النفس والروح والعقل | ١٥٠ |
| الأحلام والرؤى | ١٥٠ |
| الحب | ١٥١ |
| تعريف الحب | ١٥٢ |
| أنواع المحبة | ١٥٣ |
| مراتب المحبة | ١٥٣ |
| علامات الحب | ١٥٤ |
| الحب من أول نظرة | ١٥٤ |
| وسائل التعبير عن الحب | ١٥٥ |
| نظرية المعرفة | ١٥٥ |
| إصلاح الأخلاق ومداواة النفوس | ١٥٧ |
| علاج الهم | ١٥٧ |

١٥٨ علاج العُجب

١٦١ الفصل الثامن : الغزالي

١٦١ حياته

١٦٤ عصر الغزالي

١٦٥ مؤلفاته

١٦٦ علم النفس عند الغزالي

١٦٧ تعريف النفس

١٦٨ قوى النفس الحيوانية

١٦٨ ١ - القوى المحركة

١٦٩ ٢ - القوى المدركة

١٦٩ اللمس

١٧٠ الشم

١٧٠ الذوق

١٧١ البصر

١٧١ السمع

١٧٢ القوى المدركة من الباطن

١٧٣ الحس المشترك

١٧٤ القوة الخيالية أو المصورة

١٧٤ القوة الوهمية

١٧٦ القوة الحافظة الذاكرة

١٧٧ القوة المتخيلة

١٧٧ مراكز القوى المدركة من الباطن

١٧٨ قوى النفس الناطقة

١٧٨ مراتب العقل النظري

١٧٨ ١ - العقل الميولاني

١٧٩ ٢ - العقل بالملكة

١٧٩ ٣ - العقل بالفعل

١٧٩ ٤ - العقل المستفاد

١٨٠ الإدراك العقل

١٨١ الدوافع والانفعالات

١٨٣ وحدة النفس الإنسانية

| | |
|-----|--|
| ١٨٤ | الأحلام والرؤى والوحي والنبوة |
| ١٨٥ | نظرية المعرفة |
| ١٨٦ | السعادة |
| ١٨٨ | كيف تعين معرفة النفس على معرفة الله |
| ١٩٠ | تعديل السلوك عند الغزالي |
| ١٩١ | تعريف الخلق |
| ١٩٢ | قبول الأخلاق للتغيير |
| ١٩٣ | أسلوب الغزالي في تعديل السلوك |
| ١٩٥ | علاج الكبر كمتال |
| ١٩٦ | أسلوب الغزالي في علاج الكبر |
| ١٩٩ | بعض آراء الغزالي التربوية : رياضة الصبيان وتأديبهم |

| | |
|-----|-------------------------|
| ٢٠٣ | الفصل التاسع : ابن باجه |
| ٢٠٣ | حياته |
| ٢٠٥ | مؤلفاته |
| ٢٠٦ | النفس وقواها |
| ٢٠٧ | القوة الغاذية |
| ٢٠٨ | القوة النمىة |
| ٢٠٨ | القوة المولدة |
| ٢٠٨ | القوى الحساسة |
| ٢٠٩ | البصر |
| ٢٠٩ | السمع |
| ٢١٠ | الشم |
| ٢١٠ | الدوق |
| ٢١٠ | اللمس |
| ٢١١ | الحس المشترك |
| ٢١١ | القوة المتخيلة |
| ٢١٢ | قوة الذاكرة |
| ٢١٤ | القوة الناطقة |
| ٢١٥ | القوة النزوعية |
| ٢١٦ | نظرية المعرفة |
| ٢١٧ | السعادة |

| | |
|-----|-------------------------|
| ٢١٩ | الفصل العاشر : ابن طفيل |
| ٢١٩ | حجابه |
| ٢٢٠ | مؤلفاته |
| ٢٢١ | ملخص قصة حتى بن يقظان |
| ٢٢٣ | النفس |
| ٢٢٣ | النفس النباتية |
| ٢٢٤ | النفس الحيوانية |
| ٢٢٤ | القوة الحاسة |
| ٢٢٤ | القوة الخيالبه |
| ٢٢٤ | القوة النزوعية |
| ٢٢٥ | النفس الناطقة |
| ٢٢٥ | نظرية المعرفة |
| ٢٢٦ | السعادة |

| | |
|-----|----------------------------|
| ٢٢٩ | الفصل الحادى عشر : ابن رشد |
| ٢٢٩ | حياته |
| ٢٣٠ | عصر ابن رشد |
| ٢٣٢ | مؤلفاته |
| ٢٣٤ | النفس وقواها |
| ٢٣٤ | القوة الغاذية |
| ٢٣٥ | القوة الحساسة (أو الحاسة) |
| ٢٣٦ | الحواس الخمس الظاهرة |
| ٢٣٦ | البصر |
| ٢٣٦ | السمع |
| ٢٣٦ | الشم |
| ٢٣٦ | الدوق |
| ٢٣٧ | اللمس |
| ٢٣٧ | الحس المشترك |
| ٢٣٨ | القوة المتخيلة |
| ٢٣٨ | القوة النزوعية |
| ٢٣٩ | القوة الناطقة |
| ٢٣٩ | العقل العملى |

| | |
|-----|---|
| ٢٤٠ | العقل النظرى |
| ٢٤٠ | المعقولات |
| ٢٤٠ | العقل الحيولانى |
| ٢٤٠ | العقل بالملكة |
| ٢٤١ | العقل الفعّال |
| ٢٤١ | وحدة النفس |
| ٢٤٢ | نظرية المعرفة |
| ٢٤٣ | الفصل الثانى عشر : فخر الدين الرازى |
| ٢٤٣ | حياته |
| ٢٤٥ | مؤلفاته |
| ٢٤٥ | طبيعة النفس |
| ٢٤٦ | قوى النفس |
| ٢٤٦ | القوى النباتية |
| ٢٤٦ | القوى الحيوانية |
| ٢٤٧ | (أ) القوى المحركة |
| ٢٤٧ | (ب) القوى المدركة |
| ٢٤٨ | القوى الإنسانية |
| ٢٤٨ | القوة النظرية |
| ٢٤٨ | ١ - العقل الحيولانى |
| ٢٤٨ | ٢ - العقل بالملكة |
| ٢٤٩ | ٣ - العقل بالفعل |
| ٢٤٩ | ٤ - العقل المستفاد |
| ٢٤٩ | القوة العملية |
| ٢٥٠ | وحدة النفس |
| ٢٥١ | نظرية المعرفة |
| ٢٥٢ | الفروق الفردية فى الصفات الإنسانية |
| ٢٥٣ | أولاً : الفروق الفردية فى الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الناطقة |
| ٢٥٦ | ثانياً : الفروق الفردية فى الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الغضبية القلبية |
| ٢٥٦ | ثالثاً : الفروق فى الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الشهوانية الكبدية |
| ٢٥٧ | اللذة والألم |
| ٢٥٨ | السعادة |

| | |
|-----|--|
| ٢٥٩ | علم الفراسة |
| ٢٦١ | العلامات النفسانية لأمزجة البدن |
| ٢٦١ | العلامات النفسانية لأمزجة الدماغ |
| ٢٦٢ | العلامات النفسانية لشكل الجبهة |
| ٢٦٣ | علاج الأخلاق الذميمة |
| ٢٦٣ | البخل |
| ٢٦٣ | علاج البخل بطريق العلم |
| ٢٦٥ | علاج البخل بطريق العمل |
| ٢٦٧ | الفصل الثالث عشر : ابن تيمية |
| ٢٦٧ | حياته |
| ٢٦٨ | مؤلفاته |
| ٢٦٩ | النفس والروح والعقل |
| ٢٧٢ | قوى النفس وأحوالها |
| ٢٧٢ | حاجات الإنسان ودوافعه |
| ٢٧٣ | الناحية الوجدانية المصاحبة للإدراك |
| ٢٧٤ | انفعال الحب وعلاقته بالدافعية |
| ٢٧٥ | السلوك الظاهر والسلوك المستتر |
| ٢٧٥ | السعادة والأمن النفسى |
| ٢٧٥ | الكمال الإنسانى |
| ٢٧٦ | أمراض القلوب وشفائها |
| ٢٧٧ | نماذج من الأمراض النفسانية وعلاجها |
| ٢٧٧ | الحسد |
| ٢٧٨ | العشق |
| ٢٨١ | الفصل الرابع عشر : ابن قيم الجوزية |
| ٢٨١ | حياته |
| ٢٨٢ | مؤلفاته |
| ٢٨٢ | حقيقة النفس |
| ٢٨٤ | الحواس والإدراك الحسى |
| ٢٨٦ | العقل |
| ٢٨٧ | الحاجات والدوافع |

| | |
|-----|---------------------------|
| ٢٨٨ | الانفعالات والعواطف |
| ٢٨٨ | (أ) الحزن |
| ٢٨٩ | (ب) الخوف |
| ٢٨٩ | (ج) المحبة |
| ٢٩١ | (د) الشوق |
| ٢٩٢ | (هـ) العشق |
| ٢٩٣ | اللذة والألم |
| ٢٩٤ | النمو |
| ٢٩٧ | أمراض القلوب |
| ٢٩٩ | تأديب الأطفال |
| ٣٠٣ | المراجع العربية |
| ٣١١ | المراجع الأجنبية |

الفصل الأول الكندى

١٨٥ هـ (٨٠١ م) - ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م)

حياته

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى . وهو ينسب إلى قبيلة « كندة » من بلاد اليمن . وكان أجداده ملوكًا على كندة ، وكان أبوه إسحق بن الصباح أميرًا على الكوفة في زمن المهدي والرشيد . ويرجح أن الكندى وُلد في الكوفة ، وتاريخ ميلاده غير معروف على وجه الدقة . وفي الغالب إنه ولد حولي ١٨٥ هـ (٨٠١ م) (١).

قضى الكندى طفولته في الكوفة ، وبدأ يتلقى علومه فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، ودرس الأدب وعلوم الفلسفة ، ونبغ في العلوم الفلسفية وألّف فيها كثيرًا من الكتب والرسائل . وكان الكندى كثير الشغف بتحصيل جميع أنواع المعارف التي كان ينقلها المترجمون إلى اللغة العربية في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه حركة الترجمة . وكان الكندى من المناصرين لحركة ترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة العربية ، وكان يشرف على مجموعة من تلاميذه الذين كانوا يقومون بالترجمة ؛ كما كان يقوم بهذيب بعض الترجمات التي قام بها بعض المترجمين .

وقد كان الكندى أول عربي مسلم اشتغل بالفلسفة وأتقن علومها ، ولذلك سُمّي « بفيلسوف العرب » . قال صاعد في طبقات الأمم : « . . لم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفًا غير يعقوب » (٢) . وقال القفطى عنه إنه « فيلسوف العرب » (٣) . كما قال عنه ابن نباتة في شرحه لرسالة ابن زيدون إنه « فيلسوف الإسلام » (٤) .

(١) مصطفى عبد الرزاق : الكندى فيلسوف العرب . في كتاب « خمسة من أعلام الفكر الإسلامى » . بيروت :

دار الكاتب العربى (د . ت) ، ص ١٨ .

(٢) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى . طبقات الأمم . القاهرة : مطبعة السعادة (د . ت) ، ص ٨١ .

(٣) جمال الدين القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء . القاهرة : مكتبة المتنبي (د . ت) ، ص ٢٤٠ .

(٤) مصطفى عبد الرزاق : مرجع سابق ، ص ٤١ .

ويبدو أنه كانت للكندي علاقة بالمعتزلة في ذلك الوقت ، وكانت له علاقة حسنة بقصر الخلافة ، وعمل طبيباً ومنجماً للخليفة في عهد المأمون والمعتمد والواق الذين كانوا يؤيدون مذهب الاعتزال ، ولكنه فقد مكانته في قصر الخلافة حينما عادت الخلافة إلى مذهب أهل السنة في عهد الخليفة المتوكل . وقد عاش الكندي بعد ذلك في بغداد بعيداً عن الأضواء ، ومنعزلاً عن الناس بقية حياته . واختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاته ، ويُرجَّح أنه مات في أواخر سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) .

مؤلفاته

خلف الكندي مؤلفات كثيرة ، معظمها رسائل صغيرة ، اختلف المؤرخون في تحديد عددها . وقد فقد معظمها ولم يبق منها إلا النذر اليسير ، وهو مبثوث بين مكتبات العالم المختلفة . وكان الكندي شديد الذكاء ، واسع الاطلاع ، وكان موسوعياً في تأليفه ، وألف في كثير من أنواع المعارف التي كانت سائدة في عصره . يذكر ابن النديم أن له مائتين وثلاثين رسالة ، ويذكر له القفطي قدر ذلك تقريباً ، ويذكر له ابن أبي أصيبعة أكثر من ذلك (١) . وقد نشر الأب مكارثي (٢) ثبناً لجميع مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمترجمة . وكان من بين ما ألفه الكندي بضعة رسائل في النفس هي : « في القول في النفس » ، و « كلام في النفس » ، و « ماهية النوم والرؤيا » ، و « في العقل » ، و « الحيلة لدفع الأحزان » . وقد نشرت الرسائل الأربع الأولى في كتاب « رسائل الكندي الفلسفية » ، بتحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة (٣) . ونشرت رسالة « في العقل » ورسالة « الحيلة لدفع الأحزان » في كتاب « رسائل فلسفة الكندي والفارابي وابن باجة وابن عربي بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي (٤) . وقد تأثر الكندي في آرائه في النفس بأراء أرسطو وأفلاطون وأفلوطين صاحب كتاب « الربوبية » (أوثولوجيا أرسططاليس) الذي نسب خطأ إلى أرسطو ، مما سبب كثيراً من الבלبلة للكندي ولغيره من الفلاسفة المسلمين ، بسبب ما يوجد من الاختلاف بين آراء أفلوطين في كتاب « الربوبية » ، وبين آراء أرسطو .

-
- (١) محمد عبد الهادي أبو ريذة : رسائل الكندي الفلسفية . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ ، ص ٢٦٩
 - (٢) الأب مكارثي : التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب . بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٢ ، انظر أيضاً : أحمد فؤاد الأهواني : الكندي فيلسوف العرب . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د . ت) ، ص ٧٥-٩٦ .
 - (٣) محمد عبد الهادي أبو ريذة ، المرجع السابق .
 - (٤) عبد الرحمن بدوي : رسائل فلسفة الكندي والفارابي وابن باجة وابن عربي ، ط ٣ . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٣ .

وكان الكندي يقدر أرسطو تقديرًا كبيرًا ، وغنى عناية كبيرة بتلخيص آرائه ، حتى أنه عرف بأنه أول المشائين العرب . ولكن بالرغم من ذلك ، فإننا نلاحظ أنه خالف أرسطو في كثير من المسائل الفلسفية ، وأنه كان أكثر ميلًا إلى أفلاطون وأفلوطين . ويُسجل للكندي أنه بالرغم من تأثره بالفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة ، إلا أنه بقي أمينًا للشريعة الإسلامية . مثال ذلك أنه قال : « إن الحقيقة المنزلة تفوق الحكمة الإنسانية مرتبة » ، كما يفوق الأنبياء الذين ينطقون باسم الله ، والذين هم حلة العلم الإلهي ، سائر البشر » (١) . وقد حاول الكندي إظهار أوجه التقارب بين الفلسفة والدين الإسلامي ، وإبعاد شقة الخلاف بينهما ، على اعتبار أن غاية كل من الفلسفة والدين واحدة ، وهي معرفة الحقيقة ، غير أنها ينهجان في سبيل تحقيق ذلك منهجين مختلفين (٢) .

تعريف النفس

عرف الكندي النفس بأنها « تمامية جرم طبيعي ذي آلة قابل للحياة » أو هي : « استكمال أول لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة » (٣) . وهذا التعريفان هما في الحقيقة تعريف واحد ، لأن « تمامية » تعني « استكمال » أو « كمال » ، و « قابل للحياة » يعني « ذي حياة بالقوة » . وهذا التعريف مأخوذ من أرسطو ، وهو نفس التعريف الذي سنجده فيما بعد عند الفارابي وابن سينا وابن رشد . وقوله إن النفس هي « تمامية » أو « استكمال » يعني أنه بها يكمل الجنس فيصبح نوعًا ، أي أنه بها يكمل الجرم الطبيعي فيصبح إنسانًا ، ويعني « بجرم طبيعي » أنه ليس جرمًا صناعيًا . ومعنى « ذي آلة » أنه يقوم بأفعاله بواسطة آلات هي أعضاء الإنسان المختلفة . ويعني « بقابل للحياة » و « بذي حياة بالقوة » أن فيه استعدادًا للحياة ولقبول قوى النفس .

وإلى جانب هذا التعريف الأرسطي للنفس يذكر الكندي تعريفًا آخر للنفس يظهر فيه تأثير أفلاطون وأفلوطين ، فهو يعرفها بأنها « بسيطة ذات شرف وكمال ، عظيمة الشأن ، جوهرها من

(١) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية . نقله إلى العربية كمال اليازجي . بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٩ .

(٢) جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان : الكندي والفارابي . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨ . انظر أيضًا : هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي ، ومراجعة الإمام موسى الصدر والأخير عارف تامر . بيروت ، المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٨ . انظر أيضًا : أحمد فؤاد الأهواني : الكندي فيلسوف العرب . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤١ .

(٣) الكندي : رسالة حدود الأشياء ورسومها . في « رسائل الكندي الفلسفية » ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ . انظر أيضًا : محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام . الإسكندرية : دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٤ ، ص ٣٣٧ .

جوهر البارى عزّ وجلّ ، كقياس (أى كمثل) ضياء الشمس من الشمس ^(١) . والنفس التى يعرفها الكندى هنا هى ، بالطبع ، النفس الناطقة . ويقول عنها أيضًا : « إن جوهرها جوهر إلهى ربانى ^(٢) » . « . . . هى من نور البارى عزّ وجلّ » ^(٣) . (. . .) إنها جوهر بسيط غير فاني ، هبط من عالم العقل إلى الحس ، ولكنها مزودة بذكرى حياتها السابقة . وهى لا تنظمثن في هذا العالم لأن لها حاجات ومطالب شتى تحول دون إرضائها الحوائل ، فيكون ذلك مصحوبًا بالآلام ^(٤)) والنفس باقية بعد الموت ، وهى تستقل بعد الموت إلى عالم الحق الذى فيه نور البارى سبحانه وتعالى ، وهو مستقرها الأبدى ، وتصبح فيه قريبة الشبه من البارى عزّ وجلّ ، ويصبح في قدرتها أن تعلم سائر الأشياء ، وتعلم كل ظاهر وخفى ، وتقف على كل سر وعلائية ^(٥) ، ويستشهد الكندى في ذلك بالآية الكريمة : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ^(٦) .

ويتضح من ذلك أن الكندى كان أكثر ميلًا إلى مذهب أفلاطون في النفس منه إلى مذهب أرسطو . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى قرب المذهب الأفلاطونى من التعاليم الإسلامية التى تذهب إلى أن روح الإنسان إنما هى نفخة من روح الله تعالى ، والتى تحت على ضبط الإنسان لأهوائه وشهوته لئى ينعم بالسعادة في الدنيا والآخرة ^(٧) . ويلاحظ أيضًا تأثر الكندى بأفلاطون الذى ذهب إلى أن النفس تصدر عن العقل الأول ، الذى يصدر بدوره عن الواحد ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وقد جمع الكندى بين رأى أفلاطون وأفلوطين في قوله في تعريفه للنفس الذى ذكرناه سابقًا إن جوهر النفس « من جوهر البارى عزّ وجلّ كقياس ضياء الشمس من الشمس » ^(٨) .

قوى النفس

نلاحظ في كلام الكندى عن قوى النفس خلطًا بين آراء أرسطو وآراء أفلاطون دون تمييز بين آراء كل منهما . فأفلاطون يقول بتقسيم ثلاثى للنفس إلى ثلاث قوى هى : الشهوانية ، والغضبية ،

(١) الكندى : رسالة « القول في النفس » . في « رسائل الكندى الفلسفية » مرجع سابق ، ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٤) دى بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٨٤ .

(٥) الكندى : رسائل الكندى الفلسفية ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٦) سورة ق : ٢٢ .

(٧) أحمد فؤاد الأهوانى . مرجع سابق ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٨) الكندى : رسالة « القول في النفس » ، في « رسائل الكندى الفلسفية » ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٧٣ .

والعاقلة . ويذهب أفلاطون إلى خلود النفس بعد فناء البدن . أما أرسطو فقال بثلاثة أنواع من الأنفس هي : النفس النباتية ووظيفتها التغذية والنمو والتوليد ، والنفس الحيوانية ووظيفتها الحس والتخيل والحركة بالإضافة إلى وظائف النفس النباتية ، والنفس العاقلة التي تختص بالإنسان . والنفس عند أرسطو ، هي صورة للجسم ، وهي تفتنى بفناء البدن ^(١).

ونرى الكندي يردد تقسيم أفلاطون الثلاثي للنفس إلى قوة غضبية ، وقوة شهوانية ، وقوة عقلية ^(٢). وهو أحياناً أخرى يجمع بين رأيي أفلاطون وأرسطو فيقول : « إن للنفس قوتين متباعدتين هما الحسية والعقلية ، وإن لها قوى أخرى متوسطة بين الحس والعقل هما : المصوّرة والغاذية والنامية والغضبية والشهوانية » ^(٣).

١ - القوى الحاسة :

هي التي تدرك صور المحسوسات الخارجية المتعلقة بهادتها ، وآلات هذه القوى هي أعضاء الحس الخارجية الخمس .

٢ - القوى المتوسطة :

وهي تتكون من عدة قوى ^(٤).

(أ) « القوة المصوّرة » (أى المتخيلة أو فنتاسيا) وهي القوة التي تدرك صور المحسوسات مجردة عن مادتها ، وتستحضرها مع غيبة محسوساتها الخارجية . وهي تستطيع أن تتركب صور المحسوسات بعضها إلى بعض ، سواء في اليقظة أو في المنام أثناء الأحلام ، كأن تكون ، مثلاً ، إنساناً له قرن أو ريش ، أو حيواناً يتكلم ^(٥).

(ب) « القوة الحافظة » وهي القوة التي تحفظ صور المحسوسات التي تؤديها إليها القوة المصوّرة .

(جـ) « القوة الغضبية » وهي التي تدفع الإنسان إلى الغلبة لدفع ما يؤذيه ، وللدفاع عن النفس .

(١) أحمد فؤاد الأهواني : مرجع سابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، مرجع سابق ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ؛ محمد علي أبو ريّان : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٤) محمد علي أبو ريّان : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٥) الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، مرجع سابق ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

- (د) « القوة الشهوانية » وهى التى تدفع الإنسان إلى نيل ما يشتهيه .
 (هـ) « القوة الغذائية » وهى التى بها يتم تحصيل الغذاء وتمثيله فى الجسم .
 (و) « القوة النمىة (أو النامية) » وهى التى تقوم بوظيفة النمو .
 . ويذهب الكندى إلى أن مركز جميع هذه القوى النفسانية فى الدماغ (المخ) ^(١) ، خلافاً لما ذهب إليه أرسطو الذى جعل مركز القوى الحسية فى القلب . ويبدو أن الكندى قد اطلع على كتب بعض الأطباء الذى جاءوا بعد أرسطو ، وبخاصة جالينوس .

٣- القوة العاقلة :

وهى القوة التى تدرك المعقولات المجردة ، وسوف نتكلم عنها فى شىء من التفصيل فيما يلى عندما نتكلم عن نظرية العقل عند الكندى .

العقل

العقل أو القوة العاقلة تدرك الصور المعقولة المجردة من المادة ، أى تدرك الكلبيات ، مثل الأنواع والأجناس . وقد تناول الكندى موضوع العقل ومراحل عملية الإدراك العقلى فى رسالته المشهورة « فى العقل » التى لخص فيها آراء أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والأسكندر الأفروديسى . إلا أننا نلاحظ فى كلام الكندى فى العقل اختلافاً عن آراء أرسطو . فقد قال أرسطو بثلاثة أنواع للعقل ، بينما قال الكندى بأربعة ، فقد أضاف عقلاً رابعاً هو العقل الظاهر الذى لا يوجد عند أرسطو . ويبدو أن هذا العقل من ابتكار الكندى . ولقد كانت لرسالة الكندى « فى العقل » ، على قصرها وإيجازها أهمية كبيرة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ، واحتلت مكاناً عظيماً عند الفلاسفة المسلمين الذين جاءوا بعده كالفارابى وابن سينا وابن رشد . وكانت لها أهمية كبيرة أيضاً فى المناقشات الطويلة التى دارت بين فلاسفة القرون الوسطى المسيحية حول طبيعة العقل ^(٢) .

يميز الكندى بين أربعة وجوه للعقل ، هى ليست فى الحقيقة سوى المراحل التى تمر بها عملية إدراك المعقولات . وهذه الوجوه ، أو هذه المراحل هى :

١ - العقل الذى هو بالفعل دائماً ، وهو علة جميع العقول والمعقولات . وقد اختلف المؤرخون

(١) محمد على أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٢) تُرجمت رسالة الكندى « فى العقل » إلى اللغة اللاتينية مرتين ، إحداهما قام بها جيرارد الكريمونى ، والثانية من المرجح أنه قام بها يوحنا الألبانى (انظر محمد عبد الهادى أبو ريده : رسائل الكندى الفلسفية ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

والباحثون في تعريف هذا العقل ، فبعضهم قال إنه عقل مفارق للنفس ، وهو الله تعالى ، أو العقل الأول المخلوق ^(١) . وقال بعضهم الآخر إنه في النفس ، وليس مفارقاً ، وهو ليس سوى الكليات في النفس ^(٢) . فالذي يخرج العقل الذي هو بالقوة إلى الفعل هو المعقولات المجردة - أي الكليات - نفسها ، وليس عقلاً خارجياً مفارقاً . ويقول الكندي في كتاب الفلسفة الأولى : « . . . والذي أخرج النفس التي هي عاقلة بالقوة إلى أن صارت عاقلة بالفعل ، أعنى متحدة بها أنواع الأشياء وأجناسها - أعنى كلياتها - هي الكليات أعيانها ، فإنها باتحادها بالنفس صارت النفس عاقلة ، أي لها عقل ، أي بها كليات الأشياء . فالكليات الأشياء إذ هي في النفس خارجة من القوة إلى الفعل ، هي عقل النفس المستفاد الذي كان لها بالقوة ، فهي العقل الذي بالفعل الذي أخرج النفس من القوة إلى الفعل . . . » ^(٣) ويبدو من كلام الكندي السابق أن العقل الذي هو بالفعل دائماً ليس عقلاً خارجياً مفارقاً ، هو الله أو العقل المخلوق الأول كما ذهب دي بور ، وإنما هو ليس سوى المعقولات المجردة في النفس .

٢ - العقل بالقوة ، وهو عبارة عن الاستعداد الموجود في الإنسان لإدراك المعقولات .

٣ - العقل الذي خرج في النفس من القوة إلى الفعل . فعندما تدرك النفس المعقولات المجردة - الكليات - فإنها تتحد بها ، وتصبح المعقولات والعقل شيئاً واحداً . وعند ذلك يتحول العقل من القوة إلى الفعل . وعندما يتم إدراك المعقولات ، فإن النفس تصبح بعد ذلك قادرة على استدعائها متى شاءت ، كقوة الكتابة في الكاتب ، فإنه يستطيع أن يكتب متى شاء ، ولذلك يسمى هذا العقل أيضاً بالملكة ، وهو يسمى أيضاً « بالمستفاد » ، بمعنى أنه لم يكن للنفس ثم صار لها .

٤ - العقل الظاهر . فإذا كان العقل مستغرقاً في إدراك المعقولات ، أو كان يقوم بأدائها إلى الغير ، فإنه يسمى حينئذ العقل الظاهر ، بمعنى أن إدراكه يصبح ظاهراً بذاته من جهة ، وظاهراً للملأ من جهة أخرى ^(٤) .

ويتضح لنا فيما بعد أن العقل في رأى الكندي « عقل واحد يوجد في النفس بالقوة ويخرج إلى الفعل تحت تأثير المعقولات أنفسها . وكان الإسكندر قد أشار إلى أن العقل الفعال هو الذي يخرج

(١) دي بور : مرجع سابق ، ص ١٨٥ ؛ انظر أيضاً رأى جيلسون الذي ناقشه محمد عبد الهادي أبو ريدة في «رسائل الكندي الفلسفية» ، مرجع سابق ، ص ٣١٤-٣٤٧ .

(٢) محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٤٠ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ ؛ ماجد فخري : فيلسوفان رائدان ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٣) الكندي : كتاب الفلسفة الأولى ، في كتاب «رسائل الكندي الفلسفية» ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٤) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

العقل من القوة إلى الفعل ، وتبعه في ذلك الفارابي والإسلاميون . أما أفلاطون فإنه يجعل من التذكر وسيلة لإدراك المعقولات . والكندی ، إذن ، يرى أن المعقولات هي التي تخرج العقل بالقوة من وضعه على هذا النحو ، وتجعل منه عقلاً بالفعل . وهذا العقل بالفعل يكون عند استعماله ما يسمى بالعقل الظاهر ، ويعتبر عند وجوده في النفس قُتْبَةً ، أو ملكة ، أو ما يسمى بالفعل المستفاد^(١) .

نظرية المعرفة

يذهب الكندی إلى أن المعرفة على نوعين : حسية وعقلية . والمعرفة الحسية تقف عند ظواهر الأشياء فقط ، وهي توجد لدى الحيوان والإنسان ، أما المعرفة العقلية فتفتد إلى حقائق الأشياء ، وهي خاصة بالإنسان وحده . ويرى الكندی أن انشغال الإنسان بالأمور الشهوانية والغضبية ، والتمتع بملذات الحياة الدنيوية ، إنما يعوق النفس عن بلوغ المعرفة الحقيقية ، التي لا يمكن أن يحصلها الإنسان إلا بالتجرد من شهواته وملذاته الدنيوية . يقول الكندی عن النفس أَلَنَاطَقَةُ : « . . . جوهرها كجوهري الباري عزّ وعلا ، في قوتها - إذا تجردت - أن نعلم ساير الأشياء ، كما يعلم الباري بها ، أو دون ذلك برتبة يسيرة ، لأنها أودعت من نور الباري جَلَّ وعزَّ »^(٢) .

ولا يكفي التجرد من شهوات وملذات الحياة الدنيوية للحصول على المعرفة الحقيقية ، بل لابد أيضاً من النظر في حقائق الأشياء والبحث فيها ، إذ أن ذلك يؤدي إلى تطهير النفس وصقلها ، فيظهر لها حيثنّ حقائق الأشياء كلها ، كما تظهر صور الأشياء في المرآة . يقول الكندی حاكِياً عن فيثاغورس : « . . . إن النفس ، إذا كانت وهي مرتبطة بالبدن ، تاركة الشهوات ، متطهرة من الأذناس ، كثيرة البحث والنظر في معرفة حقائق الأشياء ، انصقلت صقالة ظاهرة ، واتحد بها صورة من نور الباري ، يحدث فيها ويكامل نور الباري ، بسبب ذلك الصقال الذي اكتسبه من التطهر ، فحيثنّ يظهر فيها صور الأشياء كلها ومعرفتها ، كما تظهر صور خيالات ساير الأشياء المحسوسة في المرآة إذا كانت صقيلة . . . »^(٣) ويقول الكندی أيضاً : « . . . فإن الإنسان إذا تطهر من الأذناس ، صارت نفسه حيثنّ صقيلة تصلح وتقدر أن تعلم الخفيات من الغيوب »^(٤) .

فالمعرفة بحقائق الأشياء ، إذن ، لا تكتسب في رأى الكندی عن طريق الحواس ، وإنما هي

(١) محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٤٠ .

(٢) الكندی : « رسالة القول في النفس » ، في « رسائل الكندی الفلسفية » ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٦ ؛ انظر أيضاً : أحمد فؤاد الأهواني ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٤) الكندی : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

تكتسب عن طريق الفيض من الله سبحانه وتعالى . والسبيل إلى ذلك هو تطهير النفس من شوائب الحياة المادية ، وندس الشهوات الدنيوية ، والانشغال بالنظر في حقائق الأسماء والبحث ، حتى تصبح مستعدة لقبول فيض المعرفة من الباري عز وجل . وهكذا نجد عند الكندي أساس فكرة الكشف التي قال به المتصوفون فيما بعد . ويلاحظ تأثر الكندي الواضح بنظرية الفيض في مذهب الأفلاطونية الحديثة .

النوم والرؤيا

(أ) النوم

يتناول الكندي موضوع النوم والرؤيا في رسالته الهامة التي عنوانها « في ماهية النوم والرؤيا » . وهو يعرف النوم بأنه « ترك استعمال النفس للحواس جميعاً . فإننا إذا لم ننظر ، ولم نسمع ، ولم نلذ ، ولم نشم ، ولم نلمس ، من غير مرض عارض ، ونحن على طباعنا ، فنحن نيام » (١) . فإذا امتنع الإنسان عن استخدام حواسه ، وامتنع عن الحركة ، وأظلم المكان الذي حوله ، وأبعد عنه الأصوات ، فإنه سوف ينتهي به الأمر إلى أن ينام . ويقول الكندي أيضاً إنه إذا استغرق الإنسان في الفكر ، وسكنت أعضاؤه ، ولم يستخدم حواسه إطلاقاً ، أدى به ذلك أيضاً إلى النوم (٢) . إن النوم عند الكندي عبارة عن تفكير عميق لا يستخدم النفس فيه الحواس الخارجية . « فالنفس الإنسانية لا تنام البتة ، إنما هي دائماً علامة يقظة » (٣) . ويقول الكندي أيضاً إن النوم يحدث أيضاً إذا خرج الدماغ (المخ) - وهو عند الكندي مركز الإحساسات جميعاً ، وتنبعث منه جميع الأعصاب الحسية - عن حالة اعتداله وتبنيه للحركة الحسية بسبب ما يعترضه من برودة ورطوبة ، فيؤديان إلى فتور المخ مما يجعل من الصعب استخدام الحواس (٤) .

وللنوم فائدة كبيرة للإنسان والحيوان ، فإنه يؤدي إلى « سكون الأعضاء عن الحركة ، وتفرغ الآلة الهاضمة للهضم ، وإفادة البدن من الغذاء خلفاً من كل ما سال وتحمل منه بالتعب » (٥) .

(ب) الرؤيا

يعرف الكندي الرؤيا بأنها « استعمال النفس الفكر ، ورفع استعمال الحواس من جهتها » (٦) . ويُرجع الكندي الرؤيا إلى عمل « القوة المصورة » - أو قوة التخيل - وهي القوة التي تدرك صور

(١) الكندي : في ماهية النوم والرؤيا . في كتاب « رسائل الكندي الفلسفية » مرجع سابق ، ص ٢٩٤ ، ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٦ . (٣) أحمد فؤاد الأهولي : مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) الكندي : في ماهية النوم والرؤيا ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ . (٦) المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .

المحسوسات مجردة عن مادتها ، وهى تؤدى عملها فى حالة النوم واليقظة معاً . فكل ما يقع عليه الفكر أثناء اليقظة ، تنطبق صورته فى القوة المصورة . وعلى قدر استغراق الإنسان فى الفكر وتركه استعمال الحواس ، تكون تلك الصور أظهر ، حتى كأنه يشاهدها بحسه ^(١) . فإذا استغرق الإنسان فى النوم ، وتوقف استعماله للحواس ، فكل ما يقع عليه الفكر أثناء النوم ، فإن صورته الحسية تنطبق فى القوة المصورة ، وتكون هذه الصورة الحسية أظهر فعلاً وأقوى منها فى اليقظة ، وتنشأ عنها الأحلام والرؤى ^(٢) .

ويتكلم الكندى عن أربعة أنواع من الرؤى ، ويفسر أسباب حدوث كل منها . وهذه الأنواع هى : الرؤيا التنبئية وهى التى يرى فيها الإنسان أشياء قبل حدوثها ؛ والرؤيا الرمزية التى يرى فيها الإنسان أشياء تدل على أشياء أخرى ، أى ترمز على أشياء أخرى ؛ والرؤيا التى تدل الأشياء فيها على أضدادها ؛ والرؤيا التى لا يصدق شئ مما يراه النام فيها ^(٣) .

ويرجع الكندى اختلاف أنواع الرؤى إلى اختلاف مقدار تهيؤ القوة المصورة لقبول الصور الحسية التى تمثل معارف النفس . فالنفس علامة يقظة حية ، وإن جميع الأشياء الحسية والعقلية موجودة فيها . ويتضح من ذلك تأثر الكندى بالمذهب الأفلاطونى القائل بوجود جميع المعارف الحسية والعقلية فى النفس . ويذهب الكندى إلى أنه إذا كانت القوة المصورة تامة التهيؤ لقبول تلك المعارف الموجودة فى النفس ، فإن الرؤيا تكون منبئة عن الأشياء قبل وقوعها . أما إذا كانت القوة المصورة أقل تهيؤاً لقبول الصور الحسية التى تمثل معارف النفس ، فإن النفس عندئذ تحتال بأن تنبئ عن الشئ برمزه ، فتنبئ عن السفر ، مثلاً ، بانتقال الإنسان ، على وسيلة من وسائل الانتقال ، من مكان إلى مكان . أما إذا كانت القوة المصورة أضعف من أن تقبل الرمز الصادق ، مثل الرمز المذكور سابقاً ، كانت الرؤيا تدل على شئ ضد ما يرى النائم ، كأن يرى إنساناً مات ، وهو طويل العمر ، أو إنساناً افتقر فكثير ماله . أما إذا كانت القوة المصورة لا تقبل شيئاً مما تقدم ، كانت الرؤيا غير منظمة وتخليطاً غامضاً ، وهى المسماة أضغاث أحلام ، وهى الرؤيا التى لا يصدق شئ منها ^(٤) .

علاج الحزن

وللكندى رسالة فى علاج الحزن بعنوان « فى الحيلة لدفع الأحزان » ، يعرّف منها الحزن ، ويبين أسبابه ، ويذكر بعض الأساليب للتغلب عليه . يعرّف الكندى الحزن بأنه « ألم نفسانى يعرض

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠١-٣٠٦ .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠١-٣٠٦ .

لفقد المحبوبات ، وفوت المطلوبات »^(١) . فالإنسان الذى يجعل محبوباته ومطلوباته من الأشياء الحسية الموجودة فى العالم الحسى ، يكون عرضة للشعور بالآلم الحزن ؛ لأن المحبوبات والمطلوبات الحسية عرضة للفساد والزوال ، فيحزن الإنسان لفسادها ولزوالها . أما المحبوبات والمطلوبات العقلية فدائمة وثابتة ، لا تتعرض لفقد أو فوات . ولذلك فإن من يريد أن يكون سعيداً ، وأن يقى نفسه من آلام الحزن ، فينبغى عليه أن يجعل محبوباته ومطلوباته فى العالم العقل ، لا العالم الحسى . يقول الكندى : « فإن أحببتنا أن لا نفقد محبوباتنا ، ولا تفوتنا طلباتنا ، فينبغى أن نشاهد العالم العقلى ، وتصير محبوباتنا وقنياتنا (أى ممتلكاتنا) وإرادتنا منه . فإننا إذا فعلنا ذلك أمنا أن يقصينا قنيتنا أحد ، أو يملكها علينا يد ، وأن نعدم ما أحببنا منها ، إذ لا تلتاها الآفات ، ولا يلحقها الممات ، ولا تفوتنا الطلبة »^(٢) .

والإنسان معرض دائماً لأن يفقد محبوباته ، ويفوته مطلوب . فإذا حزن لكل محبوب يفقد ، ولكل مطلوب يفوته ، فإنه سوف يكون دائم الحزن . « فينبغى إذن أن لا نحزن على الفاتنات ، ولا فقد المحبوبات ، وأن نجعل أنفسنا ، بالعادة الجميلة ، راضية بكل حال ، لنكون مسرورين أبداً »^(٣) .

ولما كان الحزن من آلام النفس ، فمن الواجب علينا أن نعى بدفع هذه الآلام النفسانية مثلما نعى بدفع آلام أجسامنا . يقول الكندى : « فإصلاح النفس وإشقاؤها من أسقامها أوجب شديداً (أى كثيراً) علينا من إصلاح أجسامنا ، فإننا بأنفسنا نحر ، ما نحتر ، لا بأجسامنا . . وأجسامنا آلات لأنفسنا تظهر بها أفعالها . فإصلاح ذواتنا أولى بنا شديداً من إصلاح آلاتنا »^(٤) . وينصح الكندى أن يتم إصلاح النفس وعلاجها من آلام الحزن على التدرج ، بأن نلزم أنفسنا بالقيام بالعادة المحمودة فى الأمور السهلة أولاً^(٥) ، ثم نتدرج بها إلى الالتزام بالعادة المحمودة فى الأمور الصعبة ، ثم نرقى بها بعد ذلك إلى الأمور الأصعب . ويستمر هذا التدرج حتى نصل إلى الأمور التى هى غاية فى الصعوبة . يقول الكندى فى هذا الصدد : « فينبغى أن نحتمل فى إصلاح أنفسنا من بشاعة العلاج وصعوبته واحتمال المون فيه أضعاف ما نحتمل من ذلك فى إصلاح أجسامنا ، مع أن إصلاح أنفسنا أقل بشاعة وأخف مؤونة كثيراً مما يلحق فى ذلك من إصلاح

(١) الكندى : « فى الحيلة لدفع الحزن » . فى كتاب « رسائل فلسفية » ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧ . (٣) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١ .

(٥) يقصد أنه يجب أن نلزم أنفسنا بالرضا وعدم الحزن على ما فقدناه أو ما فاتنا من صفات الأشياء المحبوبة أو المطلوبة .

الأجسام ؛ لأن إصلاح أنفسنا إنما هو بقوة العزم على المصلح لنا ، لا بدواء مشروب ، ولا بآلم حديد ولا نار ، ولا بإفناق مال ، بل بالتزام النفس العادة المحمودة في الأمر الأصغر الذي لزومه سهل علينا ، ثم نرتفع من ذلك إلى لزوم ما هو أكبر منه . فإذا اعتادت ذلك نرقى بها إلى ما هو أكبر من ذلك في درج متصلة حتى نلزمها العادة في لزوم الأمر الأعظم كلزوم العادة لها في لزوم الأمر الأصغر ، فإن العادة تسهل بها وصفنا ، ويسهل بذلك الصبر على الفانيات والسلوة على المفقودات » (١).

ويسبق الكندي بهذا الرأي علماء النفس المحدثين في القول بمبدأ هام من مبادئ التعلم ، وهو مبدأ التدرج في تعلم العادات الصعبة . وقد استخدم هذا المبدأ بعض المعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين في التخلص من العادات السيئة ، وفي علاج القلق (٢).

ولاشك أن الكندي ، وغيره من العلماء المسلمين الآخرين الذين قالوا بمبدأ التدرج في التعلم ، إنما تعلموا هذا المبدأ من القرآن الكريم الذي استخدمه استخداماً فعالاً في التخلص من بعض العادات السيئة القوية التي كانت شائعة بين العرب ، مثل شرب الخمر ، والربا ، وقد تناولنا ذلك في شيء من التفصيل في موضع آخر (٣).

ومن الأساليب التي يذكرها الكندي للتخلص من الحزن ، أن نفكر في الحزن ونقسمه إلى نوعين : نوع يحدث نتيجة فعل نقوم به ، ونوع آخر يحدث نتيجة فعل يقوم به غيرنا . فأما الحزن الذي يحدث نتيجة فعلنا ، فيمكن التخلص منه بتجنب القيام بهذا الفعل . وأما ما يحدث بسبب فعل غيرنا ، فينبغي علينا أن لا نحزن قبل حدوث هذا الفعل . فإذا وقع هذا الفعل وأدى إلى حزننا ، فمن الواجب علينا « أن نجتهد في الحيلة للتلفظ لتقصير مدة الحزن . فإنا إن قصرنا في ذلك كنا مقصرين في مهمة دفع البلاء الذي يمكننا دفعه » (٤).

ومن الأساليب التي يقول بها الكندي لدفع الحزن ، أن نتذكر الأمور التي سببت الحزن لنا ولغيرنا في الماضي ، وما آلت إليه من السلوة ، فإن ذلك يمدنا بقوة عظيمة على السلوة عما يميزنا في الوقت الحاضر (٥).

(١) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) سارنوف أ. مندليك ، هوارد ر. بوليو ، واليرابث ف. لوقس : التعلم ، ط ٣ . ترجمة محمد عباد الدين إسمايل ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت . دار الشروق ، ١٩٨٨ ، ص ٢١-٢٢ . جوليان روتر : علم النفس الإكلينيكي ، ط ٣ . ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(٣) محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس ، ط ٤ . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ١٧٣-١٨٠ .

(٤) الكندي : الحيلة في دفع الأخران ، ص ١٣-١٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٤-١٥ .

ويذهب الكندي إلى أن جميع الأشياء الدنيوية التي يمكن لكل الناس الوصول إليها ، أو الحصول عليها ، فإننا نحن لسنا بأحق بها من غيرنا ، وإنما يحصل عليها من سبق إليها وغلب غيره في الحصول إليها . وأما الأشياء التي لنا وحدنا ، ولا يشاركنا فيها أحد ، ولا يملكها غيرنا ، فهو ما نمتلكه من الخبرات النفسانية . « فهذه هي التي لنا العذر في الحزن عليها إن فقدناها من أنفسنا . فإما ما ليس لنا إلا بالتغلب فليس يحسن بنا الحزن عليه ، لأن من حزن على أن لا يملك الناس ما لهم أن يملكوه بالطبع - (فهو) حسود . فينبغي لنا أن لا نقر أنفسنا بالحسد ، إذ هو أكمل الشرارات . » (١) .

وينبغي أن نتذكر أن كل ما نمتلكه إنما هو عارية لمعير ، هو الله جلّ ثناؤه ، وهو يمكن أن يسترد عاريته متى شاء ، وينبغي أن لا نحزن إذا استرد المعير عاريته منا . وينبغي أن لا نأسى على فقد ما أُرُتِجِع منا ، بل يجب أن نفرح لأن الله تعالى لم يسترد منا أنفس ما أعازنا ، وهو خيرتنا النفسانية ، بل استرد الأقل الأخس ، وهو ما نمتلكه من الأمور الدنيوية الفانية الخارجة عنا (٢) .

ويقول الكندي : إن الإنسان ، من دون سائر الكائنات الحية ، يريد افتناء أشياء كثيرة ليست ضرورية في إقامة ذاته وصلاح عيشه . وإن جميع هذه الأشياء تسبب له الهم في طلبها ، والألم في فقدانها ، والحسرات لفواتها . « فإن مع كل مفقود من المراتب مصيبة ، ومع كل فائت حسرة وأسف ، ومع تقرب كل معدوم حزن وقلق . » (٣) .

ونستطيع أن نلمس من النصائح والأساليب السابقة التي ذكرها الكندي من أجل التغلب على الحزن أنه كان كثير الدقة في تحليل حالة الحزن ، وكثير الفطنة في معرفة أسبابها ، وكثير الحكمة في اختيار الأساليب الفعالة في التغلب على الحزن ، أو في تخفيف شدته .

ويلاحظ أن الأسلوب الذي اتبعه الكندي في علاج الحزن هو التعريف بأسبابه ، وبيان أنها ليست في الحقيقة أسباباً جذرية بأن تسبب الحزن ، ولذلك فلا ينبغي على الإنسان أن يحزن بسببها . فالكندي ، إذن ، يعتمد في علاج الحزن على توعية الناس وتعريفهم وتعليمهم بحقيقة أسباب الحزن ، وتزويدهم بالمعرفة التي تساعد على التخلص منه ، أو على الأقل تخفيف حدته . ولذلك فإن الكندي يمكن اعتباره بحق رائداً للعلاج النفساني السلوكي المعرفي الحديث .

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

السعادة

تبين لنا مما قلناه سابقاً عن علاج الحزن عند الكندي ، أن السعادة في نظر الكندي ليست في الحصول على المحبوبات والمطلوبات الحسية الدنيوية الزائلة ، وإنما هي في الحصول على المحبوبات والمطلوبات العقلية ، في البحث والتفكير والتميز ومعرفة حقائق الأشياء . فليست اللذة الحقيقية للإنسان هي اللذات الحسية الدنيوية الزائلة ، وإنما هي اللذات الإلهية الروحانية التي تحصل للإنسان إذا ما تطهر من دنس الشهوات والملذات الحسية ، واقترب من الله سبحانه وتعالى ، فأفاض عليه الله تعالى من نوره ورحمته ، فيشعر حينئذٍ بلذة دائمة فوق كل لذة حسية يمكن أن يحصل عليها من ملذات الحياة الدنيوية . يقول الكندي : « وإذا بلغت هذه الأنفس مبلغها في الطهارة ، رأت في النوم عجائب من الأحلام ، وخاطبتها الأنفس التي قد فارقت الأبدان ، وأفاض عليها الباري من نوره ورحمته ، فتلتذذ حينئذٍ بلذة دائمة فوق كل لذة تكون بالمطعم والمشرب والنكاح والسباع والنظر والشم واللمس ؛ لأن هذه لذات حسية دنسة ، تُعقب الأذى ، وتلك لذة إلهية روحانية ملكوتية تُعقب الشرف الأعظم . والشقى المغرور الجاهل من رضى لنفسه بلذات الحس وكانت هي أكثر أغراضه ، ومنتهى غايته » ^(١) . ونلمس في كلام الكندي السابق نزعة صوفية امتزجت فيها آراء فيثاغورس بالعقيدة الإسلامية .

(١) الكندي : « القول في النفس » ، مرجع سابق ، ص ٢٧٧ .

الفصل الثاني

أبو بكر الرازي

٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) - ٣١٣ هـ (٩٢٥ م)

حياته

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، الطبيب الذائع الصيت ، وأعظم طبيب في الإسلام وفي العصور الوسطى في الشرق والغرب معاً ، وأول طبيب استخدم الكيمياء في العلاج^(١) . ولد في مدينة الريّ ، جنوب طهران ، نحو سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، وفيها نشأ وتعلم . وسافر إلى بغداد وله من العمر نيف وثلاثون سنة ، وأقام بها مدة . وكان من صغره شغوفاً بالعلوم العقلية ، مشغولاً بها وبالأدب ، والشعر ، وعُني في أول أمره بعلم السمياء والكيمياء ، وله مؤلفات في ذلك ، وتعلّم صناعة الطب على كبر ، وكان معلمه له عليّ بن ربن الطبري^(٢) . قال عنه القفطى وصاعد : إنه « طبيب المسلمين غير مدافع ، وأحد المشهورين في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة . وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ، ثم ترك ذلك وأقبل على تعلّم الفلسفة ، فنال منها كثيراً ، وألف كتباً كثيرة . . أكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الطبيعية والإلهية ، إلا أنه توغل في العلم الإلهي ، وما فهم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه ، وتقلّد آراء سخيفة ، وانتحل مذاهب سخيفة ، وذمّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدى بسبيلهم »^(٣) وذكر ابن خلكان عنه أنه « كان إمام وقته في علم الطب والمشار إليه في ذلك العصر ، وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً فيها ، عارفاً بأوضاعها وقوانينها ، تُشدُّ إليه الرحال في أخذها عنه ، وصنّف فيها الكتب النافعة »^(٤) . وذكر ابن جلجل في « تاريخ الأطباء » أنه أشرف على بيارستان الريّ ، ثم بيارستان بغداد^(٥) .

(١) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي ، ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ، ص ٣١٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : حيون الأبناء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، (د . ت) ، ص ٤١٤ ، ٤١٩ .

(٣) القفطى ، ص ١٧٨ ؛ صاعد ، ص ٨٣ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان . بيروت : دار الثقافة (د . ت) ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٥٧ ، القفطى ، ص ١٧٨ .

كان الرازي ذكياً ، كثير القراءة والإطلاع على كتب العلماء في كثير من العلوم ، وكان مواظباً للنظر في غوامض الطب وكشف أسرارها ، وكان كثير الرأفة بالفقراء والمرضى ، يحسن إليهم ويقوم بتمريضهم . وكان يحسن معاملة مرضاه ، وكان يهتم بالعامل النفساني في علاجه ، فكان يشجع مرضاه ويبعث فيهم الأمل في الشفاء ، وكان يرى أن الطبيب يجب أن يكون طبيباً للروح والجسد معاً . وعُني الرازي بالموسيقى واهتم بأثرها في العلاج ، وقد سبق بذلك علم الطب الحديث في القرن العشرين^(١).

واهتم الرازي بالتجربة ، وذهب إلى أن النتائج العلمية التي نصل إليها على أساس تجارب القرون أفضل من تلك التي تقوم على أساس تجارب فرد واحد ، ومن تلك التي تقوم على الاستدلالات المنطقية . واهتم بإجراء التجارب في الكيمياء ، واستخلص نوعاً من الكيمياء تختلف عن كيمياء جابر بن حيان ، كما أجرى تجارب طبية وتشريحية على الحيوان^(٢).

وقد عُني الرازي في آخر حياته ، واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته ، فقال صاعد^(٣) إنه توفي في سنة ٣٢٠ هـ ، وقال ابن خلكان^(٤) إنه توفي في سنة ٣٢١ هـ (٩٢٤ م) ، وذكر القفطي^(٥) أن ابن شيراز ذكر في تاريخه أنه توفي في سنة ٣٦٤ هـ . وقد نشر روسكا Ruska أخيراً مقالاً عن البروني ، ترجم فيه فقرات من « فهرست كتاب الرازي » الذي وضعه البروني ، وقد تعيّن منه في وفاة الرازي في سنة ٣١٣ هـ (٩١٥ م)^(٦).

ويبدو من آراء الرازي الفلسفية ، ومن عناوين بعض مؤلفاته ، وما ذكره في كتاب « الطب الروحاني » من استحسان لأراء أفلاطون في النفس ، تأثره الواضح بالأفلاطونية^(٧).

مؤلفاته

للرازي مؤلفات كثيرة ذكر ابن أبي أصيبعة منها ٢٣٢ كتاباً ورسالة ، أغلبها في الطب ، وبعضها في المنطق ، والطبيعات ، وما وراء الطبيعة ، والإنقياس ، وعلم النفس ، والبصريات ،

(١) عبد اللطيف العبد : مقدمة كتاب « الطب الروحاني لأبي بكر الرازي » . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م ، ص ٢١ .

(٢) عبد اللطيف العبد ، مرجع سابق ، ص ١٤ - ١٥ . (٣) صاعد ، ص ٨٣ .

(٤) ابن خلكان ، ج ٥ ، ص ١٥٩ . (٥) القفطي ، ص ١٧٨ .

(٦) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : رسائل فلسفية ، ط ٢ . بيروت : دار الأفاق الجديدة ، ١٩٧٧ ، مقدمة الناشر ، ص د ، انظر أيضاً : الطب الروحاني لأبي بكر الرازي ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف العبد . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٨ .

(٧) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

والكيمياء ، وعلم الهيئة ، والهندسة . ويذكر ابن أبي أصيبعة كتباً له تتعلق بعلم النفس هي : « كتاب كبير في النفس » ، و « كتاب صغير في النفس » ، و « كتاب في النفس ليست بجسم » ، و « كتاب في النفس المغترية » ، و « كتاب في النفس الكبيرة » ، و « كتاب في الفرق بين الرؤيا المنذرة وبين سائر ضروب الرؤيا » ، و « كتاب كيفية الإبصار وأنه لا يكون بشعاع يخرج من العين » ، و « كتاب في المحبة » و « كتاب في الأوهام والحركات النفسانية »^(١) . وهذه الكتب لم تصلنا ، ووصلنا فقط من كتبه التي تتعلق بعلم النفس كتاب « الطب الروحاني » ، وهو يتعلق بتعديل السلوك والعلاج النفساني ، ومتنخبات من كتاب « اللذة » المفقود ، وهي تتعلق بعلم النفس الفسيولوجي . وفيها يلي بيان بها وصلنا من كتبه في علم النفس .

١ - الطب الروحاني ، منشور ضمن كتاب « رسائل فلسفية » ، لأبي بكر الرازي ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٧ . (حقق هذه الرسائل بول كراوس ، ونشرها بالقاهرة عام ١٩٣٩ م ، غير أن الناشر البيروتي لم يذكر اسم بول كراوس في طبعته) .

ولهذا الكتاب أيضاً طبعة أخرى بتحقيق وتقديم عبد اللطيف العبد ، نشرتها مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة عام ١٩٧٨ م .

وقد ذكر الرازي في مقدمة كتابه « الطب الروحاني » أن غرضه في تأليف هذا الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس ، وأنه أراد له أن يكون قريناً وعديلاً لكتابه « المنصوري » الذي غرضه الطب الجسدي ، وبذلك يكون قد شمل بهذين الكتابين معاً طب الجسد والنفس معاً . . (٢) وقد تناول الرازي في فصول الكتاب العشرين كثيراً من الموضوعات التي تتعلق بالأخلاق السيئة والأمراض النفسانية ، وسبل علاجها .

وقام حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرمانى (المتوفى في سنة ٤١١ هـ - بالقاهرة) في كتابه بعنوان « الأقوال الذهبية في الطب النفساني » بالرد على كتاب الطب الروحاني للرازي محاولاً نقض آرائه فيه . وقام بنشر هذا الكتاب عبد اللطيف العبد ملحقاً بكتاب « الطب الروحاني » للرازي (٣) .

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٢١ - ٤٢٧ ؛ القفطى ، ص ١٧٩ - ١٨٢ ؛ التديم ، الفهرست ، ط ٣ . تحقيق رضا . بيروت : دار المسيرة ، ١٩٨٨ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني . ضمن كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، طبعة بيروت المذكورة سابقاً ، ص ١٥ . وسيكون رجوعنا دائماً مما يلي إلى هذه الطبعة :

(٣) الطب الروحاني لأبي بكر الرازي ، تحقيق عبد اللطيف العبد ، مرجع سابق .

٢ - كتاب اللذة . منتخبات من هذا الكتاب منشورة في كتاب « رسائل فلسفية لأبي بكر الرازي ، وهو الكتاب المذكور سابقاً .

وكتاب الرازي في اللذة لم يصلنا ، ولكن وصلتنا منتخبات منه مترجمة إلى اللغة الفارسية ، وذلك في كتاب « زاد المسافر » لأبي معين ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني البلخي البذخشاني (المتوفى نحو ٤٨١ هـ) ، المشهور بناصر خسرو . وقام بترجمة هذه المنتخبات إلى اللغة العربية بول كراوس ونشرها ضمن كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي (١) .

النفس

ذكر الرازي في كتاب « الطب الروحاني » رأى أفلاطون في النفس (٢) ، فقال إن للإنسان ثلاث أنفس هي النفس الناطقة والإلهية ، والنفس الغضبية والحيوانية ، والنفس النباتية والنامية والشهوانية . وقد كوّنت النفسان الحيوانية والنباتية من أجل النفس الناطقة . أما النفس النباتية فهي لتغذي الجسم الذي هو بمنزلة آلة وأداة للنفس الناطقة . ولما كان الجسم مكوناً من جوهر سيال متحلل ، فهو في حاجة ، لكي يبقى ، إلى الغذاء لكي يخلف فيه ما يتحلل منه .

ووظيفة النفس الغضبية هي لكي تستعين بها النفس الناطقة على قمع الشهوات ، ومنعها من أن تشغل النفس الناطقة بكثرة شهواتها عن القيام بوظيفتها الأساسية وهي النطق ، الذي إذا استعملته بطريقة فعالة وكاملة أمكنها التخلص من الجسم الذي تتعلق به .

والنفس الغضبية هي جملة مزاج القلب الذي منه الحرارة وحركة النبض . والنفس الشهوانية هي جملة مزاج الكبد الذي منه يكون الاعتداء والنمو والنشوء للإنسان . وجملة مزاج الدماغ هي الآلة أو الأداة التي تستعملها النفس الناطقة ، فإن الحس ، والحركة الإرادية ، والتخيل ، والفكر ، والتذكر من الدماغ .

ويذكر الرازي رأى أفلاطون في أنه ينبغي « أن يجتهد الإنسان بالطب الجسداني وهو الطب المعروف ، والطب الروحاني وهو الإقناع بالحجج والبراهين في تعديل أفعال هذه النفوس لئلا تقصّر عما أريد بها ، ولئلا تتجاوز » (٣) . وتقتصر النفس النباتية يكون بأن لا تغذي الجسم ولا تنمية بالكمية والكيفية اللتين يحتاج إليهما الجسد . وإفراطها يكون بأن تتعدى ذلك وتجاوزها بها لا

(١) « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٥٥ .

(٢) الطب الروحاني ، مرجع سابق ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

يحتاج إليه الجسد ، فيغرق في اللذات والشهوات . وتقصر النفس الغضبية بأن لا يكون عندها من الحمية والألفة والنخوة ما يمكنها من قمع النفس الشهوانية ، وإفراطها بأن يكثر فيها الكبر وحب الغلبة والاستعلاء وقهر الناس والحيوان . وتقصر النفس الناطقة بأن لا يخطر ببالها استغراب هذا العالم والتفكير فيه ، والتطلع والتشوق إلى معرفة جميع ما فيه ، وخاصة المعرفة بجسدها ، وما يؤهل إليه حال جسدها وحالها بعد الموت . وإن عدم تطلعها لمعرفة هذه الأشياء يجعل الإنسان مثل البهائم التي لا تفكر ولا تتذكر البتة . وإفراط النفس الناطقة يكون بأن يستحوذ على الإنسان الفكر في هذه الأشياء ونحوها ، بحيث لا ينال من الغذاء وما يصلح به الجسم من النوم وغيره مما يحتاج إليه في بناء مزاج الدماغ على حالة الصحة ، وبحيث يجتهد غاية الجهد في بلوغ ما يروم من المعرفة بهذه المعاني في أقصر وقت ممكن ، مما يؤدي إلى فساد مزاج جسمه ، فتصيبه الوسواس والمألخوليا .

إن المدة التي يحياها الإنسان في العالم ، منذ أن يولد حتى يهرم ، هي كافية ، إذا ما أعمل الإنسان فكره ، لكي يتطلع الإنسان على المعاني التي أشرنا إليها سابقاً ، فيقوم بتحقيق جسده وبقضه ، ويعلم أن النفس الحساسة ما دامت متعلقة بالجسد ستكون دائماً في أحوال مؤذية مؤلمة ، ولذلك يشاق إلى مفارقة الجسد والتخلص منه . وإذا ما فارقت النفس الجسد ، وقد اكتسبت هذه المعاني واعتقدتها ، صارت في عالمها غير مشتاقة إلى التعلق بالجسد ، وبقيت حية ناطقة غير مائتة ولا متألمة ، مغتبطة بموضعها ومكانها .

ويرى الرازي أن حياتنا بعد الموت ، حميدة كانت أو ذميمة ، إنما تتوقف على سيرتنا أثناء وجود أنفسنا في أجسادنا في الحياة الدنيا . وهو يرى أن الإنسان لم يخلق « لإصابة اللذات الجسدانية ، بل لاقتناء العلم واستعمال العدل اللذين بهما يكون خلاصنا عن عالمنا هذا إلى العالم الذي لا موت فيه ولا ألم . وإن الطبيعة والهوى يدعواننا إلى إثارة اللذة الحاضرة ، وأما العقل فكثيراً ما يدعونا إلى ترك اللذات الحاضرة لأمر يؤثرها عليها » (١) . فعلى العاقل أن لا ينقاد للذات الدنيا المنقطعة بانقطاع العمر ، بل عليه أن يسعى للحصول على اللذة الباقية غير المنقطعة وغير المتناهية في عالم بعد الموت الذي لا موت فيه (٢) .

اللذة والألم

للرازي كتاب أو مقالة في اللذة ، قد ذكره الرازي نفسه في كتاب « الطب الروحاني » وسماه

(١) أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفاضلة . منشور في كتاب « رسائل فلسفية » ، مرجع سابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

مقالة « في مائية اللذة » . (١) ويظهر أن الرازي قد تأثر في رأيه في اللذة والألم بما قاله أفلاطون عنهما في كتاب « طيباس » ، إما بالاطلاع على هذا الكتاب مباشرة ، وإما عن طريق تلخيص جالينوس له (٢) . ولم يصلنا كتاب أو مقالة اللذة للرازي ، ولكن وصلتنا منتخبات منه مترجمة إلى اللغة الفارسية ، وذلك في كتاب « زاد المسافر » لأبي معين ناصر بن خسرو بن حارث القادياني البلخي البدخشاني (المتوفى نحو ٤٨١ هـ) ، وهو المشهور بناصر خسرو ، وقد قام بول كراوس بترجمتها إلى اللغة العربية ونشرها في كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي (٣) .

إن اللذة ، في رأى الرازي « ليست بشيء سوى الراحة من الألم » ، ولا توجد لذة إلا على أثر ألم . . . ويقول : إن اللذة حس مريح ، أما الأذى فهو حس مؤلم . والحس تأثير محسوس فيمن يحس ، والتأثير فعل المؤثر في المتأثر ، والتأثير عبارة عن تغير حال المتأثر ، وتلك الحال إما طبيعية أو خارجة عن الطبيعة . ويقول : إذا نقل المؤثر ذلك المتأثر من حاله الطبيعية حصل الألم والأذى ، وإذا أعاد المؤثر المتأثر إلى حاله الطبيعية حصلت اللذة » (٤) . فالألم والأذى قد حصلوا للمتأثر حين خروجه عن حاله الطبيعية ، أما اللذة فحصلت له حين رجع إلى حاله الطبيعية بعد خروجه عنها . والرجوع إلى الحال الطبيعية الذى به تحصل اللذة لا يكون إلا بعد خروجه عن الحال الطبيعية الذى به حصل الألم . فاللذة ، إذن ، ليست بشيء سوى الراحة من الألم (٥) .

وليست الحال الطبيعية محسوسة ، لأن الإحساس يحصل بتأثير المؤثر في المتأثر ، ونقله من الحال التى هو فيها . أما الحال الطبيعية فهى التى لا يوصل إليها من حال أخرى ، لا بتغير ولا بتأثير ، وهى لذلك غير محسوسة . وما لم يدرك بالحس لا يكون لذة ولا ألماً . فالحال الطبيعية ، إذن ، ليست لذة ولا ألماً (٦) .

إصلاح أخلاق النفس

يذكر الرازي مبدئين هامين يعتبرهما من الأصول الهامة التى يجب معرفتها كتوطئة ضرورية لموضوع إصلاح أخلاق النفس ، وهذان المبدآن هما : ضرورة تحكم العقل فى الهوى ، وقمع الهوى والشهوات .

(١) الطب الروحاني ، ص ٣٨ .

(٢) رسائل فلسفية لأبي بكر الرازي ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٥٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥٣ .

ضرورة تحكم العقل في الهوى

يتميز الإنسان عن الحيوان بالعقل الذي به يدرك من المنافع العاجلة والأجلة غاية ما في جواهر الإنسان أن يناله ويبلغه ، والذي به يدرك جميع الأشياء في الوجود ، والذي به يصل إلى معرفة الله تعالى . وإذا كان هذا هو مقدار فضل العقل وخطره ، فحقيق علينا أن نرجع إليه في أمورنا كلها ، وأن نعتمد عليه فيها ، ولا يجب أن نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ، والذي يحميد به عن طريق المحجة والاستقامة والرشد ، بل لابد أن نجعله هو المسيطر على الهوى . فإذا ما جعلنا العقل هو الحاكم في أمورنا لا المحكوم عليه ، « صفا لنا غاية صفاته ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ، ومرة علينا به » (١) .

قمع الهوى والشهوات

إن من المبادئ الهامة في موضوع إصلاح الأخلاق هو « قمع الهوى ومخالفة ما يدعو إليه الطبع في أكثر الأحوال ، وتمرين النفس على ذلك وتدريبها إليه . . فإن أول فضل الناس على البهائم هو هذا ، أعنى ملكة الإرادة ، وإطلاق الفعل بعد الروية » (٢). ويؤكد الرازي أن « زَم الهوى وردعه واجب في كل رأى ، وعند كل عاقل ، وفي كل دين » (٣). فإن جَلَّ عوارض النفس الرديئة ، أو بمعنى آخر ، أمراضها ، وإنما تنشأ عن الهوى والشهوات (٤).

وبذكر الرازي أن مغالبة الهوى وقمع الشهوات أمر صعب كثير المشقة على كثير من الناس ، غير أن ما يجده الإنسان من مشقة في ذلك « ستخف عليه بالاعتقاد ، ولاسيما إذا كان ذلك على تدريج ، بأن يعود نفسه ويأخذها أولاً بمنع السير من الشهوات ، وترك بعض ما يهوى لما يوجب العقل والرأى ، ثم يروم من ذلك ما هو أكثر حتى يصير ذلك فيه مقارناً للحلّق والعادة ، وتذلّ نفسه الشهوانية ، وتعتاد الانقياد للنفس الناطقة . ثم يزداد ذلك ويتأكد عند سروره بالعواقب العائدة عليه من زَمِّ هواه وانتفاعه برأيه وعقله وسياسة أموره بها ، ومدح الناس له على ذلك ، واشتياقهم إلى مثل حاله » (٥).

ويلاحظ من كلام الرازي السابق ، كما سبق أن لاحظنا من كلام الكندي من قبل ، أنه أشار إلى مبدأ هام من مبادئ التعلم ، وصل إليه علماء النفس المحدثون بعد ما يقرب من ألف عام

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(١) الطب الروحاني، ص ١٧-١٩.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

تقريبًا . هذا المبدأ هو مبدأ التدريج في تعلم العادات الصعبة ، والمهارات المعقدة ، والذي توصل إليه سكينر Skinner من تجاربه حول التعلم عن طريق التشكيل^(١) . ولاشك أن الرازي ، مثل الكندي من قبل ، قد تعلم هذا المبدأ من القرآن الكريم الذي استخدمه استخدامًا فعالاً في علاج عادة شرب الخمر والربا ، كما سبق أن ذكرنا ذلك أثناء كلامنا عن الكندي .

ويلاحظ كذلك أن الرازي قد أشار أيضًا إلى مبدأ آخر هام من مبادئ التعلم ، الذي أثبتته التجارب الحديثة في علم النفس ، وهو مبدأ التدعيم أو المكافأة في عملية التعلم^(٢) . يتضح ذلك من قوله في عباراته السابقة عن تعلم الإنسان قمع الهوى والشهوات بالتدريج حتى يصير مقارنًا للخلق والعادة ، إن ذلك يزداد « ويتأكد عند سروره بالعواقب العائدة عليه من زَم هواه ، وانتفاعه برأيه وعقله وسياسة أموره بها ، ومدح الناس له على ذلك . . » ، فهو يشير هنا إلى تقدم تعلم قمع الهوى وتأكيده بالسرور الذي تحدته النتائج الحسنة التي ينالها عقب قمعه للهوى ، وبالمدح الذي يناله بسبب ذلك . وهذا هو مبدأ التدعيم ، أو المكافأة في عملية التعلم الذي وصل إليه علماء النفس المحدثون من تجاربهم العلمية التي أجروها في القرن العشرين .

نماذج من أخلاق النفس السينة وإصلاحها

يذكر الرازي مجموعة من عوارض النفس الرديئة ، أو أخلاقها السينة ، ويبيّن طرق إصلاحها كأمثلة ونماذج يمكن أن تُحتذى في إصلاح جميع أخلاق النفس السينة الأخرى التي لم يذكرها في كتابه « الطب الروحاني » .

ويرى الرازي أن الإنسان لكي يستطيع أن يقوم بإصلاح أخلاقه السينة ، فإنه يجب عليه أن يعرفها . غير أن معرفة الإنسان عيوب نفسه ليست أمرًا سهلاً ، إذ أن الإنسان عادة لا يكاد يعرف عيوب نفسه ، وما دام لا يعرفها فإنه لا يمكنه الإقلاع عنها . ويرى الرازي أنه ينبغي على الإنسان أن يسند هذا الأمر إلى رجل عاقل ملازم له ، ويسأله بإلحاح وتأكد أن يخبره بكل ما يعرفه عنه من عيوب ، ولا يخفى عليه شيئاً من ذلك ، وينبغي عليه أن لا يغضب عما يخبره عن عيوبه ، بل يجب أن يشكره على ذلك .

(١) سارنوف أ . مدينك ، وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٢١-٢٢ ؛ محمد عثمان نجاتي ، علم النفس والحياة ، مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته في الحياة ، ط ١٣ : الكويت : دار القلم ، ١٩٩٢ ، ص ١٦٦-١٦٧ ، انظر أيضًا محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس ، مرجع سابق ، ص ١٧٣-١٨٠ . وفيه بيان سبق القرآن الكريم في استخدام مبدأ التدريج في تعديل السلوك .

(٢) محمد عثمان نجاتي : علم النفس والحياة ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٤-١٨٥ .

وينبغي على الإنسان أيضاً أن يستخير ويتعرف على ما يقوله عنه جيرانه ومعاملوه وإخوانه ، وكذلك ما يقول عنه أعداؤه من العيوب والمساوئ ، فإن ذلك مفيد في تعرف الإنسان على عيوب نفسه ، مما يسهل مهمة الإقلاع عنها . ويذكر الرازي أن لجاليينوس كتاباً في هذا الموضوع عنوانه «في أن الأخيار ينتفعون بأعدائهم» ، وذكر منافع تحققت له بسبب عدد من الأعداء كان له . وقال أيضاً : إن لجاليينوس مقالة « في تعرف الرجل عيوب نفسه » ، وقال الرازي : إنه ذكر في كتابه جوامعها وجلتها ^(١) . ويلاحظ أن مسكويه والغزالي قد ردداً فيها بعد ما قاله الرازي عن تعرف المرء عيوب نفسه ^(٢) ، وذلك إما بالتأثر بالرازي مباشرة ، وإما بالتأثر بكتاب ومقالة جاليينوس المذكورين سابقاً .

وسوف نذكر فيما يلي بعض نواذج من أخلاق النفس الرديئة ، والسبل التي يرى الرازي اتباعها في علاجها .

العشق والإلف

يتكلم الرازي عن اللذة ، كمقدمة لكلامه عن العشق ، ويعرفها ، كما ذكرنا من قبل ، بأنها ليست بشيء سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته الطبيعية إلى حالته تلك التي كان عليها . ويقول إن اللذة تحدث دائماً بعد حدوث أذى وألم . ثم يتكلم الرازي بعد ذلك عن العشق ، ويقول : إن العشاق يتخيلون اللذة التي سيحصلون عليها عند نيل مرادهم دون أن ينخطر ببالهم حالة الأذى والألم التي يعانونها مدة طويلة قبل نيل مرادهم . ويقول لو فكر العشاق في مقدار المعاناة التي تصيبهم في العشق لمان عليهم أمره ، وقل اهتمامهم به ^(٣) . ويقول : إن العشاق : « يحزنون من حيث يظنون أنهم يفرحون ، ويتألمون من حيث أنهم يظنون أنهم يلذون . وذلك لأنهم لا ينالون من ملاذهم شيئاً ولا يصلون إليه إلا بعد أن يمسه همّ والجهد ، يأخذ منهم ويبلغ إليهم . وربما لم يزالوا من ذلك في كُرب مُنصَّبة ، وعُصص متصلة من غير نيل مطلوب بته . والكثير منهم يصير لدوام السهر وهمّ وفقد الغذاء إلى الجنون والوسواس ، وإلى الدقّ والذبول ، فإذا هم قد وقعوا من حيل اللذة وشباكها في الردىّ والمكروه ، وأذتهم عواقبها إلى غاية الشقاء والهلكة » ^(٤) .

ويقول الرازي أيضاً : إن العشاق في هم دائم بسبب شهواتهم ، التي لا يبلغون منها إلى غاية ،

(١) الطب الروحاني ، ص ٣٣-٣٥ .

(٢) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . بيروت : دار المعرفة ، (د . ت) ، ج ٣ ، ص ٦٤-٦٥ ؛ مسكويه :

تهذيب الأخلاق . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ ، ص ١٥٦-١٥٧ .

(٣) الطب الروحاني ، ص ٣٦-٤٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

ولا يصيرون منها إلى راحة ، فهم دائماً يتأذون بسبب كثرة بواعثهم عليها ، ويتحسرون على ما فاتهم منها ، وغير راضين أو مغتبطين بما ينالون منها ، لأن أمانهم تتعلق دائماً بما فوقها ، وما لا نهاية له منها (١).

ويقول الرازي : إن العشق يقوى ويزداد إذا ضم إليه الإلف ، ويصبح بعد ذلك من العسير التخلص منه . والإلف « هو ما يحدث في النفس عن طول الصحبة من كراهة مفارقة المصاحب ، وهى أيضاً بلية عظيمة تنمى وتزداد على الأيام ، ولا يحس بها إلا عند مفارقة المصاحب . ثم يظهر منها حينئذ ومعه أمر مؤذ مؤلم للنفس جداً . . . والاحتراس منه يكون بالتعرض لمفارقة المصاحب حالاً بعد حال ، وأن لا ينسى ذلك ويغفل البتة ، بل تُدرّج نفسه إليه وتُركّز عليه » (٢). أما إذا قلت مدة العشق ، وقلت مرات لقاء المحبوب ، فمن الأحرى أن لا يخالطه ويقارنه الإلف ، وحينئذ يكون من السهل التغلب عليه والتخلص منه . فينبغى على العاقل أن يقوم بمنع نفسه عن العشق قبل أن يستحكم أمره ، وتزداد قوته ، ويصعب الخروج منه (٣) .

العُجب

العجب بالنفس هو أن يرى الإنسان أدنى فضيلة فيه عظيمة ، ويحب أن يُمدح عليها فوق استحقاقه . والعجب بنفسه لا يرى أحداً أفضل منه في الخصلة التى يقع بها العجب بنفسه .

ويعالج العجب بالنفس بمعرفة الإنسان عيوب نفسه عن طريق أحد المقربين إليه الذى يطلب منه أن يخبره عن عيوب نفسه ، كما ذكرنا ذلك سابقاً أثناء كلامنا عن معرفة المرء عيوب نفسه . وينبغى أن لا يقيس الإنسان نفسه بمن هم أدنى منه في الخصلة التى يقع بها عجبه بنفسه ، وينبغى أن لا تعظم وتكبر نفسه عنده حتى يجاوز مقدار نظرائه عند غيره (٤) .

الحسد

الحسد هو كراهة المرء أن ينال غيره خيراً ألبتة ، وهو أحد أدواء النفس العظيمة الأذى لها ، وهو مؤذ للنفس والجسد معاً . فأما للنفس فلأنه يذهلها ويشغل فكرها ويسبب لها بعض العوارض النفسية الرديئة مثل الحزن والهَمّ والفكر . وأما للجسد فلأنه يعرض منه طول السهر ، وسوء التغذية ، وفساد المزاج .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦-٤٧ .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .

ويعالج الحسد بأن يتأمل العاقل الحسد ، فسيجد أن الحاسد إنما يضاد إرادة الله سبحانه وتعالى الذي ينعم بالخير على كل الناس . ومن يعارض إرادة الله سبحانه وتعالى يستحق مقه وغضبه . ثم إن الحاسد بحسده للغير إنما يعتبر ظالماً لهم ، لأنهم لم يسيئوا إليه ، ولم يسلبوه شيئاً مما لديه من الخير . ومن يظلم الناس يستحق أن يمقته الناس .

ويقول الرازى : إنه ليس هناك عدل ، أو مبرر معقول لحق الحاسد وغظه بسبب بلوغ بعض الأشخاص المراكز والمناصب العالية ، وذلك لأن بلوغها يتوقف على ما يبذله الشخص من الجهد والاجتهاد ، وهذا حق مكفول لجميع الناس ، ولم يمنع المحسود الحاسد من بلوغها ، وليس الحاسد بأحق بها من المحسود ، فلا ينبغي على الحاسد أن يحنق على المحسود ، بل ينبغي عليه أن يحنق على نفسه لتراخيه ، ولعدم اجتهداه . ويلاحظ وجه الشبه بين ما يقوله الرازى هنا بشأن علاج الحسد بما قاله الكندى من قبل بشأن علاج الحزن^(١).

وما يساعد على التخلص من الحسد أن يتأمل العاقل أحوال الناس في ترقبهم في المراتب ، وفي بلوغهم المطالب ، فإنه سيجد أن ما يتصوره الحاسد عما هم فيه من غبطة وسعادة ليس صحيحاً . فإن الإنسان عادة يستعظم الأمر الذى يريد بلوغه ، حتى إذا ما وصل إليه يصبح أمراً عادياً بالنسبة إليه ، وتقل سعادته به ، ويتطلع إلى النظر إلى ما هو أعلى منه . وهكذا يكون الإنسان الذى يحرص على مطالب الدنيا في خوف وهم دائمين ، خوف من أن يفقد ما ناله ، وهم بسبب ما يريد أن يبلغه . فلا يجب على العاقل أن يحسد أحداً على فضل من دنياه مما لا ضرورة له في إقامة العيش^(٢).

دفع الغم^(٣)

يعرف الرازى الغم بأنه عرض عقلى يحدث من فقد المحبوب . ويبدو من هذا التعريف ، وما يقوله الرازى عن التخلص من الغم ، أنه يعنى بالغم الحزن ، وربما يعنى أيضاً حالة الاكتئاب التى يسببها الحزن على فقد المحبوب . ويلاحظ أن تعريف الرازى للغم هو تقريباً نفس تعريف الكندى للحزن ، فقد عرفه بأنه « ألم نفسانى يعرض لفقد المحبوبات »^(٤) ويقول الرازى : « ولما كان الغم يكدر الفكر والعقل ويؤذى النفس والجسد ، حتى لنا أن نحتال لصرفه ودفعه ، أو التقليل

(١) انظر الفصل الأول ص ٣٧ ، الفقرة الأولى .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٩ .

(٤) انظر الفصل الأول ص ٣٤ - ٣٥ .

منه والتضعيف له ما أمكن . وذلك يكون بوجهين : أحدهما بالاحتراس منه قبل حدوثه لئلا يحدث ، أو يكون ما يحدث أقل ما يمكن . والآخر دفع ما قد حدث ونفيه إما كله ، أو ليقَل أو يضعف ما يحدث منه ^(١) . ويذكر الرازي عدة سبل للاحتراس من حدوث الغمّ هي ما يلي :

١ - لما كانت أسباب الغموم هي فقد المحبوبات ، ولما كان من غير الممكن تجنب فقد المحبوبات بسبب التغير الدائم للأحوال في هذه الدنيا ، « وجب أن يكون أكثر الناس وأشدّهم غمّاً من كانت محبوباته أكثر عدداً ، وكان لها أشدّ حبّاً ، وأقل الناس غمّاً من كانت حاله بالضد من ذلك » ^(٢) . لذلك ينبغي على العاقل أن يتجنب أسباب الغموم بأن يتجنب الأشياء التي يسبب فقدانها غمّاً ، ولا ينبغي عليه أن ينخدع بها تحدّثه له أثناء وجودها من متعة وحلاوة ، بل عليه أن يتذكر ويتصور ما يسببه فقدانها من مرارة وألم .

٢ - ويحسب أن يكثر المرء من تصور فقد محبوباته ، ويذكر أنها ليست مما يمكن أن يبقى ويدوم ، وأنه سوف يكون أكثر جلدًا متى حدث ذلك ، « فإن ذلك تمرين وتدرّج ورياضة وتقوية للنفس على قلة الجزع عند حدوث المصائب » ^(٣) .

٣ - يمكن للمرء أن يمتثل بالاحتراس من وقوع الغمّ من فقد محبوباته بأن لا يجعل محبوبة واحدة من محبوباته تنفرد بحبه الشديد ، بل يجب أن يقرن إليها محبوبة أخرى تنوب عنها إن فقدت . وبهذا الوجه لا يفرط حزنه واغتمامه بأى واحدٍ فقد من محبوباته .

ويذكر الرازي أيضًا عدة وسائل لدفع الغمّ كله إذا وقع ، أو التقليل منه ، وهي ما يلي :

١ - إن الأشياء في عالم الكون والفساد ، كثيرة التغير ولا ثبات لها ، وهي كلها زائلة دائرة مضمحلة ، فلا ينبغي على الإنسان أن يستكثر ويستعظم زوال ما مُلِب منه ، لأن ذلك أمر لا محالة حادث . ومن أحب دوام ما لا يمكن دوامه ، فقد جلب على نفسه الغمّ .

٢ - إن الإنسان لا يدوم غمه على فقد الأشياء التي ليست ضرورية في بقاء الحياة ، فسرعان ما يجد الإنسان بديلاً لها تسبب له السلوة عنها ونسيانها ، فيعود إلى معيشته الطبيعية قبل وقوع المصيبة . فيجب على العاقل أن يذكر نفسه بذلك ، إذا وقعت له مصيبة ، وبإلّا آله أمر الناس جميعاً إلى السلوة ونسيان المصيبة ، والعودة إلى معيشتهم الطبيعية بعدها . وعليه أن يشوّق نفسه

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

إلى السلوة والعودة إلى الحال التي كان عليها قبل وقوع المصيبة ، ويجتهد في شغل نفسه وإلهائها لكي يسرع بها إلى العودة إلى حالته الطبيعية ، فإن ذلك من شأنه أن يخفف من حالة الغم .

٣- إن أكثر الناس وأشدّهم غمًا من كانت محبوباته كثيرة العدد ، وكان حبه لها شديدًا . فكلما يفقد واحدة من محبوباته أصابه الغم . فينبغي على العاقل أن يقلل من محبوباته ، ليقبل بذلك ما يشعر به من غم بسبب فقدها .

ويلاحظ أن ما قاله الرازي عن أن تذكر الإنسان ما آل إليه أمره وأمر الناس جميعًا إلى السلوة ونسيان المصيبة من شأنه أن يخفف حالة الغم ، يقرب كثيرًا جدًا مما قاله الكندي في نفس هذا المعنى في شأن علاج الحزن^(١) . كما يلاحظ أيضًا أن ما قاله الرازي عن أن كثرة المحبوبات تؤدي إلى كثرة الغم الذي ينشأ عن فقد أي واحد منها ، يقرب كثيرًا مما قاله الكندي أيضًا في نفس هذا المعنى^(٢) . ومن الواضح أن الرازي قد تأثر كثيرًا بما قاله الكندي في رسالته « في الحيلة لدفع الأحزان » .

ويلاحظ أيضًا أن الرازي يتبع ، مثل الكندي من قبل ، أسلوب العلاج النفساني السلوكي المعرفي ، فهو يمدّد الفرد المطلوب علاجه من سوء الخلق ، أو من العشق ، أو من الغم ، بكثير من المعلومات المفيدة التي تعينه على الاقتناع بأهمية التخلّي عن سلوكه المعيب السوء ، وتعلّم سلوك حسن مقبول بدلاً منه .

(١) انظر الفصل الأول ، ص ٣٧ ، الفقرة الثانية .

(٢) انظر الفصل الأول ، ص ٣٧ ، الفقرة الثالثة .

الفصل الثالث الفارابي

٢٥٩ هـ (٨٧٢ / ٨٧٣ م) - ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م)

حياته

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزكغ المعروف بالفارابي^(١) ، ويلقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو الذي كان يلقب بالمعلم الأول . ولقب بالمعلم الثاني لعنايته الفائقة بدراسة كتب أرسطو والتعليق عليها . ومن المرجح أن الفارابي وُلِدَ في بلدة « وسيج » في ولاية « فاراب » ، في أرض « خراسان » ، الواقعة على نهر « سيجون » بتركستان على حسب رواية ابن حوقل . ويذهب بعض المؤرخين كالقفطى وابن خلكان وابن أبي أصيبعة إلى أنه ولد في مدينة تسمى « فاراب »^(٢) . وذهب أكثر المترجمين للفارابي إلى أن أباه كان تركي الأصل ، ولكن ذهب ابن أبي أصيبعة إلى أنه كان فارسي الأصل . أما أمه فكانت تركية .

واختلف المؤرخون في تحديد سن مولده ، ومن المرجح أنه ولد عام ٢٥٩ هـ (٨٧٢ / ٨٧٣ م) ، وذلك استنتاجاً من تاريخ وفاته الذي ذكره ابن خلكان ، إذ أنه قال إنه توفي في دمشق عام ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م / ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة^(٣) .

واشتغل الفارابي بالقضاء في بلدته في مطلع حياته ، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بعيل شديد إلى المعرفة ودراسة الفلسفة وحقائق ما وراء الطبيعة ، فهجر عمله بالقضاء وقد ناهز

(١) لا خلاف بين المؤرخين في أن اسم الفارابي « محمد » وأنه يُلقب « بأبي نصر » ، ولكنهم اختلفوا على تسمية أبائه وأجداده وعلى ترتيبهم . انظر مصطفى عبد الرزاق : « الفارابي المعلم الثاني » ، في كتاب « خمسة من أعلام الفكر الإسلامي » ، مرجع سابق ، ص ٥٥ ؛ انظر أيضاً محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) مصطفى عبد الرزاق : المرجع السابق ، ص ٥٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٦٠٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٥٧ .

(٣) مصطفى عبد الرزاق : المرجع السابق ، ص ٥٧ .

الأربعين من عمره تقريباً ، وارتحل إلى بغداد مركز المعرفة والعلم في عصره ، فعكف على دراسة المنطق على أبي بشر متى بن يونس (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) . وتعلم النحو على أبي بكر بن السراج (المتوفى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م) . ثم ارتحل إلى حران وتابع دراسة المنطق على يوحنا بن حيلان . ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى وواصل دراسته للفلسفة ، وقراً كتب أرسطو . ويذكر ابن خلكان أنه قرأ كتاب « النفس » لأرسطو مائة مرة ، وأنه قيل عنه : إنه قرأ كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطو أربعين مرة^(١) . وقضى الفارابي في بغداد حوالي ثلاثين سنة عاكفاً على الدراسة والتأليف والتدريس وشرح كتب أرسطو وأفلاطون والتعليق عليها ، فاشتهر بصيته ، وعرف فضله ، والتف حوله التلاميذ يتلقون عنه العلم .

وكانت الفترة التي عاش فيها الفارابي فترة ضعفت فيها سلطة الخلافة ، وعظم فيها نفوذ الأتراك الذين كان يعتمد عليهم الخلفاء العباسيون في إدارة شئون الدولة ، وزاد تدخلهم في أمور الحكم ، فعمت الفوضى ، وساد الاضطراب^(٢) .

ولما اضطربت الأحوال في بغداد بعد أن قام القائد الديلمي توزون في عام ٣٢٩ هـ بعزل الخليفة المتقي ، انتقل الفارابي إلى دمشق عام ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) ، فعاش فيها في وحدة وعزلة ، منكباً على القراءة والتأليف . وعاش الفارابي في دمشق مغموراً فقيراً يعمل ناطوراً في بستان ، ويقضى ليله في المطالعة والكتابة مستضيئاً بقنديل حارس البستان . ثم انتقل بعد ذلك إلى حلب ، واتصل بأميرها سيف الدولة الحمداني ، فعرف فضله ، وقرّبه إليه ، وأكرمه ، وضمه إلى حاشيته . وقيل : إنه سافر إلى مصر عام ٣٣٨ هـ لفترة قصيرة ، ثم عاد إلى الشام^(٣) .

وكان الفارابي ميالاً إلى العزلة والزهد وحياة التأمل والتفكير ، عازفاً عن حياة الترف المادي والبلدخ ، وكان يعيش عيشة المتصوّف الزاهد في الدنيا . ولم يتزوج ، ولم يقتن مالا ، ولم يكن يُعنى بملاهبه ، وكان يرتدى زى المتصوفين . ويروى أنه لم يكن يتقاضى من الأمير سيف الدولة الحمداني إلا أربعة دراهم فضة في اليوم لينفقها في قضاء حاجاته المعيشية الضرورية ، ولو شاء أكثر من ذلك لنال ما يريد .

(١) ابن خلكان ، ج ٥ ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) سعيد زاهد : الفارابي ، ط ٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ٨-٧ .

(٣) ابن خلكان : ج ٥ ، ص ١٥٣-١٥٧ ؛ ابن أبي أصيبعة ، ص ٦٠٣ ؛ صاعد ، ص ٨٣-٨٦ .

انظر أيضاً : مصطفى عبد الرازق : مرجع سابق ، ص ٥٩-٥٥ ؛ محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٤٤-٢٤٤ ؛ دي بور : مرجع سابق ، ص ١٩٦-١٩٩ ؛ جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، ط ٢ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ ، ص ١٣٥-١٤٠ .

واشتهر الفارابي بمعرفة كثير من اللغات . وكان ذكياً ، متوقد الذهن ، على الهمة ، أتقن كثيراً من فروع المعرفة في عصره ، فقد تبحر في جميع فروع الفلسفة ، في المنطق ، والطبيعات ، والألفيات ، والرياضيات ، والطب ، والكيمياء ، كما أتقن العلم المدني ، والهيئة ، والفقه ، والعلوم العسكرية ، والموسيقى . ويقال : إنه اخترع آلة موسيقية تشبه القانون ، أو هي القانون ، وألف كتاباً في الموسيقى يعتبر من أهم الكتب في الموسيقى الشرقية ، ويضعه في مصاف الموسيقيين العالميين .

وقد نال الفارابي تقدير المؤرخين ، فهم يذكرونه بكل تقدير واحترام ، ويعتبرونه أول الفلاسفة الكبار ، وقال عنه ابن خلدون : إنه من أشهر الفلاسفة المسلمين الكبار . وقال عنه ابن خلكان : إنه « أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه ، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع في تصانيفه »^(١) . وقال عنه ابن صاعد الأندلسي في طبقات الأئمة : « إنه فيلسوف المسلمين بالحقيقة » ، ولقبه القفطي في « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » : « بفيلسوف المسلمين غير مدافع » . ويرى القفطي أن ابن سينا قرأ « ما بعد الطبيعة » لأرسطو أربعين مرة ، ولم يستطع فهم أغراضه ویش من فهمه . ولكنه لما قرأ كتاب الفارابي في « أغراض ما بعد الطبيعة » فهم أغراض هذا الكتاب ، ففرح لذلك فرحاً عظيماً ، فشكر الله تعالى ، وتصدق على الفقراء^(٢) .

وكان ابن سينا كثير التقدير للفارابي ، وقد أثنى عليه ، وذكر فضله في عدة مواضع من مؤلفاته . ومن أمثلة ذلك ما قاله عنه في كتاب « المباحثات » ، فقد قال : « أما أبو نصر الفارابي فيجب أن يعظم فيه الاعتقاد ، ولا يجري مع القوم في ميدان . فيكاد أن يكون أفضل من سلف من السلف »^(٣) . وقد امتد تأثيره إلى ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) ، وابن ميمون (ت ٦٠١ هـ) . وامتد تأثيره أيضاً إلى فلاسفة العصور الوسطى المسيحية الذين درسوا كتب كل من الفارابي وابن سينا وتأثروا بأرائها تأثيراً كبيراً^(٤) .

وكان الفارابي من خير المفسرين لكتب أرسطو ، وبخاصة كتبه المنطقية ، ومن خير الملخصين لها في أسلوب جيد متقن ، وسمى لذلك « المنطق » ، كما لُقّب « بالمعلم الثاني » بعد أرسطو « المعلم الأول » .

وكان الفارابي يميل إلى التنظيم العقلي ، ويتنزع دائماً إلى التنسيق والتوحيد ، ولذلك عُنى

(١) القفطي ، ص ٢٧٠ . (٢) المراجع السابقة .

(٣) عبد الرحمن بدوي : أرسطو عند العرب ، ط ٢ . الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٨ ، ص ١٢٢ ؛ انظر أيضاً جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

(٤) جعفر آل ياسين : المرجع السابق ، ص ٦٨-٦٩ .

بالتوفيق بين آراء كل من أرسطو وأفلاطون ، وبين الفلسفة اليونانية والدين الإسلامي ، كما فعل الكندي من قبل ، فهما كانا رائدين في هذا السبيل^(١).

ويعتبر الفارابي كما يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم مذكور ، « أول من صاغ الفلسفة الإسلامية في ثوبها الكامل ، ووضع أصولها ومبادئها . ونحن لا ننكر أن الكندي تنبه قبله إلى دراسة أفلاطون وأرسطو ، وعرض لبعض نظرياتها بالشرح والاختصار ، ولكننا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً بكل معاني الكلمة ، بل هي نظرات متفرقة ومتعلقة بموضوعات مختلفة لا رابطة بينها . أما الفارابي قد لم هذا الشعث ، وأقام دعائم مذهب فلسفى متصل الحلقات »^(٢).

وتوفى الفارابي في دمشق عام ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) وله من العمر ثمانون عاماً . وصلى عليه سيف الدولة مع مجموعة من رجاله ، ودفن في دمشق .

مؤلفاته

ألف الفارابي في جميع العلوم المعروفة في عصره ، وقلما كتب كتباً مطولة ، وكان يكتب معظم كتبه ورسائله في رقع متشورة وكراريس متفرقة . ولم تنشر معظم كتبه ، ولم تلق من الذبوع والانتشار مثل ما لقيت كتب ابن سينا . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة والقفطى أن تصنيفات الفارابي تبلغ سبعة عشر شرحاً ، وستين كتاباً ، وخمسة وعشرين رسالة . ولكن لم يصلنا من مؤلفاته إلا أربعون مؤلفاً مازال كثير منها مخطوطاً في مكتبات العالم . ومعظم مؤلفاته في المنطق ، والفلسفة ، وفي شرح كتب أرسطو وأفلاطون والتعليق عليها . وقد نقل المترجمون في ذلك الوقت إلى العربية كتباً للأفلاطونية الحديثة من مدرسة الأسكندرية مثل كتاب « الربوبية » (أوثولوجيا) ونسبوه خطأ لأرسطو ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل أثناء كلامنا عن الكندي ، ولكنه في الحقيقة عبارة عن مقتطفات من كتاب « التاسوعات » لأفلوطين . وقد سبب ذلك للفارابي ، كما سبب للكندي من قبل ولغيرهما من المفكرين المسلمين بعض الخلط في الآراء المنسوبة إلى أرسطو ، كما أدى ذلك إلى بعض الغموض في هذه الآراء وإلى صعوبة فهمها والتوفيق بينها . كما أن آراء أفلاطون أيضاً قد نقلت إلى العربية مشوهة بآراء الأسكندرانيين . وقد تعرض الفارابي ، لهذا السبب ، للنقد من بعض المؤرخين ، كما انتقده أيضاً بعض المفكرين المسلمين مثل ابن طفيل الذي أشار إلى وجود

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠-٧١ ، ٨٨ .

(٢) إبراهيم مذكور : في الفلسفة الإسلامية . منهج وتطبيق ، ط ٢ ، بالقاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٣٥ ؛ انظر أيضاً .

I. Madkour : La place d'Al Farabi dans L'école philosophique Musulmane, Paris, 1934, p.9.

كثير من التناقض في آرائه . كما انتقده أيضًا ابن رشد لما وقع فيه من أخطاء في فهم الفلسفة اليونانية بسبب أخطاء المترجمين الذين ضلُّوا الفارابي ، كما ضلُّوا الكندي من قبل .

وقد انتشرت مؤلفات الفارابي في الشرق ، وانتقلت إلى الأندلس في المغرب ، وترجم معظمها إلى اللغتين اللاتينية والعبرية ، ومازال كثير من هذه الترجمات في مخطوطات موزعة في مكتبات أوروبا . وقد أخذ المشتغلون بالفلسفة في العصر الحديث منذ أخريات القرن الماضي في ترجمة مؤلفات الفارابي إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة ونشروا^(١).

ومن أهم كتبه التي وصلتنا والتي لها علاقة بالنفس ما يلي :

١ - كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة»، الطبعة الأولى. القاهرة: فريج الله زكي الكردي ومصطفى القباني الدمشقي، (د. د.). وهذا هو المرجع الذي استعنت به في هذا الكتاب. (ونشرته أيضًا دار المشرق بيروت، تقديم وتعليق البير نصري نادر، ط ٣، ١٩٧٣ م).

٢- كتاب «تحصيل السعادة» ، تحقيق جعفر آل ياسين . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨١م.

٣- رسالة « التنبيه على سبيل السعادة » ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ، ١٣٤٦ هـ .

٤- رسالة « في العقل ». نشرها الأب بويج . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٨ م ،
وأعادت طبعها دار المشرق بيروت ، ١٩٨٣ م .

٥- «عيون المسائل»، طبعة ليدن، ١٨٩٠ م؛ وطبعة القاهرة، ١٩٠٧ م.

٦- كتاب « السياسات المدنية » . نشره فوزى مطفى النجار . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ م .

٧- «فصوص الحکم» تحقیق محمد حسن آل یاسین . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٧٦ م .

٨- الدعوى القلبية . في مجموعة رسائل الفارابي . طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد
الذكن-الهند ، ١٣٤٥ هـ-١٩٢٦ م .

تعريف النفس وماهيتها

يعرف الفارابي النفس ، كما عرفها أرسطو من قبل ، بأنها « كمال أول جسم طبيعي آلى ذى حياة بالقوة » ، وهو نفس التعريف الذى قال به الكندي من قبل . كما يعرفها الفارابى أيضًا ، مثل أرسطو بأنها صورة للبدن ، وذلك تبعًا لنظرية أرسطو القائلة بأن كل موجود فى الطبيعة يتكوّن من

(١) سعيد نايد : مرجع سابق ، ص ٢١ .

هيولى (مادة) وصورة . ومعنى أن النفس كمال أول للبدن ، أن بها يكمل الجنس فيصبح نوعاً قائماً بالفعل . وهى كمال أول لجسم طبيعى ، وليس لجسم صناعى . ومعنى آلى أنه يقوم بوظائفه بواسطة آلات هى أعضاؤه المختلفة . ومعنى ذى حياة بالقوة أن فيه استعداداً للحياة وتهيؤاً لقبول النفس (١) .

وكما رأينا الكندى من قبل يتأثر بكل من أرسطو وأفلاطون في تعريفه للنفس ، فكذلك فعل الفارابى . فهو إلى جانب تعريفه الأرسطى السابق للنفس ، فإنه يتجه أيضاً في تعريفه لطبيعة النفس اتجاهاً أفلاطونياً يتفق مع العقيدة الإسلامية . فهو يذهب إلى أن النفس الإنسانية جوهر روحانى قائم بذاته ، وهى جوهر الإنسان عند التحقيق ، وهما ليست عرضاً من أعراض الجسم . فالإنسان ، إذن ، مكوّن من عنصرين : أحدهما جوهر روحانى من عالم الأمر ، أى العالم الإلهى ، والآخر البدن وهو من عالم الخلق ، أى العالم المادى . يقول الفارابى في رسالة « فصوص الحكم » : « أنت مركب من جوهرين أحدهما مشكل مصوّر مكثّف متحرك وساكن متجسد منقسم ، والثانى مبين للأول في هذه الصفات غير مشارك له في حقيقة الذات ، يناله العقل ، ويعرض عنه الهم . فقد جُمِعت من عالم الخلق ومن عالم الأمر ، لأن روحك من أمر ربك ، وبدنك من خلق ربك » (٢) .

ومع أن الفارابى قال أيضاً مثل أرسطو إن النفس صورة للبدن ، إلا أنه لا يذهب مثل أرسطو إلى أنها صورة للبدن بمعنى أنها منطبعة في البدن كانبطاع الصورة في المادة . فالصورة بهذا المفهوم لا وجود لها إلا في المادة ، وهذا أمر يتعارض مع كونها جوهرًا روحانيًا مستقلاً بذاته كما قال أفلاطون . وقد حاول الفارابى ، وكذلك ابن سينا من بعده ، التوفيق بين رأى كل من أرسطو وأفلاطون ، فقالا : إن النفس جوهر وصورة ، فهى جوهر في ذاتها ، وهى صورة من حيث علاقتها بالبدن (٣) .

(١) انظر في « رسالة في مسائل متفرقة » ، ص ١٨ - ١٩ ، عن : محمد عبد الرحمن مرجباً : « من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية » ، بيروت : منشورات عويدات ، ١٩٧٠ ، ص ٤٣٤ ؛ « عيون المسائل » ، ص ٦٣ - ٦٤ ؛ الدعاوى القلبية ، ص ٩ ؛ انظر أيضاً : محمود قاسم : في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام ، ط ٤ - القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، ص ٧٣ - ٧٤ ؛ جوزف الهاشم : الفارابى ، ط ٢ . بيروت : المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ١١٠ - ١١١ ؛ سعيد زايد : الفارابى ، مرجع سابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) الفارابى : « فصوص الحكم » . تحقيق محمد حسن آل ياسين . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٧٦ م ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) جوزف الهاشم : مرجع سابق ، ص ١١١ ؛ محمود قاسم مرجع سابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ - ٨٧ .

قوى النفس

نجد في أقوال الفارابي عن قوى النفس بعض الاختلافات في كتبه ورسائله المختلفة . فهو يذكر، مثلاً ، في « جواب عن مسائل سئل عنها »^(١) ، إن قوى النفس تنقسم إلى محركة ومدركة . والقوى المحركة تشمل القوة الغذائية ، والقوة النمّية ، والقوة النازعة . أما القوى المدركة فتشمل ثلاث قوى : أولاها قوة الحس بنوعية الظاهرة والباطنة . وتشمل قوى الحس الباطنة : الحس المشترك وموطنه القلب ، والقوة المتخيلة ، والقوة الناطقة (العاقلة) . وتتفرع هذه القوة إلى عملية ونظرية (أو علمية) . بينما يذكر الفارابي في رسالة « فصوص الحكم » إن القوى الحاسة الباطنة هي : المصوّرة وموضعها في التجويف المقدم من الدماغ ، ثم الوهم والحافظة ، والمتخيلة والمفكرة^(٢) . ويذكر الفارابي في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » عن القوى الحاسة الباطنة : الحس المشترك ، والقوة المتخيلة فقط^(٣) . ويذكر في « عيون المسائل » أن القوى الحاسة الباطنة هي : المتخيلة ، والوهم ، والذاكرة ، والمفكرة^(٤) . ويقول في « الدعاوى القلبية » : « إن من قواها (النفس) المدركة الحواس الظاهرة والباطنة والقوة المتخيلة ، والقوة الروحية ، والقوة الذاكرة ، والقوة المفكرة »^(٥) .

ومن الممكن بناء على ما ذكره الفارابي في كتبه ورسائله المختلفة عن القوى النفسانية أن نقوم بتصنيفها على الوجه التالي :

أولاً : النفس النباتية

ولها ثلاث قوى هي : القوة الغذائية التي تقوم بوظيفة التغذية بأن تحيل الغذاء إلى مشاكلة الجسم ، والقوة المربيّة (أو النمّية) وهي التي تقوم بوظيفة النمو وهو أن تبلغ بالجسم كماله في النشوء . والقوة المولّدة وهي التي تقوم بوظيفة التوليد أي تولد المثل ليستمر بقاء النوع . وهذه القوى الثلاث موجودة في النبات والحيوان والإنسان .

والقوة الغذائية منها قوة واحدة رئيسة ، ومنها قوى هي رواضع لها وتخدم . فالقوة الغذائية الرئيسية في الغم ، والرواضيع والخدم متفرقة في سائر أعضاء البدن ، وهذه القوى الغذائية ، سواء

(١) الفارابي : « جواب مسائل سئل عنها » ، ص ٩٩ ، عن جعفر آل ياسين فيلسوفان رائدان ، مرجع سابق ، ص ١٠٩-١١٠ .

(٢) فصوص الحكم ، ص ٧٨-٧٩ .

(٣) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٨-٥٠ .

(٤) عيون المسائل ، ص ٦٣ . (٥) الدعاوى القلبية ، ص ٩-١٠ .

الرئيسية التي في الفم ، أو الرواضع والخدم في سائر أعضاء البدن تحتل في أفعالها حذر ما هو بالطبع غرض رئيسها الذي في القلب . فللقوة الغذائية عند الفارابي قوتان رئيستان : إحداها رئيسة أولى في الفم ، والثانية رئيسة أعلى في القلب^(١).

ثانيا : النفس الحيوانية

ولها قوتان : قوة مدركة ، وقوة محرّكة .

(أ) القوة المدركة

الإدراك هو قبول المدرك لصورة المدرك ، فالقوة الحاسة ، مثلاً ، تقبل صورة المحسوس الخاص بها . يقول الفارابي : « الإدراك يناسب الانتقاش ، وكما أن الشمع يكون أجنيباً عن الخاتم حتى إذا عانقه معانقة ضامة وحل منه بمعرفة ومشكلة صورة ، كذلك المدرك يكون أجنيباً عن الصورة ، فإذا اختلس عنه صورته عقد معه المعرفة ، كالحس يأخذ من المحسوس صورة يستودعها الذكر ، فتتمثل في الذكر وإن غابت عن المحسوس »^(٢) . وفكرة قبول المدرك لصورة المدرك ، فكرة أرسطية الأصل .

والقوة المدركة تنقسم إلى نوعين من القوى : قوى مدركة من الخارج وهي الحواس الخمس الخارجية : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس . وكل حاسة منها تحس حساً معيناً خاصاً بها . وقوى مدركة من الباطن ، وهي الحواس الباطنة .

الحواس الخارجية

البصر يدرك الأشياء التي تحاذيه ، فإذا زالت زال الإدراك ، ولكن تبقى صورته في القوة المصورة ، بحيث يمكن تذكرها . والسمع يحدث نتيجة تمزج الهواء الواصل إلى الأذن من جسمين متصاكن . والشم والذوق واللمس قوى في أعضاء حسية تحس ما يحدث فيها من استحالة بسبب ملاقي مؤثر^(٣).

الحواس الباطنة

١ - الحس المشترك

هو المركز الذي تجتمع فيه صور المحسوسات الواردة من الحواس الخمس الخارجية ، وعنده ،

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٨ ، ٥٢ .

(٢) فصوص الحكم ، ص ٧٥-٧٦ ؛ انظر أيضاً « عيون المسائل » ، ص ٧٣ .

(٣) فصوص الحكم ، ص ٧٧-٧٨ .

في الحقيقة ، يحدث الإحساس . ويشبه الفارابي الحواس الخمس الخارجية بأصحاب الأخبار في المملكة ، كل واحد منهم موكل بعنصر معين من الأخبار ، وبأخبار ناحية من نواحي المملكة . والحااسة الرئيسة ، أى الحاسة المشتركة (الحس المشترك) هى الملك الذى تجمع عنده جميع أخبار المملكة . ويذكر الفارابي في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة »^(١) أن مركز القوة الحاسة الرئيسة فى القلب ، وهو الأشهر لديه ، مقتفياً فى ذلك رأى أرسطو الذى جعل القلب مركز الإحساس ، بينما يذهب الفارابي فى مواضع أخرى^(٢) إلى أن مركزها فى التجويف المقدم من الدماغ ، ويبدو أنه متأثر فى ذلك برأى جالينوس . وتجتمع فى الحس المشترك أيضاً صور المحسوسات المنبعثة من المتخيلة .

٢ - القوة المصورة

يذكر الفارابي فى « فصوص الحكم » أن القوة المصورة هى خزانة تُحفظ فيها صور المحسوسات بعد غيبتها عن الحواس الخارجية ، ومركزها فى مقدم الدماغ^(٣) ، غير أنه فى كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » لا يذكر القوة المصورة ، وينسب وظيفة حفظ صور المحسوسات إلى القوة المتخيلة ، ويجعل مركزها القلب^(٤) ، متأثراً فى ذلك بأرسطو .

٣ - المتخيلة

وهى تقوم بجمع صور المحسوسات بعضها إلى بعض ، أو فصلها بعضها عن بعض ، تركيبات وتفصيلات مختلفة ، بعضها كاذبة ، وبعضها صادقة ؛ كما أنها تقوم بتخييل الشيء الذى مضى ، والشيء الذى يُرجى ويتوقع فى المستقبل . ويلاحظ أن الفارابي يضيف إلى المتخيلة ، فى كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، وظيفة حفظ صور المحسوسات بعد غيبتها عن الحواس^(٥) ، ولكنه فى « فصوص الحكم » يجعل المصورة مستقلة بذاتها ، وهى تقوم بوظيفة حفظ صورة المحسوسات ، كما ذكرنا سابقاً . وتقوم المتخيلة أيضاً بمحاكاة التأثيرات التى تقع عليها أثناء النوم ، وأحياناً أثناء اليقظة ، بأشياء محسوسة مما هو محفوظ فيها . وستتناول عملية المحاكاة هذه فيما بعد فى شيء من التفصيل عندما نتكلم عن المنامات والوحى . والقوة المتخيلة إذا استعملها الوهم سميت متخيلة ، وإذا استخدمها العقل سميت مفكرة . والقوة المتخيلة ليست لها رواضع وخدم فى أعضاء أخرى ، فهى واحدة مركزها فى القلب^(٦) .

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٩ . (٢) فصوص الحكم ، ص ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٨ . (٤) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ٦١ . (٦) المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٥١ ؛ فصوص الحكم ، ص ٧٩ .

٤ - الوهم

وهو القوة التي تدرك المعاني غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات الخارجية ، كإدراك الشاة العداوة في الذئب ، فمثل هذا الإدراك لا يتم عن طريق الحواس الخمس الخارجية ، وإنما يتم عن طريق قوة حاسة باطنة ، هي الوهم (أو القوة الوهمية) (١) .

٥ - الذاكرة أو الحافظة

وهي القوة التي تحفظ المعاني التي يدركها الوهم . فهناك إذن ، ذاكرتان ، إحداها لحفظ صور المحسوسات الخارجية بعد غيبتها ، وهي المصورة ، والأخرى لحفظ المعاني غير المحسوسة التي يدركها الوهم ، وهي الذاكرة أو الحافظة (٢) .

(ب) القوة المحركة

هي القوة التي تنبثق في العضلات والأعصاب ، وتدفع إلى القيام بالحركات اللازمة لتحقيق ما يريد الحيوان القيام به من عمل . وتبعثها على الحركة القوة النزوعية . وتنقسم القوة النزوعية إلى قسمين :

١ - قوة شهوانية تنزع إلى الحصول على ما يُشْتاق إليه مما هو ضروري ولذيذ ومفيد .

٢ - قوة غضبية تنزع إلى تجنب ما هو مكروه ومضر .

والقوة النزوعية تعمل في مصاحبة كل من القوة الحاسة والمنتخلة والناطقة ، فهذه القوى الثلاث الأخيرة لا تكفي وحدها في فعل شيء إلا إذا قامت بخدمتها القوة النزوعية التي منها تكون الإرادة والاختيار ، وحكم بأنه ينبغي أن يؤخذ الشيء ، أو يترك . « فإذا كان ذلك النزوع عن إحساس ، أو تخيل يسمى بالاسم العام ، وهو الإرادة . وإن كان ذلك عن روية ، أو عن نطق في الجملة يسمى الاختيار ، وهذا يوجد في الإنسان خاصة ، وأما النزوع عن إحساس وتخيل ، فهو أيضًا في سائر الحيوان » (٣) . وحينما ينزع الإنسان إلى معرفة شيء من شأنه أن يُدرك بالقوة الناطقة ، فإن الفعل الذي يتم به ذلك يكون قوة أخرى في القوة الناطقة يسميها الفارابي « القوة الفكرية » ، وهي التي تكون بها الفكرة والرؤية والاستنباط (٤) .

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٨٥ ؛ فصوص الحكم ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) الدعاوى القلبية ، ص ٩ - ١٠ ؛ فصوص الحكم ، ص ٧٩ .

(٣) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥١ - ٥٢ .

وتتم الأفعال الإرادية بقوى متفرقة في جميع أعضاء البدن التي هي آلات وخدم للقوة النزوعية التي يوجد مركزها في القلب^(١).

ثالثا : النفس الناطقة

النفس الناطقة ، ويسمىها الفارابي أيضًا القوة الناطقة ، أو العقل ، وهي التي بها يعقل الإنسان المعقولات ، ويميز بين الجميل والقيح ، ويحصل العلوم والصناعات . والمعقولات التي يدركها العقل قد تكون معقولات هي بجوهرها معقولات مجردة عن المادة ، وقد تكون معقولات ليست بجوهرها مجردة عن المادة مثل الحجارة والنبات وكل ما هو جسم ، أو في جسم وفي مادة ، وهذه يقوم العقل بتجريدتها من المادة ولواحقها^(٢) . ويفرق الفارابي في القوة الناطقة بين القوة العملية أو العقل العمل ، والقوة النظرية أو العقل النظري (أو العلمي) .

(أ) العقل العمل : هو الذي يستنبط به الإنسان ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية الجزئية ، والسلوك الخلقى ، والأعمال الصناعية والمهنية . وقد جعلت هذه القوة لتخدم القوة النظرية .

(ب) العقل النظري (العلمي) : هو الذي يدرك المعقولات الكلية المجردة ، وهو الذي يتم به جوهر النفس ويصير جوهرًا عقليًا بالفعل ، وهو لا يخدم شيئًا آخر ، وإنما هو جُعِلَ لكي يبلغ به الإنسان السعادة . ويشبه الفارابي النفس الناطقة بمرآة ، ويشبه العقل النظري بصقالها ، وترتسم المعقولات فيها من الفيض الإلهي كما ترتسم الأشباح في المرايا الصقيلة ، إذا لم يفسد صقالها ، وإذا لم يعرض لها شغل مما تحتها من الشهوة والغضب والحس والتخيل . فإذا أعرضت عن هذه القوى الحيوانية ، واتجهت نحو عالم الأمر لحظت الملكوت الأعلى ، وحصلت على اللذة العليا أو السعادة العظمى^(٣) . ويلاحظ من ذلك تأثر الفارابي بالمذهب الأفلاطوني والأفلاطونية الحديثة .

والنفس الناطقة ليس لها رواضع وخدم من نوعها في أعضاء البدن ، وإنما رئاستها على القوة المتخيلة . ويذهب الفارابي إلى أن مركز العقل العمل هو أيضًا في القلب . أما العقل النظري فله مراتب ، سوف نتناولها فيما يلي :

العقل النظري ومراتبه

يشرح الفارابي في « رسالة العقل » مراحل عملية الإدراك العقلي ، وهو يعبر عنها في صورة

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٣) فصوص الحكم ، ص ٨١-٨٢ .

أنواع أو مراتب للعقل ، كما فعل الكندي من قبل . ومن الواضح أن الفارابي ، مثل الكندي من قبل ، قد تأثر في نظريته في العقل بكل من أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والإسكندر الأفروديسي . وقد قال الفارابي بثلاث مراتب للعقل الإنساني سنذكرها فيما يلي :

١ - العقل الهيلولاني

إن العقل الإنساني الذي يحدث في بداية تكوين الإنسان هو عقل بالقوة ، أو عقل هيلولاني . ويعرفه الفارابي بأنه « نفس ما ، أو جزء من نفس ، أو قوة من قوى النفس ، أو شيء ما مادته مُعدّة أو مستعدة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها وصورها دون موادها فيجعلها كلها صورة لها أو صوراً لها . . . وتلك الصور المنتزعة عن موادها الصائرة صوراً في هذه الذات هي المعقولات »^(١) . ويعرفه الفارابي في موضع آخر بأنه « هيئة ما في مادة مُعدّة لقبول رسوم المعقولات »^(٢) . إنه عبارة عن استعداد في الإنسان لقبول المعقولات . وهذا العقل الهيلولاني يقابل العقل بالقوة ، أو العقل المادى عند الكندي والإسكندر الأفروديسي .

ويصير العقل الهيلولاني عقلاً بالفعل إذا حصلت فيه المعقولات . ولا يصبح العقل الهيلولاني عقلاً بالفعل من تلقاء نفسه ، بل يحتاج إلى شيء آخر ينقله من القوة إلى الفعل ، بأن يعطيه شيئاً ما بمنزلة الضوء الذي تعطيه الشمس للبصر ليصبح به البصر مبصراً بالفعل . ذلك الشيء هو العقل الفعّال ، وهو عقل مفارق عن المادة . وهو العقل العاشر في سلسلة العقول السباوية المفارقة بعد السبب الأول في مذهب الفارابي^(٣) .

٢ - العقل بالفعل أو العقل بالملكة

وحينما يؤثر العقل الفعّال في العقل الهيلولاني ، الذي يسميه الفارابي أيضاً العقل المتفعل ، تصبح المحسوسات المحفوظة في القوة المتخيلة معقولات في القوة الناطقة . ويحدث ذلك بأن يتسلط العقل الفعّال على صور المحسوسات المحفوظة في القوة المتخيلة (أو المصورة)^(٤) ، فيجردها عن لواحق المادة ويفيضها على العقل الهيلولاني المستعد لقبولها . ويسمى الفارابي المعقولات المستمدة من المحسوسات المحفوظة في القوة المتخيلة بالمعقولات الأولى ، وهي المعقولات المشتركة بين جميع الناس . وهذه المعقولات الأولى ثلاثة أصناف . صنف هو مبادئ

(١) الفارابي : « رسالة في العقل » . تحقيق الأب مورييس يويج ، ط ٢ . بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٣ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٦٢ . (٣) المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٤ .

(٤) تبيناً لتصنيف الحواس الباطنة الذي قال به الفارابي في « عيون المسائل » .

الهندسة العلمية ، مثل « الكل أعظم من الجزء » ، وأن « المقادير المتساوية للشئ الواحد متساوية » . وصنف هو المبادئ الأولية للأخلاق ، والتي يعرف بها الناس الجميل والقيح من السلوك . وصنف هو المبادئ التي يستعين بها الإنسان في معرفة أصول الموجودات الخارجة عن نطاق فعل الإنسان مثل السبب الأول ، والسماوات ، وسائر المبادئ الأخر ، وما من شأنه أن يحدث عن تلك المبادئ^(١).

فإذا انطبعت المعقولات التي انتزعت من المادة في العقل الهيلولاني أصبح عقلاً بالفعل ، أو عقلاً بالملكة ، وأصبحت هذه المعقولات معقولات بالفعل . وحينما تنطبع المعقولات في العقل تصبح جزءاً منه ، وتصور ملكة له ، ولذلك يُسمى العقل بالفعل عقلاً بالملكة . ويشبه الفارابي العقل الهيلولاني بالصحيفة التي تكون رسالة بالقوة قبل أن يُكتب عليها شيء بالفعل ، ولكنها تصبح رسالة بالفعل بعد أن يُكتب عليها^(٢).

والعقل بالفعل أو بالملكة هو بالفعل أو بالملكة بالنسبة لما يعقله من معقولات ، وأما ما لم يعقله منها فإنها تكون بالنسبة له بالقوة .

٣- العقل المستفاد

وحينما يصبح العقل بالفعل حاصلاً على المعقولات كلها ، ويصبح قادراً على إدراك المعقولات المجردة من المادة ، والصور المفارقة للمادة كالعقول الساوية ، فإنه يصبح حينئذٍ عقلاً مستفاداً . ولا يبلغ العقل بالفعل درجة العقل المستفاد إلا بعد أن تحصل له المعقولات كلها أو جلها معقولة بالفعل^(٣) . والعقل المستفاد أعلى مرتبة من العقل بالفعل ، وهو أشد منه مفارقة للمادة ، وأقرب من العقل الفعال ، وليس بينه وبين العقل الفعال شيء آخر ، وهو أعلى مرتبة يصل إليها العقل الإنساني . وبما أن العقل المستفاد في غنى عن المادة ، وهو يدرك الصور المفارقة مباشرة عن العقل الفعال ، فإنه هو الجزء من النفس الذي لا يتلف بتلف المادة ، وهو الإنسان على الحقيقة ، وهو الذي يخلد بعد فناء البدن^(٤).

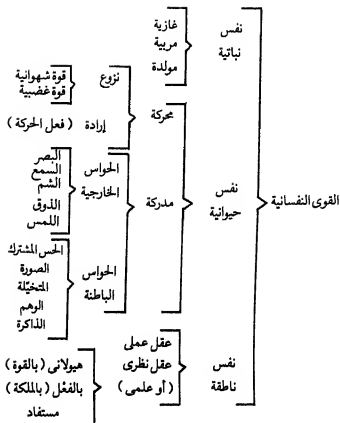
ويمكن تلخيص تصنيف القوى النفسانية عند الفارابي في التخطيط التالي :

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٦٤-٦٦ .

(٢) جوزف هاشم : مرجع سابق ، ص ١٢٤ ؛ محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٦٥ .

(٣) « رسالة في العقل » ، ص ٢١-٢٢ .

(٤) « عيون المسائل » ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ؛ محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٦٥-٢٦٦ .



شكل ١ - تخطيط يبين تصنيف القوى النفسانية عند الفارابي

وحدة النفس الإنسانية

مع أن الفارابي يقول بوجود قوى مختلفة للنفس الإنسانية ، كما رأينا سابقاً ، إلا إن هذه القوى ليست مستقلة بعضها عن بعض ، بل إنها متفاعلة بعضها مع بعض بحيث تكوّن نفساً واحدة . ويرتب الفارابي قوى النفس في سلسلة متدرجة من أدنى هذه القوى وهي القوة الغذائية ، إلى أعلاها مرتبة وهي القوة الناطقة ، بحيث تخدم كل قوة منها ما فوقها ، وتكون مرؤوسة لها . فالقوة الناطقة رئيسة القوة المتخيلة ، والقوة المتخيلة رئيسة القوة الحاسة ، والقوة الحاسة رئيسة القوة الغذائية ، والقوة الغذائية جعلت لخدمة البدن . وكل قوة مرؤوسة من هذه القوى تقوم بخدمة القوة التي ترأسها . وقد جعلت القوة الحاسة والقوة المتخيلة ؛ لتخدما البدن ولتخدما القوة الناطقة . وإن خدمة هذه القوى الثلاث الغذائية والحاسة والمتخيلة للبدن إنما هي راجعة إلى خدمة القوة الناطقة التي لا قوام لها إلا بالبدن^(١).

ويذهب الفارابي أيضاً إلى أن القوة النزوعية تعمل أيضاً في تفاعل واتساق مع القوى المدركة الحاسة والمتخيلة والناطقة . يقول الفارابي : « وأما النزوعية فإنها تابعة للحاسة الرئيسة والمتخيلة والناطقة على جهة ما توجد الحرارة في النار تابعة لما تتجهر به النار »^(٢). ويعني بذلك أن النزوع قد يتعلق بأشياء حسية ، أو متخيلة ، أو معقولة ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن القوة النزوعية .

نظرية المعرفة

يذهب الفارابي إلى أن منافذ المعرفة هي الحواس ، وأن معرفة الكليات لا تتم إلا عن طريق معرفة الجزئيات أولاً . يقول الفارابي : « وحصول المعارف للإنسان يكون من جهة الحواس ، وإدراكه للكليات من جهة إحساسه بالجزئيات ، ونفسه عالمة بالقوة ، والحواس هي الطرق التي تستفيد منها النفس المعارف الإنسانية »^(٣). ولكن الإدراك الحسي لا يطلعنا على حقائق الأشياء ، وإنما يطلعنا فقط على ظواهر الأشياء . أما الكليات وحقائق الأشياء فلا نحصل لنا إلا بالعقل .

وقد سبق أن ذكرنا أثناء كلامنا عن مراتب العقل عند الفارابي أنه يوجد في الإنسان استعداد فطري ويهيئ لتجريد الكليات من صور المحسوسات الجزئية المحفوظة في « المتخيلة » بمعونة

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥١-٥٢ ، ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) الفارابي : التعليقات ، ص ٣-٤ ، عن جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، ط ٢ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٣ .

العقل الفعّال ، فينتقل العقل بالقوة إلى العقل بالفعل ، ثم إلى مرتبة العقل المستفاد الذي تكون فيه جميع المعقولات معقولة له بالفعل ، والذي تفيض إليه من العقل الفعّال قوة تمكنه من إدراك المعقولات إدراكاً مباشراً .

ويذهب الفارابي إلى أن « العقل الفعال يجمع في ذاته كل الصور فيرسلها إلى عالم الحس ليكسوها المادة ، كما يرسلها إلى العقل الإنساني ليولد فيه المعرفة ، وبين الصور التي في العقل الإنساني والصور التي في عالم الحس مطابقة تامة تجعل المعرفة يقينية . ومرد هذه المطابقة إلى صدور جميع الصور الحسية والعقلية عن العقل الفعال . وغاية العقل الإنساني أن يتصل بهذا العقل المفارق ويشبه به . ومعنى ذلك أن المعرفة اليقينية لا تحصل إلا بفيض من العقل الفعال الذي هو واهب المعرفة وواهب الصور ، فهي ، إذن ، معرفة إشراقية »^(١) . ويقول جعفر آل ياسين في هذا الصدد : « فكان النفس في عملية الإدراك المنتظمة هذه تبدأ مع الحس لتنتهي إلى ما هو خلف الحس ، إلى رتبة العقل المستفاد ، بحيث متى كان لها الاستعداد التام بلغ هذا العقل رتبة العقل الفعّال بلا واسطة ، فيمنحها هذا الأمر قوة إدراك الكليات بشكل مباشر ، فتتفق عندئذ صور العالم الجزئي مع المعقولات المجردة ، باعتبار أن العقل الفعال هو الأول والآخر في هذه المعرفة الإنسانية سواء كانت حسية أو عقلية . . »^(٢) . ويلاحظ من ذلك تأثير الفارابي الواضح بكل من أرسطو والأفلاطونية الجديدة ، وقام بالتوفيق بينها ، فقال بالمعرفة الحسية مثل أرسطو ، وقال بالمعرفة التي تفيض من العقل الفعّال مثل الأفلاطونية الجديدة .

السعادة

السعادة عند الفارابي هي بلوغ الإنسان استكمالها الأخير ، وهو مرتبة العقل المستفاد ، بحيث يكون أهلاً لأن تفيض عليه جميع المعقولات من العقل الفعّال . فيفعل التعقل ، إذن ، هو الفعل الذي يحقق للإنسان السعادة . يقول الفارابي : « حصول المعقولات الأولى للإنسان هو استكمالها الأول . وهذه المعقولات إنما جُمِعت ؛ ليستعملها في أن يصير إلى استكمالها الأخير . وذلك هو السعادة ، وهي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البرينة عن الأجسام ، وفي جملة الجوواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبدياً ، إلا أن رتبته تكون دون رتبة العقل الفعّال »^(٣) . واتصال

(١) جميل صليبا : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٢) جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان ، مرجع سابق ، ص ١١٧-١١٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥-٦٦ .

العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وتقيل فيض المعقولات منه ، هو ما يكون الخير الأعظم ، وأعظم سعادة يمكن أن يصل إليها الإنسان ، وليست هناك سعادة أعظم منها . وهذه السعادة ، كما يقول الفارابي : « . . هي الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلاً ولا في وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر ، وليس وراءها شيء آخر يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها » (١) .

ويبلغ الإنسان السعادة « بأفعال إرادية ، بعضها أفعال فكرية ، وبعضها أفعال بدنية ، وليست بأى أفعال اتفقت ، بل بأفعال محدودة مُقدرة تحصل عن هيات ما ، وملكات ما مُقدرة محدودة . والأفعال الإرادية التى تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة . والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال الجميلة هي الفضائل . وهذه خيرات هي لا لأجل ذواتها ، بل لأنها هي خيرات لأجل السعادة . والأفعال التى تعوق عن السعادة هي الشرور ، وهي الأفعال القبيحة . والهيئات والملكات التى عنها هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والحسائس » (٢) .

وبما أن الفارابي يذهب إلى أن فعل التعقل هو الفعل الذى يتحقق به أعظم سعادة للإنسان ، من جهة ، وبما أنه يذهب أيضاً إلى أن الفضائل هي مصدر الأفعال الإرادية الجميلة التى تنفذ في بلوغ السعادة ، من جهة أخرى ، فإننا ، إذن ، يمكن أن نستنتج من ذلك أن الفارابي يرى وجود علاقة وثيقة بين الأخلاق والمعرفة العقلية . فالأفعال الإرادية الجميلة التى تدل على الأخلاق الجميلة أمر ضرورى في صفاء النفس الإنسانية ، وفي ترقياها في مراتب التعقل حتى نصل إلى مرتبة العقل المستفاد الذى هو أهل لتقبل فيض المعقولات عليه من العقل الفعّال ، وهذا هو الكمال الذى تسعى النفس الإنسانية إلى تحقيقه ، وهو الذى يحقق لها أعظم السعادة .

ويتضح لنا من فلسفة الفارابي بعامة ، ومن نظريته في السعادة بخاصة ، ومن ميله في حياته الشخصية إلى التقشف والزهد والوحدة والامتناع عن التأمل ، يتضح لنا نزعة الروحية ، واتجاهه الصوفي . غير أن تصوف الفارابي يختلف عن تصوف الصوفية ، حيث أن تصوفه نظري علمي ، فبالعلم نصل إلى السعادة ، بينما يذهب الصوفية إلى أن السبيل إلى السعادة هو التقشف والحرمان من اللذات البدنية (٣) .

ويمكن أن نجد البذور التى استمد منها الفارابي نظريته في السعادة عند كل من أرسطو

-
- (١) المرجع السابق ، ص ٦٦ ، الفارابي : « التنبيه على حصول السعادة » في « رسائل الفارابي » . حيدر آباد الدكن بالهند : طبعة مجلس دائرة المعارف العشائية ، ١٣١٦ هـ - ١٩٢٦ م ، ٢ - ٣ .
 (٢) آراء أهل المدينة الفاصلة ، ص ٦٦ - ٦٧ .
 (٣) إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، ط ٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨ ، ص ٤٠ - ٤١ .

والأفلاطونية الجديدة . ففينا يتعلق بأرسطو ، فقد قال في شرحه للخير الأسمى في الكتاب العاشر من « الأخلاق النيقوماخية » : « إنه فضيلة تتكون في الوحدة وفي التأمل العقل ، وتحالف الفضائل الإنسانية الأخرى المتعلقة بالجسم . هو قوة تأملية تكتفى بنفسها وتدرك الحق المطلق ، وفضيلة عليا لأنه يتصل بأسمى شيء في الإنسان وهو العقل ؛ وباختصار هو فضيلة الفضائل لأنه يصدق على الجانب القدسي حقيقة في الإنسان »^(١) . وفيما يتعلق بالأفلاطونية الجديدة ، فيلاحظ أن « الاتصال الذي يقول به الفارابي لا يختلف كثيرا عن « الأكستاسيس » أو الجذب الذي قالت به مدرسة الإسكندرية . فالأثنان يعتمدان على التأمل والنظر ، وينتجان هيأما وغبطة تخرج بنا من العالم الحسي والمادة إلى نور الحقيقة واليقين . . . ومتى وصل المرء إلى مرتبتها أحس بسعادة تجلّ عن الوصف لا نهاية لها »^(٢) .

وقد أثرت نظرية الفارابي في السعادة في أفكار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين . « فالعقل المقدس » الذي تكلم عنه « ألبيير الكبير Albert Le Grand » و « توماس الأكويني Saint Thomas d'Aquin » هو في الغالب مستمد من « الروح القدسية » التي قال بها الفارابي من قبل^(٣) . وقد عرف فلاسفة القرون الوسطى المسيحيون نظرية السعادة الفارابية مما ترجم من كتب الفارابي ووسائله إلى اللغة اللاتينية ، وعن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رشد ، وعن كتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون الذي عرف الغرب عن طريقه كثيرا من آراء الفلاسفة المسلمين^(٤) . وقد امتد أثر نظرية السعادة الفارابية إلى بعض فلاسفة العصور الحديثة مثل اسبنوزا Spinoza الذي يذهب إلى أن كمال النفس البشرية في أن تنزع إلى الله دائما ، وتتجه نحوه وتجه ، وتجد في حبه لذة لا تنقطع ، وغبطة تجلّ عن الوصف^(٥) .

المشامات وأسبابها^(٦)

إن القوة المتخيلة متوسطة بين الحاسة والناطقة ، وتقوم بخدمة كل منهما ، كما أنها تقوم أيضا بخدمة القوة النزوعية . وحينما يتوقف نشاط هذه القوى الحاسة والناطقة والنزوعية أثناء النوم ، وتتخلّى القوة المتخيلة عن خدمة القوة الناطقة والقوة النزوعية ، فإنها تتجه إلى رسوم المحسوسات

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٣) Gilson : Archives, T. IV, p. 74 (٣) عن إبراهيم مذكور : مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(٤) إبراهيم مذكور : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ٦٧ .

(٦) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٦٨ - ٧٤ .

المحفوظة لديها فتقوم بفعلين أو وظيفتين : هما التركيب ، والفصل . فتركَّب بعض المحسوسات إلى بعض ، وتقتصل بعضها عن بعض . وللمتخيلة ، إلى جانب هاتين الوظيفتين ، وظيفة ثالثة هامة هي المحاكاة . وهى تقوم بالمحاكاة عن طريق تركيب رسوم المحسوسات المحفوظة لديها وفقاً للتأثيرات التى تقع عليها أثناء النوم . فهى أحياناً تحاكي الأشياء المحسوسة بالحواس الخمس بالفعل ، وأحياناً أخرى تحاكي المعقولات ، وأحياناً تحاكي القوة النزوعية ، وأحياناً تحاكي القوة الغاذية ، وأحياناً تحاكي ما يكون عليه البدن من حالات مزاجية . ويلاحظ أن ما قاله الفارابى عن حدوث الأحلام عن تأثير المحسوسات الخارجية ، قد أيدته البحوث التجريبية الحديثة التى قام بها كثير من الباحثين^(١) . فمثلاً ، قد يحلم النائم الذى يشعل بجانيبه ضوء أنه يشاهد احتراق شئ ما . ويذكر الفارابى أمثلة من المنامات التى تحاكي فيها المتخيلة ما يكون عليه البدن من حالات مزاجية تقرب كثيراً مما وصلت إليه الأبحاث العلمية الحديثة التى تبين تأثير الحالات الفسيولوجية للبدن في حدوث الأحلام . ومن الأمثلة التى يذكرها الفارابى أنه إذا ما تصادف أن كان مزاج البدن رطباً حاكت المتخيلة هذه الرطوبة بأحلام فيها المياه والسباحة . وإذا كان مزاج البدن يابساً أو حاراً أو بارداً ، حاكت المتخيلة ذلك بالمحسوسات التى من شأنها أن تحاكيها بها الببوسة ، أو الحرارة ، أو البرودة . ولما كانت القوة المتخيلة لا تقبل المعقولات كما هى فى القوة الناطقة ، فإنها إذا تلقت من القوة الناطقة معقولات فإنها تحاكيها بها لديها من محسوسات ، «فتحاكي المعقولات التى فى نهاية الكمال ، مثل السبب الأول والأشياء المفارقة للمادة والسموات بأفضل المحسوسات وأكملها مثل الأشياء الحسنة المنظر . والمعقولات الناقصة بأخس المحسوسات وأنقصها مثل الأشياء القبيحة المنظر»^(٢) . وإذا صادف أن كانت القوة النزوعية مستعدة لفعل تغلب عليه حالة انفعالية معينة كالغضب أو الشهوة ، مثلاً ، فإن المتخيلة تقوم بمحاكاة الأفعال التى من شأنها أن تكون مماثلة للحالة التى توجد عليها القوة النزوعية . وربما دفعت القوة المتخيلة أعضاء البدن للقيام بالأفعال التى تقوم بها هذه الأعضاء عادة إذا وجدت الحالة التى عليها القوة النزوعية .

ويختلف رأى الفارابى عن رأى أرسطو فى تفسير أسباب الأحلام ، إذ يذهب الأخير إلى أنه ينتج عن عمليات الإحساس تأثيرات تبقى فى أعضاء الحواس الخارجية ، فتنتقل هذه التأثيرات بوساطة الدم إلى مركز الإحساس الداخلى فى القلب ، حيث يحدث عنها التخيل والأحلام^(٣) .

(١) Vaschide : Je Sommeil et La Reves : Paris , 1920, ch II., p. 114,136, 197 (١١)

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٧٢ .

(٣) Aristote : De Insomniis, ch. III, 4606 30-46 16(٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفارابى قال ، مثل الكندى من قبل ، بالرمزية في الأحلام والرؤى ، وأن الأشياء المحسوسة التى يراها النائم في بعض الأحلام والرؤى إنها هى رموز لأشياء أخرى تأثرت بها المتخيلة أثناء النوم ، سواء كانت هذه الأشياء محسوسات ، أو معقولات . يقول الفارابى عن القوة المتخيلة إنها : « . . . تقبل المعقولات بما يحاكيها من المحسوسات التى تركبها هى . وتقبل المحسوسات أحياناً بأن تتخيلها كما هى ، وأحياناً بأن تحاكيها بمحسوسات أخر »^(١) . فمحاكاة المعقولات بمحسوسات ، أو محاكاة المحسوسات بمحسوسات أخرى ، إنها يعنى محاكاتها برموز تحل محلها ، أو تكون بديلة عنها ، ويحتاج الأمر لفهم معنى الحلم ، أو الرؤيا تفسير هذه الرموز لفهم دلالاتها . ويقول الفارابى في هذا المعنى عن الأفراد الذين تقبل القوة المتخيلة لديهم أشياء من العقل الفعال أثناء النوم : « وهؤلاء تكون أقوالهم التى يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزاً وألغازاً وإبدالات وتشبيهات »^(٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن الفارابى قد قال بوظيفة الأحلام الهامة في التنفيس عن الدوافع وال رغبات ، وهى الفكرة التى اهتم بها سيجموند فرويد والمحللون النفسون فيما بعد في تحليلهم للأحلام وتفسيرها . يتضح ذلك من قول الفارابى الذى ذكرناه سابقاً من أن المتخيلة تقوم بمحاكاة الأفعال التى من نشأتها أن تكون مماثلة للحالة التى توجد عليها القوة التزوجية . وربما دفعت القوة المتخيلة أعضاء البدن للقيام بالأفعال التى تقوم بها هذه الأعضاء عادة إذا وجدت الحالة التى عليها القوة التزوجية .

ويلاحظ أن ابن سينا قد تأثر كثيراً بآراء الفارابى في أسباب الأحلام ، فقد وردت معظم آراء الفارابى في الأحلام في كتابات ابن سينا فيما بعد في هذا الموضوع . فقد قال ابن سينا ، مثل الفارابى ، بفكرة حدوث الأحلام حينما يضعف انشغال المتخيلة أثناء النوم بكل من القوة الحاسة والقوة الناطقة . كما قال أيضاً ، مثل الفارابى ، بتأثير الحالات الفسيولوجية للبدن في حدوث الأحلام . وقال أيضاً ، مثل الفارابى ، بقيام المتخيلة بمحاكاة ما يقع عليها من تأثيرات أثناء النوم^(٣) .

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٣) ابن سينا : الشفاء : جورج قنوانى وسعيد زايد ، ومراجعة إبراهيم بيومى مذكور - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ؛ ابن سينا : الإشارات والتنبيهات القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٢٥ هـ - ج ١ ، ص ١٣٠ ، ١٣٣ ؛ انظر أيضاً : محمد عثمان نجاتى : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ - ٢١٥ .

وأشباههم من المرضى العقليين^(١) . وهكذا يفرّق الفارابي بين الوحي والهلوسة ، على أساس أن الوحي هو تقبل المتخيلة من العقل الفعّال أشياء لها وجود بالفعل ، ومحركاتها بما يناسبها من محسوسات ، بينما الهلوسة هي تخيل أمور ليس لها وجود بالفعل ، ولا هي محاكاة لأشياء موجودة بالفعل . وهذا يتفق مع تعريف علماء النفس المحدثين للهلوسة .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧ .

الفصل الرابع مَسْكُويَه

(٤٢١ هـ - (١٠٣٠ م))

حياته

هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه ، ويطلق عليه اسم أبي علي الخازن ، ولُقِّبَ بالخازن ؛ لأنه كان خازناً للكتب عند الملك عضد الدولة بن بويه الذي حكم من سنة ٣٦٧ إلى ٣٧٢ هـ . وكان مسكويه أثيراً عنده ، ومقرئاً إليه . ولد في « الرى » ، ويرجح مرجليوت أنه ولد حوالي سنة ٣٣٠ هـ أو قبل ذلك بقليل ، ويرجح عبد الرحمن بدوى أنه ولد في سنة ٣٢٠ هـ تقريباً ، إن لم يكن قبل ذلك ^(١) . وعمر طويلاً ، ومات في أصفهان عام ٤٢١ هـ - (١٠٣٠ م) . وكان مسكويه معاصراً لابن سينا . يقول القفطى : « قال أبو علي بن سينا في بعض كتبه ، وقد ذكر مسألة فقال : فهذه المسألة حاضرت فيها أبا علي بن مسكويه ، فاستعادها كرات . وكان عسر الفهم فتركته ، ولم يفهمها على الوجه » ^(٢) . ولقد تعرض مسكويه أيضاً للنقد من أبي حيان التوحيدى في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، فقال عنه إنه قصير الباع في الفلسفة النظرية لانشغاله عن تحصيلها بالاهتمام بالكيمياء وانشغاله بخدمة الحاكم بخزانة كتبه . ومع ذلك ، فقد قال عنه إنه ذكى ، حسن الشعر ، نقى اللفظ . وذكر ياقوت الحموى أن منصور الثعالبي قال عنه : إنه كان في الذروة العليا من الفضل ، والأدب ، والبلاغة ، والشعر ^(٣) .

وكتب مسكويه في الطب ، والتاريخ ، والأخلاق ، وعلم النفس . وكانت له أيضاً مشاركة

(١) أبو علي أحمد بن محمد مسكويه : الحكمة الخالدة . تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوى ، ط ٢ . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٠-٢١ .

(٢) القفطى : مرجع سابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ؛ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ ؛ هنرى كوريان : تاريخ الفلسفة الإسلامية . ترجمة نصير مروّة وحسن قبيسى . بيروت : منشورات عابدات ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦٥ .

(٣) ياقوت الحموى : معجم الأدباء . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩١ م ، ج ٢ ، ص ٣ ، ٤ .

في العلوم اللغوية والأدبية والعلوم القديمة . ولذلك ، يعتبر مسكويه من الرعيل الأول بين أدباء العصر الموسوعيين ^(١) . ولقد تأثر مسكويه في كتاباته بأراء الفلاسفة اليونانيين ، أفلاطون ، وأرسطو ، وفورفوريوس ، وإنباقليس ، وغيرهم من الفلاسفة اليونانيين ، والأفلاطونية الجديدة . وترجع شهرة مسكويه في الأغلب إلى مذهبه الفلسفي في الأخلاق ، وهو ، كما يقول دى بور ، « مزيج من آراء أفلاطون ، وأرسطو ، وجالينوس ، ومن أحكام الشريعة الإسلامية ، غير أن نزعة أرسطو غالبية عليه » ^(٢) .

مؤلفاته

ذكر المؤرخون لمسكويه عدة كتب في الأخلاق ، والتاريخ ، والطب ، والأدب ، والحكم والأمثال ، والسير ^(٣) . والذي يهمننا من هذه الكتب هو كتبه الأخلاقية التي يتناول فيها مسكويه النفس الإنسانية وقواها . وقد وصلتنا من هذه ثلاثة كتب منشورة هي :

١ - « تهذيب الأخلاق » ، المسمى « بهتذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » . القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م . ولهذا الكتاب طبعة أخرى حديثة أصدرتها دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢ - الفوز الأصغر : تحقيق عبد الفتاح أحمد فؤاد . بنغازي ، ليبيا : دار الكتاب الليبي ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

٣ - السعادة : القاهرة : محمود على صبيح صاحب المكتبة المحمودية التجارية ، ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .

وهناك ثلاثة كتب أخرى تتعلق بالنفس ، ولكنها لا زالت مخطوطات لم تطبع بعد وهي :

٤ - « رسالة في اللذات والآلام في جوهر النفس » . توجد منها مخطوطة في مكتبة راغب باستانبول في المجموعة رقم ١٤٦٣ ^(٤) .

٥ - « أجوبة وأسئلة في النفس والعقل » ، في المجموعة السابق ذكرها في مكتبة راغب باستانبول ^(٥) .

(١) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) دى بور : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) يمكن معرفة أسماء هذه الكتب بالتفصيل في مقدمة عبد الرحمن بدوي لكتاب الحكمة الخالدة لمسكويه ، مرجع سابق ، ص ٢١-٢٥ ، أنظر أيضاً : القفطي ، ص ٢١٧ : وابن أبي أصيبعة ، ص ٣٣١ .

(٤) عبد الرحمن بدوي : مقدمة كتاب « الحكمة الخالدة لمسكويه » ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٦ - « طهارة النفس » ، مخطوط في كوبريلى برقم ٧٦٧ ، ومنه صورة في دار الكتب المصرية بالقاهرة (ط ٢ ، ج ١ ، ملحق : ٣٤)^(١).

آراؤه النفسية

اشتهر مسكويه بكتاباتهِ في الأخلاق ، ومن أشهر كتبه الأخلاقية كتاب « تهذيب الأخلاق » المسمى « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » . وقد قدم مسكويه لأرائه في الأخلاق ببحث في النفس ، لأنه كان يرى أن الطريق إلى تحصيل الأخلاق هو أن نعرف أولاً نفوسنا ، وما هي قواها وملكاؤها ، وما هي غايتها وكيالها^(٢).

النفس وقواها

يعرّف مسكويه النفس بأنها « جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الخواص »^(٣). إنها « ليست بجسم ، ولا بجزء من جسم ، ولا حال من أحوال الجسم ، وإنما شيء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله »^(٤). إنها من جوهر أعلى وأكرم وأفضل من كل ما في العالم من الأمور الجسائية^(٥).

ويذهب مسكويه ، مردداً في ذلك قول أفلاطون ، إلى أن للنفس الإنسانية ثلاث قوى هي : القوة الناطقة ، والقوة الغضبية ، والقوة الشهوية . ويلاحظ أن مسكويه يسمي هذه القوى الثلاث أيضاً ، مثل أفلاطون ، نفوساً . غير أنه لا يعنى بذلك أنها نفوس منفصلة مستقلة بعضها عن بعض ، بل هي نفوس متصلة بعضها ببعض ، وأنها إذا اتصلت صارت شيئاً واحداً . ومع أنها تكون شيئاً واحداً ، إلا أنها تُبقى على تغاير قواها ، فقد تثار إحداها ، وتكون الأخرى هادئة ساكنة . يقول مسكويه : « ولذلك قال قوم إن النفس واحدة ، ولها قوى كثيرة . وقال آخرون بل هي واحدة بالذات ، كثيرة بالعرض والموضوع . »^(٦) ، غير أن مسكويه لم يطل في شرح هذا الموضوع وتوضيحه ، لأنه ، كما قال ، يخرج عن غرضه في هذا الكتاب . وفيما يلي بيان بهذه القوى أو النفوس الثلاث .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) مسكويه : تهذيب الأخلاق ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ م ، ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦ - ٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٤ .

القوة الناطقة (أو النفس الناطقة)

هى التى يكون بها الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور . ومركزها فى الدماغ .

القوة الغضبية (أو النفس الغضبية)

ويسمىها مسكويه أيضًا النفس السبعية ، وهى التى يكون بها الغضب ، والتحدى ، والإقدام على الأحوال ، والشوق إلى التسلط ، والترفيع ، وضروب الكمالات . ومركز هذه القوة فى القلب .

القوة الشهوية (أو النفس الشهوية)

ويسمىها مسكويه أيضًا النفس البهيمية ، وهى التى تكون بها الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملاذ التى فى المآكل والمشارب والمناكح ، وضروب اللذات الحسية . ومركز هذه القوة فى الكبد .

والقوة الشهوية هى أدون هذه القوى ، والقوة الغضبية أوسطها ، والقوة الناطقة أشرفها ، والإنسان صار إنسانًا بها ، فيها يباين البهائم ، ويشارك الملائكة (١).

ويذكر مسكويه أن القدماء شبهوا الإنسان وحاله مع هذه القوى ، أو النفوس الثلاث بإنسان يركب دابة ويقود كلبًا للقتل . فإن كان الإنسان هو الذى يقود ويوجه وسيطر على الدابة والكلب ، وكاناطيعانه فى سيره وصيدته وسائر تصرفاته ، فلاشك أن الثلاثة يعيشون فى انسجام ، وفى رغد من العيش المشترك بينهم . أما إذا لم تطع الدابة فارسها ، وغلبته ، فإنها قد تعدو إلى جهات وعرة خطرة فتلتحق بفارسها وكلبه الهلاك . وكذلك إذا لم يطع الكلب الفارس ، فإن رأى من بعيد شيئًا يظنه صيدًا جرى نحوه ، وجذب معه الفارس ودابته ، فيلحق بهم جميعًا الضرر . وفى هذا المثال تنبيه إلى الأضرار التى تصيب الإنسان إذا لم تتحكم القوة الناطقة فى القوتين الغضبية والشهوانية (٢). ويلاحظ وجه الشبه بين هذا المثال والمثال الذى ذكره أفلاطون ، والذى شبه فيه العقل والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية بسائق يقود عربة يجريها جوادان ، أحدهما طيب والآخر خبيث .

ويصنف مسكويه قوى النفس فى مواضع أخرى تصنيفًا آخر ، يمزج فيه تصنيف كل من أفلاطون وأرسطو لقوى النفس ، كما ظهر فيه أثر الكندى والفارابى وإخوان الصفا ، فيضيف إلى قوى النفس الثلاث السابقة ، القوى النفسانية المدركة التالية .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ - ١٤ ، ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .

الحواس الخمس الظاهرة

وهي اللمس والذوق والشم والبصر والسمع . ويدرك كل منها محسوسات خاصة بها . وهي تحس بمحسوساتها المخالفة لها في الكيفية ، ومثال ذلك أن الذوق يحس بالرطوبة المختلفة في الكيفية لرطوبة اللسان . والهواء الموجود في تجويف الأذن له كيفية معينة ، فإذا طرقة هواء آخر فيه حركة وإقراع أحسَّ به الإنسان^(١) . ويلاحظ تأثير مسكويه بإخوان الصفا الذين قالوا : إن الحاسة تحس نتيجة التغيرات التي تحدثها المحسوسات في كيفية مزاج عضو الحاسة .

الحس المشترك

الحس المشترك هو القوة التي تجتمع فيها صور المحسوسات التي تدرکها الحواس الخمس الظاهرة ، وتولفها في ذاتها ، وتغيّر بينها ، ومركزها مقدم الدماغ .

القوة المتخيّلة

ويؤدي الحس المشترك صور المحسوسات إلى القوة المتخيّلة . ولم يشرح مسكويه بوضوح وظائف القوة المتخيّلة ، وإنما هو أشار بإيجاز إلى علاقة القوة المتخيّلة بالرؤى والأحلام^(٢) . ويلاحظ أنه حينما يتكلم عن عملية تركيب صور المحسوسات بعضها على بعض لتكوين أمور غير موجودة في الحقيقة ، مثل حيوان مركب من حمار ونعجة ، أو إنسان يطير ، وهي العمليات التي ينسبها الكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا إلى القوة المتخيّلة ، فإن مسكويه ينسبها إلى الوهم ، ولكنه لم يوضح صراحة ماذا يعنى بالوهم . فهل هو قوة نفسانية غير القوة المتخيّلة ، أم هو القوة المتخيّلة حينما تتخيّل أمورًا لا وجود لها في الحقيقة كتخيّل حيوان مركب من حمار ونعجة^(٣) . ويبدو أن الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الصحة . ومركز القوة المتخيّلة في جزء من مقدم الدماغ .

القوة الحافظة

وتؤدي القوة المتخيّلة صور المحسوسات إلى القوة الحافظة ، وهي كالحفازة التي تحفظ فيها صور المحسوسات لاستحضارها عند الحاجة إليها . ومركزها في الجزء المؤخر من الدماغ .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢-٢٣ .

(٢) مسكويه : الفوز الأصغر . تحقيق عبد الفتاح أحمد فؤاد . بنغازي ، ليبيا : دار الكتاب الليبي ، ١٩٤٧ م ، ص ٩٦-٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

قوة الفكر

قوة الفكر هي القوة التي تحدث فيها الروية والتوجه نحو العقل . ويختص الإنسان وحده بهذه القوة ، وبها يتميز عن سائر الحيوان . وعلى قدر حركة هذه القوة « واستقامتها ، وصحة نظرها ، وتمييزها ، تكون مرتبة الإنسان ، وتمييزه عن البهائم ، وعلى قدر استكمالها بالحركة ، وقبولها أثر العقل ، يكون مقداره من الإنسانية » (١).

إن قوة الفكر قوة نفسانية راقية تنظر في حصيلة المدركات الحسية ، وفي أوجه التشابه والاختلاف فيها ، وهي تسعى نحو معرفة أسباب الموجودات ومبادئها ، ولذلك يمكن القول أن عمل هذه القوة إنما هو عبارة عن تمهيد لعمل العقل الذي هو إدراك حقائق الأشياء . ويظهر فعل هذه القوة في البطن الأوسط من بطون الدماغ . ويلاحظ أوجه التشابه بين هذه القوة عند مسكويه وبين القوة المفكرة عند إخوان الصفا .

القوة العاقلة

تنقسم القوة العاقلة ، أو النفس الناطقة إلى جزئين ، أو إلى قوتين ، إحداهما العاملة ، والأخرى العاملة . ويتحقق للإنسان كماله الأول بالقوة العاملة ، « وهي التي يشتاق بها إلى العلوم ، فهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره ، وتصح بصيرته ، وتستقيم رويته ، فلا يغلط في اعتقاد ، ولا يشك في حقيقة ، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي الذي هو آخر مرتبة العلوم ، ويتق به ، ويسكن إليه ، ويطمئن قلبه ، وتذهب حيرته ، وينجل له المطلوب الأخير حتى يتحد به » (٢). ويتحقق للإنسان بالقوة العاملة كماله الثاني « وهو الكمال الخلقى ، ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب ، وحتى تتسلم هذه القوى فيه ، وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميّزة منتظمة مرتبة كما ينبغي » (٣). وإذا كمل الإنسان بكل من الجزء العلمي (أو النظري) ، والجزء العملي من قوته العاقلة ، فقد سعد الإنسان السعادة التامة (٤). ويلاحظ أن كلام مسكويه عن جريئ القوة العاقلة قريب مما قاله عنهما الفارابي وابن سينا .

نظرية المعرفة

يذهب مسكويه إلى أن الإنسان يدرك حقائق الأمور بنحوين ، أو على طريقين : أحدهما هو

(٢) تهذيب الأخلاق ، ص ٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

طريق الحواس الخمس ، ويشاركها فيه الحيوان . والآخر هو طريق العقل ، وهو ما يختص به الإنسان ، ويتميز به عن الحيوان . وهذا الإدراك العقلي لا يكاد يخلص للإنسان دون أن يشوبه الإدراك الحسي ، إلّا بالرياضة الطويلة ^(١) . وذلك لأننا إذا « أردنا أن ننظر في المعنى العقلي لنذكره ، عارضتنا تلك الصور الحسية في أوهامنا ، لغلبتها علينا ، وإلغينا لها ، فلم تدعنا وما نرومه من ذلك » ^(٢) . ولكن بالتدريب على الرياضيات ، وإدمان النظر إلى المعقولات ، والانقطاع عن الحس على قدر الإمكان ، ظهر لنا شرف المعقولات وفضلها على المحسوسات ، « وظهر لنا أن المحسوس عند العقل ، بمنزلة الشيء الموه عند الشيء المحقق » ^(٣) . فالمحسوسات كلها متبدلة سيّالة ، لا تلبث على حال واحدة ، فإذا أدرك الحس شيئاً منها ، لم يلبث أن يتبدل ويتغير . أما المعقولات فهي ثابتة ، وغير متغيرة .

ويذهب مسكويه إلى أن في النفس معرفة عقلية أولية ليست مستمدة من الحواس ، تستطيع بها النفس أن تدرك الصادق والكاذب من الإحساسات ، وأن تميز بين المحسوسات ، وتدرك ما فيها من أسباب الاختلافات وأسباب الاتفاقات ، وتدرك أخطاء الحواس وتردّ عليها أحكامها . فالبصر ، مثلاً ، يخطئ في إدراكه الشمس صغيرة وهي أكبر من الأرض مائة وثيقاً وستين مرة . ويخطئ في إدراك الأشياء التي تتحرك على الاستدارة فيراها كالحلقة والطورق . ويخطئ في إدراك الأشياء الغائصة في الماء فيرى بعضها مكسوراً وهو صحيح ، وبعضها معوجاً وهو مستقيم ، وبعضها منكسراً وهو منتصب ، « فيستخرج العقل أسباب هذه كلها من مبادئ عقلية ، ويحكم عليها أحكاماً صحيحة » ^(٤) . فالعقل ، إذن ، يشرف على عمل الحواس ويصحح أخطاءها . وإذا علمت النفس أن الحس قد أخطأ ، فهي ليست تستمد هذا العلم من الحس ، وإنما تستمده من ذاتها ^(٥) ، أي من المعرفة العقلية الأولية الموجودة فيها .

ويشرح مسكويه تدرج عملية اكتساب المعرفة عن طريق الحس ، ويبدأ بإدراك الحواس الخمس الظاهرة لمحسوساتها ، وتجمع هذه المحسوسات في الحس المشترك ، ثم انتقلها إلى القوة المتخيلة ، ثم إلى القوة الحافظة . وكل هذه المستويات من الإدراك يشترك فيها الحيوان مع الإنسان . وهناك قوة أخرى للنفس يختص بها الإنسان ، ولا توجد في الحيوان ، هي قوة الفكر ، التي تقع

(١) الفوز الأصغر ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) تهذيب الأخلاق ، ص ٧ - ٨ ، الفوز الأصغر ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) تهذيب الأخلاق ، ص ٨ .

فيها حركة الروية والتوجه نحو العقل ، وإدراك حقائق الأمور التي في العقل ، وبوصول الإنسان إلى هذه المرتبة تُستكمل فيه صورة الإنسانية ، ويبلغ غاية أفقه (١).

وإذا بلغ الإنسان هذا المقام ، « كان متعرّضاً لإحدى منزلتين : فلما أن يرتقى فيه أبداً ترقياً طبعياً ، ومعنى ذلك أن يديم الفكرة مدة حياته في جميع الموجودات ، لينال حقائقها بقدر طاقة البشر ، فيقوى هاجسه ، ويمتدّ نظره ، وتلوح له الأمور الإلهية ، فتقرر في نفسه ، وتلوح أوضح من الأمور الأوائل ، التي تسمى بدائه العقول ، ولا يحتاج منها إلى قياس برهاني ، لأن البرهان هو تدرّج من الأوائل ، وهذا التلوّح في العقل أعلى منه وأنور وأبهى . . . وإما أن تأتية تلك الأمور من غير أن يرتقى فيها ، بل تنحط تلك إليه لاتصالها . ومثال ذلك : أن الإنسان إنما ارتقى من قوة الحس إلى قوة التخيل ، إلى قوة الفكر ، ومن قوة الفكر إلى إدراك حقائق الأمور التي في العقل ، وذلك أن هذه القوى متصلة اتصالاً روحانياً . . . فربما عرض لها من قوة قبول بعضها من بعض الآثار ، أن تنعكس في بعض الأمزجة ، منحطة كما تصاعدت ، على سبيل الفيض ، فيؤثر حيثنّ العقل في القوة الفكرية ، وتؤثر القوة الفكرية في القوة المتخيلة ، وتؤثر القوة المتخيلة في الحس ، فيرى الإنسان أمثلة من الأمور المعقولة ، أعنى حقائق الأشياء ومبادئها وأسبابها ، كأنها خارجة عنه ، وكأنها يراها بنظره ويسمعها بأذنه ، كما أن النائم يرى أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة ، ويظن أنه يراها في الخارج » (٢).

والطريق الأول للمعرفة هو الطريق الصاعد من الحس إلى العقل ، وهو طريق الحكماء والفلاسفة . أما الطريق الثاني ، وهو الهابط من أعلى ، والذي تفيض فيه الحقائق من الحق إلى عقل الإنسان ، ثم إلى القوة الفكرية ، ثم إلى القوة المتخيلة ، ثم إلى الحس ، فهو الطريق الذي تصل به المعرفة إلى الأنبياء . ويرى مسكويه اتفاق الحقائق التي يتوصّل إليها عن هذين الطريقين (٣).

ويلاحظ التشابه الكبير بين كل من مسكويه والفارابي في القول بطريقتين للمعرفة ، أحدهما صاعد من الحس إلى العقل ، والآخر هابط من العقل الفعّال ، أو من الحق إلى عقل الإنسان ، ثم إلى الحس . كما يلاحظ التشابه بينهما في الدور الذي تقوم به القوة المتخيلة في الأحلام والرؤى والوحي .

(١) الفوز الأصغر ، ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

الأحلام والرؤيا الصادقة والنبوة

حينما تتعطل الحواس أثناء النوم ، وتتوقف عن إدراك المحسوسات الخارجية ، فإن النفس ، ممثلة في القوة المتخيلة تتجه إلى صور المحسوسات التي أدركتها من قبل ، واحتفظت بها في القوة الحافظة ، وتقوم بتصنيفها واستعراضها . وربما تقوم بتركيب بعضها على بعض ، فتتكون من ذلك أشياء غريبة ، كان يرى الإنسان نفسه في المنام يطير ، أو كأن جلاً مركباً على طائر ، أو ثوراً على بدن إنسان ، وغير ذلك من أنواع التركيبات الكثيرة الباطلة التي تسمى أضغاث أحلام . أما إذا اتجهت النفس في حال النوم نحو العقل ، ولم تشتغل بصور المحسوسات المخزونة في القوة الحافظة ، فإنها ترى الأشياء التي ستحدث في الكون في المستقبل . « فإذا كان لها هناك حظ من هذا المعنى وافر ، كان ما تراه صادقاً بغير تأويل ، لأنها ترى الشيء بعينه . وإن كان الحظ قليلاً ، كان ما تراه مرموزاً يحتاج إلى تأويل . وهذه الحال بعض أحوال النبوة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تكون هذه حاله في يقظته ونومه ، وتكون مستمرة له . فأما غيره من الناس ، فإنه يعرض لهم ذلك في النوم ، وفي بعض الأحيان » (١) . إن النبي تلوح له حقائق الأمور فائضة عليه من الحق ، وهو لا يرتقى إليها من أسفل بالتعليم والتدريج (٢) .

وهذه الحقائق التي تأتي إلى النفس من فوق حقائق مجردة من الهيولى ، وتدرکہا النفس بقوتها المميزة ، أعنى العقل . وينتقل أثر هذه الحقائق من قوة إلى أخرى حتى ينتهي إلى أقصى قواه من أسفل ، التي هي في أفق الحيوان ، وهما حاستا البصر والسمع ، فهما أبسط وأقل مغالطة للهيولى ، وهما تقبلان صور الأمور من غير استحالة إليها . فإذا انتهت هذه الحقائق إلى هاتين الحاستين صار فيها ظل من الهيولى ، وهي لا تتجاوز هاتين الحاستين ، لأنه ليس في طاقة الحواس الأخرى أن تقبلها (٣) .

ويلاحظ أن مسكويه قد تأثر كثيراً بآراء الفارابي في الأحلام والرؤيا الصادقة والوحي ، فإن آراءه فيها هي في أساسها نفس آراء الفارابي . ويلاحظ كذلك أن رأى مسكويه في الوحي والنبوة قريب أيضاً من رأى إخوان الصفا .

السعادة

يذهب مسكويه إلى أن سعادة كل موجود إنما هو في صدور أفعاله التي تخصه على نحو تام وكامل . وعلى ذلك ، فسعادة الإنسان تكون في صدور أفعاله الإنسانية التي تخصه ، وتحقق

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٧-١٠٨ .

كماله، وهى التمييز، والروية، والحكمة^(١). وللحكمة جزءان: نظرى وعملى. فبالنظرى يمكن تحصيل الآراء الصحيحة. وبالعمل يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة^(٢). فمن يريد أن يحصل السعادة، إذن، فعليه أن يستكمل هذين الجزئين من الحكمة. وتحصيل الجزء النظرى من الحكمة يتم بدراسة جميع العلوم، ومعرفة جميع الموجودات حتى يتجلى له المطلوب الأخير، وهو المبدع لجميع الموجودات. وتحصيل الجزء العملى من الحكمة يتم بدراسة كتب الأخلاق التى تهذب بها النفس، ويتحقق بها كماله الخلقى، وذلك «بترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب، وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغى»^(٣). فإذا استكمل الإنسان هذين الجزئين من الحكمة، فقد سعد السعادة التامة^(٤).

ويشرح مسكويه الطريق الموصلى إلى تحصيل السعادة، فيقول: إن من عرف الموجودات كلها مبتدئاً بمعرفة تركيب عالمنا هذا، والقوى الكثيرة المدبّرة له، «ويرى اتصال هذه القوى بعضها ببعض، وتبديل بعضها لبعض، وارتفاعها كلها على نظام فى غاية الحكمة إلى عالم آخر... روحانى بسيط مشتمل بالتبديل على جميع ما كان رآه فى العالم الأول، محيط به إحاطة تقدير وتصدير، سارٍ فيه سرّاً روحانياً كسريان تلك القوى فى الأجسام الطبيعية من غير حاجة إليها، بل هى المحتاجة إليه»^(٥).

«فإذا أنس بالنظر إلى هذا العالم أيضاً، وقوى بصره فيه، شاهد أيضاً من عجائب الحكمة وآثارها ما هو ألطف وأغرب، وعجب مما كان شاهده، ورأى ارتباط تلك الآثار بعضها ببعض، وتبديل بعضها لبعض ولاح له منها عالم آخر... محيط بهذا العالم الثانى كإحاطة الثانى بالأول، أعنى أنه غير جسائى، ولا يحتاج إلى مكان، بل يشتمل عليه بالتبديل والتقدير كاشتغال الثانى على الأول، ويمدّه بالقوى كإمداد الثانى للأول، ويسرى فيه ذلك السريان اللطيف الذى يجرى منه مجراه من الأول، إلا أنه أشدّ بساطة»^(٦).

فإذا أنس أيضاً بهذا العالم الثانى، لاح له ثالث نسبته إلى الثانى كنسبة الثانى إلى الأول. وحينما يرى عجائب آثار الحكمة فى كل عالم من هذه العوالم، يرتقى فيه إلى ما فوقه ليرى علته

(١) تهذيب الأخلاق، ص ١٣، ٣٣-٣٥.

(٢) الفوز الأصغر، ص ٦٦.

(٣) تهذيب الأخلاق، ص ٣٣.

(٤) الفوز الأصغر، ص ٩٧، انظر أيضاً تهذيب الأخلاق، ص ٣٣.

(٥) الفوز الأصغر، ص ٦٨. (٦) المرجع السابق، ص ٦٨.

وسببه . « لا يزال كذلك حتى يرتقى بالحقيقة إلى واحد بالحقيقة ، لا كثرة فيه ، ولا علّة ، وعلة أولى لا تتقدمها علة ، وبسيط بالصحة ، لا تركيب فيه ، ومُستغن بنفسه لا حاجة له إلى شيء ، ويمدّ بقوته لكل ما دونه ، وغير مستمد من شيء هو فوقه . . » (١). وهذا نهاية ما يمكن بلوغه بالعقل .

« ثم إن الناظر في هذه العوالم التي ذكرناها ، المرتقى فيها إلى هذه الرتبة ، يجد من اللذة بما يشاهد بعين عقله ، ما لا يشبهه شيء من اللذات الجسدية ولا يداينها . . . (هي) جنس من اللذة الروحانية غير مفارقة لصاحبها ، ولا يمكن أن تزول عنه » (٢). إن السعادة القصوى ، إذن ، إنما تتحقق للإنسان ، في رأى مسكويه ، إذا ارتقى من معرفة الموجودات إلى معرفة الله تعالى (٣)، وإن الذي يصل إلى هذه الرتبة ، أو هذا المقام ، « هو السعيد التام ، وهو الذي توفر حظه من الحكمة ، فهو مقيم بروحانية بين الملأ الأعلى ، يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهي ، ويستزبد من فضائله بحسب عنايته بها ، وقلة عوائقه منها . . . وهذه المرتبة التي من وصل إليها فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها » (٤).

إن الذي يعوق الإنسان عن تحصيل السعادة هو انشغاله بالحواس ، وما تؤدي إليه مدرَكاتها من تهييج النفسين الشهوية والغضبية . ولذلك فنحن محتاجون أن نغفم أنفسنا عن الأوهام المأخوذة من الحواس التي تعوقنا عن إدراك المعقولات الصحيحة ، وتعطل النفس عن تحقيق كمالها ، وبلوغ سعاداتها (٥).

ويلاحظ من كلام مسكويه ميله إلى التصوف ، غير أن تصوفه نظري علمي شبيه بتصوف الفارابي . وإن مجمل نظريته في السعادة شبيهة بنظرية الفارابي في السعادة ، حيث أن طريق تحصيلها عند كل منهما هو النظر العقل ، والترقى في مدارجه حتى الوصول إلى أقصى غاية يمكن أن يصلها الإنسان ، وهي التقرب من الله تعالى ، وقبول الفيض منه . ويلاحظ أيضًا أن جذور نظرية كل من الفارابي ومسكويه في السعادة ترجع إلى أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الجديدة .

الأخلاق

اهتم مسكويه بالتأليف في الأخلاق اهتمامًا كبيرًا ، وجاءت آراؤه في النفس وقواها كمقدمة لآرائه في الأخلاق ، كما ذكرنا ذلك من قبل ، لأنه كان يرى أنه لكي نعرف الأخلاق معرفة جيدة ،

(١) المرجع السابق ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) تهذيب الأخلاق ، ص ٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٥) الفوز الأصغر ، ص ١٩ ، ٧٧ .

فيجب أن نعرف أولاً النفس الإنسانية وقواها . ويعتبر مسكويه أول فيلسوف مسلم ألّف كتاباً منظماً بأكمله في موضوع الأخلاق ، وهو كتاب « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » . ويقول مسكويه في مطلع هذا الكتاب : إن غرضه فيه هو « أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر عنه الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا ، لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي » (١).

يعرّف مسكويه الخلق بأنه « حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ، ويهيج من أقل سبب ، والإنسان الذي يبين من أيسر شيء ، كالذي يفرح من أدنى صوت يطرق سمعه . . . ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً ، حتى يصير ملكة وخلقاً » (٢).

ويذكر مسكويه أن القدماء اختلفوا في قبول الخلق للتغيير، فقال بعضهم : إن من كان له خلق طبيعي لم يتقل عنه . وقال آخرون : إن الخلق يمكن تغييره بالتأديب والمواظ . ويقول مسكويه : « وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره ، لأننا نشاهده عياناً ، ولأن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً » (٣).

والناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً في قبول الأخلاق الفاضلة ، وفي سرعة تعلمها . ونحن نشاهد ذلك عياناً في الناس ، وخاصة في الأطفال حيث نشاهد بينهم تفاوتاً كبيراً في استعدادهم لقبول الأدب ، أو تفوقهم عنه ، وفي ظهور الأخلاق الحسنة فيهم ، أو الأخلاق السيئة ، مما نعرف به مراتب الناس في قبول الأخلاق الفاضلة ، ونعلم معه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة (٤).

يقول مسكويه بثلاث قوى للنفس ، كما ذكرنا سابقاً ، هي القوة الناطقة ، والقوة الغضبية ، والقوة الشهوية . وعدد الفضائل يكون بحسب عدد قوى النفس . ولذلك « وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى ، وكذلك أضدادها التي هي رذائل . فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها ، وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة (لا المظنونة معارف وهي بالحقيقة جهالات) ، حدثت عنها فضيلة العلم ، وتبعتها الحكمة . ومتى كانت

(١) تهذيب الأخلاق ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥-٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨-٢٩ .

حركة النفس البهيمية معتدلة متقادة للنفس العاقلة غير متأبئة عليها فيها تقسطه لها ، ولا منهكحة في اتباع هواها ، حدثت عنها فضيلة العفة ، وتتبعها فضيلة السخاء . ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة تطيع النفس العاقلة فيها تقسطه لها فلا تبيح في غير حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها ، حدثت عنها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة . ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض فضيلة هي كمالها وتامها وهي فضيلة العدالة » (١). إن الفضائل ، إذن أربع هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة . الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة ، وهي معرفة الموجودات كلها ، والأمور الإنسانية ، والأمور الإلهية . والعفة هي فضيلة النفس الشهوانية ، وهي أن يصرف الإنسان شهواته بحسب ما توخّه إليه النفس الناطقة المميّزة ، وبحيث لا تنقاد لها ، وتصير عبداً لها . والشجاعة هي فضيلة النفس الغضبية ، وهي أن تنقاد للنفس الناطقة المميّزة ، فلا يخاف الإنسان من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلاً ، والصبر عليها محموداً » أما العدالة فهي فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التي عودناها ، وذلك عند مسالة هذه القوى بعضها للبعض ، واستسلامها للقوة المميّزة حتى لا تتغالب ، ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوء طبائعها . . » (٢).

وأضداد هذه الفضائل الأربع أربع أيضاً ، وهي الجهل ، والشرة ، والجبن ، والجور . وتحت كل واحد من هذه الأجناس أنواع كثيرة ، وأشخاص هذه الأنواع أمراض نفسانية كثيرة بلا نهاية ، تحدث منها أمراض كثيرة كالخوف ، والحزن ، والغضب ، وأنواع العشق الشهوانى ، وضروب من سوء الخلق (٣).

ويقول مسكويه : إن كل واحد من الموجودات له كمال خاص ، وفعل لا يشاركه فيه غيره . والأفعال التي يختص بها الإنسان ، وتتم بها إنسانيته وكماله وفضائله هي الأفعال الإرادية التي بها تتعلق قوة الفكر والتمييز . وهذه الأفعال الإرادية تنقسم إلى الخيرات والشرور . « الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ، ومن أجلها تُخلق . والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه ، أو كسله وانصرافه » (٤). فمن الواجب على الإنسان ، إذن ، أن يحرص على الخيرات التي هي كماله ، والتي من أجلها تُخلق ، وأن يتجنب الشرور التي تعوقه عنها ، وتقص حظه منها (٥).

(١) المرجع السابق ، ص ١٣-١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥-١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥-٢١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠-١١ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٢-١٣ .

ولما كانت الخيرات الإنسانية كثيرة ، ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد تحقيقها جميعاً ، وجب أن يتعاون أشخاص كثيرون على تحصيلها بطريقة مشتركة ، فيقوم كل واحد منهم بجزء منها ، حتى يتم للجميع ، بمعاونة الجميع ، الكمال الإنسانى ، وتحقق لهم السعادات المشتركة . «ولأجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً ، لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكون ، إذاً ، كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام الإنسان بتمام أعضائه بدنه » (١).

تأديب الأحداث والصبيان

يتعلم الأحداث والصبيان الفضائل من الشريعة التى تقومهم وتقودهم إلى الأفعال المرضية ، وتعد أنفسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل ، وبلوغ السعادة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم . ويتعلمون أيضاً من الوالدين الذين يقومون بتربيتهم وتعليمهم الآداب الجميلة (٢).

ويصف مسكويه المنهج الذى يتبع فى تأديب الصبيان ، ويقول : إنه نقل أكثره من كتاب « برومى » . يقول : « . . إن نفس الصبى ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ، ولا عزيمة فميلها من شيء إلى شيء . فإذا انتقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها . فالأولى بمثل هذه النفس أن تُثَبَّهَ أبداً على حب الكرامة ، ولا سبياً ما يحصل له منها بالدين دون المال ، ويلزوم سننه وظائفه . ثم يُمدَّح الأخيار عنده ، ويُمدح هو فى نفسه إذا ظهر شيء جميل منه ، ويُحذَر من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه . ويؤاخذ بأشبهاته للأكل والمشارب والملابس الفاخرة ، ويُزَيَّر عنده حُلُّق النفس ، والترفع عن الحرص فى المأكول خاصة ، وفى الملذات عامة . ويُحِبُّ إليه إثارة غيره على نفسه بالغذاء ، والاقتصار على الشيء المعتدل ، والاقتصاف فى التماسه » (٣).

ويعلم اجتناب الملابس الملوثة والمنقوشة التى يتزين بها النساء ، ويطالب بحفظ محاسن الأئبار والأشعار ، ويُحذَر من النظر فى أشعار العشق ، ويُمدح على كل ما يظهر منه من حُلُّق جميل . فإن خالف ذلك أحياناً ، فالأولى أن لا يُؤَيَّخَ عليه ، ولاسيا إن ستره الصبى . فإن عاد فيؤيخ عليه سراً ، ويُحذَر من معاودته ، لأنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة ، هان عليه سماع الملامة وحرصته بذلك على القيام بالأشياء القبيحة .

ويجب أيضاً تعليم الصبى آداب تناول الطعام ، فيعلم أن تناول الغذاء لحفظ الصحة وليس

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

للذة ، فلا يجب أن يتناول من الطعام إلا ما يحفظ صحة البدن ، ويدفع ألم الجوع ، ويُقَبِّح عنده الشره . وإذا جلس مع غيره للطعام ، فلا يبادر إليه ، ولا يديم النظر فيه ، ويقتصر على ما يليه ، ولا يسرع في الأكل ، ولا يعظم اللقمة ، ولا يبلعها حتى يبيد مضغها .

ويُمنع الصبي من الفراش الوطء ، وجميع أنواع الترف حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة . ويُعوَّد المشي والحركة والركوب والرياضة . ويعوَّد أن لا يتفاخر على أقرانه بما يملكه والده ، ويُنصح بالتواضع . ويُعوَّد أن لا يكذب ولا يحلف ألينة لا صادقاً ولا كاذباً . ويُمنع من السب واللعن ولغو القول . ويُعوَّد خدمة نفسه ومعلميه وكل من كان أكبر منه . ويُغَضُّ إليه الفضة والذهب ، فإن جهها آفة أكثر من آفات السموم . وينبغي أن يُؤذَن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح من تعب الأدب . ويُعوَّد طاعة والده ومعلميه ومؤديه ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم .

إن هذه الآداب مفيدة للصبيان ؛ لأنها تعوِّدهم حب الفضائل ، وضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة ، وتسهل عليهم جميع ما ترسمه الحكمة ، وتحده الشريعة والسنة ^(١).

الأمراض النفسانية ، أسبابها ، وعلاجها

يتعلق النفس والبدن كل منهما بالآخر تعلقاً طبيعياً وثيقاً ، ويؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به . فما يصيب البدن من أمراض يؤثر في النفس وقواها . فقد يتغير العقل ويمرض حتى ينكر المريض ذهنه وفكره وتحيله ، وسائر قوى نفسه . وما يصيب النفس من أمراض يؤثر في البدن ، فقد يضطرب ، ويرتعد ، ويصفر ، ويحمر ، ويهزل ، ويلحقه كثير من أنواع التغير . « فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ الأمراض إذا كان من نفوسنا ، فإن كان مبدؤها من ذاتها كالفكر في الأشياء الرديئة ، وإجالة الرأي فيها ، وكاستشعار الخوف ، والخوف من الأمور العارضة والمرتبطة ، والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما ينقصها . وإن كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذي مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية ، وكالعشق الذي مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضاً علاجها بما ينقص هذه » ^(٢). ويلاحظ أن رأى مسكويه في العلاقة بين النفس والجسم ، وتأثير كل منهما في الآخر ، هو نفس رأى الطب السيكوسوماتي (النفسجسمي) في العصر الحديث .

ويقول مسكويه : إن طب النفوس مثل طب الأبدان ، ينقسم إلى قسمين : أحدهما حفظ

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

صحة النفس إذا كانت حاضرة ، أى الوقاية من المرض النفساني إذا ما استخدمنا المصطلحات الحديثة . والآخر هو ردّ الصحة على النفس إن كانت غائبة ، أى العلاج النفساني .

حفظ صحة النفس

يضع مسكويه عدة قواعد ، أو نصائح لحفظ صحة النفس ، أو بعبارة أخرى ، للوقاية من الأمراض النفسانية ، سوف نلخصها فيما يلي :

إذا كانت النفس خيرةً فاضلةً تحبّ نيل الفضائل ، وتحرص على تحقيقها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة ، فيجب على صاحبها أن يعمل على حفظ صحتها بأن يعاشر الأخيار من الناس ممن هم على شاكلته ، ويحذر كل الحذر من معاشر الأشرار وأهل المجون ، حتى لا يتأثر بهم ، ويميل إلى أفعالهم ^(١).

ويجب على من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم باستمرار بالنظر والفكر ، لا يغفل عن ذلك أبداً ، لأن النفس إن تركت النظر والفكر تبلدت وتبهلت وانقطعت عنها مادة كل خير ، وانسلخت من صورتها الخاصة بها ، ورجعت إلى رتبة البهائم . وإذا تعود الإنسان منذ صغره على النظر والفكر والروية ، انس بالحق ، ونباطيعه عن الباطل . فإذا بلغ أشده انتقل إلى مطالعة الحكمة ، وسهل عليه فهم غوامضها ، واستخراج دلائلها ، ونال بذلك السعادة ^(٢).

ويجب على من يحفظ صحة نفسه أن يعلم « أنه إنما يحفظ عليها نعماً شريفة جليلة موهوبة لها ، وكنوزاً عظيمة مُدخرة فيها . . . ومن كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له في ذاته . . . ثم أعرض عنها ، وأهمل أمرها حتى انسلخ عنها للموم في فعله ، مغبون في رأيه غير رشيد ولا موفق » ^(٣) ، ولاسيما أنه يرى طالبي النعم الخارجية يعانون في طلبها المشقة ، ويتجشمون في سبيلها الأسفار البعيدة ، ويتعرضون للأخطار والأهوال . ثم إن هذه المطالب والنعم الخارجية لا محالة زائلة ، أو معرضة للزوال ، لأنها من خارج . ولذلك ، فإن صاحب هذه النعم الخارجية شديد القلق والوجل من توقع زوال هذه النعم الخارجية عنه . أما النعم والمواهب الموجودة في ذاته ، فهي غير مفارقة له ، لأنها موهوبة من الخالق جلّ وعلا ^(٤) . ويلاحظ أن ما يقوله مسكويه في هذا الأمر قريب جداً مما قاله الكندي من قبل أثناء كلامه عن علاج الحزن .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٥١ .

وينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن لا يترك قوته الشهوية وقوته الغضبية بتذكر ما أصاب منها ، ثم يقوم بعد ذلك باستخدام التمييز والروية ليدبّرًا له الوصول إليها . فحينئذ يفعل ذلك فإنه جعل قوته الناطقة عبدة لقوته الشهوية وقوته الغضبية . ولكن يجب عليه أن يتركها حتى يتحركًا من تلقاء نفسها ، وعند حاجتها ، ومن باعث طبيعتها ، وحينئذ يستخدم فكره وتمييزه في إزاحة عنتيهما ، وتقدير ما ينبغي أن يقوم به مما هو ضروري لحفظ صحة البدن ، إمضاء لمشية الله تعالى وإتمامًا لسياسته ، « لأنه تعالى إننا وهب هاتين القوتين لنا لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما ، لا لنخدمهما ونتعبد لهما . فكل من استعمل النفس الناطقة في خدمة عبدها ، فقد تجاوز أمر الله وتعدي حدوده ، وعكس سياسته وتقديره » (١).

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يفكر جيدًا في كل ما يصدر عنه من أفعال ، حتى لا تصدر عنه أفعال ، على حسب العادة ، تكون مخالفة لما يوجبه تمييزه ورويته . فإن صدر منه ذلك ، فيجب أن يضع لنفسه عقوبات تقابل هذه الأفعال . فإن « أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه ، فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يعرفه بالبذاء ثم ليحتمله . . . أو ليفرض على نفسه مالا يخرج صدقة ، وليجعل ذلك نذرًا عليه لا يخلّ به . وإن أنكر في نفسه كسلًا وتوانيًا في مصلحة له ، فليعاقب نفسه بسعى فيه مشقة ، أو صلاة فيها طول ، أو بعض الأعمال الصالحة التي فيها كدّ وتعب » (٢).

وعلى حافظ الصحة على نفسه أن يطلب معرفة عيوب نفسه ، وعليه أن يختار صديقًا كاملاً فاضلاً ، ويطلب منه أن ينحّره عن عيوبه حتى يتجنبها ، ويعالج نفسه منها . ولعلّ الأعداء أنفع له في هذا الصدد من الأصدقاء ، فعليه أن يعرف كثيرًا من عيوبه مما يقوله أعداؤه عنه .

وعلى حافظ الصحة على نفسه أن يتفقد عيوب الناس وسيئاتهم ، فمتى رأى سيئة في أحد ، ذم نفسه عليها كأنها هي فيه ، وعاتب نفسه عليها حتى ترتدع نفسه عن هذه السيئة ، وعن إتيان المساوئ عامة .

ولاحظ وجه الشبه بين ما قاله مسكويه عن معرفة المرء عيوب نفسه ، وبين ما قاله أبو بكر الرازي عن ذلك من قبل . ولعل مسكويه قد تأثر بالرازي أو لعلّه قد اطلع ، مثل الرازي ، على كتاب جالينوس بعنوان « في معرفة الرجل عيوب نفسه » ، وعلى كتابه بعنوان « في أن الأخيار يتفنون بأعدائهم » وهما الكتابان اللذان ذكرهما أبو بكر الرازي ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤-١٥٥ .

ردّ الصحة على النفس

إن أجناس الأمراض النفسانية الغالبة بين الناس هي مقابلات الفضائل الأربع التي ذكرناها سابقاً . فكل فضيلة من هذه الفضائل وسط بين طرفين هما شران ورذيلتان . وعلى ذلك تكون أجناس الشرور والرذائل التي هي عبارة عن أمراض نفسانية ، ثمانية وهي : « التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة ، والشره والخمود طرفان للوسط الذي هو العفة ، والسفه والبله طرفان للوسط الذي هو الحكمة . والجور والمهانة (أعنى الظلم والانظلام) طرفان للوسط الذي هو العدالة . فهذه أجناس الأمراض التي تقابل الفضائل التي هي صحة النفس . وتحت هذه الأجناس أنواع لا نهاية لها » (١).

وقد قام مسكويه بوصف أهم أنواع الرذائل أو الأمراض النفسانية السائدة ، وشرح أسبابها ، وبين كيفية علاجها . وسوف نذكر فيما يلي رأى مسكويه في أسباب مرضين نفسانيين شائعين هما الخوف من الموت والحزن ، كما سنشرح أسلوبه في علاجها .

علاج الخوف من الموت

يحمل مسكويه أسباب خوف الناس من الموت ، ويذكر الأسباب التالية (٢):

- (أ) عدم معرفة حقيقة الموت .
- (ب) عدم معرفة أين تصير النفس بعد الموت .
- (جـ) الظن بأن البدن إذا انحَلَّ وبطل تركيبه ، انحَلَّت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيبقى موجوداً ، وهو ليس بموجود فيه .
- (د) الظن بأن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه .
- (هـ) الاعتقاد بأنه ستحلَّ به عقوبة بعد الموت .
- (و) الحيرة وعدم المعرفة على أى شىء يقدم بعد الموت .
- (ز) الأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات .

وكل هذه الأسباب ظنون باطلة لا حقيقة لها ، أى أنها ترجع إلى الجهل ، وعلاجها يتم بمعرفة الحقيقة عن كل هذه الأمور السابقة المتعلقة بالموت .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(أ) فأما من جهل حقيقة الموت ، فإننا نبين له أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال البدن . والنفس جوهر غير جسائى ، مفارق لجوهر البدن ، فإذا فارق البدن بقى البقاء الذى يخصه ، ونفى من الكدر ، وسعد السعادة التامة .

(ب ، جـ) « وأما من خاف الموت لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحلت وبطل تركيبه ، فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه ، وجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد ، فليس يخاف الموت على الحقيقة ، وإنما يجهل ما ينبغى أن يعلمه . فالجهل ، إذاً ، هو المخوف ، إذ هو سبب الخوف » (١) . والخلاص من هذا الجهل هو العلم بأن النفس جوهر شريف إلهى ، إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسائى ، « فقد سعد وعاد إلى ملكوته ، وقرب من بارئه ، وفاز بجوار رب العالمين ، وخالط الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه » (٢) .

(د) أما من ظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التى ربما اتفق أن تتقدم الموت وتتؤدى إليه ، « فعلاجه أن نبين له أن هذا ظن كاذب ، لأن الألم إنما يكون للحق ، والحق هو القابل أثر النفس . وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس ، فإنه لا يألم ولا يحس . فإذاً ، الموت الذى هو مفارقة النفس البدن لا ألم له . . » (٣) .

(هـ) « وأما من خاف الموت لأجل العقاب الذى يوعده به بعد ، فينبغى أن نبين له أنه ليس يخاف الموت ، بل يخاف العقاب . والعقاب إنما يكون على شيء باقى بعد البدن الدائر . . . فهو ، إذاً ، خائف من ذنوبه ، لا من الموت . ومن خاف عقوبة على ذنب ، فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويتجنبه » (٤) .

(و) أما من خاف الموت لأنه لا يدرك على ما يقدم عليه بعد الموت ، فإن سبب هذا الخوف هو الجهل ، وعلاجه أن يعلم ويتعلم سلوك الطريق المستقيم الموصِّل إلى السعادة الأبدية .

(ز) أما من يزعم أنه يخاف أو يحزن بسبب ما يخلف من أهله وولده وماله ، ويأسف على ما يفوته من ملذات الدنيا وشهواتها ، « فينبغى أن نبين له أن الحزن تعجِّل ألم ومكروه على ما لا يجدى الحزن إليه باطال » (٥) . ثم إن مطالب الدنيا ومقتنياتها معرضة للزوال وغير دائمة ، وإنها تسبب

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

الهموم الكبيرة في وجودها ، والغموم العظيمة عند فقدانها . ولذلك ، فإن الحكماء يحثوننا ، ويعملون للحصول على النعيم السرمدي الأبدى (١).

يتبين لنا بما تقدم أن السب الحقيقي للخوف من الموت هو الجهل ، وأن علاج هذا الخوف هو العلم . والعلم يبدد هذه الجهالات والظنون الكاذبة التي تتعلق بالموت ، وبمصير الإنسان بعد الموت . والأسلوب الذي يعالج به مسكويه الخوف من الموت هو تعليم المصايين به جميع الحقائق المتعلقة بالموت ، وتعریفهم الأسباب الحقيقية لخوفهم منه ، وأنها في الحقيقة أوهام كاذبة لا أساس لها من الصحة . وعلى ذلك ، يعتبر مسكويه ، مثل الكندي ، رائداً للعلاج النفساني السلوكي المعرفي ، فقد سبق المعالجين النفسانيين السلوكيين المعرفيين المحدثين بحوالى عشرة قرون تقريباً .

علاج الحزن

يعرف مسكويه الحزن بنفس التعريف الذى عرفه به الكندى ، وهو أنه « ألم نفسانى لفقد محبوب أو فوت مطلوب »^(٢). فالسبب الرئيسى للحزن ، إذن ، هو الحسرة على ما فقدته من محبوباتها من الأشخاص ، أو من المقتنيات الدنيوية ومتاعها . فإذا علم الإنسان « أن جميع ما فى عالم الكون والفساد غير ثابت ولا باق ، وإنما الثابت الباقي هو ما يكون فى عالم العقل ، لم يطمع فى المحال ، ولم يطلبه . وإذا لم يطلبه لم يحزن لفقد ما يواه ، ولا لقوت ما يتمناه فى هذا العالم »^(٣). فعلاج الحزن ، إذن ، هو عدم الحرص على طلب مقتنيات الدنيا الزائلة ، وامتناع متاعها الفانى . « فإن من فعل ذلك أمن فلم يجزع ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق »^(٤).

ويُرد مسكويه أقوال الكندي في رسالة «دفع الأحران» ، وهي أن الشخص الذي يميز لفقده ملكاً ، أو لطلبه شيئاً فلم يجده ، إذا نظر إلى الناس الآخرين ووجد أنه ليس لهم هذا الملك ، ولا هذا المطلوب ، وهم مع ذلك سعداء وفرحون ، لعلم أن الحزن أمر غير ضروري ، وغير طبيعي . وينبغي عليه أن يعلم أن جميع ما يملكه من خيرات ومقتنيات إنما هي ودائع من الله تعالى عندنا ، وله تعالى أن يرجع عاريته متى شاء ، ومن العار علينا أن نحزن برّد العارية التي لدينا إلى صاحبها ، والمنعم بها علينا . بل يجب أن نشكر الله تعالى على أنه ارتبحنا أحسن ما أعارنا ، وترك لنا أفضل ما

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

أعارنا ، وهى النفس والعقل والفضائل الموهوبة لنا . ويذكر مسكويه أنه « قد حُكى عن سقراط أنه سُئل عن سبب نشاطه وقلة حزنه فقال : لأننى لا أقتنى إذا فقدته حزنت عليه » (١).

ويلاحظ تأثر مسكويه فى علاج الحزن بآراء الكندى فى هذا الموضوع ، وهو يقول صراحة : إنه يذكر آراء الكندى فى رسالة « دفع الأحزان » (٢). ويلاحظ أيضًا أن مسكويه يعالج الحزن بنفس الأسلوب الذى عالج به الخوف من الموت ، وهو أسلوب العلاج النفسانى السلوكى المعرفى ، كما ذكرنا سابقًا أثناء كلامنا عن علاج الخوف من الموت .

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

الفصل الخامس إخوان الصفا

(القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي)

منشأ إخوان الصفا

إخوان الصفا وخلق الوفا جماعة سرية يُرجَّح أنها تكونت في العراق ، ولعلها نشأت في البصرة . ثم تكونت لها فروع في بغداد ، وما لبثت أن انتشرت بعد ذلك فروع لها في كثير من البلاد . ولسنا نعرف على وجه الدقة الزمن الذي نشأت فيه ، ولكن أمرها قد عرف في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلاد) ، ويمكن أن تكون قد نشأت قبل ذلك ^(١) . لم يعرف المؤرخون من أسماء أشخاص هذه الجماعة غير خمسة هم : زيد بن رفاعه ، وأبو سليمان محمد بن معشر بن نصر البستي المعروف بالقدس ، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المِهْرَجَانِي ، وأبو الحسن العوفى . ويقول عنهم القفطى نقلاً عن أبي حيان التوحيدى : « . . وكانت هذه العصاة قد تألفت بال عشرة ، وتصافت بال صداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قروا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنِّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية ، والشريعة العربية فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعملها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها رسائل إخوان الصفا ، وكتبوا فيها أسماهم ، وبثوها في الوراقين ووهبوا للناس » ^(٢) .

ويقال : إنهم من فرقة الإسماعيلية ، وكانوا ينشرون ثقافتهم بطريقة سرّية على أتباعهم عن طريق رسائلهم . ولما كانوا يكتبون أسماهم ، ولا يذكرونها في رسائلهم ، فقد اختلف الناس في

(١) عمر فروخ : إخوان الصفا ، ط ٣ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ ، ص ١٨ ؛ عبد اللطيف محمد العبد : الإنسان في فكر إخوان الصفا . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ٢٤ .
(٢) جمال الدين القفطى ، ص ٥٩ . وفي الحقيقة إنهم صنفوا اثنين وخمسين رسالة كما سنبين ذلك فيما بعد .

ذكر أساء من وضعوها^(١). وكان يجيئ على اجتماعاتهم وتعاليمهم طابع السرية مما أثار الشك في أن لهم من وراء ذلك أهدافاً سياسية لم يصرحوا بها . وكانوا ينادون بأن هدفهم هو تنقيف الناس وهدايتهم من أجل صلاحهم في الدنيا والآخرة . كما كانوا ينادون بالمحبة والتعاون والأخوة الصادقة بين الناس لتكوين مدينة فاضلة روحانية ، يلاحظ فيها بعض أوجه الشبه بالمدينة الفاضلة التي قال بها الفارابي من قبل في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

وكانوا يحاولون التوفيق بين الفلسفة اليونانية والشرعة الإسلامية ، وهو أمر قد اهتم به كل من الفارابي وابن سينا وابن رشد ، باعتبار أن كلاً من الفلسفة والشرعة يعبران عن حقيقة واحدة . غير أن إخوان الصفا لم يأخذوا الإسلام كما جاء به القرآن الكريم ، وبيته السنة الشريفة ، بل إنهم مزجوه بمختلف المذاهب والأديان والعقائد ، زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها^(٢).

وكانت عقيدة الإخوان موضع شك ، وكانت الإشارات والرموز التي استخدموها في رسائلهم سبباً لاتهام المسلمين لهم ، وكان يبدو من بعض أقوالهم أنهم يؤثرون الفلسفة على الشرعة^(٣). وكانوا يرون « أن الدين الحقيقي إنما هو الصداقة الصحيحة ، والمعاملة الحسنة ، والإحاطة بالعلوم ، وبترية النفس ، واتباع العقل »^(٤). وكانت من أغراضهم الرئيسية في رسائلهم تهذيب النفوس ، وإصلاح الأخلاق ، حتى أنهم ذكروا في فهرست رسائلهم أنهم أعدوها لتهديب النفوس وإصلاح الأخلاق^(٥).

عصر إخوان الصفا

نشأت جماعة إخوان الصفا في وقت ضعف الدولة العباسية ، مما شجع العلويين على إثارة الفتن والثورات ، واستيلائهم على النواحي القاصية من الإمبراطورية الإسلامية ، وأسسوا فيها إمارات ودويلات مستقلة . فظهر الأدارسة في المغرب الأقصى ، والفاطميون في مصر ، والقرامطة في البحرين ، والبوبويون في فارس والعراق ، والحمدانيون في شبال سوريا^(٦). وفي هذا الجو السياسي والاجتماعي المضطرب كثرت الجمعيات السرية ، وكانت جماعة إخوان الصفا من أشهرها . وكانت دعوتهم إلى تنقيف الناس ، وتطهير النفوس ، ونشر الأخوة والتعاون بين الناس

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) بطرس البستاني : مقدمة رسائل إخوان الصفا . مجلد ١ بيروت : دار صادر ودار بيروت (د . ت) ، ص ٨-٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١ . (٤) عمر فروخ : إخوان الصفا ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٥) رسائل إخوان الصفا ، مجلد ١ ، ص ٤٣ .

(٦) بطرس البستاني : مرجع سابق ، ص ٨-٩ .

يهدف تكوين مجتمع مثالي قد يوحى بأن لهم من وراء تعاليمهم إعداد أتباعهم لتحقيق هدف سياسي هو الاستيلاء على الحكم وإقامة « دولة أهل الخير » ، يبدأ أولاً من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ويتفقون على رأى واحد ودين واحد ومذهب واحد ؛ ويعقدون عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصره بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم وفيما يقصدون من نصره الدين ومطلب الآخرة ، ولا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضاً . . » (١) .

رسائلهم

ألف إخوان الصفا اثنتين وخمسين رسالة ، خمسون منها في جميع فروع المعرفة المعروفة في عصرهم ، ورسالة هي فهرست لهذه الرسائل ، والرسالة الأخيرة وهي الثانية والخمسون هي رسالة جامعة اختصروا فيها جميع الرسائل الخمسين السابقة . وقد كتبت هذه الرسائل بأسلوب سهل ، يتجنب التعقيد والتعمق لتكون في متناول الفهم ، كما تكتب عادة الرسائل لطلاب العلم بقصد التثقيف والتعليم . يقول القفطى عن هذه الرسائل : « . . وهي مقالات مشوقة غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج ، وكأنها للتنبيه والإيحاء إلى المقصود الذى يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة » (٢) .

وتناولت رسائل إخوان الصفا جميع فروع الفلسفة والعلوم المعروفة في عصرهم ، ومزجوا فيها بين العلوم الفلسفية والآداب والخرافات والأساطير والمذاهب والمعتقدات المختلفة ، فجاءت أشبه بدائرة معارف شملت علوم الأقدمين وعقائدهم . وهم لم يكونوا متعصبين للمذهب معين أو لدين معين ، وإنما كانوا يقولون جميع المذاهب والأديان ويرجعونها إلى مبدأ واحد ، وكانوا يرون أن مذهبهم يستغرق جميع المذاهب . فهم يقولون : « وأعلم أيها الأخ أننا لا نعادى علماً من العلوم ، ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألقوه في فنون العلم ، وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعانى . وأما معتمدنا ومعوذنا وبناء أمرنا فعل كتب الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وما جاوزوا به من التنزيل ، وما ألفت إليهم الملائكة من الأنبياء والإلهام والوحي » (٣) .

وتنقسم رسائل إخوان الصفا إلى أربعة أقسام : « فمنها رياضية تعليمية ، ومنها جسيانية

(١) رسائل إخوان الصفا . مجلد ٤ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) القفطى ، ص ٥٨ .

(٣) رسائل إخوان الصفا ، مجلد ٤ ، ص ١٦٧ .

طبيعية ، ومنها نفسانية عقلية ، ومنها ناموسية إلهية ^(١) . والرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة .

والرسائل الجنسية الطبيعية سبع عشرة رسالة . والرسائل النفسانية العقلية عشر رسائل . والرسائل الناموسية والشرعية الدينية إحدى عشرة رسالة . وقد لخصت هذه الرسائل المذكورة سابقاً في رسالة واحدة سميت « الرسالة الجامعة » ^(٢) . ووضع أيضاً ملخص آخر لهذه الرسائل أكثر اختصاراً ، وسمى رسالة « جامعة الجامعة » ^(٣) . والذي يحسن من هذه الرسائل بوجه خاص بعض رسائل مجموعة الرسائل النفسانية العقلية ، ورسالة الحاس والمحسوس من مجموعة الرسائل الجنسية الطبيعية ، وتلخيصها في الرسالة الجامعة .

النفس وقواؤها

يعرف إخوان الصفا النفس بأنها جوهر روحانية سبوعية نورانية ، حية بذاتها ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قابلة للتعاليم ، فعالة في الأجسام ، ومستعملة لها ، ذكاة صور الأشياء ^(٤) .

ويذهب إخوان الصفا إلى أن مراتب النفوس خمس عشرة مرتبة ، يعرف البشر خمساً منها فقط هي : النفس النباتية ، والنفس الحيوانية ، والنفس الإنسانية ، والنفس الملكية (أو الحكيمية) ، والنفس القدسية (أو النبوية) . أما النفوس الأخرى فلا يعرفها إلا الله تعالى . وجعلوا النفس الإنسانية في مرتبة متوسطة بين هذه النفوس الخمس . وتحتوي النفس الإنسانية خصائص النفسين اللتين هما في مرتبة أدنى منها ، وهما النفسان النباتية والحيوانية . كما أنها تستطيع أن ترتفع لتبلغ مرتبة النفسين اللتين هما في مرتبة أعلى منها ، وهما الملكية والقدسية ، وذلك عن طريق التمسك بالفضيلة ، وبالنظر في العلوم الإلهية ، والسمو في المذاهب الروحانية ^(٥) .

النفس النباتية

للنفس النباتية ، ومسكنها الكبد ، عدة خصال وقوى مركزة في جبلتها هي :

١ - أول هذه القوى هي « شهوة الغذاء وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات ،

(١) المرجع السابق ، مجلد ١ ، ص ٢١ .

(٢) الرسالة الجامعة ، تاج رسائل إخوان الصفا وغلان الوفا . تحقيق مصطفى غالب . بيروت : دار صادر ، ١٩٧٤ .

(٣) جامعة الجامعة . تحقيق عارف تامر . بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٠ .

(٤) رسائل إخوان الصفا : ج ١ ، ص ٢٦٠ ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

(٥) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣١١ .

والرغبة فيها ، والحرص على طلبها ، واحتمال المشقة والذلّ من أجلها ، والفرح والسرور بوجودها ، والراحة واللذة في تناولها ، والملل والشبع عند الاستكفاء منها ، والنفور من الضار منها والبغض له « (١) ».

٢ - ومن قواها أيضًا « القوة الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ، والنامية ، والمصورة » (٢).

٣ - ومن قواها أيضًا أنها تشعر وتميّز بين الجهات الست ، وتقوم بأفعال إرسال العروق نحو الجهات النديّة والتراب اللين وتوجيه الفروع والقضبان إلى الجهات المتسعة ، والميل والانحراف عن الأماكن الضيقة والأجسام المؤذية « (٣) ».

النفس الحيوانية

للنفس الحيوانية ، ومسكنها القلب ، خصال وقوى تخصها مركوزة في جبلتها ، بالإضافة إلى الخصال والقوى المركوزة في جبلة النفس النباتية ، وهي :

(أ) شهوة الجماع من أجل التناسل لبقاء النوع .

(ب) شهوة الانتقام من أجل دفع المضرات والمفسدات ، ودفع يكون تارة بالقهر والغلبة ، وتارة بالهرب والفرار ، وتارة بالتحريز والتحصن ، وتارة بالمكر والحيلة .

(ج) شهوة الرياسة من أجل تأكيد السياسة ، إذ كانت السياسة لا تتم إلا بعد وجدان الرياسة . والمراد بالسياسة هو صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات وأتم الغايات .

(د) الحركة المكانية ، والتنقل في الجهات الست لتحقيق مآرب ومنافع كثيرة .

(هـ) الإحساس بالمحسوسات الخارجية .

(و) الوهم والتخيل للمطالب والمنافع ، والحفظ والذكر لعرفان أبناء الجنس والمخالف ، وإمكان الاحتراس من المضار ، والنفور والفرار من العدو « (٤) ».

النفس الناطقة

للنفس الناطقة ، ومسكنها الدماغ ، خصال وقوى تخصها ، زيادة على ما تقدم ذكره في

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٣ ؛ انظر أيضًا جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٣ . (٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

النفسين النباتية والحيوانية ، وهى : « شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها ، وشهوة الصنائع والأعمال والحذى فيها والافتخار بها ، وشهوة العزّ والرفعة والترقى فى غايات نهاياتها . . » (١). وقد خصت النفس الناطقة أيضًا ، بالإضافة إلى الحواس الخارجية والباطنة ، بالعقل الغريزى (٢) ، وهو « الذى لا يخلو منه كل إنسان ، ويجده كل واحد فى طباعه بغير واسطة » (٣).

النفس الحِكْمِيَّة والنفس الملكية القدسية

تستطيع النفس الناطقة ، كما ذكرنا سابقًا ، أن ترتفع لتبلغ مرتبة النفس الحِكْمِيَّة عن طريق التمسك بالفضيلة ، والنظر فى العلوم الإلهية ، والسمو فى المذاهب الروحانية . والخصال التى تُنسب إلى النفس الحِكْمِيَّة هى : « شهوة العلوم والمعارف وما أُعِينت به على طلبها وإدراكها والوصول إليها من الخصال المركوزة والقرى المجبولة : كالذهن الصافى ، والفهم الجيد ، وذكاء النفس ، وصفاء القلب ، وجِدَّة الفؤاد ، وسرعة الخاطر ، وقوة التخيل ، وجودة التصوّر ، والفكر والروية والتأمل والاعتبار ، والنظر والاستبصار ، والحفظ والتذكر ، ومعرفة الروايات والأخبار ، ووضع القياسات واستخراج النتائج من المقدمات ، والتكهن والقيافة والفراسة ، وقبول الوحى والإهام ، وروية المنامات ، والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزجر : كل ذلك مُعَاوَنَةٌ لها وتأييد إلى البلوغ إلى الغاية والوصول إليها » (٤).

أما الخصال التى تُنسب إلى النفس الملكية القدسية ، فهى : « شهوة القرب إلى ربها والزلزلى إليه ، وقبول الفيض منه ، وإفاضة الجود على من دونها من أبناء جنسها ، كما ذكر الله تعالى بقوله : (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » (٥) ، وقوله سبحانه : (يستغفرون لمن فى الأرض » (٦) ، وقوله : (فاعفر للذين تابوا) (٧) . . » (٨).

القوى النفسانية المدركة

من القوى النفسانية الهامة القوى المدركة وهى الحواس الخمس الخارجية وهى اللمس ، والذوق ، والشم ، والسمع ، والبصر ، ثم القوى الخمس الروحانية وهى : القوة المتخيّلة ، والقوة المفكرة ، والقوة الحافظة ، والقوة الناطقة ، والقوة الصانعة ؛ ثم العقل .

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٤-٣١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦ ؛ انظر أيضًا ج ٢ ، ص ٣٨٦ .

(٣) الرسالة الجامعة ، ص ٣١ . (٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

(٥) الإسراء : ٥٧ . (٦) الشورى : ٥ .

(٧) غافر : ٧ . (٨) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

والحواس الخمس الخارجية هي آلات بدنية ، أما القوى الحاسة فهي قوى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد . ويؤثر المحسوس في عضو الحس فيغير مزاجه ، فتحس القوة الحاسة بهذا التغير . « فالإحساس هو شعور القوى الحاسة لتغيرات كيفية أمزجة الحواس »^(١) . « وليس الحس شيئاً أكثر من أن يصير مزاج الحاس مثل المحسوس بالكيفية حسب ، والإحساس ليس شيئاً أكثر من شعور النفس بتغير تلك الأمزجة »^(٢) . وإذا أثر محسوس ما في أحد أعضاء الحس ، وأثر في مزاجه وغيّر من كيفيته ، انتقل ذلك التأثير في الأعصاب الممتدة من عضو الحس إلى مقدم الدماغ حيث تبدأ القوى الخمس الروحانية في تناول رسوم المحسوسات ، كما سنشرح ذلك فيما بعد . ويشبه إخوان الصفا جسد الإنسان بمدينة ، والنفس كملك تلك المدينة ، والحواس الخمس الخارجية « أنها أصحاب الأخبار ، وأن النفس قد ولّت كل واحدة منها ناحية من مملكها لتأنيها بالأخبار من تلك الناحية ، من غير أن تشتبك معها قوة أخرى »^(٣) . وتجتمع رسائلهم كلها عند مسئول (القوة المتخيّلة) ، الذي يقوم بتوصيلها إلى الملك (القوة المفكرة) ، الذي يفسرها ويفهم معانيها ، ثم يسلمها إلى خازنه (القوة الحافظة) ليحفظها إلى وقت الحاجة إلى تذكرها^(٤) . ويلاحظ وجه الشبه بين ما يقوله إخوان الصفا عن تشبيه أعمال الحواس الخمس الخارجية بأصحاب الأخبار الذين تجتمع رسائلهم عند القوة المتخيّلة بها سبق أن قاله الفارابي في هذا الموضوع . غير أن الفارابي قال : إن هذه الأخبار تجتمع عند الحس المشترك ، بينما قال إخوان الصفا : إنها تجتمع عند القوة المتخيّلة .

الحواس الخارجية

يصف إخوان الصفا كل حاسة من الحواس الخمس الخارجية ، وهم يتدثّنون بوصف حاسة اللمس ؛ لأن إدراكها للملموسات إدراك جسياني . ثم ينتقلون إلى حاسة الذوق ، ثم حاسة الشم ؛ لأن إدراكها لمحسوساتها هو أيضاً إدراك جسياني ، أى يحدث نتيجة الماسة المباشرة بين المحسوس والحاس . ثم يتكلمون أخيراً عن حاسة السمع ثم حاسة البصر لأن إدراكها لمحسوساتها إدراك روحاني ، أى يحدث بدون ماسة مباشرة بين المحسوس والحاس .

اللمس

تحس حاسة اللمس بالتغيرات التي تحدثها كفيات الملموسات في كيفية مزاج البدن .

(١) رسائل إخوان الصفا ، جـ ٢ ، ص ٤٠١ ، ٤١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ . (٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤١١ ، ٤٦٨ ؛ جـ ٣ ، ص ٢٤١-٢٤٣ .

والكيفيات الحسية التي تؤثر في مزاج البدن ويحدث عنها إحساس اللمس هي : الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، والخشونة والملاسة (أو اللين) ، والصلابة والرخاوة ، والثقل والخفة (١) . ويلاحظ أن ابن سينا قد قال بالكيفيات الحسية للملموسات التي قال بها إخوان الصفا . وقد تأثر كل من إخوان الصفا وابن سينا بأراء أفلاطون وأرسطو في هذا الموضوع (٢) .

ومركز القوة اللامسة في الجلد . يقول إخوان الصفا : « والقوة اللامسة مجراها عامة سطح بدن الحيوان الرقيق الجلد ، ولكنها في الإنسان أظهر وخاصة في الأنملة . . وهي مستبطنة في الجلدين اللذين أحدهما ظاهر البدن ، والآخر محايلى » (٣) .

الذوق

تحس حاسة الذوق الطعوم ، وهي تسعة أنواع : الحلاوة ، والمرارة ، والملاحة ، والدسومة ، والحموضة ، والحترافة ، والعفوصة ، والعدوية ، والقبوضة . ويحدث إدراك الطعم بأن تتصل رطوبته برطوبة اللسان فتمتزجان ، فيتغير مزاج اللسان بحسب ذلك الطعم ، فيحس به (٤) . والقول بأن الطعوم واللحباب يمتزجان ، إنما يدل على أن الذوق يحدث نتيجة ملاسة الطعوم للسان ملاسة مباشرة ، شأنه في ذلك شأن اللمس . ويلاحظ التشابه الكبير بين إخوان الصفا وابن سينا في تصنيف أنواع الطعوم ، ولاشك في أن كلا منهما قد تأثر بأبحاث أفلاطون وأرسطو في هذا الموضوع (٥) . « والقوة الذائقة مجراها الفم ، وهي مستبطنة في رطوبة اللسان » (٦) .

الشم

تحس حاسة الشم الروائح ، وهي عبارة عن بخارات لطيفة تتحلل من الأجسام ذات الروائح ، وتمتزج بالهواء ، ويصير الهواء مثلها في الكيفية . ويدخل ذلك الهواء في الأنف عند استنشاق الإنسان أو الحيوان الهواء ، فتحس حاسة الشم بالروائح . ويقول إخوان الصفا بنوعين من الروائح وهما : طيب ، ورتن ، أو لذيق وكريه . وتحت كل من هذين النوعين أنواع كثيرة ليست لها أسماء مفردة ، وإنما تسمى بأسماء حواملها التي تفوح منها ، فيقال رائحة المسك ، ورائحة الكافور ،

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ، ص ٤٠٣-٤٠٥ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٩٠-٩١ .

(٣) رسائل إخوان الصفا : جـ ٢ ، ص ٤٠٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

(٥) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٩٦-٩٧ .

(٦) رسائل إخوان الصفا ، جـ ٢ ، ص ٤٠٢ .

وغير ذلك ^(١). « والقوة الشامة مجراها في المنخرين ، وهى مستبطنة الحياشيم مما يلى البطن المقدم من الدماغ » ^(٢).

السمع

تدرك حاسة السمع الأصوات . وتحدث الأصوات عندما يتصادم جسيان ، فيندفع الهواء من بينهما في حركة تموج تشبه الموجات التى تحدث في الماء الساكن إذا ألقى فيه حجر . وتصل هذه الموجات الهوائية إلى الأذن ، فتحس حاسة السمع بتلك الحركة ^(٣). « والقوة السامعة مجراها في الأذنين ، وهى مستبطنة الصباخين مما يلى البطن المؤخر من الدماغ » ^(٤).

البصر

يذهب إخوان الصفا إلى أن محسوسات حاسة البصر عشرة أنواع : إثنان منها بالذات وهما : النور والظلمة ، وثمانية بالعرض وهى : الألوان ، والسطوح ، والأجسام ، وأشكالها ، وحركاتها ، وسكونها ، وأوضاعها . والنور والظلمة يسريان في الأجسام المشفّة . وإذا سرى الضوء في الأجسام المشفّة حل معه ألوان الأجسام وأوصافها التى ذكرناها سابقاً إلى حاسة البصر المستبطنة في الرطوبة الجليدية التى في الحدقتين ، وسرى فيها كسريانه في سائر الأجسام المشفّة ، فتنتطع الجليدية بتلك الألوان ، وعند ذلك تحس حاسة البصر بذلك التغير ^(٥). ومركز حاسة البصر « في العينين ، وهى مستبطنة الحدقتين في الرطوبة الجليدية » ^(٦).

القوى الخمس الروحانية

وللنفس الإنسانية خمس قوى مدركة روحانية ، تختلف أفعالها عن أفعال الحواس الخمس الخارجية . فهى تدرك رسوم المحسوسات إدراكاً روحانياً من غير هيولائها ، بينما لا تدرك الحواس الخارجية محسوساتها إلا في هيولى . وفضلاً عن ذلك ، فإن كل حاسة من الحواس الخارجية تدرك محسوسات خاصة بها ، ولا تدرك غيرها ، أما القوى الروحانية فهى كالشركاء المتعاونات في تناولها وإدراكها رسوم المحسوسات والمعلومات ^(٧). وهذه القوى هى :

-
- | | |
|---|-----------------------------|
| (١) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ٤٦٩ . | (٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ . |
| (٣) المرجع السابق ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ . | (٤) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ . |
| (٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ . | (٦) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ . |
| (٧) المرجع السابق ، ص ٤١٤ ، ٤٧١ . | |

القوة التخيلية

القوة التخيلية ، ومركزها مقدّم الدماغ ، هي القوة التي تؤدي إليها الحواس الخمس الخارجية محسوساتها ، فتدركها وتجمعها كلها لديها ، ثم تؤديها إلى القوة المفكرة . ويلاحظ الفرق بين إخوان الصفا وبين كل من الفارابي وابن سينا ، من حيث أن رسوم المحسوسات تتجمع عند إخوان الصفا في القوة التخيلية ، بينما هي تتجمع عند الفارابي وابن سينا في الحس المشترك الذي لا يذكره إخوان الصفا .

وللقوة التخيلية عدة أفعال خاصة بها ، فهي تتخيّل المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها . وهي أيضاً تتخيّل ما له حقيقة ، وما ليس له حقيقة ، حيث أنه يمكنها أن تؤلف بين رسوم المحسوسات وتركبها كما تشاء ، كأن تتخيّل ، مثلاً ، جملاً على رأس نخلة ؛ أو نخلة ثابتة على ظهر جبل ، أو طائرًا له أربع قوائم ، أو فرساً له جناحان ، وهكذا . غير أن هذه القوة تعجز عن تخيل شيء لم تدركه حاسة من الحواس ، فالحيوان الذي لا بصر له لا يتخيّل الألوان ، وما لا سمع له لا يتخيّل الأصوات ^(١) .

القوة المفكرة

تقبل القوة المفكرة ، ومركزها وسط الدماغ ، رسوم المحسوسات من القوة التخيلية ، فإذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصوّرة صورة روحانية في ذاتها ، كما يبقى نفس النص في الشمع المختوم مصوراً بصورة روحانية مجردة عن هيولائها . ويذكر إخوان الصفا مثلاً يوضح عمل القوة المفكرة ، وهو أنه إذا دخل إنسان مدينة ما ، وطاف في أنحائها ، وشاهد أهلها ، وسمع أقاويلهم ، ثم خرج منها ، وغابت عن مشاهدة حواسها ، فإنه كلما فكر في هذه المدينة ، وما شاهده فيها ، تخيلها كأنه يراها معانية ، على نحو ما كان يراها عندما كان فيها . « فتلك الفكرة ليست شيئاً سوى لمحات النفس إلى ذاتها ، وتخيّلها بصورة تلك المدينة ، وما رأى فيها من الموجودات ليست شيئاً سوى صور تلك الموجودات انطبعت في جوهر نفسه ، كما ينطبع نقش الفص في الشمع المختوم . وعلى هذا القياس حكم سائر المحسوسات من أول استعمال آلات الحواس إلى وقت تركها لها عند المات الذي هو ترك استعمال الجسد » ^(٢) . ويلاحظ أن القوة المفكرة عند إخوان الصفا تقوم بحفظ رسوم المحفوظات بعد غيبة المحسوسات ، وهي الوظيفة التي تقوم بها القوة المصوّرة عند الفارابي وابن سينا .

(١) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٤١٦-٤١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

يستعين الملك بحاجبه وترجمانه في النيابة عنه في الخطاب لغيره^(١). ومن شأن القوة الناطقة ، التى يجراها من الحلقوم إلى اللسان « أن تؤلف ألفاظاً من حروف المعجم ، بنغمات مختلفة السمات التى هى الكلام ، ثم تضمن تلك الألفاظ المعانى التى هى مصورة عند القوة المفكرة ، فتدفعها عند ذلك إلى القوة المعبرة لتخرجها إلى الهواء بالأصوات المختلفة في اللغات ، لتحملها إلى مسامع الحاضرين بالقرب »^(٢).

القوة الصانعة

القوة الصانعة (أو الصناعية) ، ويجراها في اليدين والأصابع ، تقوم بتقييد الألفاظ التى تعبر بها القوة الناطقة عن معانى الرسوم المخزونة في القوة الحافظة ، ثم تودعها بطون الكتب ، لبقاء العلم وحفظه عبر الأجيال . فضلاً عن ذلك ، فإن بالقوة الصانعة تقوم النفس بالصنائع أجمع^(٣).

العقل

يعرف إخوان الصفا العقل الإنسانى بأنه « قوة من قوى النفس الإنسانية التى فعلها التفكير والروية والنطق والتمييز والصنائع كلها »^(٤). ولقد سبق أن ذكرنا أن من أفعال القوة المفكرة الفكر والروية والتصور والجمع والقياس . ويعنى إخوان الصفا بالفكر ، كما ذكرنا ذلك من قبل ، استخراج الغامض من العلوم ، وبالروية تدبير الملك وسياسة الأمور ، وبالتصور درك حقائق الأشياء ، وبالجمع معرفة الأنواع والأجناس ، وبالقياس درك الأمور الغائبة بالزمان والمكان^(٥). ويبدو من ذلك أن القوة المفكرة هى القوة النفسانية التى تحتجز فيها النفس مجال الإدراك الحسى إلى مجال الإدراك العقل . هى القوة التى تنظر بها النفس إلى رسوم المدركات الحسية التى حصلت عليها من الحواس ، وتعمل فيها أفعال الفكر والروية والتصور والجمع والقياس ، فتستنبط منها الأنواع والأجناس ، أى المعقولات ، التى هى موضوع العقل . وفى هذا المعنى يقول إخوان الصفا : « واعلم يا أخى أن البارى ، جل جلاله ، جعل الأمور الجنسية المحسوسة كلها مثالاً للاثبات ودلالات على الروحانية العقلية ، وجعل طرق الحواس درجاً ومرافقاً يرتقى بها إلى معرفة الأمور العقلية التى هى الغرض الأقصى فى بلوغ النفس إليها »^(٦). فالحواس هى الطريق الذى يوصل

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٤ ، ٤٧١ ، ج ٣ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ، ج ٢ ، ص ٤١٥ ، ٤٧٢ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ، ص ٣٣٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ٤٧١ . (٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

إلى المعقولات . « وما لا تدركه الحواس بوجه من الوجوه ، لا تتخيله الأوهام ، وما لا تتخيله الأوهام ، لا تتصوره العقول » (١). ولذلك ينصح إخوان الصفا أتباعهم بالاجتهاد في معرفة الأمور المحسوسة حتى يمكنهم نيل الأمور المعقولة . يقول إخوان الصفا : « فإذا أردت يا أخى أن تبلغ إلى أفضل المطلوبات ، وأشرف الغايات التى هى الأمور العقلية ، فاجتهد في معرفة الأمور المحسوسة ، فإنك بذلك تناول الأمور العقلية » (٢). فالمعقولات ، إذن ، ليست شيئاً سوى الأنواع والأجناس والمعانى الكلية التى تستنبطها القوة المفكرة من رسوم المحسوسات الجزئيات التى أدركتها الحواس الخارجية من الأشياء الجزئية (٣). ولذلك ، يقول إخوان الصفا إننا « نجد من كان أكثر محسوسات ، ولها أكثر تأملاً ، وللمتخيلات أجود اعتباراً ، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثر عددًا ، ونفسه لها أكثر تحققاً » (٤). إن العقل الإنسانى ، عند إخوان الصفا ، « ليس هو شيئاً سوى النفس الناطقة ، إذا تصوّرت رسوم المحسوسات فى ذاتها ، ميّزت بفكرها بين أجناسها ، وأنواعها ، وأشخاصها ، وعرفت جواهرها وأعراضها ، وجوّبت أمور الدنيا ، واعتبرت تصارييف الأيام بين أهلها » (٥). وجعل إخوان الصفا مركز العقل أو القوة العاقلة وسط الدماغ (٦)، وهو نفس مركز القوة المفكرة .

والناس متفاوتون فى درجات عقولهم متفاوتاً كبيراً ، ويرجع ذلك لعدة أسباب ، منها اختلاف جواهر النفوس باختلاف أمزجة الأبدان ، وكثرة العلوم والمعارف التى لا يمكن أن يحصلها كلها إنسان واحد ، وكثرة صنائعهم وتصارييفهم فى طلب معاشهم ، واختلاف أخلاقهم المتضادة فى الحسن والقبح ، ومجارى عاداتهم من الجودة والرذالة ، وتباين مذاهب آباءهم وآراء أساتذتهم ومعلميهم (٧).

وحدة النفس

إن النفس واحدة ، ولها أفعال كثيرة مختلفة . وهذه الأفعال المختلفة لا تصدر عن أجزاء من النفس ، وإنما هى تصدر عن النفس بعينها . يقول إخوان الصفا : « . . اعلم أن هذه القوة الحساسة ليست هى من أجزاء النفس ، كذا أن الحواس كل واحدة منها عضو من الجسد وجزء منه ، ولكن كل واحدة منها هى النفس بعينها . وإنما وقعت عليها هذه الأسماء المختلفة من أجل

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٣-٤٢٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

(٧) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٢٥-٤٢٦ .

اختلاف أفعالها . وذلك أنها إذا فعلت الإبصار ، سُميت الباصرة ، وإذا فعلت الإسماع ، سميت السامعة ، وإذا فعلت الذوق ، سميت الذائقة . . وهكذا إذا فعلت في الجسم النمو ، سميت النامية ، وإذا فعلت في الجسم الحس والحركة سميت حيوانية ، وإذا فعلت الفكر والتمييز ، سميت ناطقة ^(١) .

فالنفس ، إذن ، واحدة ، وإنما تُسمى أسماء مختلفة بحسب أفعال قواها المختلفة . ولقوى النفس ثلاثة أجناس : قوى النفس النباتية ، وقوى النفس الحيوانية ، وقوى النفس الناطقة . يقول إخوان الصفا : « ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاث ليست متفرقات متباينات بعضها عن بعض ، ولكنها كلها كالفرع من أصل واحد ، متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أعصان من شجرة واحدة ، يفرع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار . . أو كرجل يقرأ ويكتب ويعلم ، فيقال قارئ كاتب معلم . لأن هذه الأسماء تقع على الفاعلي بحسب ما يظهر منه من الأفعال والحركات والصنائع والأعمال . فهكذا أمر النفس ، فإنها واحدة بالذات ، وإنما تقع عليها هذه الأسماء بحسب ما يظهر منها من الأفعال . وذلك إذا فعلت في الجسم الغذاء والنمو ، فتسمى النفس النامية ، وإذا فعلت في الجسم الحس والحركة والنقلة ، فتسمى النفس الحيوانية ، وإذا فعلت الفكر والتمييز ، فتسمى النفس الناطقة ^(٢) .

نظرية المعرفة

يتبين مما تقدم أن إخوان الصفا يقفون من نظرية المعرفة موقفًا أرسطيًا بحتًا . فهم يذهبون ، مثل أرسطو ، إلى أن الحس هو أساس المعرفة ، وما لم تدركه الحواس لا تتصوره العقول . وهذا هو نفس الرأي الذي قال به ابن رشد أيضًا فيما بعد . وليست المعقولات في رأيهم موجودة في خارج النفس ، كما قال أفلاطون ، بل هي موجودة في النفس ، يستنبطها العقل من رسوم المحسوسات التي أدتها الحواس إلى القوى المدركة الروحانية . وليست المعرفة تذكرًا ، كما قال أفلاطون ، فالإنسان في رأيهم يولد لا يعرف شيئًا ، وإنما هو يكتسب المعرفة عن طريق الحواس .

ولما كان إخوان الصفا قد وضعوا النفس الإنسانية في مرتبة وسطى بين الموجودات ، فقد جعلوا حصولها على المعرفة بالمعلومات من ثلاث طرق . فهي تحصل على معرفتها بما هو أدنى منها ، كالمهوى ، والطبيعة ، وجميع الأجسام عن طريق الحواس . وهي تحصل على معرفتها بما هو أشرف منها وأعلى كالبارى تعالى ، والعقل ، والصور المجردة من الهوى الذين هم ملائكة الله المقربون

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦-٣٨٨ .

«بطريق البرهان الذى يضطر العقول إلى الإقرار به من غير إحاطة ولا مباشرة . وصارت معرفتها بذاتها وجوهرها بطريق العقل ، لأن نسبة العقل إلى النفس كنسبة الضوء إلى البصر ، وكنسبة المرأة إلى الناظر فيها . فكلاهما أن البصر لا يرى شيئاً من الأشياء إلا بالضوء ، كالإنسان لا يرى وجهه إلا بالمرأة والنظر فيها ، كذلك النفس لا تنظر ذاتها إلا بنور العقل ، ولا تعرف حقائق الموجودات إلا بالنظر إلى العقل . وإنما يتسنى للنفس النظر إلى العقل بعين البصيرة ، إذا هي انفتحت ، وإنما تنفتح لها عين البصيرة ، إذا انتهت من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ونظرت بعين الرأس إلى هذه المحسوسات ، وفكرت في معانيها ، واعتبرت أحوالها حتى تعرفها حق معرفتها»^(١). وهكذا يرى إخوان الصفا أن النظر إلى المحسوسات والتفكير في معانيها يفتح بصيرة الإنسان ويجعلها تنظر إلى العقل ، فتعرف ذاتها ، وتعرف حقائق الموجودات . فالحس ، إذن ، عند إخوان الصفا ، هو الطريق الأساسى للمعرفة ، « فلو لم يكن للإنسان الحواس ، لما أمكنه أن يعلم شيئاً ، لا المبرهنات ، ولا المعقولات ، ولا المحسوسات البتة »^(٢).

السعادة

يرى إخوان الصفا أن خير ما يناله الإنسان في حياته هو السعادة . والسعادة في نظرهم نوعان: داخل الإنسان ، وخارجه . والسعادة التى تكون داخل الإنسان نوعان : أحدهما فى الجسد كالصحة والجمال ، والآخر فى النفس كالذكاء وحسن الخلق . والسعادة التى تكون خارج الإنسان نوعان : نوع يرجع إلى ما يملكه الإنسان كالمال ومتاع الدنيا ، والآخر يرجع إلى أقران الإنسان كالزوجة ، والصديق ، والولد ، والأخ ، والمعلم ، والسلطان . وإن أسعد السعادات فى هذه الدنيا هو « أن يتفق لك يا أخى معلم رشيد عالم عارف بحقائق الأشياء والأمور ، مؤمن بيوم الحساب ، عالم بأحكام الدين ، بصير بأمور الآخرة ، خبير بأحوال المعاد ، مرشد لك إليها . ومن أنحس المناحس أن يكون لك ضد ذلك »^(٣). فالسعادة العظمى للإنسان فى هذه الدنيا هى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالبعث والحساب ، والعمل فى الدنيا تباً لأحكام الدين ، وبما يرضى الله تعالى لكى يفوز فى الآخرة بالتعظيم والسعادة الأبدية^(٤).

ويقسم إخوان الصفا الناس على أساس السعادة فى الدنيا والآخرة إلى أربعة أقسام : فمنهم سعداء فى الدنيا والآخرة جميعاً ، ومنهم أشقياء فيها جميعاً ، ومنهم أشقياء فى الدنيا سعداء

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

الأخرة ، ومنهم سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة . والسعادة في الدنيا ترجع إلى تملك المال ، والبنين ، والمتاع ، والصحة ، والتمكّن في الدنيا ، والنجاح والارتقاء فيها . والشقاء في الدنيا يرجع إلى ضد ذلك . والسعادة في الآخرة ترجع إلى اتباع أوامر الشريعة ، وعدم تعدّي حدودها ، والقناعة ، والرضا فيها بالقليل ، وعمل الخير . والشقاء في الآخرة يرجع إلى ضد ذلك ^(١) .

آراؤهم التربوية :

الفروق الفردية

أشار إخوان الصفا إلى الفروق الفردية بين الناس في تعلم المهن والصنائع المختلفة . وقد أرجعوا هذه الفروق إلى عاملين . أحدهما جِبِلِّيٌّ أو تكويني ، وهو اختلاف الطباع الذي يرجع ، من جهة ، إلى اختلاف أخلاط أجسامهم ومزاجها ، ومن جهة أخرى ، إلى تأثير النجوم والكواكب عليهم بحسب تواريخ موليدهم ^(٢) . والعامل الآخر بيئي أو مكتسب ، وهو يرجع إلى أنواع الأفعال والمعارف التي يتعلمها الإنسان أثناء نشئته ، ونوع التربية التي يتعرض لها . ويقول إخوان الصفا في هذا المعنى : « . . . وإنما تختلف النفوس بحسب اختلاف قواها ، واختلاف قواها بحسب اختلاف أفعالها ومعارفها وأخلاقها . . » ^(٣) . ويقولون أيضًا : « اعلم يا أخى أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه ، أحدها من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها ، والثاني من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها ، والثالث من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأستاذيهم ومن يربيهم ويؤدبهم ؛ والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم في أصول موليدهم ، ومساقط نطفهم ، وهى الأصل وباقيها فروع عليها » ^(٤) . ويتضح من العبارة الأخيرة من الفقرة السابقة أن إخوان الصفا يظهرون اهتمامًا كبيرًا بالفروق الجبلية الراجعة إلى تأثير النجوم على طبائع الأفراد . وهم أيضًا يظهرون في مواضع أخرى من رسائلهم اهتمامًا كبيرًا بتأثير الظروف البيئية والتربوية في اكتساب الأخلاق وسمات الشخصية . يقول إخوان الصفا : « واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها ، تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها ، والدرس لها ، والمذاكرة فيها ، يقوى الحذق بها والرسوخ فيها ؛ وهكذا المداومة على استعمال الصنائع ، والدؤوب فيها يقوى الحذق والأستاذية فيها . وهكذا جميع الأخلاق

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٠-٢٩٢ ، ٢٩٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٩ .

والسجاي . والمثال في ذلك أن كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح ، وترتّبوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم . وهكذا أيضاً كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوين ، وترتّبوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، إن لم يكن في كل الخلُق ففى بعض . وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجاي التي تطبع بها الصبيان منذ الصغر ، إما بأخلاق الآباء والأمهات ، أو الأخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصاريّف أحوالهم . وعلى هذا القياس حكم الآراء والمذاهب والديانات جميعاً ^(١).

فضل العلم وصفات المعلم والمتعلم

اهتم إخوان الصفا بذكر فضل العلم ، وعلى منزلته ، وعظم شرفه ، وقالوا في هذا المعنى :
 « . . وليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد ، ولا أقرب له إلى ربّه بعد الإقرار به ، والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاؤوا به وخبروا عنه ، من العلم وطلبه وتعليمه » ^(٢).

وذكر إخوان الصفا الخصال التي يجب أن يتحل بها طالب العلم ، وهى : « . . أولها السؤال والصمت ، ثم الاستماع ، ثم التفكير ، ثم العمل به ، ثم طلب الصدق من نفسه ، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ، ثم ترك الإعجاب بما يُحسّنه . والعلم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة ، أولها الشرف وإن كان دنياً ، والعزّ وإن كان مهيناً ، والغنى وإن كان فقيراً ، والقوة وإن كان ضعيفاً ، والنبل وإن كان حقيراً ، والقرب وإن كان بعيداً ، والقدر وإن كان ناقصاً ، والجود وإن كان بخيلاً ، والحياء وإن كان صلفاً ، والمهابة وإن كان وضيعاً ، والسلامة وإن كان سقيماً » ^(٣).

وبه إخوان الصفا أيضاً إلى بعض العيوب والآفات التي قد يتصف بها بعض العلماء ، ودعوا إل تجنبها والحذر من الوقوع فيها . « فمنها الكِبَرُ والعُجْبُ والافتخار . وقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنه قال : من ازداد علماً ولم يزد الله تواضعاً ، وللجهال رحمة ، وللعلماء مودة ، لم يزد من الله إلا يُعدّأ ، ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه ، وطلب الرياسة به ، والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم . وقال لقمان الحكيم لأبنته : يا بُنى جالس العلماء وزاحمهم يركبتك ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

فإن الله يحیی القلوب الميتة بنور العلم ، كما تحیی الأرض الميتة بوابل المطر . وإياك ومنازعة العلماء ، فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى أهواء أنفسهم . ومن آفات العلماء الخوض في المشكلات ، والترخيص في الشبهات ، وترك العمل بموجبات العلم . ومن آفات العلماء أيضًا كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها ^(١) .

واهتم إخوان الصفا أيضًا ببيان الخصال التي يجب أن يتحلّى بها العلماء وطلبة العلم في كثير من ميادين التخصص العلمي مثل معلمى القرآن الكريم ومفسريه ، ومعلمى الأحاديث النبوية ودارسيها ورواتها ، والفقهاء والقضاة والمفتين .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

الفصل السادس

ابن سينا

٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) - ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م)

حياته

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا . وُلِدَ في قرية أفشنة على مقربة من بخارى عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) على حسب رواية ابن خلكان ^(١) ، أو عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) على حسب رواية ابن أبي أصيبعة ^(٢) . وكان أبوه من الإسماعيلية ، وقد سمع ابن سينا من أبيه وعن كانوا يجتمعون في منزل أبيه من الإسماعيليين كثيراً من آرائهم في النفس والعقل ، ولكن نفسه لم تكن تقبل ما يقولون . ثم انتقل ابن سينا مع أسرته إلى بخارى حيث تعلم القرآن والأدب ، وهو في سن لا يتجاوز العاشرة . ثم تعلم الفقه وتعلم فيه على إسماعيل الزاهد . وتعلم المنطق والهندسة وتعلم فيها على أبي عبد الله الناتلي . ثم فارقه الناتلي بعد ذلك وأخذ ابن سينا يطالع الكتب ويحصل العلم بنفسه . فدرس العلوم الطبيعية والإكلية والطب وبرز فيها ، واشتهر ذكره . وأخذ ابن سينا في معالجة المرضى ، فذاع صيته ، وأخذ الأطباء يفدون إليه للدراسة على يديه ، وكان عمره في ذلك الوقت ست عشرة سنة ^(٣) .

ثم قضى بعد ذلك عاماً ونصف عام متفرغاً للقراءة ، عاكفاً على الدرس وتحصيل العلم ، فأعاد دراسة المنطق وجميع فروع الفلسفة ، وتمكن من جميع هذه العلوم . وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضحاً وذهب إلى الجامع وصلى ودعا الله تعالى أن يسهلها عليه ، ويفتح مغلقها له . وكان ابن سينا كثير الشغف بتحصيل العلم ، وكثير الوله بالمطالعة والدراسة . ولعل ذلك يبدو واضحاً مما ذكره ابن سينا نفسه عما لاقاه من مشقة في فهم كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو حتى قرأه أربعين مرة فلم يستطع فهم أغراضه ، ويشس من فهمه . ثم وقع في يده صدف كتاب أبي

(١) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٤٥ .

(٣) لمعرفة تاريخ حياة ابن سينا انظر المرجعين السابقين ، وجمال الدين القفطي ، ص ٢٦٨ - ٢٧٨ .

نصر الفارابي « في أغراض ما بعد الطبيعة » فقرأه وفهم أغراض هذا الكتاب ، ففرح بذلك فرحاً عظيماً ، وتصدق كثيراً على الفقراء ، وشكر الله تعالى .

وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور سلطان بخارى في ذلك الوقت ، وحرار الأطباء في علاجه ، فاستدعى ابن سينا لعلاجه ، فعالجه حتى برىء ، فأصبح ابن سينا بعد ذلك من المقربين إليه . واستأذن ابن سينا الأمير نوح في السماح له بدخول مكتبة الأمير ، وكانت مكتبة كبيرة تحتوي على عدد كبير من الكتب النادرة الفريدة التي لم يكن ابن سينا يعرفها من قبل ، فقرأ كثيراً من كتب الأوائل ، وأفاد من ذلك فائدة عظيمة . وحينما احترقت هذه المكتبة بعد ذلك أتهم ابن سينا بحرقها حتى لا يطلع أحد على ما فيها من كتب ، وما تحتويه من معارف ثمينة . وكان ابن سينا في سن الثامنة عشرة حينما فرغ من دراسته لهذه العلوم كلها . ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره ابتدأ في التأليف .

وتوفي والده وهو في سن الثانية والعشرين ، وكانت أمور الدولة السامانية حينذاك في اضطراب ، فأخذ ينتقل في البلدان . فانتقل إلى كركانج ، ثم إلى غيرها من البلاد ، ثم إلى جرجان حيث اتصل به تلميذه أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني . ثم انتقل إلى الري ، ثم إلى قزوين ، ثم إلى همدان حيث عالج أميرها شمس الدولة ، ثم اشتغل وزيراً له . ثم ثار عليه العسكر فُسجن فترة من الزمن ، ثم مرض الأمير مرة أخرى فأطلق سراحه واسترضاه وعينه وزيراً مرة أخرى . ولما توفي شمس الدولة ، ونودي بابنه تاج الملك خلفاً له ، طُلب من ابن سينا أن يكون وزيراً له ، ولكنه رفض قبول منصب الوزارة ، واعتكف في دار صديق له ، وأخذ في التأليف . وقد شعر ابن سينا أنه غير آمن في همدان ، فأرسل كتاباً في السر إلى أمير أصفهان علاء الدولة ليسمح له بالانتقال إليه . وعلم تاج الملك بأمر ذلك الخطاب ، فغضب واعتقل ابن سينا في قلعة فردجان ، وبقي فيها معتقلاً أربعة أشهر . ثم خرج من الاعتقال واشتغل مرة أخرى بخدمة الأمير تاج الملك في همدان فترة من الزمن . ثم غادر ابن سينا همدان متخفياً في زي الصوفية متجهاً إلى أصفهان حيث أحسن الأمير علاء الدولة استقباله . وعكف في أصفهان على تأليف الكتب ، وعقد المجالس الفلسفية . ولما توجه علاء الدولة إلى همدان اصطحب معه ابن سينا حيث توفي هناك في عام ٤٢٨هـ (١٠٣٧م)^(١) ، وله من العمر ثمانية وخمسون عاماً . ودفن في همدان ، وقيل : إنه نقل إلى أصفهان .

وقد تأثر ابن سينا كثيراً بنظريات الفارابي وآرائه ، وقال ابن خلكان : إنه بكتب الفارابي تخرج ، وبكلامه انتفع في تصانيفه^(٢) .

(١) ابن خلكان ، جـ ٢ ، ص ١٦١ ؛ ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٤٥ .

(٢) ابن خلكان ، جـ ٥ ، ص ١٥٣ .

عصر ابن سينا^(١)

عاش ابن سينا في فترة العصر العباسي الثاني ، وهي فترة ضعف الخلافة العباسية ، إذ ضعف سلطان خلفاء بغداد ، وظهر أمراء مغامرون في كثير من جهات الإمبراطورية الإسلامية ، أقاموا دويلات شبه مستقلة متنافسة أخذت تسيطر على أقسام من الإمبراطورية الإسلامية ، وتحارب بعضها بعضاً . فقد سيطر بنو بويه على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وتنازل لهم الخليفة العباسي عن السلطة عام ٤٤٧ هـ ، وسموا حكمهم بالسلطين . واستقل السامانيون بالحكم في خراسان موطن ابن سينا . وكانت قد ظهرت فرقة القرامطة في جنوب إمبراطورية الخلفاء ، كما قبضت فرقة الإسماعيلية على زمام السلطة في مصر ، وأقامت الدولة الفاطمية . وكان الفلاسفة والمفكرون المسلمون يعملون في حماية الأمراء في هذه البلاد المتنافسة . ولما مات منصور بن نوح الساماني أمير خراسان في عام ٣٦٥ هـ ، خلفه الأمير نوح بن منصور الذي عالج ابن سينا من مرضه فقربه إليه ، وعاش ابن سينا في حماة فترة من الزمن . ولكنه كان في فترات مختلفة من حياته ينتقل من إمارة إلى أخرى ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

إن هذا الجو المضطرب الممتلئ بالمنازعات السياسية والمذهبية الذي عاش فيه ابن سينا قد انعكس على حياته ، فكانت حياته مضطربة غير مستقرة تخللتها أسفار كثيرة . ولكن بالرغم من ذلك ، فإن ابن سينا قد استطاع بذكااته ، وعقله الفذ المنظم ، أن يجد الوقت للدراسة والتدريس والتأليف ، وقد خلف عددًا كبيرًا من المؤلفات الهامة ، كتبها في فترات غير منتظمة وغير مستقرة . فكان يكتب أحيانًا أثناء سفره ، وأحيانًا أثناء فراغه من خدمة الأمراء ، وأحيانًا أثناء الاختفاء منهم ، وأحيانًا أثناء الاعتقال .

مؤلفاته

ألف ابن سينا في جميع فروع الفلسفة كتبًا جامعة مطوّلة كالشفاء ، أو مختصرة كالنجاة . وله أيضًا إلى جانب هذه الكتب الجامعة رسائل صغيرة في موضوعات معينة . وقد عُني ابن سينا بعلم النفس عناية فائقة ، فأكثر من التأليف فيه . وما زال كثير من مؤلفاته مخطوطات مبعثرة في مكتبات العالم . ويقول ابن خلكان في « وفيات الأعيان » : إن مؤلفات ابن سينا بلغت ١٠٠ مؤلف . وذكر ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » ١٠٢ كتابًا لابن سينا . وذكر يحيى بن أحمد الكاشي في « نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا »^(٢) أن له اثنين وتسعين كتابًا ورسالة . وقد

(١) البارون كارا دي فو : ابن سينا . ترجمة عادل زعيتر . بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٠-١٣٢ ؛ محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(٢) ذكرى ابن سينا ٣- نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩ .

نشر الأب جورج شحاته قنوائى فى عام ١٩٥٠ ، بمناسبة ذكرى ابن سينا ، ثبّتاً كاملاً لمؤلفات ابن سينا بعنوان « مؤلفات ابن سينا »^(١). ومن مؤلفاته المشهورة المطبوعة التى تتعلق بعلم النفس ، أو التى تتضمن موضوعات تهتم بعلم النفس ما يلى :

- ١ - الشفاء . تحقيق الأب جورج شحاته قنوائى وسعيد زايد ، ومراجعة إبراهيم بيومى مذكور. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .
- ٢ - النجاة ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٣١ هـ . (وهذا الكتاب مختصر لكتاب الشفاء ، وقام بشرحه فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) .
- ٣ - الإشارات والتنبيهات . القاهرة : ١٣٢٥ هـ . (نشره حديثاً أيضاً سليمان دنيا . ويقول الجوزجاتى عن هذا الكتاب إنه آخر كتبه وأجودها . وقام بشرحه نصير الدين الطوسى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ) .
- ٤ - القانون فى الطب : روما ، ١٦٥٣ م .
- ٥ - رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها نشرها محمد ثابت الفنذى ، القاهرة ، ١٩٣٤ م .
- ٦ - مبحث عن القوى النفسانية ، نشره فاندريك ، القاهرة : ١٣١٥ هـ .
- ٧ - أحوال النفس تحقيق أحمد فؤاد الأهوانى ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ م ، مع ثلاث رسائل أخرى هى : مبحث عن القوى النفسانية ، ورسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وهما المذكورتان سابقاً ، ورسالة فى الكلام عن النفس الناطقة) .
- ٨ - تسع رسائل فى الحكمة الطبيعية . استانبول ، ١٢٩٨ هـ .
- ٩ - عيون الحكمة . حققه ونشره عبد الرحمن بدوى . ط ٢ ، الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ م .
- ١٠ - حتىّ بن يقظان . القاهرة ، ١٨٠٩ م .
- ١١ - التعليقات على حواشى كتاب النفس لأرسطو . تحقيق عبد الرحمن بدوى ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م .
- ١٢ - القصيدة العينية فى النفس . شرح المناوى ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ .
- ١٣ - كتاب السياسة . نشره وعلق عليه الأب بولس معلوف اليسوعى ، بيروت ، ١٩١١ م .

(١) الأب جورج شحاته قنوائى : مؤلفات ابن سينا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٠ .

١٤ - كتاب المباحثات . ضمن كتاب « أرسطو عند العرب » ، ط ٢ ، لعبد الرحمن بدوي . الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٨ م .

وتحتفظ معظم مكتبات العالم بمخطوطات لكتب ورسائل لابن سينا لا تزال في حاجة إلى دراسة وتحقيق ونشر ؛ ويمكن معرفة أسماء هذه المخطوطات من كتاب « مؤلفات ابن سينا » للأب جورج قناتى الذى سبق أن أشرنا إليه ، وكذلك من كتاب « ابن سينا » لكارا دى فو^(١) ، ومن المرجع الهام عن المؤلفات العربية لبروكلمان^(٢).

علم النفس عند ابن سينا

اهتم ابن سينا بعلم النفس اهتماماً كبيراً لا نجلده عند المفكرين المسلمين الآخرين ممن سبقه ، أو أتى بعده . وهو يعتبر من أشهر الفلاسفة المسلمين الذين تعمقوا في دراسة النفس ، وأكثرها من التأليف فيها . وكان الجزء الذى كتبه ابن سينا عن النفس في كتاب « الشفاء » من أشمل ما كُتب عن النفس في الفلسفة الإسلامية بعامه . ولابن سينا أيضاً كثير من الكتب والرسائل المختصرة في النفس ، وقد ذكرنا أهمها عندما تكلمنا عن مؤلفاته . ولقد تأثر ابن سينا في آرائه في النفس بما قاله الفارابى من قبل عن النفس ، غير أن ابن سينا كان أكثر عمقاً ، وأكثر إسهاباً وتفصيلاً من الفارابى . وكان لابن سينا « نفوذ عظيم في العصور التالية بين المسلمين ، وأثر تأثيراً كبيراً في أفكار الفلاسفة اللاتينيين طوال القرون الوسطى ، إما مباشرة ، وإما عن طريق الغزالي . نجد ذلك ظاهراً عند جنديسالينوس Gundissalinus ، وألير الكبير Albert Le Grand ، وسان توما الأكويني Saint Thomas d'Aquin ، وجويوم دوفرن Guillaume d'Auvergne ، وروجر باكون Roger Bacon ، ودون سكوت Duns Scott . وامتد أثره أيضاً إلى ديكارت Descartes في العصور الحديثة »^(٣).

تعريف النفس

يعرف ابن سينا النفس ، كما عرفها أرسطو من قبل ، بأنها كمال أول ، لأنه بها يكمل الجنس فيصبح نوعاً قائماً بالفعل . ومفهوم الكمال عند ابن سينا هو الشيء الذى بوجوده تتم طبيعة

(١) البارون كارا دى فو : مرجع سابق .

(٢) Brockelmann, C. : Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden, 1937.

(٣) Gilson : Archives d'Histoire Doctrinale et Litteraire du Moyen Age, Paris, 1929, T. 4, pp. 40(٣) 41, T. 2, 1927, pp. 89 - 149; T. 1, 1926, pp. 35-44.

انظر أيضاً : محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، بحث في علم النفس عند العرب ، ط ٣ . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .

جنس نوعاً . ويختلف ابن سينا عن أرسطو في فهم معنى الكمال ، فأرسطو يقصد بالكمال الصورة . فحينما يعرف أرسطو النفس بأنها كمال أول لجسم طبيعي ، فإنه يعني بذلك أنها صورة لجسم طبيعي ، ومبدأ أفعاله الحيوية . أما الكمال الثاني فهو صفة متعلقة بالنوع ، كالإدراك الحسى بالنسبة للإنسان ، أو كالقطع بالنسبة إلى السيف . ومفهوم الكمال عند ابن سينا أعم من مفهوم الصورة عند أرسطو . فثبناً لابن سينا ، ليس كل ما هو نفس هو صورة للبدن ، فإن النفس الناطقة مفارقة للبدن ، وليس قوامها بأن تنطبع في مادة البدن^(١) . فالنفس الناطقة جوهر عقلي يمكن أن توجد مفارقة للبدن . وهى كذلك جوهر روحاني ؛ لأنها تدرك المعقولات وتدرك ذاتها بدون آلة . أما الحس الظاهر والحس الباطن فلا يدركان إلا بالآلة ، وهما لا يدركان ذاتهما^(٢) .

والنفس كمال أول بمعنى أنها المبدأ الأول الذى يصبح به الجنس نوعاً موجوداً بالفعل . وهى كمال أول لجسم ، إذ يجب أن يوجد البدن في تعريف النفس ، لأن « النفس إنها تُسمى نفساً من جهة وجودها فتأله في جسم من الأجسام فعلاً من الأفاعيل »^(٣) . وهى كمال أول لجسم طبيعي آلى ، أى لجسم طبيعى وليس لجسم صناعى . ويعنى بالآلى أنه يقوم بكمالاته الثانية ، أى صفاته المتعلقة بالنوع ، وهى أفاعيله أو وظائفه المختلفة بوساطة آلات معينة فيه^(٤) ، وهى الأعضاء المختلفة التى تقوم بالوظائف النفسانية المختلفة .

تصنيف القوى النفسانية

يقسم ابن سينا القوى النفسانية إلى ثلاثة أقسام ، يتبع كل قسم منها أحد النفوس الثلاث : النفس النباتية ، والنفس الحيوانية ، والنفس الناطقة .

١ - النفس النباتية

وهى تشمل القوى التى يشترك فيها الإنسان والحيوان والنبات ، ويعرف ابن سينا النفس النباتية بأنها « كمال أول لجسم طبيعى آلى من حيث يتولد وينمو ويغتنى »^(٥) . وللنفس النباتية قوى ثلاث ، هى :

- (١) ابن سينا : أحوال النفس ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ ، ص ٥٠ - ٥٢ ؛ ابن سينا : الشفاء ، كتاب النفس ، تحقيق الأب جورج قنوتى وسعيد زايد ، ومراجعة إبراهيم بيومي مذكور . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٠ .
- (٢) ابن سينا : النجاة . القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ ؛ محمد على أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٣٠٨ .
- (٣) ابن سينا : أحوال النفس ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .
- (٤) المرجع السابق ، ص ٥٦ .
- (٥) أحوال النفس ، ص ٥٧ ؛ النجاة ، ص ٢٥٨ .

(أ) القوة الغذائية ، وهى قوة تحيل الغذاء إلى مشاكلة الجسم الذى هى فيه ، فتلتصقه به بدل ما يتحلل منه .

(ب) القوة النمىة ، وهى قوة تزيد فى الجسم الذى هى فيه بالغذاء الذى حولته إلى مشاكلة الجسم زيادة مناسبة فى أقطاره طولاً وعرضاً وعمقاً ، لتبلغ به كمال النشوء .

(جـ) القوة المولدة ، وهى القوة التى تأخذ من الجسم الذى هى فيه جزءاً هو شبهه بالقوة ، فتفعل فيه من التخليق والتمزيج ما يجعله شبيهاً به بالفعل^(١).

٢- النفس الحيوانية

وهى تشمل القوى التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، ولاحظ فيها للنبات . ويعرف ابن سينا النفس الحيوانية بأنها « كمال أول لجسم طبيعى كلى من جهة ما هو يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة »^(٢). وللنفس الحيوانية قوتان : قوة محركة ، وقوة مدركة .

(أ) القوة المحركة ، وهى قسان : محركة بأنها باعثة ، ومحركة بأنها فاعلة . والمحركة على أنها باعثة هى القوة النزوعية ، وهى القوة التى إذا ارتسخت فى التخيّل صورة مطلوبة ، أو مهروب عنها، دفعها ذلك إلى التحريك . وهذه القوة شعبتان : شعبة تسمى قوة شهوانية ، وهى قوة تبعث على تحريك نحو الأشياء المتخيّلة ضرورية أو نافعة ، طلباً للذة . وشعبة تسمى قوة غضبية ، وهى قوة تبعث على تحريك لدفع الشيء المتخيّل ضاراً أو مفسداً ، طلباً للغلبة .

أما القوة المحركة على أنها فاعلة ، فهى قوة تنبعث فى الأعصاب والعضلات للقيام بالتحريك المناسب لتحقيق الغرض المطلوب .

(ب) القوة المدركة ، وهى تنقسم إلى قسمين : قوى تدرك من خارج ، وهى الحواس الخمس الخارجية : البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس . وقوى تدرك من باطن وهى الحواس الخمس الباطنة : الحس المشترك ، والمصورة ، والمتخيّلة ، والوهم ، والذاكرة^(٣). وسوف نتناول هذه القوى المدركة فيما بعد فى شىء من التفصيل .

٣- النفس الناطقة

وهى تشمل القوى التى تختص بالإنسان وحده ، وهى تقوم بالوظائف التى تنسب إلى العقل ،

(١) أحوال النفس ، ص ٥٧-٥٨ ؛ النجاة ، ص ٢٥٨ .

(٢) أحوال النفس ، ص ٥٧ ؛ النجاة ، ص ٢٥٨ .

(٣) أحوال النفس ، ص ٥٨-٦٢ ؛ النجاة ، ص ٢٥٩-٢٦٧ .

ويعرّف ابن سينا النفس الناطقة بأنها « كمال أول لجسم طبيعي آلى من جهة ما يعمل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكرى والاستنباط بالرأى ، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية » (١) .

وتميّز ابن سينا في النفس الناطقة ، كما فعل الفارابى من قبل ، بين قوتين : قوة عاملة ، وتسمى أيضًا العقل العملى ، وقوة عالمة ، وتسمى أيضًا العقل النظرى . والعقل العملى يدفع الإنسان إلى التروى في الأفعال التى ينبغى فعلها ، أو تركها والتى يمكن أن نسميها بالسلوك الخلقى، وبه تحصل الصناعات . ووظيفة العقل النظرى إدراك الصور الكلية المجردة عن المادة (٢) .

وللعقل النظرى مراتب هى :

١- العقل بالقوة أو العقل الهىولانى ،

٢- العقل بالملكة ،

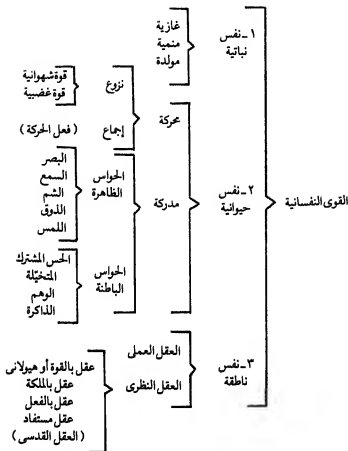
٣- العقل بالفعل ،

٤- العقل المستفاد . وسوف نشرح هذه المراتب فيما بعد .

ويمكن تلخيص تصنيف ابن سينا للقوى النفسانية في التخطيط التالى . . ويلاحظ التشابه التام تقريباً بينه وبين التخطيط الذى يبيّن تصنيف القوى النفسانية عند الفارابى ، والذى ذكرناه سابقاً أثناء كلامنا عن الفارابى .

(١) أحوال النفس ، ص ٥٧ ؛ النجاة ، ص ٢٥٨ .

(٢) أحوال النفس ، ص ٦٣-٦٥ ؛ النجاة ، ص ٢٦٧-٢٦٩ .



ويُلاحظ أن التقسيم الذي وضعه ابن سينا للقوى النفسانية يشبه التقسيم الذي قال به أرسطو من قبل ، ولكنه يختلف عنه في عدد الحواس الباطنة . فبينما قال أرسطو بثلاث حواس باطنة فقط هي : الحس المشترك ، والتخيل ، والذاكرة ^(١) ، قال ابن سينا بخمس حواس باطنة . ويُلاحظ أن المصوِّرة والوهم اللتين قال بهما ابن سينا غير موجودتين عند أرسطو . ويُلاحظ أيضًا أن تقسيم ابن سينا للقوى النفسانية مماثل للتقسيم الذي قال به الفارابي في « فصوص الحكم » ^(٢) ، مع

Aristote : De Anima III, 1,2,3;

Beare, j : Greek Theories of Elementary Cognition, oxford, 1906, pp. 276-325.

(٢) الفارابي : فصوص الحكم ، مرجع سابق ، ص ٧٨-٧٩ ؛ الفارابي : عيون المسائل ، مرجع سابق ، ص ٦٣ ؛ انظر أيضًا : محمد عثمان نجاتي ، مرجع سابق ، ص ٣٧-٣٨ .

اختلاف يسير في عدد مراتب العقل النظرى . فبينما قال الفارابى بثلاث مراتب للعقل النظرى ، قال ابن سينا بأربع مراتب . ويرجع ذلك إلى أن ابن سينا اعتبر كلاً من العقل بالملكة والعقل بالفعل مرتبتين مختلفتين للعقل النظرى ، بينما اعتبرهما الفارابى شيئاً واحداً ، ومرتبة واحدة للعقل النظرى .

وحدة النفس الإنسانية

وليست هذه القوى النفسانية قوى مستقلة بعضها عن بعض ، بل إنها تعمل في تعاون وانسجام تأمين ، يخدم بعضها بعضاً ، ويرأس بعضها بعضاً . فالعقل المستفاد هو رئيس هذه القوى النفسانية جميعاً ، وتخدمه كل القوى النفسانية الأخرى . والعقل بالملكة يخدم العقل بالفعل ، والعقل الهيرلانى يخدم العقل بالملكة . والعقل العمل يخدم هذه جميعاً ، لأن العلاقة البدنية لأجل تكميل العقل النظرى ، والعقل العمل مدبر هذه العلاقة . والوهم يخدم العقل العمل . والوهم تخدمه قوتان ، قوة بعده وهى الذاكرة التى تحفظ المعانى الجزئية التى يدركها الوهم ، وقوة قبله هى جميع القوى الحيوانية . والقوة المتخيلة تخدمها قوتان هما : القوة النزوعية ، والقوة المصورة . والقوة النزوعية تخدمها بالاعتبار لها لأنها تبعتها على الحركة . والقوة المصورة تخدمها بقبول ما تقوم به من تركيب وتفريق لصور المحسوسات المحفوظة لديها . ثم القوة المصورة يخدمها الحس المشترك ، والحس المشترك تخدمه الحواس الخارجية الخمس . والقوة النزوعية يخدمها الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب تخدمها القوة المحركة فى العضلات والأعصاب . ثم إن القوى الحيوانية فى جملتها تخدمها القوى النباتية ، وأولها وعلى رأسها المولدة ، ثم النمى تخدم المولدة ، ثم الغذائية تخدمها جميعاً^(١).

القوى النفسانية المدركة

لقد ذكرنا فيما سبق ، فى شيء من الإيجاز ، تصنيف القوى النفسانية عند ابن سينا . وقد شرح ابن سينا القوى النفسانية المدركة فى شيء من التفصيل لم نجد عند أحد من الفلاسفة المسلمين السابقين . وسوف نحاول فيما يلى أن نلخص آراء ابن سينا فى كل من القوى المدركة الحاسة والعقلية .

(١) أحوال النفس ، ص ٦٧ - ٦٨ .

القوى الحاسة

تقوم القوى الحاسة بوظيفة الإحساس والإدراك الحسى . ويعرف ابن سينا الإدراك ، مثل جميع الفلاسفة المسلمين بعامية ، متأثرين في ذلك بأرسطو ، بأنه قبول المذكر لصورة المذكر . وهو يعرف الإحساس بأنه قبول القوة الحاسة لصورة المحسوس . فالقوة الحاسة مثل المحسوس بالقوة ، ولكنها إذا تأثرت به انتقلت من القوة إلى الفعل ، وأصبحت مشابهة له بالفعل^(١).

وليست الحواس آلات إدراك فقط ، وإنما هى آلات للحياة أيضًا . فبعضها ضرورى لازم في بقاء الحياة ، وبعضها كمالى يمكن أن يستغنى عنه الحيوان في قوام حياته ، ولكنه لا يستغنى عنه في اكتساب الكمال . يقول ابن سينا . « إن الحكمة الإلهية لما اقتضت أن يكون كل حيوان متحرك بالإرادة مركبًا من العناصر الأربعة ، وكان لا يؤمن عليه أضرار الأمكنة المتعاقبة عليه عند الحركة ، أيد بالقوة السمسية حتى يهرب بها عن المكان غير الملائم ، ويقصد بها المكان الملائم . ولما كان مثله من الحيوانات لا تستغنى جبلته عن التغذى ، كان اكتسابه للغذاء بضرب إرادى ، وكان من الأطعمة ما يوافقه ، ومنها ما لا يوافقه ، أيد بالقوة الذوقية . وهاتان القوتان نافعتان ضروريتان في الحياة ، والبواقى غير ضروريات . ويلى الذوقية في تأكد الحاجة إليها القوة الشمسية ، إذ كانت الروائح تدل الحيوان على الأغذية الملائمة دلالة قوية ، ولم يكن للحيوان بدّ من الغذاء ، ولم يكن غذاؤه يحصل له إلا بالاكتساب ، فأوجبت العناية الإلهية وضع القوة الشامة في أكثر الحيوان . والتي تل القوة الشامة في المنفعة هى القوة المبصرة . . ووجه منفعتها أن الحيوان المتحرك بالإرادة لما كان تحريكه إلى بعض المواضع كمواقد النيران وقمم الجبال وشطوط البحار مما يؤدى إلى الإضرار به ، أوجبت العناية الإلهية وضع القوة المبصرة في أكثر الحيوان . والتي تل القوة المبصرة في المنفعة هى القوة السامعة . ووجه منفعتها أن الأشياء الضارة والنافعة قد يستدل بها بخاص أصواتها ، فأوجبت العناية الإلهية وضع القوة السامعة في أكثر الحيوان . على أن منفعة هذه القوة من النوع الناطق من الحيوان تكاد تفوق الأخرى »^(٢) . ويقرب هذا الكلام كثيرًا مما قاله أرسطو من قبل في منفعة الحواس^(٣).

الحواس الظاهرة

والإحساس عند ابن سينا ، كما ذكرنا من قبل نوعان : إحساس ظاهر ، وإحساس باطن . ويتم الإحساس الظاهر عن طريق الحواس الخمس الظاهرة ، وهى :

- (١) الشفاء ، ص ٥٣-٥٠ ؛ الإشارات والتنبيهات ، ص ١٣٠ .
- (٢) ابن سينا : مبحث عن القوى النفسانية : تحقيق إدورد بن كرنيليوس فنديك ، بيروت : دار العلم للجميع (د.ت) ، ص ٣٦-٣٧ .
- (٣) Aristote : De Arima, III, 12 - 13; De Sensu, 436 b 10-437 a 17; Metaphysique, 980 a 21 - b 25.

انظر أيضًا : محمد عثمان نجاتى ، مرجع سابق ، ص ٨١-٨٢ .

البصر

يقول ابن سينا في بعض كتبه مثل « النجاة »^(١)، و « أحوال النفس الناطقة »^(٢)، و « مبحث عن القوى النفسانية » : (٣) إن البصر قوة مُرتبة في العصبه المجوّفة تدرك صور المراتب ذات اللون التي تنطبع في الرطوبة الجليدية في داخل مقلة العين . والرطوبة الجليدية تقابل عدسة العين في التشرحيع الحديث للعين . وهو في هذا متأثر برأى أرسطو . وقد يفهم من هذا التعريف لحاسة البصر أن مركز الإبصار في الرطوبة الجليدية في مقلة العين ، وليس هذا برأى ابن سينا الصحيح ، إذ أنه يقول في كتاب الشفاء^(٤) : إن صورة المرئي تنطبع أولاً في الرطوبة الجليدية ، إلا أن الإبصار في الحقيقة لا يحدث عندها ، وإنما تتأدى صورتان المنطقتان في الرطوبتين الجليديتين في المقلتين بوساطة الروح الموجودة في العصبين البصريين إلى ملتقاهما ، فتنتطب منها صورة واحدة عند ذلك الجزء الحامل للقوة المبصرة . فمركز الإبصار، إذن ، في رأى ابن سينا ، كما جاء في كتاب «الشفاء» هو ملتقى العصبين البصريين ، وهو رأى لا يتفق مع الحقائق التشريحية الحديثة التي تضع مركز الإبصار في الفصين القُداليين في مؤخر المخ .

السمع

يذهب ابن سينا إلى أن حاسة السمع هي قوة مرتبة في العصب الموزّع في سطح الصباخ في الأذن . فإذا اصطدم جسمان أحدث الضغط الناشئ عن اصطدامهما موجاً في الهواء يصل إلى الهواء الراكد في تجويف الصباخ ، ويحركه بنفس حركته ، وتصل هذه الحركة إلى العصب الموجود في سطح الصباخ ، فيحدث السمع^(٥). ورأى ابن سينا في مركز حاسة السمع لا يتفق مع الحقائق التشريحية والفسيولوجية الحديثة التي بينت أن تأثير تموجات الهواء يصل إلى أعضاء كورتى الموجودة بالقوقعة في الأذن الداخلية ، فيحدث فيها تغيّر كيميائي يؤثر في نهايات الأعصاب السمعية المنتشرة حولها ، فتنتقل النبضات العصبية خلال الأعصاب السمعية إلى المخ حيث يحدث السمع^(٦).

(١) النجاة ، ص ٢٥٩-٢٦٠ .

(٢) أحوال النفس الناطقة ، ص ٥٩ .

(٣) مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٤٢ .

(٤) الشفاء ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ محمد عثمان نجاتي ، مرجع سابق ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٥) النجاة ، ص ٢٦٠ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٥٩ .

(٦) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ ، الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٣ .

الشم

حاسة الشم قوة مرتبة في زائدتي مقدم الدماغ الشبيهتين بحلمتي الثديين الموجودتين في أعلى فتحتي الأنف ، تدرك الرائحة التي تنبعث عن الأجسام والتي يحملها الهواء المُسْتَنَشَق (١). فمركز إحساس الشم عند ابن سينا هو في أعلى فتحتي الأنف ، وليس في المخ كما هو مقرر الآن في علم الفسيولوجيا الحديث .

ويلاحظ أن ابن سينا في كتاب « النجاة » و « أحوال النفس الناطقة » و « الشفاء » (٢) يتردد بين رأيين في كيفية حدوث إحساس الشم . الرأي الأول هو أن الشم يحدث نتيجة انبعاث الرائحة من جسم ما فتخالط الهواء الذي يُسْتَنَشَق . والرأي الثاني هو أن رائحة الجسم تنطبع في الهواء ، أي أن الهواء يستحيل إلى رائحة الجسم . ولكنه في كتاب « مبحث عن القوى النفسانية » (٣) يقول بالرأي الثاني فقط . والرأي الأول الذي أشرنا إليه سابقاً هو الرأي الذي يتفق مع ما يقوله الآن علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس (٤).

الذوق

يقول ابن سينا عن حاسة الذوق في بعض كتبه : إنها « قوة مرتبة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك الطعوم المتحللة من الأجرام المماسية له المخالطة للرطوبة اللعابية التي فيه فتحيله » (٥). ويقول في كتاب « القانون في الطب » : (٦) « إن عضو حاسة الذوق هو نهايات الأعصاب المنتشرة في طبقة اللسان . وهذا التعريف لحاسة الذوق الوارد في كتاب « القانون في الطب » هو نفس ما يذهب إليه علم الفسيولوجيا وعلم النفس في العصر الحديث . ويُعدّ ابن سينا أقرب إلى العلم الحديث في هذا الموضوع من جميع العلماء الأقدمين بعامه (٧).

ويذهب ابن سينا في كتاب الشفاء إلى شرح دور اللعاب في الذوق ، وهو يتساءل هل يقوم اللعاب بدور الوسيط بأن تخالطه أجزاء ذى الطعم مخالطة تنتشر فيه حتى تصل إلى أعصاب حاسة

(١) النجاة ، ص ٢٦٠ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٥٩ .

(٢) النجاة ، ص ٢٦٠ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٥٩ ، الشفاء ، ص ٦٦ .

(٣) مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٥) النجاة ص ٢٦٠ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٥٩ .

(٦) ابن سينا : القانون في الطب ، روما ، ١٦٥٣ م ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٧) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٩٥ - ٩٦ .

الدوق فتحه ، أم هل يستحيل اللعب إلى الطعام من غير مخالطة ؟ وقد تردد ابن سينا بين هذين الرأيين فقال بهما معاً ، إذ قال : إن اللعب يتكيف ويختلط معاً ^(١) . ولكنه ذهب في كتبه الأخرى : « النجاة » ، و « أحوال النفس الناطقة » ، و « مبحث عن القوى النفسانية » ^(٢) إلى أن الدوق يحدث عن استحالة اللعب إلى الطعام .

اللمس

إن حاسة اللمس عند ابن سينا هي قوة منبئة في جلد البدن كله ولحمه والأعصاب المنتشرة فيها ، وهي تدرك بالماسة ^(٣) . ويختلف ابن سينا هنا عن أرسطو الذي قال : إن عضو حاسة اللمس هو القلب ، وإن اللحم إنما هو وسط اللمس ، على مثال كون الهواء وسطاً للإبصار . ويلاحظ أن نقص معرفة ابن سينا بالجهاز العصبي ، ونقص وسائله في الملاحظة ، لم يمكنه من التمييز بين جلد البدن ولحمه والأعصاب ، فقال : إنها جميعاً عضو حاسة اللمس ، بينما المعروف الآن أن عضو حاسة اللمس هو نهايات الأعصاب المنتشرة في بشرة البدن .

وأشار ابن سينا أثناء كلامه عن حاسة اللمس إلى حقيقة علمية لم تُكتشف إلا في العصر الحديث ، وذلك حينما قال : « ويشبه أن تكون هذه القوة لا نوعاً واحداً بل جنساً لأربع قوى منبئة معاً في الجلد كله . » ^(٤) . وهو بذلك يشير ، كما أشار أرسطو من قبل ، إلى احتمال وجود عدة حواس لمسية لا حاسة واحدة ، تختص كل واحدة منها بإحساس لمسي معين هي : الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة والليونة . وقد بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة وجود عدة أعضاء حسية في البشرة ، يختص كل منها بإحساس لمسي معين . وهذه الإحساسات الجلدية هي : الضغط ، والحرارة ، والبرودة ، والألم ^(٥) .

ويذهب ابن سينا إلى وجود نوع من الإحساس يحدث في الأجزاء الداخلية من الجسم ، وهو في الواقع نوع من اللمس ، وهو يشعرنا بما يعرض من الآفات للأعضاء عديمة الحس مثل الكبد والطحال والرئة عن طريق الأغشية العصبية التي تحيط بها . وقد أثبتت الدراسات الفسيولوجية

(١) الشفاء ، ص ٦٥ .

(٢) « النجاة » ، ص ٢٦٠ ؛ « أحوال النفس الناطقة » ، ص ٥٩ ؛ « مبحث عن القوى النفسانية » ، ص ٤٣ .

(٣) النجاة ، ص ٢٦٠ ؛ الشفاء ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٤) النجاة ، ص ٢٦٠ ؛ « أحوال النفس الناطقة » ، ص ٦٠ .

(٥) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٨٨ - ٨٩ ، Clifford Morqan : physiological psychology New York : Me Graw-Hill Book co; Inc; 1943, pp. 255-561 .

الحديث وجود لمس داخل يحدث في أعضاء الجسم الداخلية ، كما ذهب إليه ابن سينا من قبل^(١).

التكيف الحسى وظاهرة الحجب

يذهب ابن سينا إلى أن المحسوس الخارجى (أى المؤثر الحسى) الشديد أو المتكرر يحدث في أعضاء الحواس الخارجية أثرًا يستمر بعض الوقت ، يصعب معه أن تحس بشيء آخر . يقول ابن سينا : « فإن المحسوسات الشاقة والمتكررة تضعف الحس وربما أفسدته ، كالضوء للبصر ، والرعد الشديد للسمع . ولا يقوى الحس عند إدراك القوى على إدراك الضعيف ، فإن المبصر ضوءًا عظيمًا لا يبصر معه ولا عقيبهُ نورًا ضعيفًا ، والسامع صوتًا عظيمًا لا يسمع معه ولا عقيبهُ صوتًا ضعيفًا . ومن ذاق الحلاوة الشديدة لا يحس بعدها بالضعيفة »^(٢) . ويصف ابن سينا في هذه العبارات ظاهرة سيكولوجية تناولتها الدراسات الفسيولوجية والسيكولوجية الحديثة ، وهى ظاهرة الحجب Masking^(٣) . ويلاحظ أن أرسطو قد أشار أيضًا إلى هذه الظاهرة^(٤).

وقد أشار ابن سينا أيضًا إلى ظاهرة التكيف الحسى Sensory adaptation ، وهو عبارة عن ضعف الحساسية باستمرار التنبيه الحسى . يقول ابن سينا : « إن القوى الإدراكية تعرض لها من إدامة العمل أن تكمل ، لأجل أن الآلات تكملها إدامة الحركة . . »^(٥).

الحواس الباطنة

إن الحواس الظاهرة التى تكلمنا عنها سابقًا يدرك كل منها محسوسًا خاصًا معينًا : الألوان ، أو الأصوات ، أو الطعوم ، أو الروائح ، أو الكيفيات الحسية الملموسة . ثم تتأدى هذه المحسوسات إلى حاسة باطنة هى الحس المشترك ، حيث تتجمع هذه الإحساسات في عملية الإدراك الحسى الكامل بالشئ المحسوس . ثم إذا غاب المحسوس ، فإن صورته تبقى في حاسة باطنة أخرى هى المصورة ، بحيث يمكن استعادتها وتذكرها . وتوجد حاسة باطنة أخرى هى التخيلة ، تقوم بالتصرف في الصور المحسوسة المحفوظة في المصورة ، فتجمع بعضها إلى بعض ،

(١) محمد عثمان نجاتى : المرجع السابق ، ص ٨٩ ؛ محمد عثمان نجاتى : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠ .

(٢) النجاة ، ص ٢٩٤ ؛ الشفاء ، ص ١٩٤ ؛ مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٤٥ .

(٣) محمد عثمان نجاتى : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، ص ١٤٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٢ ؛ 9-15 a 462 Aristote : De Somnus .

(٥) الشفاء ، ص ١٩٤ .

أو تفصل بعضها عن بعض في عمليات التخيل والأحلام والابتكار . وتوجد حاسة باطنة أخرى ، هي الوهم أو القوة الوهمية ، تدرك من المحسوسات الخارجية معاني غير محسوسة ، مثلما تدرك الشاة العداوة في الذئب . وهذه المعاني التي يدركها الوهم تحفظ في حاسة باطنة أخرى هي الذاكرة .

فمن الحواس الباطنة ما يدرك صور المحسوسات ، ومنها ما يدرك المعاني من المحسوسات . ومنها ما يدرك ويفعل معًا ، ومنها ما يدرك ولا يفعل . والفرق بين إدراك الصورة وإدراك المعنى هو أن الصورة يدركها الحس الظاهر والحس الباطن معًا ، ولكن الحس الظاهر يدركها أولاً ، ثم يؤديها إلى الحس الباطن . فالشاة ، مثلاً ، تدرك صورة الذئب بحواسها الظاهرة ، أي تدرك هيئته ، ولونه ، وصوته ، ثم تؤدي هذه الصورة إلى الحس المشترك حيث يحدث تمام الإدراك الحسى . أما المعنى فيدركه الحس الباطن من المحسوس من غير أن يدركه الحس الظاهر ، مثلما تدرك القوة الوهمية لدى الشاة معنى العداوة في الذئب .

وفى يتعلق بالفرق بين الإدراك مع الفعل ، والإدراك من غير فعل ، فإن الإدراك مع الفعل تتضح من عمل المتخيلة ، فهي ترتكب صور المحسوسات والمعاني بعضها إلى بعض ، وتفصل بعضها عن بعض ، فيكون لها بذلك إدراك وفعل فيما أدركت . إما الإدراك من غير فعل فهو أن ترسم فقط الصورة أو المعنى في القوة الحاسة الباطنة من غير أن يكون لها فيها أى فعل أو تصرف . فالمصورة تحفظ صور المحسوسات ، والذاكرة تحفظ المعاني المستمدة من المحسوسات ، وليس لها فيما يحفظان أى فعل^(١) .

ويقول ابن سينا : إن وجود الحواس الباطنة ضرورى لكمال الحياة وكمال المعرفة . فالمعرفة التي نمدنا بها الحواس الظاهرة لا تكفى في إمداد القوى الحاسة بما تحتاج إليه من المادة اللازمة للقيام بوظيفة الإدراك . ذلك لأن كل حاسة منها تدرك محسوساتها الخاصة فقط ، ولا تستطيع التمييز بينها وبين محسوسات الحواس الأخرى^(٢) . ومن الضرورى لكى تتم المعرفة ويحصل الغرض منها وهو اكتساب الكمال ، اجتماع هذه المحسوسات المختلفة عند قوة واحدة تستطيع الحكم عليها والتمييز بينها . ويرى ابن سينا أن ذلك ليس ضرورياً فقط لاكتساب المعرفة ، ولكنه ضرورى أيضاً لاستمرار الحياة . فإن لم يكن الحيوان يستطيع أن يدرك أن الشيء حلو ، لما كان إذا رآه هم بأكله . وإن لم يدرك أن هذا الشيء مؤلم ، لما كان إذا رآه يتجنبه . يقول ابن سينا : « فلو لم يكن في

(١) النجاة ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٣٦ - ٣٧ ؛ محمد عثمان نجاتي الإدراك الحسى عند ابن سينا ، ص ١٢٢ .

الحيوان ما يجتمع فيه صور المحسوسات لتعذرت عليه الحياة ، ولم يكن الشم دالاً على الطعام . . ، ولم تكن صورة الخشبة تذكرة بصورة الألم حتى يهرب منها . فيجب لا محالة أن يكون لهذه الصور مجمع واحد من باطن ^(١) . وهذه القوة هي الحس المشترك ، وهي مركز الحواس ، وعنده تجتمع جميع المحسوسات : « ومن الضروري أيضاً لكمال الحياة والكمال المعرفة إدراك صور المحسوسات في غياب المحسوسات ذاتها ، إذ لا يكفي أن يبصر الحيوان الشيء النافع فيسعى إليه ، ولكنه من الضروري أيضاً أن يتصوره في غيابه ليسعى إلى الحصول عليه ، وإلا فإن الحيوان يمتنع عن الحركة في غياب المحسوسات . فهناك ، إذن ، قوة تحفظ صور المحسوسات عند غيابها هي الخيال أو المصورة ^(٢) . وهكذا في باقى الحواس الباطنة ، فإنها تقوم بوظائف هامة وضرورية لكمال المعرفة ، ولكمال الحياة .

ويلاحظ أن عمليات التذكر ، والتمثيل ، والأحلام ، وإدراك المعانى الجزئية المستمدة من إدراك المحسوسات الخارجية ، هي عند ابن سينا ، كما هي عند الفارابى والفلاسفة المسلمين بعامة ، عمليات تدخل ضمن الإدراك الحسى ، وهي ليست عمليات عقلية كما يصفها علماء النفس المحدثون . ويرجع ذلك إلى أن ابن سينا والفلاسفة المسلمين بعامة يعتبرون جميع العمليات الإدراكية التى تتناول المحسوسات الخارجية عمليات حسية ، وهي عمليات يشترك فيها الإنسان والحيوان . أما العقل فوظيفته إدراك المعقولات الكلية المجردة ، وهي وظيفة يختص بها الإنسان وحده من بين سائر أنواع الحيوان . ومن الواضح تأثر ابن سينا ، والفلاسفة المسلمين بعامة ، بأرسطو في هذا الموضوع .

والآن نتناول فيما يلى الحواس الباطنة ووظائفها فى شيء من التفصيل .

الحس المشترك

كل حاسة من الحواس الخمس الظاهرة تدرك محسوساً خاصاً معيناً ، ولا يوجد فى الحواس الظاهرة ما يجمع هذه الإحساسات معاً . ونحن إذا أدركنا شيئاً ما ، فإننا ندركه على أن له هيئة ، ولوناً ، ورائحة ، وملمساً ، وربما طعماً إذا كان شيئاً يؤكل . فلا بد ، إذن ، أن تكون هناك قوة حاسة تجتمع لديها هذه الإحساسات التى تحسها الحواس الظاهرة . هذه القوة هي الحس المشترك ، وهي فى الحقيقة مركز الإدراك الحسى . فابن سينا يميز بين الإحساس والإدراك الحسى .

(١) الشفاء ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

بقول ابن سينا : « الحس المشترك هو القوة التي تنادى إليها المحسوسات كلها . فإنه لو لم تكن قوة واحدة تترك الملون والملموس ، لما كان لنا أن نميّز بينهما قائلين إنه ليس هذا ذاك » (١) . ففى الحس المشترك تجتمع الإحساسات الواردة من الحواس الظاهرة ، وهو يقوم بالمقارنة والتمييز بينها . ويضع ابن سينا الحس المشترك في أول التجويف المقدم من الدماغ (٢) . على خلاف أرسطو والفارابى اللذين يضعانه في القلب .

ويثبت ابن سينا وجود الحس المشترك بعدة أدلة ، منها أننا نرى القطرة الساقطة خطأ مستقيماً ، والنقطة الدائرة بسرعة خطأ مستديراً . ويفسر ابن سينا هذه الظاهرة فيقول : « . أنت تعلم أن البصر إنما ترتسم فيه صورة المقابل . والمقابل النازل أو المستدير كالنقطة لا كالخط . فقد بقيت إذن في بعض قواك هيئة ما ارتسم فيه أولاً ، واتصلت به هيئة الإبصار الحاضرة ، فعندك قوة قبّل البصر إليها يودى البصر . هذه هي الحس المشترك » (٣) . ويلاحظ أوجه الشبه بين كلام ابن سينا عن رؤية القطرة النازلة خطأ مستقيماً ، والنقطة الدائرة بسرعة خطأ مستديراً ، وبين ما يقوله علماء النفس المحدثون عن خداع الحركة الظاهرة .

المصوِّرة

المصوِّرة (أو الخيال) هي القوة التي تحفظ صور المحسوسات التي يدركها الحس المشترك ، وتبقيها فيها بعد غيبة المحسوسات ، وهي كذلك تحفظ صور المحسوسات التي تبتكرها القوة المتخيِّلة . ووظيفة المصوِّرة حفظ فقط دون أن يكون لها أى فعل أو تصرف فيما تحفظ ، ولكنها تكون في خدمة كل من الحس المشترك والمتخيِّلة . فهي تخدم الحس المشترك بأن تحفظ ما يؤديه إليها من صور المحسوسات ، كما تخدم المتخيِّلة بأن تقدم لها ما يحتاج من صور المحسوسات في عملية التخيّل والأحلام ، وتحفظ ما تقوم المتخيِّلة بتركيبه أو إبداعه . ومركز المصوِّرة في آخر التجويف المقدم من الدماغ (٤) .

المتخيِّلة

القوة المتخيِّلة هي التي تقوم بالتصرف في صور المحسوسات المحفوظة في المصوِّرة ، فقد تستعيد ما كان ، كما يحدث في عملية التذكر ، أو تقوم بتركيب بعضها إلى بعض ، أو فصل

(١) الشفاء ، ص ١٤٥ .

(٢) الشفاء ، ص ١٥١ ؛ النجاة ، ص ٢٦٥ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦١ .

(٣) الشفاء ، ص ١٤٦ ؛ الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١٤٢ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٤) النجاة ، ص ٢٦٦ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٢ .

بعضها عن بعض على صور وأشكال قد تكون مطابقة لما وجدناها عليه في الواقع ، أو قد لا تكون مطابقة لها ^(١) . وهى تنصرف أيضاً في المعانى الجزئية التى يدركها الوهم من المحسوسات والتى تكون محفوظة في الحافظة الذاكرة ، سواء بجمع الصور المحسوسة والمعانى ، أو فصلها بعضها عن بعض ^(٢) . ومركز القوة المتخيلة في التجويف الأوسط من الدماغ ^(٣) .

وللمتخيلة دور هام في عملية التذكر ، فهى دائمة الانكباب على خرائتي الصور المحسوسة والمعانى الجزئية تستعرض ما فيها ، وتنقل من صورة إلى صورة ، أو من معنى إلى معنى ، أو من صورة إلى معنى وبالعكس . وينتج عن ذلك أن تصبح الصور والمعانى أشد وضوحاً ، فتلوح الصور في الحس المشترك ، والمعانى في القوة الوهمية ، فتصبح مدركة بالفعل ، أى مُتخيلة أو مُتذكّرة ^(٤) .

وللمتخيلة دور هام أيضاً في التفكير ، فهى تقدّم إلى العقل الصور المحسوسة المحفوظة في الصورة ، والمعانى الجزئية المحفوظة في الذاكرة ، فيستنبط منها العقل المعانى الكلية ، ويستمدّ منها مبادئ التفكير . وهذه الوظيفة خاصة بالإنسان فقط ، وتُسمى المتخيلة حينما تكون في خدمة العقل بالقوة المفكرة . وأصل هذه التفرقة موجودة عند أرسطو الذى ميّز بين التخيل الحسى وهو موجود عند كل من الحيوان والإنسان ، والتخيل المفكر أو التخيل العقلى ، وهو موجود في الإنسان فقط ^(٥) .

وحيثما يستنبط العقل بمعاونة المتخيلة المعانى الكلية من الصور المحسوسة والمعانى الجزئية فإنه يصبح مستعداً للقيام بوظيفته الخاصة به ، وهى إدراك المعقولات الكلية المجردة ، وهو يقوم بهذه الوظيفة مستقلاً عن القوة المتخيلة ، ولكنه يقوم بها بالاستعانة بالعقل الفعّال ^(٦) .

وللمتخيلة أيضاً دور هام في الأحلام . فحينما تكون المتخيلة ، أثناء النوم ، متحررة من انشغالها بالإحساسات الواردة إليها من الحواس الظاهرة ، وتكون كذلك متحررة من خدمة العقل ، فإنها تصبح متفرغة لأعمالها الخاصة بها ، فتقبل على الصورة وتستعرض ما فيها من الصور المحسوسة ، فتقوى بعض هذه الصور باستعراض المتخيلة لها فتظهر في الحس المشترك ، فترى

(١) الشفاء ، ص ١٤٧ . (٢) الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) النجاة ، ص ٢٦٦ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٢ .

(٤) الشفاء ، ص ١٥١-١٥٥ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

(٥) محمد عثمان نجاتي المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ؛

Aristote : De Anima III, ch. 10. 434 a 5-7; Tricot : De l'âme d'Aristote, Paris, 1974, note I, p.

208; Beare, J. : op.c., pp. 297-298 .

(٦) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

كانها موجودة في الخارج . فرى النائم في الحلم كأنه يرى أشياء حقيقية في الخارج ^(١) . ويلاحظ التشابه التام بين رأى ابن سينا في علاقة القوة المتخيلة بالأحلام وبين ما قاله الفارابى من قبل عن هذا الموضوع . ويختلف كل من ابن سينا والفارابى عن أرسطو في تفسير أسباب الأحلام ، كما يتنا ذلك من قبل أثناء كلامنا عن الأحلام عند الفارابى .

وأشار ابن سينا أيضًا ، كما أشار الفارابى من قبل ، إلى بعض الأسباب الهامة في حدوث الأحلام ، والتي تناوّلها علماء النفس المحدثون فيما بعد بالدراسة ، ووصلوا فيها إلى نتائج تؤيد ما سبق أن قال به كل من ابن سينا والفارابى . فقد ذكر ابن سينا ، وكذلك الفارابى من قبل ، أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم ، سواء كانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أو من داخل البدن . قال ابن سينا في هذا الصدد : « . . . ومن عرض لعضو منه أن سخن أو برد بسبب حرّ أو برد حُكِيَّ له أن ذلك العضو منه موضوع في نار أو في ماء بارد » ^(٢) . وقد دلت البحوث التجريبية الحديثة على صحة ما ذهب إليه ابن سينا ، وكذلك الفارابى من قبله ، من أن للمؤثرات الحسية التي تقع على النائم تأثيرًا في حدوث الأحلام ^(٣) .

وقال ابن سينا أيضًا ، وكذلك الفارابى من قبله ، بالرمزية في الأحلام . فإن كثيرًا مما يراه النائم في الحلم إنما هو عبارة عن رموز تشير إلى أشياء أخرى . يتضح ذلك من الدور الذى تقوم به المتخيلة في الحلم من محاكاة ما يقع على النائم من مؤثرات حسية بصور محسوسة قد لا تكون مطابقة للمؤثرات الحسية التي تقع على النائم .

وقد أشار ابن سينا أيضًا ، مثل الفارابى من قبل ، إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات . فإذا كان مزاج البدن في حالة ما من شأنها أن تحدث نزوعًا إلى شيء ما ، قامت المتخيلة بمحاكاة الأفعال التي من شأنها أن تشبع هذا الدافع ، وكما يقول ابن سينا : « مثل ما يكون عندما تتحرك القوة الدافعة للمنى إلى الدفع ، فإن المتخيلة حينئذ تحاكي صورًا من شأن النفس أن تميل إلى مجامعتها . ومن كان به جوع حكيت له مأكولات . . . » ^(٤) ويتضح من ذلك أن ابن سينا والفارابى قد سبقا سيجموند فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسى في تفسير الأحلام بأنها تقوم بإشباع الدوافع والرغبات .

(١) الشفاء ، ص ١٥٤ ؛ الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣٣ ؛ محمد عثمان نجاتى : المرجع السابق ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) الشفاء ، ص ١٥٩ ؛ محمد عثمان نجاتى : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٣) N.Vaschide, op.c., pp. 114, 136, 197.

(٤) الشفاء ، ص ١٥٩ .

ابن سينا الغرائز بأنها إلهامات فائضة على النفوس من العناية الإلهية ، وهو يجعل الوهم القوة التي تنتمي إليها الغرائز « (١) .

ويذهب ابن سينا إلى أن القوة الوهمية هي « مصدر جميع الأحكام والاعتقادات التي لا يميز العقل بصحتها ، وإنما يسلّم الإنسان بها فقط على سبيل التوهم والتخيّل . مثال ذلك اعتقاد عامة الناس أن كل شيء ينتهي إلى خلاء ، والملاء غير متناه ، وأن كل موجود متخيّر في مكان . فهذه الاعتقادات والأحكام وأمثالها أوهام كاذبة ينقضها العقل . وقد تكون أحكام الوهم صادقة يشهد العقل بصحتها ، مثل اعتقاد الناس أنه لا يمكن أن يوجد جسم واحد في مكانين » (٢) .

ويذهب ابن سينا إلى أن الرجاء والتمنى والخوف واليأس أحكام خاصة بالقوة الوهمية . فهو يعرف الرجاء بأنه تخيّل أمر ما مع حكم أو ظن بأنه في الأكثر كائن . ويعرّف الأمانة بأنها تخيّل أمر وشهوته والحكم بالتأذ يكون إن كان . والخوف مقابل الرجاء ، واليأس عدمه . وهذه الأحكام التي تصاحب تخيّل الأمور المرجوة والمثمّنة والمخيفة والميثوس منها إنها هي أحكام غير عقلية ، وغير مقطوع بصحتها ، فهي أحكام للوهم » (٣) .

ويذهب ابن سينا إلى أن للقوة الوهمية دورًا هامًا في أفعال الحيوان والإنسان ، فهو يرى أن أغلب أفعال الحيوان - لأنه محروم من العقل - يتبع أحكام القوة الوهمية . وهو يرى أيضًا أن أغلب الناس يشبهون الحيوان في ذلك ، فيتبعون في أفعالهم أحكام القوة الوهمية التي لم يناقشها العقل (٤) . وفي أثناء مناقشة ابن سينا لهذه الوظيفة الخاصة بالقوة الوهمية ، استطاع بلذاته المتوقد ، وبملاحظته الدقيقة أن يكتشف مبادئ عملية التعلم الشرطي ، وهو ما كشفت عنه البحوث التجريبية الحديثة التي أجراها إيفان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور ، والتي كان لها تأثير كبير في البحوث الفسيولوجية والنفسية . يقول ابن سينا : « . . . إن الوهم هو الحاكم الأكبر في الحيوان . ويحكم على سبيل انبعاث تخيّل من غير أن يكون ذلك محققًا . وهذا مثل ما يعرض للإنسان من استقذار العسل لمشابهته المرارة ، فإن الوهم يحكم بأنه في حكم ذلك . وتتبع النفس في ذلك الوهم ، وإن كان العقل يكذبه . والحيوانات وأشباهاها من الناس إنما يتبعون في أفعالهم هذا الحكم من الوهم الذي لا تفصيل نطقيًا (منطقيًا) له ، بل هو على سبيل انبعاث فقط . » (٥) .

إن كلام ابن سينا السابق عن استقذار الإنسان للعسل لمشابهته للمرارة يشير إلى طبيعة العملية التي تتكوّن بها الاستجابات الشرطية . فإن استجابة الاستقذار التي تثيرها فينا رؤية المرارة ترتبط

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٣ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ١٧٤ .

(٢) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ النجاة ، ص ٩٦ .

(٣) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ . (٤) الشفاء ، ص ١٦٢ .

بشكل المرارة الذي يتميز باللينة والصفرة ، بحيث يصبح هذا الشكل فيما بعد قادراً على إثارة استجابة الاستقدار ، فإذا رأينا العسل الذي يشبه المرارة في لونه ، فإنه يثير فينا استجابة الاستقدار التي تثيرها فينا رؤية المرارة ، تبعاً لمبدأ التعميم الذي هو من خصائص الاستجابة الشرطية . ويتضح رأى ابن سينا أيضاً في هذا الموضوع من قوله التالى : « إن الحيوان إذا أصابه ألم ، أو لذة ، أو وصل إليه نافع حسى ، أو ضار حىّ مقارنةً بصورة حسية ، فارتسم في المصورة صورة الشيء بصورة ما يقارنه ، وارتسم في الذكر معه النسبة بينها والحكم فيها ، فإن الذكر لذاته وجبلته ينال ذلك . فإذا لاح للمتخيلة تلك الصورة من خارج تحركت في المصورة وتحرك معها ما قارنها من المعانى النافعة ، أو الضارة ، وبالجملة المعنى الذى في الذكر على سبيل الانتقال والاستعراض الذى في طبيعة القوة المتخيلة ، فأحس الوهم بجميع ذلك معاً ، فرأى المعنى مع تلك الصورة ، وهذا على سبيل يقارب التجربة ، ولهذا تحاف الكلاب المدّر والخشب وغيرها^(١) . ويتضح من هذه العبارات أن ابن سينا لاحظ أهمية اقتران بعض المدركات الحسية مع بعض الاستجابات ، بحيث تستطيع هذه المدركات الحسية ، فيما بعد ، إثارة هذه الاستجابات ، فإذا اقترن طعام ما بالشعور باللذة والسرور ، وإذا اقترنت العصا بالضرب المؤلم ، فإن رؤية هذا الطعام تثير الشعور باللذة وتبعث انفعال السرور ، ورؤية العصا تثير الشعور بالألم ، وتبعث انفعال الخوف . ويضرب ابن سينا لذلك مثلاً وهو خوف الكلاب من المدّر والخشب^(٢) .

وقد تأثر الغزالى فيما بعد بآراء ابن سينا في وظائف الوهم وأحكامه ، وأخذ عنه فكرة اقتران بعض المؤثرات الحسية ببعض الاستجابات ، بحيث تصبح هذه المؤثرات الحسية فيما بعد قادرة على إثارة هذه الاستجابات ، وهى ما يسميها علماء النفس المحدثون بالاستجابات الشرطية . وسوف نتعرض فيما بعد لرأى الغزالى في هذا الموضوع عندما نتناول الدراسات النفسية عند الغزالى .

الحافظة الذاكرة

القوة الحافظة الذاكرة « هى قوة مُرتبة » في التجويف المؤخر من الدماغ تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعانى غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات^(٣) . كما أنها تحفظ أيضاً الأفعال^(٤) . ووظيفة الحافظة الذاكرة حفظ فقط ، أما عملية تذكر المعانى فهى في الحقيقة وظيفة للقوة الوهمية

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٣) النجاة ، ص ٢٦٦ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٢ .

(٤) الشفاء ، ص ١٤٩ .

بالاشتراك مع المتخيلة^(١). وقد سبق أن ذكرنا أثناء كلامنا عن القوة المتخيلة أن تذكر صور المحسوسات يحدث بأن تستعرض القوة المتخيلة هذه الصور المحفوظة في القوة المصورة ، فتقوى هذه الصور ، فتلوح في الحس المشترك ، فيحدث استعادتها وتذكرها . وكذلك يحدث تذكر المعاني عندما تستعرض القوة المتخيلة المعاني المحفوظة في الحافظة والذاكرة ، فتقوى هذه المعاني فتلوح في القوة الوهمية فتدركها ، ويحدث استعادتها وتذكرها . فالتذكر هو تمثيل صور المحسوسات في الحس المشترك ، وتمثل المعاني في القوة الوهمية . والقوة المتخيلة هي التي تحرك الصور المحسوسة المحفوظة في المصورة وتدفعها إلى الارتسام في الحس المشترك وهو القوة المدركة للصور المحسوسة ، وهي أيضاً التي تحرك المعاني المحفوظة في الحافظة والذاكرة وتدفعها إلى الارتسام في القوة الوهمية ، وهي القوة المدركة للمعاني^(٢).

وهناك تشابه كبير بين التذكر والتخيل ، فكل منهما هو عبارة عن تمثيل الصور المحسوسة المحفوظة في المصورة في الحس المشترك ، وتمثل المعاني المحفوظة في الحافظة والذاكرة في الوهم . غير أن ابن سينا يميز بين التذكر والتخيل على أساس أن التذكر يضيف إلى إدراك الصور والمعاني ، إدراك الزمان الماضي ، أما التخيل فإنه لا يضيف إلى إدراك الصور والمعاني إدراك الزمان الماضي ، فهو يدركها من حيث أنها موجودة الآن فقط^(٣). وهذا هو أساس التفرقة بين التذكر والتخيل الذي يقول به علماء النفس منذ أرسطو حتى الآن^(٤).

ويفرق ابن سينا بين مفهومي الذكر والتذكر . فالذكر هو الاستعادة التلقائية لكل من الصور والمعاني ، وهو يحدث في كل من الحيوان والإنسان . أما التذكر فهو الاستعادة الإرادية للصور والمعاني ، وهو خاص بالإنسان وحده^(٥).

وأشار ابن سينا إلى وجود فروق كبيرة بين الناس في قوة الذكر والتذكر ، كما ناقش أسباب النسيان ، واستطاع بذلك ملاحظة أن يصل إلى تفسير علمي للنسيان لم يصل إليه علماء النفس المحدثون إلا بعد الربع الأول من القرن العشرين . فقد كان علماء النفس قبل ذلك يفسرون النسيان بأنه راجع إلى زوال الآثار التي يتركها التعلم السابق نتيجة عدم الاستعمال . واستمر هذا

(١) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٢) الشفاء ، ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ١٩٠ .

(٤) J.Beure : op.c., pp. 308, 319; Janet et seailles : Histoire de Le philosophie, paris, 1925, pp.(٤)

، 174,175; Ross, W.D. Aristote, trad. Fr., Paris, 1930, pp. 201;

ص ١٩٠ .

(٥) الشفاء ، ١٦٤ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ١٩٠ - ١٩١ .

التفسير شائعاً بين علماء النفس المحدثين مدة طويلة من الزمن حتى قام جينكنز Jenkins ودالنباخ Dallenbach في عام ١٩٢٤ بدراسة تجريبية^(١) بينت أن النسيان لا يحدث بسبب مجرد مضي الزمن بدون استعمال المعلومات ، وإنما يحدث بسبب كثرة نشاط الإنسان وإنشغاله بأمر كثيرة تؤدي إلى تداخل معلوماته الجديدة وتعارضها مع معلوماته السابقة . وسميت هذه الظاهرة بالتداخل الرجعي Retroactive Interference أو الكف الرجعي Retroactive Inhibition . وبيّنت بعض الدراسات التجريبية الحديثة الأخرى أن النسيان قد يحدث أيضاً نتيجة تداخل المعلومات السابقة مع المعلومات الحديثة ، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل اللاحق Proactive Interference . وقد سبق ابن سينا علماء النفس المحدثين في تفسير النسيان بسبب تداخل المعلومات . يقول ابن سينا في هذا الصدد : « . . وأكثر من يكون حافظاً هو الذي لا تكثر حركاته ولا تتفنّن هممه ، ومن كان كثير الحركات لم يتذكر جيداً . . . ولذلك كان الصبيان مع رطوبتهم يحفظون جيداً ؛ لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشتغل به نفوس البالغين ، فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيره »^(٢).

النفس الناطقة أو العقل

يتميز الإنسان عن سائر الحيوان بأن له نفساً ناطقة ، أو عقلاً يميّز به بين الجميل والقيح ، وبين الخير والشر ، وبين ما ينبغي فعله وما لا ينبغي ، كما يدرك به المعقولات المجردة . ويقسم ابن سينا العقل ، كما فعل الفارابي من قبل ، إلى عقل عملي ، وعقل نظري (أو علمي) . والعقل العملي هو القوة التي « تختص بالروية في الأمور الجزئية فيما ينبغي أن يفعل ، أو يترك مما ينفع ويضر ، وما هو جميل وقيح ، وخير وشر . فالأخلاق تكون للنفس من جهة العقل العملي . وكذلك ، فإن انفعالات الخجل والحياء والضحك والبكاء ، وما شابه ذلك من الانفعالات ، فإنها تحدث من جهة العقل العملي . وهو يستعمل القوتين المتخيلة والوهمية في استنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاصلة ، واستنباط الصناعات الإنسانية^(٤) . » فإذا حكمت هذه القوة تبع حكمها حركة القوة الإجماعية إلى تحريك البدن^(٥) . ويستمدّ العقل العملي قدرته على هذه

(١) Jenkins J.G and Dallenbach, K.M. : Obliviscence during Sleep and Waking . American Journal of Psychology, 1924, Vol. 35, pp. 605-612.

(٢) محمد عثمان نجاتي : علم النفس والحياة ، مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته في الحياة ، ط ١٣ . الكويت : دار القلم ، ١٩٩٢ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٣) الشفاء ، ص ١٦٥-١٦٦ .

(٤) النجاة ، ص ٢٦٧ .

(٥) الشفاء ، ص ١٨٤-١٨٦ .

الأفعال من القوة التي فوقها ، وهى العقل النظرى . والعقل العملى يحتاج فى أفعاله كلها إلى البدن وإلى القوة البدنية . والعقل العملى يتسلط على جميع قوى البدن على حسب توجيه أحكام العقل النظرى . ويمكن أن ننظر إلى النفس الناطقة (أى العقل) بأن لها « نسبة وقياس إلى جنبتين ، جنبه هى تحتها ، وجنبه هى فوقه ، وله بحسب كل جنبه قوة بها تنظم العلاقة بينه وبين تلك الجنبه . فهذه القوة العاملة هى القوة التى لها بالقياس إلى الجنبه التى دونها وهو البدن وسياسته . وأما القوة النظرية فهى القوة التى له بالقياس إلى الجنبه التى فوقه لينفعل ويستفيد منه ويقبل عنه . وكان للنفس منا وجهين ، وجه إلى البدن ، ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل ألْبْتة أثرًا من جنس مقتضى طبيعة البدن . ووجه إلى المبادئ العالية ، ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هناك والتأثير منه . . . » (١).

العقل النظرى ومراتبه

إن العقل النظرى ، كما ذكرنا سابقًا ، هو القوة التى تدرك الصور الكلية المحرّرة . وهذه إما أن تكون مجردة بذاتها ، وإما أن تكون مجردة بتجريد العقل إياها من المادة ولواحقها . وللعقل النظرى مراتب ، هى عبارة عن المراحل المختلفة لعملية الإدراك العقلى .

١ - العقل الهولانى

إن العقل قبل إدراكه للمعقولات يكون عقلاً بالقوة ، أو عقلاً هيولانياً ، وهو عبارة عن الاستعداد المطلق الموجود عند الإنسان لإدراك المعقولات ، قبل أن يخرج هذا الاستعداد إلى الفعل ، مثل الاستعداد الموجود فى الطفل لتعلم الكتابة .

٢ - العقل بالملكة

وحينما يدرك العقل المعقولات الأولى وهى المقدمات التى يقع التصديق بها بلا اكتساب مثل «إن الكل أعظم من الجزء» ، و «إن المقادير المساوية لشيء متساوية» ، فإنه يصبح عقلاً بالملكة . ويمثل ابن سينا العقل بالملكة بقوة الطفل الذى عرف القلم والدواة وبسائط الحروف على الكتابة .

٣ - العقل بالفعل

وحينما يدرك العقل المعقولات الثوانى التى يتوصل إلى اكتسابها بالاستعانة بالمعقولات الأولى ،

(١) أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٣ - ٦٥ ، النجاة ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

فإنه يصبح حينئذ عقلاً بالفعل ، غير أنه لا يطالعها ويرجع إليها بالفعل ، ولكنه يستطيع أن يطالعها متى شاء ، لأنه عقل يعقل متى يشاء بلا تكلف اكتساب .

٤ - العقل المستفاد

وحينما تكون المعقولات حاضرة في العقل بالفعل ، وهو يطالعها بالفعل ، ويعقلها بالفعل ، ويعقل أنه يعقلها بالفعل ، فإنه يصبح عقلاً مستفاداً ، وهو كمال العقل ، وبه يتم كمال الإنسان . وسمى بالعقل المستفاد لأنه يستفيد معقولاته ويستمددها من عقل مفارق خارج عنه ، هو العقل الفعّال الذي يكون بالنسبة له كالشمس بالنسبة للبصر . فكما أن شعاع الشمس يجعل العين مبصرة ، فكذلك العقل الفعال ينقل العقل من القوة إلى الفعل ، ويعطيه المعقولات التي يعقلها بالفعل . وعند العقل المستفاد يتم الجنس الحيواني والنوع الإنساني منه ، وهناك تكون القوة الإنسانية تشبهت بالمبادئ الأولية للوجود كله .

وقد يشتد الاستعداد لقبول المعقولات عند بعض الناس بحيث يكونون شديدي الحدس ، وشديدي الاتصال بالعقل الفعّال ، فترتسم في عقولهم المعقولات الموجودة في العقل الفعال دون أدنى عناء ، وهذا ضرب من النبوة . ويسمى ابن سينا هذه القوة ، وهي أعلى مراتب القوى الإنسانية ، « بالقوة القدسية » ، ويسمى العقل في هذه الحالة « بالعقل القدسي » (١) .

ويلاحظ تأثر ابن سينا كثيراً بالفارابي في نظرية العقل ، فهو يردد ما سبق أن قاله الفارابي عن مراتب العقل ، غير أنه أضاف إلى هذه المراتب مرتبة جديدة هي العقل القدسي . كما يلاحظ أنه ، مثل الكندي والفارابي ، قد تأثر بكل من أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الجديدة والأكسندر الأفروديسي .

تدرج القوى النفسانية المدركة من حيث تجرّد إدراكاتها عن المادة

ويجب أن نشير هنا إلى أن ابن سينا يرتب القوى النفسانية المدركة من حيث درجة تجرّد إدراكاتها عن المادة . « . فالحس يأخذ الصورة عن المادة مع هذه اللواحق ومع وقوع نسبة بينها وبين المادة ، وإذا زالت تلك النسبة بطل ذلك الأخذ . وذلك لأنه لا ينزع الصورة عن المادة من جميع لواحقها ، ولا يمكنه أن يستثبت تلك الصورة وإن غابت المادة . فيكون كأنه لم ينزع الصورة عنالمادة نزحاً محكماً ، بل يحتاج إلى رجوع المادة أيضاً في أن تكون تلك الصورة موجودة له . وأما

(١) أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٥ - ٦٧ ؛ النجاة ، ص ٢٦٩ - ٢٧٤ .

الخيال فإنه يرى الصورة المنزوعة عن المادة تربة أشد ، وذلك بأخذها عن المادة بحيث لا يحتاج في وجودها فيه إلى وجود مادة ، لأن المادة ، وإن غابت ، أو بطلت ، فإن الصورة تكون ثابتة الوجود في الخيال ، إلا أنها لا تكون مجردة عن اللواحق المادية . فالحس لم يجردها عن المادة تجريداً تاماً ، ولا جردها عن لواحق المادة . وأما الخيال فإنه قد جردها عن المادة تجريداً تاماً ، ولكنه لم يجردها البتة عن لواحق المادة ، لأن الصورة في الخيال هي على حسب الصور المحسوسة ، وعلى تقدير ما ، وتكيف ما ، ووضع ما . وليس يمكن في الخيال البتة أن يتخيل صورة هي بحال يمكن أن يشترك فيه جميع أشخاص ذلك النوع . فإن الإنسان المتخيل يكون كواحد من الناس ، ويجوز أن يكون ناس موجدين ومتخيلين ليسوا على نحو ما يتخيل الخيال ذلك الإنسان . . وأما الوهم فإنه قد تعدى قليلاً عن هذه المرتبة في التجريد ، لأنه ينال المعاني التي ليست هي في ذاتها بهادية ، وإن عرض لها أن تكون في مادة ، وذلك لأن الشكل واللون والوضع وما أشبه ذلك أمور لا يمكن أن تكون إلا لمواد جسمية . وأما الخير والشر ، والموافق والمخالف ، وما أشبه ذلك ، فهي أمور في أنفسها غير مادية ، وقد يعرض لها أن تكون في مادة . . . والوهم إنما ينال ويدرك أمثال هذه الأمور . فإذا هو يدرك أموراً غير مادية ، ويأخذها عن المادة . فهذا النزاع أشد استقصاءً وأقرب إلى البساطة من النزعين الأولين ، إلا أنه مع ذلك لا يجرد هذه الصورة عن لواحق المادة ، لأنه يأخذها جزئية ، وبحسب مادة مادة وبالقياص إليها ، ومتعلقة بصور محسوسة مكثفة بلواحق المادة ، ولأنه يأخذها بمشاركة الخيال فيها ^(١) . وأما العقل فإنه يأخذ الصورة المجردة تجريداً تاماً عن المادة ولواحقها .

نظرية المعرفة

يعترف ابن سينا بأهمية الإدراك الحسي في اكتساب المعرفة ، متفقاً في ذلك مع أرسطو ، ولكنه لا يوافق على رأى أرسطو الذي يعتبر الإدراك الحسي أساس المعرفة والتفكير ، وبدونه لا تكون معرفة ولا تفكير . ويعتبر ابن سينا ، مثل الفارابي من قبل ، الإدراك الحسي مرحلة أولية تمهيدية تمهين النفس للمعرفة العقلية التي هي في الحقيقة ليست مكتسبة عن طريق الإحساس ، وإنما هي تكتسب من خارج العقل الإنساني عن طريق الإلهام والفيض من العقل الفعال ، وهو عقل مفارق للمادة ، وهو العقل العاشر من العقول السبئية المفارقة للمادة بعد السبب الأول . أما كيف يمهّد الإدراك الحسي للمعرفة العقلية ، فإن ابن سينا يرى ، كما ذكرنا من قبل ، أن العقل يستعين بالمتخيلة والوهم في انتزاع المعاني الكلية من الجزئيات المدركة بالحس ، وذلك عن طريق

(١) النجاة ، ص ٢٧٧-٢٧٩ .

استعراضها لصور المحسوسات والمعاني الجزئية المحفوظة في القوتين المصوّرة والحافظة الذاكرة ، واستنباط المعاني الكلية منها . يقول ابن سينا : « . . إن القوى الحيوانية تعين النفس الناطقة في أشياء ، منها أن الحس يورد عليها الجزئيات فيحدث لها من الجزئيات أمور أربعة . أحدها انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد لمعانيها عن المادة وعن علاقتي المادة ولواحقها ، ومراعاة المشترك فيه والمتباين به ، والذاتي وجوده والعرضي وجوده ، فيحدث للنفس من ذلك مبادئ التصور ، وذلك بمعاونة استعمالها للخيال والوهم . . » ^(١) ويقول أيضًا : « . . كثرة تصرفات النفس في الخيالات الحسية وفي المثل المعنوية التي في المصوّرة والذاكرة باستخدام القوة الوهمية والمفكرة ، تكسب النفس استعدادًا نحو قبول مجرداتها عن الجوهر المفارق » ^(٢).

ويلاحظ التشابه الكبير بين نظرية المعرفة عند ابن سينا ، ونظرية المعرفة عند الفارابي . فالمعرفة تبدأ عند كل منها بالإحساس ، ثم تنتهي بأن تصبح معرفة إشراقية .

ونجد في نظرية المعرفة عند ابن سينا ، كما هو الحال أيضًا في نظرية المعرفة عند الفارابي ، أن هناك ضربًا من التوفيق بين أفلاطون وأرسطو . فالكليات الأزلية الموجودة في العقل الفعال في مذهب كل من ابن سينا والفارابي شبيهة بمثل أفلاطون . وإن عملية استنباط الكليات من الصور الحسية والمعاني الجزئية في مذهب كل من ابن سينا والفارابي ، ليست سوى تعبير عن نظرية التجريد الأرسطية . والفرق بين أفلاطون وكل من ابن سينا والفارابي هو أن الأول جعل المعقولات الأزلية قائمة بذاتها ، بينما جعلها ابن سينا والفارابي قائمة في العقل الفعال ، لتفيض منه على العقل الإنساني ^(٣).

الانفعال

لم يُعْنِ ابن سينا كثيرًا بدراسة الحالة الوجدانية والانفعالية للإنسان ، فهو لم يتعرض لها إلا قليلًا جدًّا ، وبإيجاز شديد في بعض كتبه . وقد ذكر بعض الانفعالات الشائعة التي تحدث نتيجة مشاركة الإنسان لغيره من الناس في الحياة الاجتماعية . قال ابن سينا : « . . ومن خواص الإنسان أنه يتبع إدراكه للأشياء النادرة انفعال يسمى التعجب ، ويتبعه الضحك . ويتبع إدراكه للأشياء

(١) الشفاء ، ص ١٩٧ ؛ النجاة ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ؛ مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٦١ - ٦٢ . يستعمل ابن سينا أحيانًا كلمة « الخيال » ويعني بها « التخيل » أي القوة المتخيلة ، وهذا هو معنى الخيال هنا . ولكنه في أحيان أخرى يقصد بالخيال « القوة المصوّرة » .

(٢) الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٣) جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

المؤذية انفعال يسمى الضجر ، ويتبعه البكاء » (١) . وإذا أدرك الإنسان أن الناس يشعرون أنه فعل شيئاً من الأشياء التي أجمع الناس على أنه لا ينبغي أن يفعلها ، فإنه يشعر حينئذٍ بانفعال يسمى التجمل . وإذا ظن الإنسان أن أمراً في المستقبل يمكن أن يضره ، شعر بانفعال يسمى الخوف . وللإنسان بلباء الخوف الرجاء (٢) . وذكر ابن سينا في مواضع أخرى أن العقل العمل يحدث في القوة النزوعية هيئات يتهيأ بها الإنسان لحدوث انفعالات التجمل ، والحياة ، والضحك ، والبكاء ، وما أشبه ذلك (٣) .

ويذهب ابن سينا إلى وجود علاقة وثيقة بين النفس والبدن ، فالتغيرات في الحالات النفسانية ، التي تحدث في حالات الانفعال مثلاً ، يصاحبها ، أو يتبعها تغيرات في الحالة البدنية . يقول ابن سينا : « جميع العوارض النفسانية يتبعها ، أو يصحبها حركات الروح إما إلى خارج وإما إلى داخل . . والحركة إلى خارج إما دفعة كما عند الغضب . وإما أولاً فاولاً كما عند اللذة وعند الفرح المعتدل . والحركة إلى داخل إما دفعة كما عند الفزع ، وإما أولاً فاولاً كما عند الحزن . . » (٤) . ويعنى ابن سينا بحركات الروح حركات الدم . ويشير ابن سينا هنا إلى ما أثبتته البحوث الحديثة من أن الانفعال تصاحبه تغيرات فسيولوجية كثيرة ، من أهمها ما يحدث من تغيرات في الدورة الدموية ، إذ تزداد سرعة وشدة خفقان القلب ، وينتج عن ذلك زيادة كمية الدم التي يرسلها القلب إلى أجزاء البدن ، وتنقبض الأوعية الدموية الموجودة في الأحشاء ، وتوسع الأوعية الدموية الموجودة في الجلد والأطراف . ولذلك يشعر الإنسان عند الغضب بالحرارة تتدفق في وجهه ويدنه ويحمر وجهه (٥) . ويُلاحظ كذلك أن الإنسان في حالة الفزع الشديد يصفر وجهه بسبب حركة دمه إلى الداخل ، وهذا ما عثر عنه ابن سينا بقوله « والحركة إلى داخل إما دفعة كما عند الفزع » .

ويجب أن نتأمل قليلاً في قول ابن سينا الذي ذكرناه سابقاً وهو أن « جميع العوارض النفسانية يتبعها ، أو يصحبها حركات الروح » . فقد أشار ابن سينا في هذه العبارة إلى مشكلة شغلت علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس في العصر الحديث ، وهي : هل الشعور بالانفعال والتغيرات الفسيولوجية المصاحبة له ، يحدثان معاً في نفس الوقت ، أم أن أحدهما يسبق الآخر . فقد ذهب كل من كانون Cannon وبارد Bard في العصر الحديث إلى أن الشعور بالانفعال يحدث في نفس الوقت الذي يحدث فيه التغيرات الفسيولوجية والعضلية (٦) . وقد أبدى ابن سينا رأيه في هذه

(١) الشفاء ، ص ١٨٣ . (٢) المرجع السابق .

(٣) النجاة ، ص ٢٦٧ ؛ أحوال النفس الناطقة ، ص ٦٣ .

(٤) القانون في الطب ، ج ١ ، ص ٩٤-٩٥ .

(٥) محمد عثمان نجاتي : علم النفس والحياة ، مرجع سابق ، ص ١١٨ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٢٥-١٢٦ .

المشكلة ، قبل أن تثار في العصر الحديث ، وقبل أن يتناولها العلماء المحدثون بالدراسة ، وقال في الإجابة عليها باحثاين . أحدهما هو أن الانفعال يحدث مصاحباً للتغيرات الفسيولوجية ، وهو ما قال به كل من كانون وبارد . أما الاحتمال الثاني الذي قال به ابن سينا ، وهو أن الانفعال يحدث أولاً ، ثم تتبعه التغيرات الفسيولوجية ، فلا يقول به أحد من علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس المحدثين .

وقد استعان ابن سينا بما يحدث من تغير في سرعة وشدة النبض أثناء الانفعال في علاج شخص مصاب بحالة عشق شديد . وقد أراد ابن سينا أولاً أن يعرف الفتاة التي يعشقها هذا الشخص ، حتى يمكن بعد ذلك أن يتخذ خطوات عملية في علاجه من عشقه . وقد ابتكر ابن سينا طريقة طريفة لتحقيق غرضه . فكان يضع إصبعه على نبض هذا الشخص ، ثم يقول له كثيراً من أساء الفتيات والأماكن ، والبلاد ، والأحياء . وكان يلاحظ ما يحدث من تغير في سرعة وشدة النبض عندما يسمع هذه الأسماء . واستطاع بهذه الطريقة الطريفة أن يصل إلى معرفة الفتاة التي يعشقها هذا الشخص (١) . وقد سبق ابن سينا المحللين النفسانيين وعلماء النفس في العصر الحديث في الاستعانة بالتغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الإنسان لمعرفة ما يصيبه من اضطراب انفعالي . وقد استخدم بعض المحللين النفسانيين المحدثين نفس الطريقة التي استخدمها ابن سينا ، وهي النطق بكلمات معينة ، وملاحظة ما تحدثه هذه الكلمات من اضطراب انفعالي في الفرد ، والاستدلال من ذلك على المشكلة النفسانية التي يعاني منها الفرد . وفضلاً عن ذلك ، فإن ابن سينا ، بطريقته الطريفة التي قاس بها التغيرات التي تحدث في سرعة النبض ، قد سبق علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس المحدثين الذين يستعينون الآن بأجهزة دقيقة الصنع لقياس التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للاضطراب الانفعالي ، وهي أجهزة حساسة لقياس مقاومة الجلد للتيارات الكهربائية الضعيفة التي تحدث أثناء الانفعال (استجابة الجلد الجلفانية) Galvanic skin response ، ويطلق عليها « أجهزة كشف الكذب » بسبب كثرة استخدامها في التحقيقات الجنائية .

وقد قام ابن سينا أيضاً بعلاج بعض حالات الاضطرابات العقلية ، وذكر في كتابه « القانون في الطب » بعض حالات المرض العقلي التي عالجها .

السعادة

يطلق ابن سينا لفظ السعادة والشقاء على سعادة النفس وشقائها في الحياة الآخرة ؛ أما حين

(١) ابن سينا : القانون في الطب ، ج ٢ - القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، (د.ت) ، ص ٧١ - ٧٢ .

تكون السعادة والشقاء متصلة بالبدن في هذه الحياة الدنيوية ، فإن ابن سينا يسميها لذة وألماً . ويذهب ابن سينا أن لكل قوة نفسانية لذة (أو خيراً) تخصها ، كما أن لها كذلك ألماً (أو شراً) يخصها . فلذة القوة الشهوانية ، مثلاً ، أن تتأذى إليها كيفية محسوسة ملائمة من الحواس الخمس الخارجية ، ولذة القوة الغضبية الظفر ، ولذة القوة الوهمية الرجاء ، ولذة القوة الحافظة تذكر الأمور الموافقة الماضية . وأذى كل واحدة منها ما يضادها . وتشارك كل القوى النفسانية في أن الشعور بها يوافقها ويلامها هو اللذة والخير الخاص بها . وإدراك كل قوة منها لما يوافقها هو حصول كمالها . ولكمال هذه القوى النفسانية مراتب مختلفة . فما كان منها كماله أتم وأفضل وأدوم ، فتكون لذته أبلغ وأوفى . والقوة العاقلة أفضل القوى النفسانية وأشرفها وأعظمها شأنًا ، وكمالها أفضل الكمالات . وكمال القوة العاقلة الخاص بها هو أن ترتسم فيها صور جميع المعقولات ، فتشعر حينئذ بلذة هي أفضل اللذات جميعًا ، ولا يمكن مقارنتها باللذات الحسية والشهوانية والغضبية . وإن ما يعوقنا في حياتنا الدنيوية عن الشعور باللذات العقلية هو انغماسنا في اللذات الحسية والشهوانية والغضبية . فإذا تخلص الإنسان من ربة هذه اللذات ، وانصرف بكليته إلى إدراك المعقولات ، ووصل إلى مرتبة العقل المستفاد ، فإنه يكون قريبًا جدًا من العقل الفعال بحيث تفيض عليه المعقولات مباشرة ، وهذا هو أعظم اللذات التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان في الحياة الدنيوية^(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن رأى ابن سينا في السعادة هو نفس الرأى الذى قال به الفارابى من قبل . فالسبيل الذى يوصل إلى السعادة عند ابن سينا ، كما هو عند الفارابى ، هو فعل التعقل ، والترقى في مراتبه حتى بلوغ مرتبة العقل المستفاد الذى هو أهل لفيض المعقولات عليه من العقل الفعال . وهذا هو أعظم سعادة يمكن أن يصل إليها الإنسان .

ويرى ابن سينا أيضًا أن السعادة الحقيقية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العلى من النفس ، أى بإصلاح الأخلاق ، وذلك بأن يتمسك الإنسان بالفضيلة وهى التوسط بين الحثثين الضدين . يقول ابن سينا : « والفضائل هى الوسط بين الإفراط والتفريط . وإذا حصلت ملكة التوسط تنزه الإنسان عن الهيئات الانقيادية لما تدفع إليه الشهوة ، وتأمّر به الغلبة والغضب . فال مطلوب من إصلاح الأخلاق إفادة النفس هيئة الاستعلاء والتتزيه ، لا الإذعان والانقياد »^(٢).

وإذا ما بلغت القوة العاقلة أقصى حد من الكمال في حياتها الدنيوية ، فإنها إذا ما فارقت

(١) النجاة ، ص ٤٧٧ - ٤٨٧ ، أحوال النفس الناطقة ، ص ١٢٧ - ١٣٧ .

(٢) أحمد فؤاد الأهواني : ابن سينا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٨ ، ص ٦٨ .

البدن ، فإنه يمكنها أن تستكمل الاستكمال التام الذي لها أن تبلغه في العالم الآخر ، حيث ترسم فيها صور جميع المعقولات ، فتشعر بلذة عظيمة هي أجل من كل لذة وأشرف ، وهذه هي السعادة . أما إذا كان الإنسان مشغولاً باللذات الحسية والشهوانية والغضبية في حياته الدنيوية ، فإنه يحرم من اللذة العقلية التي هي أفضل اللذات ، وإذا ما فارقت النفس البدن ، فإنها لا تكون سعيدة في حياتها الآخرة ، بل تكون في شقاء .

آراء ابن سينا التربوية (١)

لابن سينا في كتاب « السياسة » آراء تربوية قيمة ذكرها في سياق حديثه عن سياسة الرجل لولده . وقد أبدى ابن سينا اهتماماً بإحسان تسمية الأبناء ، ومن المعروف الآن أن للاسم أهمية في تكوين مفهوم الذات عند الطفل .

وأشار ابن سينا أيضاً إلى أهمية العناية بتربية الطفل وتأديبه منذ الطفولة المبكرة ابتداء من عقب الفطام ، حتى يكتسب الطفل الأخلاق والعادات الحسنة . وأشار إلى أنه إذا أهمل تأديب الطفل في هذه السن المبكرة ، فقد تتمكن فيه الأخلاق الذميمة والعادات السيئة ، ويصبح من الصعب الإقلاق عنها . وقد سبق ابن سينا بذلك سيجموند فرويد وعلما النفس المحدثين الذين نادوا بأهمية السنوات الأولى من حياة الطفل في تكوين شخصيته ، وفي اكتساب سماته الخلقية .

وأشار ابن سينا أيضاً إلى أهمية استخدام الثواب والعقاب في تأديب الطفل وتعليمه الأخلاق الطيبة والسلوك الحسن . وذكر من أنواع الثواب التي يمكن استخدامها في تأديب الطفل الإقبال عليه وإظهار الاستحسان والرضا عما يفعل من الأفعال الحسنة ، والثناء عليه . وذكر من أنواع العقاب التهيب ، والإعراض عنه ، وتوبيخه . فإن لم يقد الإرهاب الشديد في ردع الطفل ، فإنه يمكن الاستعانة بالضرب باليد ضرباً لا يكون موجعاً إلى درجة تثير فيه الخوف الشديد ، ولا يكون خفيفاً إلى درجة تجعله لا يحفل به ولا يهتم . يقول ابن سينا : « فإذا فُطم الصبي عن الرضاع بُدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه . قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللثيمة ، وتفاجته الشيم الذميمة . فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق وتشتال عليه الضرائب الخبيثة ، فما تمكّن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ، ولا عنه نزوعاً . فينبغي لغم الصبي أن ينجبه (٢) مقابح الأخلاق ، وينكّب عنه معائب العادات بالتهريب والترغيب ، والإيناس والإيجاش ، وبالإعراض والإقبال ،

(١) ابن سينا : « كتاب السياسة » ، نشر الأب لويس معلوف اليسوعي . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١١ ، ص ١٢ - ١٥ .

(٢) يعود الضمير هنا إلى الوالد ، لأن عنوان هذا البحث هو « سياسة الرجل لولده » .

وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافياً . فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يُحجم عنه ، ولكن أول الضرب قليلاً موجعاً كما أشار به الحكماء قبلُ بعد الإرهاب الشديد ، وبعد إعداد الشفاء ، فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بها بعدها واشتد منها خوفه ، وإذا كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به » (١) .

فإذا اشتد قوام الطفل ، وتعلم الكلام ، وتنبأ للتعليم ، بُدئ في تعليمه القرآن الكريم ومبادئ الدين ، وحروف الهجاء ، ومبادئ الكتابة ، ورواية الرجز والشعر . ويختار له من الشعر ما « قيل في فضل الأدب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وعيب السخف ، وما حُثَّ فيه على بِرِّ الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق » (٢) .

واهتم ابن سينا بضرورة أن يكون المؤدب ذا دين وخلق ، وذا شخصية متزنة ، ووقوراً ورزقاً ، وليبياً وحلو الحديث ، وعارفاً بطرق تأديب الأطفال . ويشير ابن سينا بذلك إلى أهمية اختيار المعلم لما له من تأثير كبير في تكوين شخصية التلميذ .

وبعد انتهاء الصبي من علم القرآن الكريم وأصول اللغة ، يُنظر في نوع الصناعة ، أو المهنة التي يُراد توجيهه إلى تعلمها . ويذكر ابن سينا أنه ينبغي على مَنْ يقوم بتوجيه الصبي إلى الصناعة ، أو المهنة أن يعلم « أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه » (٣) . ويقول ابن سينا أيضاً : « . . . ينبغي لمُدبِّر الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسر قريحته ويختبر ذكائه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك . فإذا اختار له إحدى الصناعات تعرّف قدر ميله إليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ، ثم يبتِئ العزم ، فإن ذلك أحزم في التدبير ، وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيها لا يؤاتيه ضياعاً » (٤) . ويشير ابن سينا في هذه العبارات إلى الفروق الفردية بين الصبيان في استعداداتهم وقدراتهم ، وإلى ضرورة العناية في اختيار المهنة التي تكون أكثر مناسبة وملاءمة لاستعدادات الطفل وقدراته وميوله ، وهذا هو ما يعنى به في العصر الحديث المتخصصون في التوجيه المهني . وقد سبق ابن سينا علماء النفس المحدثين في الاهتمام باختبار الذكاء والاستعدادات والميول في عملية التوجيه المهني ، يفهم ذلك بوضوح من قوله إنه ينبغي وزن طبع الصبي وسر قريحته واختبار ذكائه ، غير أن ابن سينا لم يوضح الطرق التي يمكن استخدامها في هذا الغرض ، وهي بطبيعة الحال لم تكن طرقاً موضوعية مقننة كما هو متبع الآن .

(١) ابن سينا ، المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ .

الفصل السابع

ابن حزم

(٣٨٤هـ / ٩٩٤م - ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م)

حياته

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، وأصله بن فارس ، ولد بقرطبة من بلاد الأندلس سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) على حسب رواية ابن خلكان^(١) ، أو في سنة ٣٨٣ هـ على حسب رواية ياقوت الحموي^(٢) . وكان أبوه أبو عمر أحمد بن سعيد وزيراً للمنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، كما عمل وزيراً من بعده لأبيه المظفر . وكان ابنه ابن حزم وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٣) . وقد لاقى ابن حزم كثيراً من المتاعب والمحن من جراء اشتغاله بالسياسة ، وبسبب الفتنة في الأندلس . ثم ترك ابن حزم خدمة الحكام وأقبل على قراءة العلوم والمنطق وعلوم الشريعة والفقه والحديث . قال عنه ابن خلكان : « . . كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطاً للأحكام من الكتب والسنة . وكان متفنناً في علوم جمّة ، عاملاً بعلمه ، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير المجالك ، متواضعاً ذا فضائل جمّة »^(٤) . وقال ابن خلكان إنه قيل في حقه : « كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة بعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار »^(٥) . وقال ياقوت الحموي : إن أبا مروان بن حيان قال عنه : « كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة ، غير أنه لم يخل فيها من غلط وسقط لجراوته على التسوّر على الفنون

(١) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ . (٢) ياقوت الحموي ، ج ٣ ، ص ٥٤٧ .

(٣) جمال الدين القفطي ، ص ١٥٦ ، صاعد ، ص ١١٧ .

(٤) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

(٥) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

ولاسيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زلّ هنالك وضلّ في شكوك المسالك ، وخالف أرسطاطاليس واضعه مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاضه ^(١).

وكان ابن حزم من أتباع المذهب الظاهري ، يقبل نصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الموثوقة على ظاهر معناها دون تأويل ، إلّا إذا اقتضت ضرورة لذلك من عقل أو حس ^(٢). وكان يرفض القياس والاستدلال ، ويهاجم المذاهب الكلامية على اختلافها سواء المعتزلة ، أو الأشعرية ، وكان يعتبرها كلها باطلة وفي ضلال ^(٣).

وكان ابن حزم كثير النقد للعلماء المتقدمين ، لا يكاد يسلم أحد من لسانه ، فغضب عليه فقهاء وقته ، فتآلوا ضده ، وشنّوا عليه ، وحذروا السلاطين من فتنته ، ونهوا العوام عن الدنو منه ، والأخذ عنه . فأقصته الملوك وشردته عن بلاده حتى انتهى إلى بادية لبّكة ، وهى بلدة فى غرب الأندلس ، فتوفى فيها سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ، وقيل : إنه توفى فى مَنَتْ لَيْسَم وهى قرية من أعمال لبّكة كانت ملك ابن حزم ^(٤).

مؤلفاته

لابن حزم مؤلفات كثيرة فى المنطق ، وأصول الفقه ، والحديث ، والنحل والملل ، والتاريخ ، والنسب ، والأدب ، والرد على المعارضين . ويذكر ابنه أبو رافع الفضل أن عدد مؤلفات أبيه نحو أربعمائة مجلد ^(٥). ويهنا فى دراستنا الحالية من كتبه الكثيرة ثلاثة فقط هى التى تناول فيها موضوعات تتعلق بعلم النفس ، وهى :

١ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل . الجزء الخامس . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٠ .

٢ - طوق الحمامة فى الألفة والآلاف . تحقيق نصر فريد محمد واصل وآخرين . القاهرة : المكتبة التوفيقية ، ١٩٧٦ م .

٣ - الأخلاق والسير فى مداواة النفوس . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ م .

(١) ياقوت الحموى ، جـ ٣ ، ص ٥٥١ - ٥٥٢ ؛ انظر أيضًا صاعد ، ص ١١٨ .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٥٩٥ .

(٣) ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٤٣١ .

(٤) ابن خلكان ، جـ ٣ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ ياقوت الحموى ، جـ ٣ ، ص ٥٢٥ .

(٥) جمال الدين القفطى ، ص ١٥٦ ؛ صاعد ، ص ١١٨ ؛ ياقوت الحموى ، جـ ٣ ، ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

انظر أيضًا خير الدين الزركلى ، الأعلام - قاموس تراجم المجلد الرابع ، الطبعة التاسعة ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

تعريف النفس

يناقش ابن حزم في كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » آراء الأقدمين في النفس ، ويردّ على أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الذي أنكر وجود النفس جملة ، وعلى جالينوس الذي قال : إن النفس عرض وهى مزاج متولد من تركيب أخلاط الجسد ، وعلى أبي الهذيل الذي قال : إنها عرض كسائر أعراض الجسم ، وعلى من قال إنها النسيم الداخل والخارج بالنفس ، وعلى معمر بن عمر ، والبطار أحد شيوخ المعتزلة وغيرهم من الأوائل الذين قالوا : إن النفس جوهر وهى ليست جسماً . وبعد أن فند ابن حزم هذه الآراء ، وأثبت وجود النفس ، وأنها شىء غير الجسد^(١) ، فإنه عرفها بأنها المدركة للأهوار ، المدبرة للجسد ، الفعالة ، العاقلة ، المميّزة ، الحية ، المخاطبة ، المكلفة^(٢) . وهى جسم علوى فلكى خفيف للغاية ، وهو أخفّ من الهواء^(٣) . وهى المتحركة باختيارها ، وهى التى تألم ، وتلدّ ، وتفرّج ، وتحزن ، وتغضب ، وترضى ، وتعلم ، وتجهل ، وتحبّ ، وتكره ، وتذكر ، وتنسى ، وهى تعلم نفسها وغيرها^(٤) ، وتعلم الأجسام والأعراض ، وخالق الأجسام والأعراض ، وخالقها هى نفسها أيضًا^(٥) . وهى جسم له طول وعرض وعمق^(٦) ، وهو يذكر عدة براهين يثبت بها أن النفس جسم^(٧) . وهى « متصلة بالجسم على سبيل المجاورة ، ولا يجوز سوى ذلك ، فى رأى ابن حزم ، إذ لا يمكن أن يكون اتصال الجسمين إلا بالمجاورة ، وأما اتصال المداخلة فإنها هو بين العرض والعرض والجسم والعرض .. »^(٨) .

ويقول ابن حزم : إن للنفس وجودًا قبل حلولها فى الجسد ، وإنها حينما حلّت فيه ، أصبح مؤدّيًا لها ، كأنها وقعت فى طين غمّر فأنساها انشغالها لها بالجسد كل ما سلف لها^(٩) . وهى إذا تخلّصت من رطوبات الجسد وكدره كانت أصفى نظرًا ، وأصح علمًا ، كما كانت قبل حلولها فى الجسد^(١٠) . والنفس باقية بعد الموت ، ولا يذهب حسها وعلمها بعد الموت ، « بل حسها بعد الموت أصبح ما كان ، وعلمها أتمّ ما كان ، وحياتها التى هى الحس والحركة الإرادية باقية بحسبها أكمل ما كانت قط . قال عز وجل : (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) »^(١١) .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٠ ، جـ ٥ ، ص ٧٤-٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٧ . (٣) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٠-٨١ . (٥) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٧٤ . (٧) المرجع السابق ، ص ٨٩-٩١ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

النفس والروح والعقل

إن النفس والروح ، عند ابن حزم ، اسمان مرادفان لشيء واحد ، فمعناهما واحد^(١) . يقول ابن حزم : « . . . إن الروح والنفس شيء واحد . ومعنى قول الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)^(٢) إنها هو لأن الجسد مخلوق من تراب ، ثم من نقطة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم عظمًا ، ثم لحماً ، ثم أمشاجًا ، وليس الروح كذلك ، وإنما قال الله تعالى أمرًا له بالكون كن فكان ، فصَحَّ أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد . وقد يقع الروح أيضًا على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين ، والقرآن روح من عند الله »^(٣) .

أما « النفس » و « العقل » فهما « لفظتان من لغة العرب موضوعتان فيها لمعنيين مختلفين »^(٤) . إن العقل ، عند ابن حزم ، عرض محمول في النفس ، يقول ابن حزم : « وأما العقل فلا خلاف بين أحد له عقل سليم في أنه عرض محمول في النفس ، وكيفية برهان ذلك أنه يقبل الأشد والأضعف ، فتقول عقل أقوى من عقل ، وأضعف من عقل ، وله ضد وهو الحمق . ولا خلاف في الجواهر أنها لا ضد لها ، وإنما التضاد في بعض الكيفيات فقط »^(٥) .

ويهاجم ابن حزم الفلاسفة الذين قالوا بالعقل الفعّال والعقول السبائية فيقول : « إن العقل فعل النفس ، وهو عرض محمول فيها ، وقوة من قواها ، فهو عرض كيفية بلاشك . وإنما غلط من غلط في هذا لأنه رأى لبعض الجهال المخلطين من الأوائل أن العقل جوهر ، وأن له فلكًا ، فعول على ذلك من لا علم له ، وهذا خطأ »^(٦) .

ويعرف ابن حزم العقل فيقول : « هو تمييز الفضائل من الرذائل ، واستعمال الفضائل واجتناب الرذائل ، والتزام ما يحسن به المعبّة في دار البقاء وعالم الجزاء ، وحسن السياسة فيما يلزم المرء في دار الدنيا »^(٧) .

الأحلام والرؤى

تكلم ابن حزم عن الأحلام والرؤى ، وقال : « إنها أنواع : فمنها ما يكون من قِبَل الشيطان وهو ما كان من الأضغاث والتخليط الذي لا ينضبط . ومنها ما يكون من حديث النفس وهو ما يشتغل به المرء في اليقظة فيراه في النوم من خوف عدو ، أو لقاء حبيب ، أو خلاص من خوف ،

(٢) الإسماء : ٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، ٩٢ ،

(٥) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

أو نحو ذلك . ومنها ما يكون من غلبة الطبع كروية من غلب عليه الدم للأنوار والزهر والحمرة والسرور ، وروية من غلب عليه الصفراء للنيران ، وروية صاحب البلغم للثلوج والمياه ، وكروية من غلب عليه السوداء للكهوف والظلم والمخاوف . ومنها ما يريه الله عز وجل نفس الحالم إذا صفت من أكار الجسد ، وتخلصت من الأفكار الفاسدة ، فيشرف الله تعالى به على كثير من المغييات التي لم تأت بعد . وعلى قدر تفاضل النفس في النقاء والصفاء يكون تفاضل ما يراه في الصدق . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له ، وأنها جزء من ستة وعشرين جزءاً من النبوة ، إلى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، إلى جزء من سبعين جزءاً من النبوة . هذا نص جلي على ما ذكرنا من تفاضلها في الصدق والوضوح والصفاء من كل تخليط ^(١) . ويرى ابن حزم أن رؤيا الأنبياء كلها صادقة لأنها وحى ، أما رؤيا غير الأنبياء ، قد تكذب وقد تصدق - وقد تصدق رؤيا الكافر ولا تكون حينئذ جزءاً من النبوة أو مبشرة ، ولكن إنذاراً له أو لغيره ووعظاً ^(٢) .

إن تحليل ابن حزم لأنواع الأحلام تحليل دقيق يدل على قوة ملاحظة ، وعلى قدرة عالية في التحليل . وإن ما قاله عن نوع الأحلام التى تنشأ من حديث النفس ، وما يشتغل به المرء في يقظته ، وعن النوع الذى ينشأ عن غلبة بعض أنواع الأمزجة ، إنها هو تحليل صحيح في ضوء العلم الحديث . ويلاحظ التشابه بين ما قاله ابن حزم عن الأحلام والرؤى وبين ما قاله عنها العلماء السابقون مثل الفارابى وابن سينا .

الحب

قام ابن حزم في كتاب « طوق الحمامة » بتحليل « الحب » تحليلًا نفسيًا دقيقًا ، فعزف ماهيته ، وبين أنواعه ومراتبه المختلفة ، وعلاماته ، والوسائل المختلفة التى يعبر بها المحب عن حبه ، والحالات النفسية المختلفة للمحب ، والظروف المختلفة التى تحيط بعلاقة المحب بمن يجب . وقد أثار صدور هذا الكتاب عن الحب من أحد علماء الإسلام وفقهائه المعروف بالزهد والتقوى ، والذى أسهم بجهود كبيرة في خدمة الدين والدفاع عن الإسلام ، كثيرًا من الدهشة والعجب بين رجال الدين والفقهاء في وقته ، وكان من بين أسباب ثورتهم وغضبهم عليه .

ولعل هذا الكتاب هو أول كتاب من نوعه في تاريخ الفكر الإنسانى ، تناول « الحب »

(١) المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

بالدراسة والتحليل ، في شمول وعمق . وقد لقي اهتمامًا كبيرًا من المفكرين الأوروبيين . وقام بنشره لأول مرة الدكتور بتروف سنة ١٩١٤ م ^(١).

تعريف الحب

يعرّف ابن حزم ماهية الحب بأنه اتصال ، أو اتفاق بين النفوس في عالمها السابق قبل حلولها في الأجساد . فالنفوس التي اتصلت واتفقت مالت بعضها إلى بعض . يقول ابن حزم : إن الحب «اتصال بين أجزاء النفوس ... في أصل عنصرها الرفيع ... على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ، ومجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سرّ التمازج والتباين في المخلوقات ، إنما هو الاتصال والانفصال . والشكل دأبًا يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد ، والنزوع فيما تشابه موجود فيها بيننا ، فكيف بالنفس ، وعالمها العالم الصافي الخفيف ، وسنسخها ^(٢) المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان وزوجه ، فيسكن إليها ، والله عزّ وجلّ يقول : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) ^(٣) ، فجعل علة السكنون أنها منه » ^(٤) . ويقول ابن حزم أيضًا عن الحب في موضع آخر إنه « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى » ^(٥) ، ناشئ عن اتصال النفوس وتعارفها في عالمها السابق قبل حلولها في الجسد . وحينما تحمل النفس في الجسد في هذه الدنيا فإنها تميل إلى النفوس التى كانت متصلة بها في عالمها السابق . يقول ابن حزم : « ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغطيس والحديد . . » ^(٦) . ويدلّل ابن حزم على صحة رأيه في الحب ، فيقول : « ومن الدليل على هذا . . أنك لا تجد اثنين يتحابان إلّا وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لا بد في هذا وإن قلّ . وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكّدت المودة . فانظر هذا تراه عيانًا . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكدّه ^(٧) : (الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها انتلف ، وما تناكر منها اختلف) » ^(٨).

(١) ابن حزم : طوق الحماة في الألفة والألف . القاهرة . المكتبة التوفيقية ، ١٩٧٦ ، صفحة ب من المقدمة .

(٢) الشنخ : الأصل من كل شيء . المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٣) الأعراف : ١٨٩ .

(٤) طوق الحماة ، ص ٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) أخرجه البخارى عن عائشة ، ومسلم ، وأحمد ، وأبي داود عن أبي هريرة ، والطبرانى عن ابن مسعود .

(٨) طوق الحماة ، ص ٩-١٠ .

ويُفرق ابن حزم بين المحبة والشهوة . فالمحبة ، كما ذكرنا سابقاً ، تنشأ عن اتصال النفوس وتعارفها وتجانسها ، أما الشهوة فهو حب الصورة الحسنة فقط ، ولا تتجاوزها إلى ما وراء ذلك من تشابه وتجانس بين النفوس . يقول ابن حزم : « . . الظاهر إن النفس حسنة توقع بكل شيء حسن ، وتميل إلى التصاوير المثقنة ، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميّز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة » (١).

أنواع المحبة

يذكر ابن حزم عدة أنواع للمحبة ، أغلبها أنواع هشة من المحبة قصيرة الحياة ، تنشأ أساساً لتحقيق منفعة معينة ، ثم تزول بعد انقضاء هذه المنفعة ، إلا العشق الذي هو أكثر أنواع المحبة بقاء ودواماً . يقول ابن حزم : « إن المحبة ضروب : فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل ، إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب ، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة . . . ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، وزائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فائرة ببعدها ، حاشى محبة العشق الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت . . . ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة من شغل البال ، والحبل ، والوسواس ، وتبدل الغرائز المركبة ، واستحالة السجاي المطبوعة ، والنحول ، والزفير ، وسائر دلائل الشجا ، مما يعرض في العشق ، فصَحَّ بذلك أنه استحسان روحاني وامتزاج نفساني » (٢).

مراتب المحبة

يذكر ابن حزم عدة مراتب ، أو درجات للمحبة ، فيقول : « درج المحبة خمسة : أولها الاستحسان ، وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة ، أو يستحسن أخلاقه ، وهذا يدخل في باب التصديق ثم الإعجاب به ، وهو رغبة الناظر في المنظور إليه ، وفي قربه . ثم الألفة ، وهي الوحشة إليه إذا غاب . ثم الكلف ، وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع يسمى

(١) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨-٩ .

في باب الغزل بالعشق . ثم الشغف ، وهو امتناع النوم والأكل والشرب - إلا اليسير من ذلك - وربما أدى ذلك إلى المرض ، أو إلى التوسوس ، أو إلى الموت ، وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلاً^(١).

علامات الحب^(٢)

يجلجل ابن حزم حالات المحبين ، ويلاحظ ما يظهر عليهم من علامات الحب ، ويقول : إن أول هذه العلامات إدمان النظر . فالمحب دائم النظر إلى من يحب ، يلاحقه بنظراته أينما ذهب . ومن هذه العلامات أيضاً الإقبال بالحدِيث ، فالمحب يميل دائماً إلى الحديث إلى من يحب ، وإلى الإنصات لحديثه إذا حدّث ، وتصديق ما يقوله .

ومنها الإسراع بالسير إلى المكان الذي يوجد فيه ، والتقرب باستمرار إليه ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها .

ومنها ما يحدث له من بهت وذهول واضطراب وروعة عند الرؤية المفاجئة لمن يحب ، وما يحدث له أيضاً من اضطراب عند رؤية من يشبهه ، أو عند سماع اسمه فجأة .

ومن علاماته أيضاً حدوث بعض الاختلاف والتضاد بين المحبين ، وتأويل ألفاظ من يحب على غير معناها ، ولكن المحبين عادة سرعان ما يتراضيان ويعودان إلى حالتها السابقة من الألفة والمحبة .

ومن علاماته أيضاً حب الوحدة والأنس بالانفراد ، ونحول الجسم ، والسهر .

الحب من أول نظرة

يذكر ابن حزم أن الحب يمكن أن يحدث في بعض الحالات من أول نظرة . ولكنه يرى أن مثل هذا الحب الذي ينشأ بسرعة ، فهو أيضاً يزول بسرعة . أما الحب الذي يتكون بعد كثرة المحادثة والمشاهدة والمعرفة ، فإنه هو الحب الذي يدوم . « وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناً ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً »^(٣) . ويرى ابن حزم أن ما يسمى الحب من أول نظرة ، ليس إلا ضرباً من الشهوة^(٤) . ويقول ابن حزم : إن قوله بأن الحب الحقيقي الذي يدوم هو الذي

(١) ابن حزم : الأخلاق والسير في مداواة النفوس . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ م ، ص ٥٥ .

(٢) طوق الحمامة ، ص ١٤ - ٢٣ . (٣) المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

يتكون ببطء وبعد كثرة المشاهدة والمعرفة ، لا يصح أن يؤخذ دليلاً على عدم صحة رأيه السابق الذى يذهب إلى أن الحب ينشأ عن اتصال النفوس . يقول ابن حزم : « ولا يظن ظان ، ولا يتوهم متوهم أن كل هذا يخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة ، إن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العلوى ، بل هو مؤكد له . فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأعراض ، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت لم تُجْلِهْ ، ولكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت عما يشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع » (١).

وسائل التعبير عن الحب

يذكر ابن حزم عدة وسائل يعبر بها المحبون عن حبيبهم . فأول ما يلجأ إليه المحبون لكشف ما يشعرون به من حب إلى من يحبونه هو « التعريض بالقول ، إما بإنشاد شعر ، أو بإرسال مثل ، أو تسمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام » (٢). ثم يتلو ذلك ، إذا وقع القبول والموافقة ، الإشارة بلحظ العين الذى يتم التواصل به بين المحبين . فالعين تنوب عن الرسل ، وهى وسيلة جيدة للتواصل ، والحواس بمثابة أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين هى أفضلها وأبلغها وأصحها دلالة (٣). ويذكر ابن حزم عدة معاني لأنواع مختلفة من الإشارة بالعين (٤).

ومن وسائل التعبير عن الحب أيضاً المراسلة بالكتب ، أو إرسال رسول ، أو طاعة المحب لمحبيه ، أو الإذاعة بحبه وهو مُنكر ومذموم (٥).

نظرية المعرفة

يلذهب ابن حزم إلى أن الإنسان يخرج إلى الدنيا لا يعرف شيئاً ، ويذكر قول الله عز وجل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) (٦). وتكون حركاته بعد ولادته كلها طبيعية مثل أخذه الثديين أثناء الرضاعة ، ويتصرف مثل تصرف البهائم فى تأملها وطريها . فإذا كبر وتقوت نفسه الناطقة بدأت بتمييز الأمور التى حولها ، وأحدث الله تعالى لها قوة على التفكير

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠-٣١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٥) النحل : ٧٨ .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠-٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠-٥٥ .

إصلاح الأخلاق ومداداة النفوس

اهتم ابن حزم بملاحظة سلوك الناس ملاحظة الباحث المدقق ، وغنى بتحليل ما شاهده من فساد أخلاقهم وأمراض نفوسهم لمعرفة أسبابها ، وكان هدفه من ذلك هو إصلاح أخلاقهم ومداداة نفوسهم كما عبّر هو بنفسه عن ذلك في خطبة كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » ، حيث قال : إن نيته في إعداد هذا الكتاب هي إصلاح ما فسد من أخلاق الناس ، ومداداة علل نفوسهم^(١) .

علاج الهمّ

اهتم ابن حزم اهتماماً كبيراً بموضوع « الهمّ » الذي يتفق الناس جميعهم على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم على طرده والتخلص منه^(٢) . ويستخدم ابن حزم مصطلح « الهمّ » بمعنى واسع جداً يشمل حالات كثيرة من الضيق والكدر ، وسنحاول فيما يلي تحديد معنى « الهمّ » عند ابن حزم .

يقول ابن حزم : « . . فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به همّ الفقر عن أنفسهم »^(٣) . فمعنى الهمّ هنا هو حالة الضيق والضعف والشقاء التي يعاني منها الفقير . وقال أيضاً : « وإنما طلب الصوت من طلبه ، ليطرد به عن نفسه همّ الاستعلاء عليها »^(٤) . فالهمّ هنا بمعنى شعور الإنسان بالذلّ والمهانة حينما يستعلّ عليه الناس بسبب ضعف مكانته ، وضآلة شأنه . ويقول أيضاً : « وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فوتها »^(٥) . فالهمّ هنا بمعنى الشعور بالحزن والحسرة لما فات الإنسان من لذات . ويقول أيضاً : « وإنما طلب العلم من طلبه ، ليطرد به عن نفسه همّ الجهل »^(٦) . فمعنى الهمّ هنا هو الشعور بالعجز وقلة الحيلة بسبب الجهل . ويقول أيضاً : « إنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ، ليطرد به عن نفسه همّ الترخّد ، ومغيب أحوال العالم عنه »^(٧) . ومعنى الهمّ هنا هو معاناة الوحدة والانعزال عن المجتمع . وذكر ابن حزم أن صديقاً من أصدقائه المقرّين قد تغبّر عليه وجفاه بعد اثني عشر عاماً متصلة من المودة والصفاء ، فأهمّه ذلك « همّاً » شديداً^(٨) . فالهمّ هنا بمعنى الحزن . وقال أيضاً في صدد كلامه عن الأصدقاء : « وإذا فكرت في الهمّ مما يعرض لهم وفيهم من موت ، أو فراق ، أو غدر من يغدر منهم ، كاد السرور بهم لا يفي بالحزن الممّض من أجلهم »^(٩) . فالهمّ هنا بمعنى

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ . (٣) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥ . والصوت : كالصيت الذكر الحسن .

(٥) المرجع السابق . (٦) المرجع السابق .

(٧) المرجع السابق . (٨) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

الحزن أيضًا . ويقول ابن حزم أيضًا : « إن الطمع سبب إلى كل هم ، حتى في الأموال والأحوال . فإننا نجد الإنسان يموت جاره ، وخاله ، وصديقه ، وابن عمته . . . فإذا لا مطعم له في ماله ارتفع عنه الهم لفوته عن يده - وإن جَلَّ حظه وعظم مقداره - . . . حتى إذا مات له عصابة على بعد ، أو مولى على بعد ، وحدث له الطمع في ماله ، حدث له من الهم والأسف والغيظ والفكرة بفوت اليسر منه عن يده أمر عظيم . وهكذا في الأحوال ، فتجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يتم لإنفاذ غيره أمور بلده دون أمره ، ولا لتقريب غيره وإبعاده ، حتى إذا حدث له مطعم في هذه المرتبة ، حدث له من الهم والفكرة والغيظ أمر ربما قاده إلى تلف نفسه ، وتلف دنياه وأخراه^(١) . والهم هنا بمعنى الأسف والحسرة والغيظ وانشغال البال بسبب فوت بعض المطالب والمغانم . ويقول ابن حزم أيضًا : « وطن نفسك على ما تكره ، يقل همك إذا أتاك »^(٢) . فالهم هنا بمعنى الشعور بحالة من الشقاء والتعاسة بسبب إصابة الإنسان بمكروه .

يمكن أن نستنتج من كل ما تقدم أن « الهم » عند ابن حزم يعنى حالة من الضيق والألم النفسى تنشأ عن حالات كثيرة من الكدر ، منها : الحزن ، والحسرة ، والغيظ ، والتعاسة ، والوحدة ، والعزلة ، والمللة ، والمهانة ، والعجز وقلة الحيلة ، وانشغال البال .

ويقول ابن حزم : إنه بحث عن سبيل إلى طرد الهم فلم يجده إلا في التوجه إلى الله تعالى بالعمل للأخرة ، فهو وحده الذى يؤدى إلى طرد « الهم » على الحقيقة^(٣) . ويرى ابن حزم أن جميع أحوال الدنيا مضمحلة زائلة ، وكل أمل يظفر به الإنسان فعقبه الحزن ، إما بذهابه عن الإنسان ، أو بذهاب الإنسان عنه ، ولابد من أحد هذين الأمرين ، إلا العمل لله عز وجل فعقبه على كل حال سرور في الدنيا وفي الآخرة . أما في الدنيا فقلة « الهم » ، وأما في الآخرة فالجنة^(٤) .

علاج العُجب

ذكر ابن حزم كثيرًا من الأساليب والنصائح في علاج العُجب بالنفس ، وذكر تجربة شخصية مر بها هو نفسه في علاج نفسه من العُجب . وقال إنه ناظر عقله نفسه بما يعرفه من عيوبها ، وكلف نفسه احتقار قدرها جملة ، واستعمال التواضع ، حتى تخلص من العجب كلية . ويلاحظ أن ابن حزم قد عالج العجب بضده ، فهو ، من جهة ، بحث عن عيوب نفسه وكشفها ، وهو أمر يستدعى الشعور بحالة نفسية مضادة لحالة العجب بالنفس . وهو من جهة أخرى ، التزم

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣ - ١٤ .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ .

باحترار نفسه ، واستعمال التواضع ، وهو سلوك مضاد لسلوك العجب بالنفس . ويشبه أسلوب ابن حزم في علاج عجبه بنفسه الأسلوب الذى استخدمه الغزالي فيها بعد في علاج الأخلاق السيئة بعمامة ، وفي علاج العجب بخاصة .

وقد ذكر ابن حزم عدة وسائل أو نصائح يمكن أتباعها لعلاج العجب ، نذكر منها ما يلي^(١):

١- إن من أصيب بالعجب فعليه البحث عن عيوب نفسه ، فإن معرفة عيوب النفس ، دواء لعلاج العجب بالنفس . وعليه أيضًا الاستفادة من معرفة عيوب الناس لكي يتجنبها ويسعى إلى إزالة ما في نفسه منها .

٢- إذا أعجبت بعقلك وأفكارك ففكر في كل فكرة سوء مرت بخاطرك ، وفي أخطائك ، وفي كل رأى قدرته صوابًا فكانت نتيجته على غير ما قدرت ، فإن ذلك سوف يقلل من إعجابك بعقلك وأفكارك .

٣- وإذا أعجبت بعلمك ، فاعلم أن العلم موهبة من الله تعالى ، فأى مكان للعجب هاهنا . ولعل الله تعالى يُنسيك علمك بعله يمتحنك بها . ثم إن ما تعرفه من العلم الذى تختص به أقل كثيرًا جدًا مما خفى عليك منه . « فاجعل مكان العجب استنقاصًا لنفسك واستقصاءً لها ، فهو أولى ، وتفكر فيمن كان أعلم منك ، تمجدهم كثيرًا ، فلتُهن نفسك عندك حيثل^(٢) .

٤- « وإن أعجبت بشجاعتك ، فتفكر فيمن هو أشجع منك . . . ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخوخة ، وإنك إذا عشت فستصير من عداد العيال ، وكالصبي ضعفًا^(٣) .

٥- وإن أعجبت بمالك فانظر إلى كل ساقط خسيس هو أغنى منك ، فلا تغتبط بحالة يفوقك منها أمثال هؤلاء . ثم إن مالك قد يزول عنك ، فعجبك بشيء قد يزول عنك سخف .

٦- وإن أعجبت بحسبك ففكر في زواله عنك حينما تتقدم في السن .

٧- وإن أعجبت بمدح أصدقائك ، ففكر في ذم أعدائك لك .

٨- وإن أعجبت بنسبك ، فهو شيء لا ينفعك أصلًا في الدنيا ولا في الآخرة ، فأى معنى للإعجاب بها لا منفعة فيه .

٩- « وإن أعجبت بقوة جسمك ، ففكر في أن البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦-٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨-٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

الفصل الثامن الغزالي

(٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م - ٥٠٥ هـ / ١١١١ م)

حياته^(١)

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المعروف بحجة الإسلام وزيين الدين . ولد في منتصف القرن الخامس الهجري في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، بعد ربع قرن من وفاة ابن سينا . وكان مولده في بلدة طوس إحدى مدن خراسان . ويقال : إنه ولد في بلدة « الغزالة » ، وهي في ضاحية طوس . فهو ، إذن ، فارسي الأصل . وكان والده رجلاً فقيراً يكسب قوته من غزل الصوف . ويقال : إن الغزالي سمي بالغزالي (بتشديد الزاي) نسبة إلى حرفة والده . ويقال أيضاً : إنه سمي بالغزالي (بتخفيف الزاي) نسبة إلى بلدة الغزالة . وكان والد الغزالي رجلاً صالحاً يتردد على مجالس الفقهاء ، يستمع إليهم ، ويقوم بخدومتهم ، وينفق عليهم على قدر ما تمكنه موارده المالية . وتوفي وابنه الغزالي صغير لم يبلغ بعد سن الرشد . أما أم الغزالي فلم يعرف التاريخ عنها شيئاً سوى أنها عاشت حتى شهدت نبوغ ابنها في العلم ، وذيع شهرته ، وتبوءه أعلى المراكز العلمية .

وقد حرص والد الغزالي على أن ينشئ ابنه نشأة إسلامية ، فعهد به عند وفاته وبأخيه الأصغر منه أحمد إلى صديق له صوفى ، وأودعه بعض المال للإنفاق عليها . وكان هذا الوصي رقيق الحال ، فعندما نفذ المال ، دفع بهما إلى إحدى المدارس التي أسسها نظام الملك ، والتي كانت تمدد الدارسين فيها بالماوى وبما يلزمهم من النفقة .

تلقى الغزالي علومه الأولى في طوس ، فدرس فيها طرقاً من الفقه . ثم انتقل إلى « جرجان »

(١) لمعرفة تاريخ حياة الغزالي انظر : ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٢١٦ - ٢١٩ ؛ سليمانيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، ط ٤ . القاهرة : دار المعارف ، ص ١٨ - ٦٣ ؛ محمد علي أبو ريان : مرجع سابق ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ؛ جميل صليبا : مرجع سابق ، ص ٣٣٣ - ٣٣٩ ؛ البارون كاردى فو : الغزالي . ترجمة عادل زعير : القاهرة : دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤ - ٥٠ .

وهو لم يبلغ العشرين من عمره . وواصل عنايته بدراسة العلوم الدينية ، كما عُني أيضًا بدراسة اللغتين الفارسية والعربية .

ثم عاد إلى « طوس » ومكث فيها ثلاث سنوات يراجع فيها ما تلقاه من علوم في « جرجان » . وكان قد تعرض أثناء عودته إلى طوس لحادثة سرقة بعض اللصوص لكتبه ، ولم يتمكن من استردادها منهم إلا بعد عناء كبير . ويقال : إنه تعلم من هذه الحادثة أن يستظهر كل ما يقرأه من كتب حتى لا تكون له حاجة إليها إذا فقدها .

ثم ذهب بعد ذلك إلى « نيسابور » عام ٤٧٠ هـ ، وتلمذ على « ضياء الدين الجويني » إمام الحرمين رئيس المدرسة النظامية ، ولازمه حتى وفاته عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . ودرس في هذه الفترة الفقه والأصول وعلم الكلام والجدل والمنطق والفلسفة . وكانت هذه الفترة فترة خصيبة في تكوينه العلمي ، وفي نضج تفكيره . وقد بدأ أثناءها في الكتابة والتدريس ، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه الجويني إمام الحرمين .

وبعد وفاة الجويني غادر الغزالي « نيسابور » إلى المعسكر ، بلاط الوزير نظام الملك في ظاهر نيسابور ، وكان عمره حينذاك ثمانية وعشرين عامًا . فلقى هناك الوزير السلجوقي « نظام الملك » الذي كان يقوم بتشجيع العلم والعلماء ، فأعجب به وكرمه وعظمه . وكان يحضر مجلس الوزير جماعة من الأفاضل ، فجربى بين الغزالي وبينهم جدال ومناظرة ، فظهر عليهم ، واشتهر اسمه ، وفاز صيته . ثم عرض عليه الوزير التدريس في المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، فعرفت مكانته العلمية ، وأعجب به أهل العراق ، وارتفعت عندهم منزلته ، والتف حوله التلاميذ والمعجبون . وعكف الغزالي في هذه الفترة على الدراسة والتدريس والتأليف . وعهد إليه الخليفة المستظهر في عام ٤٨٧ هـ أن يرد على الإسماعيلية (الذين كان يطلق عليهم اسم الباطنية أو التعليمية) الذين كان لهم في ذلك الوقت قوة هائلة ، وقد كتب ثلاث رسائل ضدهم .

وذكر الغزالي في كتاب « المنقذ من الضلال » أنه بدأ يشعر في هذه الفترة بأزمة شكية ، فقد أخذ يشك في المعارف التي كانت سائدة في عصره ، وفي إمكان الوصول منها إلى اليقين . فأخذ يدرس ميادين المعرفة في عصره وهي : الفلسفة ، وعلم الكلام ، والباطنية (أو التعليمية) ، والتصوف . كما ناقش قدرة كل من الحس والعقل في الوصول إلى معرفة يقينية . واتضح للغزالي من دراسته هذه الأمور أن كلا من الفلسفة ، وعلم الكلام ، والباطنية لا تؤدي إلى المعرفة اليقينية التي ينشدها ، كما أن الحس والعقل لا يؤديان إلى معرفة الحقيقة ، وانتهى إلى أن المعرفة القلبية المباشرة التي تحصل عن طريق الكشف ، أي المعرفة الصوفية ، هي الطريق الحق للوصول إلى المعرفة اليقينية .

اعترت الغزالي في ذلك الوقت أزمة نفسية حادة شلت نشاطه ، وجعلته يعتزل العمل في التدريس . وقد ذكر الغزالي في كتاب « المنقذ من الضلال » هذه الأزمة النفسية التي جعلته يتخل عن منصبه في المدرسة النظامية . قال الغزالي : « وكان قد ظهر (عندي) أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل واللواحق .

ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أهدت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ؛ فتيقنت أنني على شفا جرف هار ، وأنني قد أشفيت على النار ، إن لم اشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا ، بعد ، على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يومًا ، وأحل العزم يومًا ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن (هذه العلائق) فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الحرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ؛ فإن أذعنت لها وتركزت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعادة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريبًا من ستة أشهر أو لها رجب ستة ثمان وثمانين وأربع مائة . وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يومًا واحدًا تطييبًا لقلوب المختلفة (إلى) ، فكان لا ينطق لساني بكلمة (واحدة) ولا استطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزنًا في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومראה الطعام والشراب : فكان لا ينساع لي ثريد ، ولا تهضم لي (لقمة) ؛ وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء مطعمهم

من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا أن يتروح السر عن الهم الملم ^(١).

وقد اعتزل الغزالي التدريس وغادر بغداد إلى الشام عام ٤٨٨ هـ ، واستقر في دمشق زهاء سنتين اعتزل فيها الناس ، وعكف على الرياضة والخلوة والمجاهدة ، وعاش هناك عيشة الزاهدين المتصوفين . ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، ثم الخليل كيما يزور ضريح إبراهيم ، ثم إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، ثم إلى مصر فأقام بالأسكندرية مدة . ثم عاد بعد ذلك إلى وطنه « طوس » ، ومكث فيها تسع سنوات ، ولكنه لم يستطع أن يستمتع فيها بالعزلة والرياضة الروحية كما كان يتمنى بسبب انشغاله بالتدريس وبشئون الأسرة . ثم ذهب بعد ذلك إلى « نيسابور » عام ٤٨٩ هـ للقيام بمهمة التدريس في المدرسة النظامية استجابة لدعوة السلطان في ذلك الزمان . ولكنه لم يمكث في « نيسابور » إلا سنتين عاد بعدها إلى « طوس » فأنشأ فيها زاوية للمتصوفين ومدرسة لطلاب الفقه . وتفريغ في السنوات الأخيرة من حياته للعبادة ، وتوفي في عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، وله من العمر أربع وخمسون سنة ، ودفن في « طوس » .

عصر الغزالي

لم تختلف أحوال العلم والسياسة في عصر الغزالي عما كانت عليه في عصر ابن سينا ، فقد فقد الخلفاء العباسيون في القرن الخامس للهجرة السلطة الفعلية في الدولة ، واستولى السلاجوقيون على مقاليد الحكم في البلاد ، وتآلق نجم الفاطميين في مصر ، وانتشر نفوذ حلفائهم في سورية ودمشق وحلب ، وكان نفوذهم يعادل نفوذ خلفاء بغداد . وكان من نتيجة ضعف سلطة الخلافة في بغداد أن استقل الأمراء بالسلطة في ولاياتهم ، وزاد بينهم التنافس ، وكثرت بينهم المنازعات ، وساد الاضطراب في البلاد ، وكثر الشعب والنهب .

وكان من أهم ما أثار الاضطراب في القرن الخامس الهجري هو انتشار الحركة الباطنية التي أثار الفتنة في البلاد ، وأخذوا يملكون القلاع والحصون ، ويقطعون الطرق ، ويقتلون ويدمرون ، ونشروا الهول في كل مكان .

وفي هذه الفترة زحفت جيوش الصليبيين على بلاد الشام ، واستولوا على القدس عام ٤٩٢ هـ ، وقاموا فيها بمقتلة عظيمة ، قتلوا فيها الرجال ، وسبوا الحريم والأولاد ، ونهبوا الأموال .

(١) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال ، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد ، بيروت : دار الأندلس (د . ت) ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

وكانت الأزمة النفسية التي تعرض لها الغزالي ، والتي أشرنا إليها سابقاً ، قد حدثت في أثناء هذه الفترة . وقد اتسعت في هذه الفترة أيضاً حركتان : علم الكلام والصوفية . وقد تحول علم الكلام إلى معركة فكرية وسياسية بين الأشعرية والمعتزلة ، وبين المذهب الحنبلي والمذاهب الفقهية الأخرى ، فكثر بينهم المنازعات ، واشتدت الفتن ، وكثر الاضطراب في البلاد . ولعل اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في البلاد في القرن الخامس الهجري قد ساعد على اتساع حركة الصوفية ، وجعل للمتصوفين جاهاً ومكاناً^(١) . وكان للغزالي الذي اتجه إلى التصوف ، ورأى فيه الوسيلة الصحيحة للوصول إلى المعرفة الحقيقية أثره الكبير في توطيد دعائم الصوفية ، وتعظيم شأنها .

مؤلفاته

ألف الغزالي كتباً كثيرة في كثير من الفنون ؛ فألف في فروع الفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، ومعتقدات السلف ، والرد على الباطنية ، وعلم الجدل ، والفلسفة وبخاصة في بيان مقاصد الفلاسفة وفي الرد عليهم وتقنيدهم ، والمنطق ، والتصوف ، والأخلاق ، وعلم النفس . ولئن نحاول هنا إيراد ثبت كامل بجميع مؤلفات الغزالي ، إذ أن ذلك يخرج عن أهدافنا في هذا الكتاب . ومن يهيمه معرفة جميع مؤلفات الغزالي فيمكنه الرجوع إلى كتاب « مؤلفات الغزالي » للدكتور عبد الرحمن بدوي^(٢) ، فهو يحوي معلومات وافية عن جميع مؤلفات الغزالي ، المطبوع منها والمخطوط . وبيهنا هنا بوجه خاص أن نذكر أهم كتبه المطبوعة التي تتناول موضوعات تتعلق بعلم النفس . ومن أهم هذه الكتب :

- ١- إحياء علوم الدين . بيروت : دار المعرفة ، (د . ت) .
- ٢- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٥ .
- ٣- كيمياء السعادة : تحقيق وتعليق محمد عبد العليم . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧ م .
- ٤- الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي . القاهرة : محيى الدين صبرى الكردى ، ١٩٣٤ م .
- ٥- مقاصد الفلاسفة : تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١ م .

(١) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٤٦٣ - ٤٦٧ ؛ البارون كارادى فو: الغزالي ، مرجع سابق ، ص ٣٥ - ٤٤ .

(٢) عبد الرحمن بدوي : مؤلفات الغزالي ، ط ٢ - الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ .

٦ - معيار العلم : مطبعة كردستان العلمية ، ١٣٢٨ هـ .

٧ - تنافت الفلاسفة : مجلدان ، تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ م .

علم النفس عند الغزالي

نجد في دراسة الغزالي للنفس ضريين من المعرفة ، أو بالأحرى ضريين من علم النفس : أحدهما وهو الذى يتناول قوى النفس الحيوانية والإنسانية ، المحركة والمدركة . وفى هذا الضرب من علم النفس كان الغزالي مقلداً ، ينقل عن الفارابى وابن سينا ، وبخاصة ابن سينا ، الذى ينقل عنه معظم آرائه نقلاً يكاد يكون حرفياً . ويمكن ملاحظة ذلك إذا ما قارنا آراء الغزالي عن قوى النفس الحيوانية والإنسانية في كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » بأقوال ابن سينا في كتابي « النجاة » و « أحوال النفس » . أما الضرب الثانى من علم النفس ، وهو الذى يتناول فيه الغزالي رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، وعلاج الأخلاق المذمومة ، فإن الغزالي كان فيه مجدداً ومبتكراً ، لا يقلد من سبقه من الفلاسفة . فقد ابتكر الغزالي في هذا المجال بعض الأساليب الفعالة في تعديل السلوك الإنسانى ، وعلاج عيوبه وآفاته . وقد سبق الغزالي بهذه الأساليب علماء النفس والمعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين ، كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

ويجب أن نشير هنا إلى أن الغزالي قد اهتم بدراسة النفس اهتماماً كبيراً ، إذ أنه اعتبر معرفة النفس توصل إلى معرفة الله تعالى . يقول الغزالي في خطبة كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » (١) : « . . وأظهر الآثار التى يُرى فيها جلال ذات الحق وكمال صفاته إنها هو معرفة النفس كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (٢) ، (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسهم أفلا تبصرون) (٣) . وقال عليه السلام : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ، وقال عليه السلام : (أعرفكم بنفسي أعرفكم بربه) (٤) . ونحن نخرج في هذا الكتاب من مدارج معرفة النفس إلى معرفة الحق جل جلاله . » ويقول أيضاً في خطبة هذا الكتاب : « ثم إذا ختمنا فصول معرفة النفس فحينئذٍ ننعطف على معرفة الحق جل جلاله ، إذ جميع العلوم مقدمات ووسائل لمعرفة الأول الحق جل جلاله . وكل ما يُراد لشيء فدون حصول

(١) الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٥ ، ص ٦ .

(٢) فصلت : ٥٣ .

(٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يلاحظ أن هذا الحديث ، والحديث الذى سبقه ، مشكوك في صحتها .

مقصوده يكون ضائعاً . فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعرف صفاته وأفعاله ، وعرف مراتب العالم مبدعاته ومكوناته ، وعرف الملائكة ومراتبهم ، وعرف لمة الملك ولمة الشيطان ، والتوفيق والخذلان ، وعرف الرسالة والنبوة ، وكيفية الوحي ، وكيفية المعجزات والإخبار عن المغيبات . وعرف الدار الآخرة وسعادتها وشقاوتها وأقسامها ولذة البهجة فيها ، وعرف غاية السعادة التي هي لقاء الله تعالى « (١) » .

يتصح من كلام الغزالي السابق اهتمامه الكبير بدراسة النفس ، وهو لا يدرسها كما درسها الفلاسفة السابقون باعتبارها موضوعاً للمعرفة كسائر موضوعات المعارف التي يدرسها الفلاسفة ، وإنما هو يدرسها بوزاع ديني عميق باعتبارها السبيل الذي يوصل إلى معرفة الله تعالى ، ومعرفة أسرار الكون ، والرسالة النبوية والوحي ، وأسرار الغيب ، والدار الآخرة ، وغاية السعادة فيها وهي لقاء الله تعالى .

وسوف نبدأ أولاً فيما يلي بعرض آراء الغزالي التقليدية في قوى النفس الحيوانية والإنسانية ، والتي يتبع فيها الفلاسفة السابقين ، وبخاصة ابن سينا . ثم سوف نتناول بعد ذلك آراءه في تعديل السلوك وعلاج الأخلاق المذمومة .

تعريف النفس

ينحو الغزالي منحى كل من ابن سينا والفارابي ومن قبلهما أرسطو في القول بثلاث نفوس هي النفس النباتية والنفس الحيوانية والنفس الإنسانية . وهو يعرف النفس النباتية بأنها « الكمال الأول لجسم طبيعي آتٍ من جهة ما يتغذى وينمو ويولد المثل » . ويعرف النفس الحيوانية بأنها : « الكمال الأول لجسم طبيعي آتٍ من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة » . ويعرف النفس الإنسانية : بأنها « الكمال الأول لجسم طبيعي آتٍ من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار العقل والاستنباط بالرأى ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية » (٢) . ويلاحظ أن الغزالي يعرف هذه الأنواع الثلاثة من النفوس بنفس التعريفات التي قال بها من قبل الفارابي وابن سينا اللذان تأثرا بدورهما بأرسطو (٣) .

-
- (١) مدارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٧ ؛ انظر أيضاً : الغزالي : كيمياء السعادة . تحقيق وتعليق محمد عبد العليم . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧م ، ص ٢٣-٢٥ .
- (٢) مدارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٢١ .
- (٣) محمد عثمان نجاتي . الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٣٣-٣٨ ؛ ابن سينا : الشفاء ، مرجع سابق ، ص ٣٢ ؛ ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ .

ويقول الغزالي : إن النفس هي الكمال الأول ، ويعنى بذلك أنه من غير واسطة كمال آخر . ويقول لجسم طبيعي أى غير صناعي . ويعنى بَلَّغَ أنه ذو آلات يستعين بها ذلك الكمال في تحصيل الكمالات الثانية والثالثة (١) . ويلاحظ أيضًا تأثير الغزالي في هذه التعريفات بما قاله من قبل ابن سينا في تعريف هذه المصطلحات .

ولا توجد هذه النفوس الثلاث في الإنسان مستقلة بعضها عن بعض ، بل هي توجد في وحدة منسجمة تتعاون فيها قوى هذه النفوس الثلاث تعاونًا تامًا في القيام بوظائف الإنسان البدنية والنفسية المختلفة ، كما ستبين ذلك فيما بعد عندما نتكلم عن وحدة النفس الإنسانية .

قوى النفس الحيوانية

يقول الغزالي ، مرددًا أقوال الفارابي وابن سينا ، إن قوى النفس الحيوانية تنقسم إلى قوى عركية وقوى مدركة .

١ - القوى المحركة (٢):

« . . القوى المحركة إما أن تكون عركية على أنها باعثة على الفعل ، أو على أنها فاعلة . والباعثة إما أن تكون على جذب النفع ، أو على دفع الضرر . والباعثة على جذب النفع هي التي يعبر عنها بالشهوة » ، وهي القوة التي تبعث القوة الفاعلة على جذب ما يُعلم أو يُظنُّ أنه خير . «وأما الباعثة على دفع الضرر فهي التي يُعبر عنها بالغضب » ، وهي القوة التي تبعث على دفع ما يُعلم أو يُظنُّ أنه يضر أو يؤذي طلبًا للانتقام أو الغلبة .

« وأما القوة المحركة على أنها فاعلة فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات » لتقوم بالحركة المناسبة ، إما لجذب النافع ، وإما لدفع الضار . وهذه القوة هي التي يُعبر عنها بالقدرة . أما القوة الباعثة فهي ما يُعبر عنها بالإرادة . ويلاحظ تأثير الغزالي الواضح بالفارابي وابن سينا ، وتدريبه لأتوارها في هذا الموضوع . والقدرة لا تنبعث ما لم تحدث الإرادة ، والإرادة لا تحدث ما لم يحدث العلم . فإذا حدث العلم وجزم الحكم « انبعثت الإرادة ولا تمهد بدأ من الانقياد والإذعان ، وإذا جزمت الإرادة الحكم انبعثت القدرة لتحريك الأعضاء فلا تمهد محيصًا وخلعًا من الامتنال والارتسام بموجب رسمها . وإذا جزمت القدرة الحكم تحركت الأعضاء بحيث لا تمهد محيصًا من

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٩ .

الحركة . فما دام رسول العلم متردداً تكون الإرادة مترددة ، وما دامت الإرادة مترددة تكون القدرة مترددة ، وما دامت القدرة مترددة فالأفعال لا تدخل في الوجود ولا تظهر على الأعضاء ، فإذا اتصل الحكم بالجزم وجدت الأفعال « (١) ».

٢- القوى المدركة (٢):

وتنقسم القوى المدركة إلى مدركة من ظاهر ، ومدركة من باطن . والمدركة من الظاهر هي الحواس الخمس الخارجية : اللمس ، والشم ، والذوق ، والبصر ، والسمع . ويعتمد الغزالي في دراسته للحواس اعتماداً كلياً على آراء ابن سينا في هذا الموضوع ، وهو في كثير من المواضع ينقل عنه نقلاً يكاد يكون حرفياً ، كما سبق أن ذكرنا ذلك .

اللمس

يذهب الغزالي ، مثل ابن سينا ، إلى أن حاسة اللمس هي قوة منتشرة في جميع بشرة الحيوان ولحمه وعرقه وعصبه ، ويقول عنها ، كما قال ابن سينا من قبل : « هي الطليعة الأولى للنفس ، ولا يخلو جزء من البشرة عن قوة اللمس ، ولا يوجد حيوان إلا وفيه قوة اللمس . والحكمة في القوة اللمسية هي أن الحكمة الإلهية لما اقتضت أن يكون حيوان يتحرك بالإرادة مركباً من العناصر ، وكان لا يؤمن عليه أضرار الأمكنة المتعاقبة عليه عند الحركة ، أيد بالقوة اللمسية حتى يهرب بها من المكان غير الملائم ، ويقصد بها المكان الملائم » (٣).

والكيفيات الحسية التي يدركها اللمس هي ، كما سبق أن قال ابن سينا : الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، والصلابة والرخاوة ، واللين والخشونة ، والخفة والثقيل .

ويشير الغزالي إلى ما سبق أن أشار إليه كل من أرسطو وابن سينا من قبل إلى احتمال كون حاسة اللمس عدة حواس وليست حاسة واحدة . يقول الغزالي : « وعند قوم قوة اللمس جنس لأربعة أنواع من القوى : إحداها ، حاكمة في التضاد بين الحار والبارد ، والثانية ، حاكمة في التضاد بين الرطب واليابس ، والثالثة ، حاكمة في التضاد بين الصلب واللين ، والرابعة حاكمة في التضاد بين الخشن والأملس ، وربما يزيدون على ذلك » (٤).

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ . (٢) المرجع السابق ، ص ٤١-٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ ؛ انظر رأي ابن سينا في : محمد عثمانى نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

(٤) الغزالي ، المرجع السابق ، ص ٤١ . انظر أيضاً رأي ابن سينا في : محمد عثمانى نجاتي ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

وتدرك حاسة اللمس الكيفيات الحسية المضادة لكيفية البشرة ، أى تحس بها هو أبرد أو أسخن ، أو أخشن أو ألين ، أما المائل فقلها تدركه .

الشم^(١)

وتلى حاسة اللمس من الحواس حاسة الشم ، فلما كان الحيوان لا يستغنى في حياته عن الغذاء ، وكان من الغذاء ما يوافق وما لا يوافق ، لذلك أوجبت الحكمة الإلهية تأييده بحاسة الشم ليستدل من الروائح على الأغذية الملائمة .

وحاسة الشم هى القوة الموجودة في زائدتى (مقدم) الدماغ ، الشبيتين بحلمتى الشدى (والموجودتين في أعلى تجويف الأنف) ^(٢) ، وهى تدرك الروائح بتوسط الهواء ، وذلك ليس بأن ينقل الهواء الرائحة ، بل بأن يستحيل هو إلى الرائحة . ويختلف الغزلى في هذه النقطة عن ابن سينا الذى يرى أنه يجوز أن يكون المشموم هو البخار المنبعث من الأجسام ذات الرائحة والذى يحملها الهواء إلى حاسة الشم ، ويجوز أن يكون الهواء هو نفسه يستحيل عن الجسم ذى الرائحة ، فتكون له رائحته ^(٣).

ويقول الغزلى ، كما قال أرسطو وابن سينا من قبل ، إن حاسة الشم في الحيوانات أشد وأقوى منها في الإنسان . ويذهب إلى أن أول ما يتكون في الجنين بعد قوة اللمس ، هو قوة الشم .

الذوق^(٤)

وحاسة الذوق أيضًا حاسة طليعة تُدرك بها الطعوم الموافقة وغير الموافقة . وهى قوة مرتبة في العصب المفروش على اللسان . وهى تدرك الطعوم المتحللة من الأطعمة في اللعاب ، وحينما يتصل الطعم بالعصب أدركه العصب . وهنا رأيان ، فهل الطعوم تكون مختلطة فقط باللعاب ، أم أنها تحلل اللعاب إلى كيميائها . وقد ذهب ابن سينا في كتاب الشفاء^(٥) إلى القول بالرأىين معًا ، فهو يقول : إن الطعوم تختلط باللعاب وتحيله معًا . أما في كتاب النجاة^(٦) ، فقد ذهب ابن سينا إلى أن الطعوم المخالطة لللعاب تحيله . أما الغزلى فإنه يميل إلى الأخذ برأى ابن سينا الوارد في النجاة حيث يذهب إلى أن اللعاب يستحيل إلى كيفية الطعوم .

(١) الغزلى : المرجع السابق ، ص ٤٢-٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ ؛ الكلمات بين قوسين ليست في الأصل ، وأضفناها للتوضيح .

(٣) ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٠ ؛ محمد عثمان نجاشي ، المرجع السابق ، ص ١٠٣-١٠٤ .

(٤) الغزلى : المرجع السابق ، ص ٤٢ ، ٤٣ . (٥) ابن سينا : الشفاء ، مرجع سابق ، ص ٦٤-٦٥ .

(٦) ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٠ . (٧) الغزلى ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

البصر (١)

وحاسة البصر مفيدة أيضًا للحيوان . ووجه منفعتها هو أنه لما كان الحيوان يتحرك بالإرادة ، وفي بعض الأحيان يتحرك إلى أماكن خطيرة كمواقف النيران ، وقمم الجبال ، وشواطئ البحار ، أوجبت العناية الإلهية إعطاء أكثر الحيوانات حاسة البصر ليدرك به طريقه ، فيتجنب الأماكن التي يمكن أن يلحقه منها الضرر .

وحاسة البصر هي قوة مرتبة في العصبية المجوفة تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل إلى سطوح الأجسام الصقيلة» (٢).

ويرفض الغزالي ، كما رفض ابن سينا من قبل ، الرأي القائل بأن الإبصار يحدث بخروج شعاع من العين إلى الشيء المرئي ، وهو الرأي الذي قال به أفلاطون ، وإنما يذهب الغزالي ، كما ذهب ابن سينا (٣) من قبل ، إلى أن الإبصار يحدث بانتطباع صورة المرئي في الرطوبة الجليدية بالعين بتوسط الشفاف . ويقول الغزالي : « فإذا حصلت الصورة في الجليدية أفضت إلى العصبية المجوفة التي فيها روح هو جسم لطيف مثل ما تقع الصورة على الماء الراكد فيفيض إلى ملتقى الأنبوتين المتصلتين بالعينين في مقدمة الدماغ فيدرك الحس المشترك من الصورتين المتحدتين صورة واحدة» (٤) . فمركز الإبصار عند الغزالي ، إذن ، هو ، كما قال ابن سينا من قبل ، عند ملتقى العصبين البصريين (٥) .

السمع (٦)

« والقوة السامعة تلى المبصرة في النفع . ووجه منفعتها أن الأشياء الضارة والنافعة قد يستدل عليها بخاص أصواتها ، فأوجبت العناية الإلهية وضع القوة السامعة في أكثر الحيوانات ، على أن تنفع هذه القوة في النوع الناطق من الحيوان تكاد تفوق الثلاث » (٧) . أي الحواس الثلاث السابقة : البصر ، والذوق ، والشم .

وحاسة السمع قوة مرتبة في العصب المنتشر في السطح الداخلى من الصياغ . فحينما يصل الصوت الحادث عن تموج الهواء المنضغط من قرع أو قلع إلى الهواء المحصور الراكد في تجويف

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٣) ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ : مبحث عن القوى النفسانية ، تحقيق فنديك ، بيروت : دار العلم للجميع ، (د . ت) ، ص ٤٢ ؛ محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٤) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٣ . (٥) محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٦) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٤ . (٧) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

الصباغ وتحركه بشكل حركته ، فتماس الموجات الهوائية العصب المنتشر في سطح الصباغ ، فينقلها إلى الحس المشترك .

ويذكر الغزالي الآراء الشائعة في عصره عن عضو حاسة السمع ، وعن سبب حدوث السمع . يقول الغزالي : « وقيل إن تلك العصبية مفروشة في أقصى الصباغ ممدودة مد الجلد على الطبل ، إلا أنها على دقة نسج العنكبوت وصلابة الجلد المدبوغ . وقيل إنها أعصاب كأوتاد العود ممدودة في جوانب الصباغ ، وتتحرك تلك الأوتار بتحريك الهواء الراكد فيه فيحصل منه طنين . وإنها يتحرك على ترتيب تعاقب الحروف والأصوات واختلافها في الرفع والخفض ، والخفة والثقل ، والدقة والغلط . وكما أن الضياء شرط في الإبصار ، كذلك الهواء في السمع » (١) .

ويلاحظ أن الغزالي يتبع ابن سينا في القول بأن حاسة السمع هي العصب المنتشر في السطح الداخلي من الصباغ ، وإن السمع يحدث نتيجة لتأثر هذا العصب بتموج الهواء الراكد في تجويف الصباغ تحت تأثير موجات الهواء التي تؤثر على الصباغ من خارج . ويتبع الغزالي ابن سينا أيضاً في القول بأن للصوت وجوداً خارجياً ، غير أن ابن سينا كان أدق في تعبيره من الغزالي ، وأقرب في مفهومه للصوت إلى العلم الحديث ، حيث لم يكتف ابن سينا بالقول ، كالغزالي ، بوجود الصوت في الخارج ، بل قال إنه موجود في الخارج « لا من حيث هو مسموع بالفعل ، بل من حيث هو مسموع بالوقوع وأمر كهية ما من الهيئات للتموج غير نفس التموج » (٢) . ومن المعروف الآن أنه ليس للصوت وجود خارجي ، وإنها هو خبرة نفسية تحدث نتيجة لوصول تأثير الموجات الهوائية إلى أعضاء حاسة السمع الموجودة في القوقعة بالأذن الداخلية ، وانتقال هذا التأثير في الأعصاب السمعية إلى مركز السمع في المخ (٣) .

القوى المدركة من الباطن

يقسم الغزالي القوى المدركة من الباطن على أساس طبيعة وظيفتها إلى :

(أ) ما يدرك ولا يحفظ . (ب) ما يحفظ ولا يدرك .

(ج) ما يدرك ويتصرف .

وهو يقسم المدرك منها إلى :

(أ) ما يدرك الصورة . (ب) وما يدرك المعنى .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٢) ابن سينا : الشفاء ، مرجع سابق ، ص ٧٣ ؛ محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ ، الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٣ .

ويقسم الحافظ منها إلى :

(أ) ما يحفظ الصورة .

(ب) وما يحفظ المعنى .

ويفرق الغزالي ، كما فرق ابن سينا^(١) من قبل ، بين الصورة والمعنى . فالصورة هي ما يدركه الحس الظاهر ثم يؤديه إلى الحس الباطن فيدركه . أما المعنى فيدركه الحس الباطن من المحسوس دون أن يدركه الحس الظاهر .

وينقل الغزالي عن ابن سينا آراءه عن القوى المدركة من الباطن فيقول ، كما قال ابن سينا ، إنها الحس المشترك (ويسمى فتازيا) ، والخيال ، والقوة المتخيلة ، والقوة الراهية ، والحافظة الذاكرة . وما يدرك الصورة هو الحس المشترك ، والخيال خازنه الذي يحفظ ما يدركه من صور . وما يدرك المعنى هو القوة الراهية ، والحافظة الذاكرة خازنها الذي يحفظ ما تدركه من معاني . وما يدرك ويتصرف هو القوة المتخيلة . وما لا يدرك هو خازن الصور وخازن المعاني^(٢) .

الحس المشترك

الحس المشترك (أو فطاسيا) هو القوة التي تجتمع فيها المحسوسات من الحواس فتدركها ، ولذلك سميت بالحس المشترك . ويثبت الغزالي وجود الحس المشترك براهين مأخوذة من ابن سينا . ومنها « أنك تبصر القطر النازل خطأ مستقيماً ، والنقطة الدائرة بسرعة خطأ مستديراً ، كله على سبيل المشاهدة لا على سبيل التخيل . ولو كان المدرك هو البصر الظاهر لكان يرى القطر كما هو عليه ، والنقطة كما هي عليها ، فإنه لا يدرك إلا المقابل النازل ، وذلك ليس بخط . فعلمنا أن ثم قوة أخرى ارتسم فيها هيئة ما رأى أولاً ، وقبل أن تمحى تلك الهيئة لحقتها أخرى وأخرى فرأها خطأ مستقيماً أو خطأ مستديراً . والدليل عليه أنه لو أدبرت النقطة لا بسرعة لترى نقطاً متفرقة ؛ فعندك ، إذًا ، قوة قبل البصر ، إليها يؤدي البصر ما يشاهده ، وعندها تجتمع المحسوسات فتدركها »^(٣) .

ويذكر الغزالي برهاناً آخر على وجود الحس المشترك ، فيقول : « وكذلك الإنسان يحس من نفسه أنه إذا أبصر شخصاً ، أو سمع كلاماً أدرك المبصر شخصاً واحداً ، وأدرك المسموع كلاماً

(١) ابن سينا : أحوال النفس ، ومرجع سابق ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥ . انظر ما قاله ابن سينا في هذا الصدد في « الإشارات » ج ١ ، ص ١٤٢ ؛ انظر

أيضاً : محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

وإحدًا ، وما في العين عنده شخصان ، أعنى شبحين في العينين ، وكلامين في الأذنين ، فعلم يقينًا أن محل الإدراك أمر وراء العينين والأذنين . فالقوة المدركة لها قوة واحدة اجتمعت عندها الصورتان ، أعنى الشبحين في العينين ، على اتفاقهما ، والمدركان ، أعنى البصر والمسموع ، على اختلافهما . فتلك القوة تجمع المتأثرات والمختلفات ، فسميهاها الحس المشترك ، إذ لا تكون النفس مدركة إلا بهذه القوة ، وسميهاها اللوح ، إذ لا تجتمع المحسوسات إلا في هذه القوة . وليس لها إلا الإدراك فقط ، وإنها يكون الأرتسام والحفظ لقوة أخرى . ومن خواص هذه القوة استحضر المحسوسات في الحواس أولاً ، ثم إدراكها ثانيًا ^(١).

والحس المشترك يدرك فقط المحسوسات ، وهي جزئيات شخصية ، ولا يدرك الكليات العقلية . وهو يحس أيضًا اللذة والألم من المحسوسات الخارجية ، كما يحس باللذة والألم من المتخيلات ^(٢).

القوة الخيالية أو المصورة

هي القوة التي تحفظ صور المحسوسات بعد غيابها عن الحواس . ويرى الغزالي أنه بالحس المشترك والقوة الخيالية معًا يتم التمييز بين المحسوسات . يقول الغزالي : « وبهاتين القوتين يمكنك أن تحكم أن هذا الطعم لغير صاحب هذا اللون ^(٣) ، وأن لصاحب هذا اللون هذا الطعم ، فإن القاضي بهذين الحكمين لا يمكنه القضاء ما لم يحضره المقضى عليهما » ^(٤).

القوة الوهمية

يلخص الغزالي في عرضه لوظيفة القوة الوهمية ما سبق أن قاله عنها ابن سينا ، فيقول : إنها تدرك من الجزئيات المحسوسة معاني جزئية غير محسوسة ، كما تدرك الشاة ، مثلاً ، العداوة في الذئب . وليست العداوة محسوسة ، ولكن القوة الوهمية تدركها من رؤية الذئب . ويردد الغزالي ما سبق أن قاله ابن سينا من أن القوة الوهمية هي الرئيسة الحاكمة في أفعال الحيوان ، فيقول : « وقد قيل إن القوة الوهمية هي الرئيسة الحاكمة في الحيوان حكمًا ليس فصلًا كالحكم العقل ، ولكن حكمًا تخيليًا مقرونًا بالأشياء الجزئية والصور الحسية ، وعنها تصدر أكثر الأفعال الحيوانية » ^(٥).

(١) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٥-٤٦ .

(٢) في الكتاب « الكون » ، وذكر في الهامش أنه في نسخة أخرى « اللون » ، وعندى أن الأصح هو « اللون » .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ . قارن المائلة بين ما قاله الغزالي هنا ، وما قاله ابن سينا في هذا الموضوع في الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ ؛ انظر أيضًا شرح الطوسي ص ١٤٣ ، وشرح الرازي ، ص ١٤٧ المنشورين في الإشارات والتنبيهات .

(٥) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٦-٤٧ .

وللقوة الوهمية في الإنسان أحكام خاصة بها ، فهي تمنع من إدراك وجود الأشياء التي لا تتخيل .
ولا ترتسم في الخيال ، وهى مصدر كثير من الأحكام الخاطئة مثل الحكم بأن الخلاء يحيط بالعالم .
يقول الغزالي : « وللقوة الوهمية في الإنسان أحكام خاصة منها حملها النفس أن تمنع وجود أشياء لا
تتخيل ولا ترتسم في الخيال مثل الجواهر العقلية التي لا تكون في حيز ومكان ، ومنها إثبات الخلاء
يحيط بالعالم ، ومنها موافقة المبرهن على تسليم المقدمات ثم مخالفتها في النتيجة » (١).

وقد تأثر الغزالي بما قاله ابن سينا من قبل عن أن أغلب الناس يشبهون الحيوان في أن أفعالهم
تتبع أحكام الوهم التي لم يناقشها العقل ، مثلما يحدث عندما يستقدر الإنسان العسل لمشابته
للمرارة أو العذرة في اللون ، فإن الوهم هو الذى يصدر هذا الحكم ، وتتبعه النفس ، وإن كان
العقل يكذبه . وقد سبق أن ذكرنا رأى ابن سينا في هذا الموضوع أثناء كلامنا عن القوة الوهمية .
وقد استعان الغزالي برأى ابن سينا السابق ذكره الخاص بالأحكام الخاطئة التي يصدرها الوهم في
مناقشته للمعتزلة في موضوع الحسن والقبح العقليين ، ويثبت لهم أن أحكامهم على الحسن والقبح
الذاتيين في الأشياء ، إنما هى أحكام وهمية وليست أحكاماً عقلية ، إذ أن ما يرونه حسناً ، أو
قبيحاً في الأشياء ليس كامناً في ذات الأشياء وإنما هو راجع إلى اقتران هذه الأشياء بأغراض الناس
ومصالحهم . فاقتران شيء ما بشيء آخر يؤدي إلى أن إدراك الشيء الأول قد يثير في النفس إدراك
الشيء الآخر الذى اقترن به من قبل . ويذكر الغزالي لذلك المثال التالى : « . . ومثاله نفرة السليم
وهو الذى نهشته الحية عن الحبل المبرقش اللون لأنه وجد الأذى مقروناً بهذه الصورة فتوهم أن هذه
الصورة مقرونة بالأذى . وكذلك تنفر النفس عن العسل إذا شبه بالعذرة لأنه وجد الأذى
والاستقذار مقروناً بالطوب الأصفر ، فتوهم أن الطوب الأصفر مقرون به الاستقذار . ويغلب
الوهم حتى يتعذر الأكل وإن حكم العقل بكذب الوهم . . » (٢) . ويقول الغزالي أيضاً في هذا
المعنى : « . . فالقرون باللذيد لذيد ، والمقرون بالمكروه مكروه . بل الإنسان إذا جالس من عشقه
في مكان ما . . أحس في نفسه تفرقة بين ذلك المكان وغيره . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما تلك الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا » (٣)

وقد سبق أن ذكرنا أثناء كلامنا عن القوة الوهمية عند ابن سينا ، كيف أنه استطاع بملاحظته
الذكية لسلوك الحيوان والإنسان أن يدرك أن اقتران بعض المدركات أو المثيرات الحسية ببعض

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٢) الغزالي : المستصفى من علم الأصول ، ج ١ ، القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٣٢٢ هـ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .

الاستجابات يؤدي إلى تكوين ارتباطات بين هذه المدركات أو المثيرات الحسية وهذه الاستجابات ، بحيث إذا أدرك الحيوان أو الإنسان هذه المدركات الحسية في المستقبل ، صدرت منه هذه الاستجابات .

وواضح من كلام الغزالي الذي ذكرناه سابقاً أنه أدرك أيضاً ، مثل ابن سينا من قبل ، طبيعة الاستجابة الشرطية ، وأهميتها في سلوك الحيوان والإنسان . فاستجابة الخوف من الحية ترتبط بشكلها ولونها ، بحيث يصبح الحبل المشابه للحية في شكلها ولونها قادراً على إثارة استجابة الخوف . وكذلك ، فإن استجابة الاستقذار ترتبط بلون العذرة ، بحيث يصبح لون العسل المشابه للون العذرة مثيراً لاستجابة الاستقذار . وهذه هي الاستجابة الشرطية التي درسها إيفان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور دراسة معملية في العصر الحديث ، وكانت لنتائج دراسته أهمية كبيرة في علم الفسيولوجيا وعلم النفس .

ومن الواضح أن الغزالي قد تأثر بآراء ابن سينا في الوظائف النفسية المختلفة التي يقوم بها الوهم ، ومن بينها ما يتعلق بتكوين الاستجابات الشرطية . ويلاحظ من كلام الغزالي السابق أوجه الشبه في المثال الذي ذكره على نفور النفس من العسل لمشايبته للون العذرة بالمثل الذي سبق أن ذكره ابن سينا الخاص بنفور النفس من العسل لمشايبته للون المرارة .

وأود أن أشير هنا إلى أنه قد قُدم إلى « ندوة علم النفس والإسلام » التي عقدت في جامعة الرياض بالملكة العربية السعودية في عام ١٩٧٨ م بحث بعنوان « نظرية الفعل المنعكس الشرطي عند الغزالي »^(١) ، نسب فيه الباحث الفضل إلى الغزالي في اكتشاف عملية الإشراف قبل بافلوف . غير أنه كما تبين لنا من شرحنا السابق لرأى كل من ابن سينا والغزالي في هذا الموضوع أن ابن سينا هو الذي يرجع إليه الفضل الأول في اكتشاف طبيعة عملية الإشراف قبل بافلوف ، وأن الغزالي قد اقتبس رأيه في هذا الموضوع من ابن سينا .

القوة الحافظة الذاكرة

القوة الحافظة الذاكرة هي القوة التي تحفظ المعاني الجزئية التي تدركها القوة الوهمية . ونسبة القوة الحافظة الذاكرة إلى المعاني الجزئية كنسبة القوة المصورة إلى المحسوسات التي يدركها الحس المشترك ، أي أنها خزانة للمعاني الجرفية^(٢) .

(١) فائز محمد علي الحاج : نظرية الفعل المنعكس الشرطي عند الغزالي . بحث مقدم إلى « ندوة علم النفس والإسلام » التي عقدت بجامعة الرياض في عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م . الجزء الأول من مجموعة بحوث الندوة . مكتوب على الآلة الكاتبة .

(٢) الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٤٧ .

القوة المتخيلة

ينسب الغزالي إلى القوة المتخيلة نفس الوظائف التي نسبها إليها كل من الفارابي وابن سينا من قبل . فهي ، في رأيه ، تقوم بتركيب الصور بعضها إلى بعض ، وفصلها بعضها عن بعض ، كما أنها تقوم بتركيب المعاني الجزئية بعضها إلى بعض ، وتفصلها بعضها عن بعض ، كما أنها تلحق المعنى بالصورة . وتستعمل النفس القوة المتخيلة في عمليتي التركيب والتفصيل على أى نظام تشاء ، وعلى نحو منتظم ، أو غير منتظم ، وهذا مما يمكن الإنسان من تعلم الصناعات والفنون المختلفة . وإذا انكبت المتخيلة على فعلها الطبيعي وهو التركيب والتفصيل سميت متخيلة . ولكنها قد تنشغل بالتركيب والتفصيل تارة لخدمة العقل العمل ، وتارة لخدمة العقل النظري . فإذا استخدمتها النفس في أمر عقلي سُميت « مفكرة » . والقوة المتخيلة قوة غير مدركة في ذاتها ، ولكن النفس تدرك ما تركبه ، أو تفصله من صور بوساطة الحس المشترك ، وتدرك ما تركبه ، أو تفصله من معاني بوساطة القوة الوهمية (١).

مراكز القوى المدركة الباطنة

يُجَدِّد الغزالي مراكز القوى المدركة الباطنة في تجاويف الدماغ وفقاً لما قاله ابن سينا من قبل في « القانون في الطب » (٢) ، و « النجاة » (٣) وأحوال النفس (٤) . فمركز الحس المشترك في الجانب الأول من التجويف الأول في مقدم الدماغ . ومركز القوة المصورة في الجانب الأخير من التجويف الأول من الدماغ . والقوة المتخيلة في الجزء الأول من التجويف الأوسط . والقوة الوهمية « آلتها الدماغ كله ، ولكن الأخص بها هو التجويف الأوسط لاسيما في جانبه الأخير » . والحافظة الذاكرة في التجويف الأخير . ويشير الغزالي ، كما سبق أن أشار ابن سينا من قبل ، إلى حكمة الباري جلَّ شأنه في تقديم المدرك للمحسوسات ، وتأخير المدرك للمعاني ، وجعل المتصرف في صور المحسوسات والمعاني في الوسط . يقول الغزالي : « وإنا هدى الناس إلى القضاء بأن هذه هي الآلات ، وأنها مختلفة المحال بحسب اختلاف القوى ، وأن الفساد إذا اختص بتجويف أوردت الآفة فيه ، ثم اعتبار الواجب في حكمة الصانع الحكيم تعالى أن يقدم الأفتنص للجرماني ، ويؤخر الأفتنص للروحاني ، ويقعد المتصرف فيها حكماً واسترجاعاً للمثل المنحمة عن الجانبين في الوسط ، جلَّت قدرته » (٥).

(١) المرجع السابق ، ٤٧ .

(٢) ابن سينا : القانون في الطب ، جـ ٣ ، روما ، ١٦٥٣ م ، ص ٢٨٢ .

(٣) النجاة ، ص : ٢٦٥ - ٢٦٦ . (٤) أحوال النفس ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٥) الشفاء ، ص ٢٣٦ .

(٦) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٨ . قارن الماثلة بين عبارات الغزالي بعبارات ابن سينا في « الإشارات والتنبيهات » ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

قوى النفس الناطقة^(١)

أما فيما يتعلق بالنفس الإنسانية فيقسمها الغزالي ، متبعاً في ذلك الفارابي وابن سينا ، إلى قوة عاملة وقوة عالمة ، وتسمى كل واحدة منهما عقلاً باشتراك الاسم . ويشرح الغزالي وظائف كل من هاتين القوتين ناقلاً حرفياً ما سبق أن قاله ابن سينا عن النفس الناطقة ووظائفها في كتاب «النجاة»^(٢) وكتاب «أحوال النفس»^(٣) . فالقوة العاملة هي التي تتولى مسؤولية تدبير البدن ، وهي بالاشتراك مع القوة النزوعية ، تقوم بدفع الإنسان إلى القيام بالأفعال الجزئية الخاصة به مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء ، وما أشبه ذلك . وهي ، بالاشتراك مع القوتين المتخيلة والمتوهمه ، تقوم باستنباط الصنائع والمهن المختلفة . وأما بالنسبة لاشتراكها مع القوة العاملة ، أو العقل النظري فإنه فيها بينها تولد الآراء الخلقية مثل الصدق حسن والكذب قبيح ، والعدل جميل والظلم قبيح . والقوة العاملة هي التي يجب أن تتسلط على سائر قوى البدن وتوجهه على حسب ما توجهه أحكام العقل النظري . ويجب أن تكون هي المسيطرة والموجهة لقوى البدن ، وحينئذ تكون أخلاقها فاضلة . أما إذا خضعت هي لقوى البدن فإن ذلك يجعل أخلاقها رذيلة . فالقوة العاملة ، إذن ، هي المسؤولة عن الأخلاق . وكان للنفس الإنسانية وظيفتين . إحداهما بالنسبة للجنة التي تحتها وهي البدن ، وبالنسبة إلى الجنة التي فوقها وهي المبادئ العالية والعقول بالفعل . فالقوة العاملة هي التي تتولى مسؤولية سياسة البدن وتدبيره . أما القوة العاملة ، أو النظرية فهي التي تنفعل عن المبادئ العالية والعقول بالفعل ، وتستفيد منها وتقبل عنها الصور الكلية المجردة ، والتي بقبولها يتم كمال النفس .

مراتب العقل النظري

ويذكر الغزالي مراتب العقل النظري على نحو ما قال الفارابي وابن سينا من قبل ، وهو ينقل حرفياً ما قال ابن سينا عن مراتب العقل في «النجاة»^(٤) ، وفي «أحوال النفس»^(٥) .

١ - العقل الهيولاني :

إن الاستعداد المطلق الموجود عند الطفل لإدراك المعقولات الكلية ، من قبل أن يدرك الطفل شيئاً بعد من المعقولات ، يسمى عقلاً هيولانياً . وذلك مثل استعداد الطفل على تعلم الكتابة .

(١) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٣ .

(٢) ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٣) ابن سينا : أحوال النفس ، مرجع سابق ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) ابن سينا : النجاة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

(٥) ابن سينا : أحوال النفس ، مرجع سابق ، ص ٦٥ - ٦٧ .

٢- العقل بالملكة :

فإذا اكتسب العقل المعقولات الأولى فإنه يُسمى عقلاً ممكناً ، أو عقلاً بالملكة . وأعلى بالمعقولات الأولى المقدمات التي يقع التصديق بها من غير اكتساب ، وهى المبادئ العقلية الضرورية التى يشعر الإنسان أنه لا يجوز أن يخلو عن التصديق بها ألّبتة ، مثل الاعتقاد بأ « الكل أعظم من الجزء » ، أو « أن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية » . وهذه هى التى تسمى العلوم الضرورية ، والتى يُتوصّل بها إلى المعقولات الثانية .

٣- العقل بالفعل :

فإذا حصل العقل بعد المعقولات الأولى على المعقولات الثانية أو المعقولات المكتسبة ، إلا أنه لا يطالعها بالفعل ، ولكنها تكون كأنها مخزونة لديه يستطيع أن يستعيدها متى شاء ويعقلها ، ويعقل أنه يعقلها ، فيسمى حينئذٍ عقلاً بالفعل ، لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب تكلف وتجهش .

٤- العقل المستفاد :

فإذا كانت الصور المعقولة حاضرة بالفعل فى العقل ، وهو يعقلها بالفعل ، ويعقل أنه يعقلها بالفعل ، فإنه يسمى حينئذٍ عقلاً مستفاداً ، أو عقلاً قدسياً . وسمى عقلاً مستفاداً لأنه إنما خرج من القوة إلى الفعل نتيجة اتصاله بالعقل الفعال واستفادته منه الصور المعقولة . وعند العقل المستفاد يتم الجنس الحيوانى والنوع الإنسانى . وهناك تكون القوة الإنسانية تشبهت بالمبادئ الأولية للوجود كله ^(١).

والعقل الهولانى الذى هو الاستعداد المطلق فى الإنسان لإدراك المعقولات الكلية ، ليس متشابهاً عند جميع الناس ، بل توجد بينهم فروق فى هذا الاستعداد . ويرجع الغزالي هذه الفروق إلى الاختلافات فى أمزجة البدن من جهة ، وإلى الاختلافات فى طوابع الكواكب وأجرام السماوات من جهة أخرى . يقول الغزالي : « وإن قيل إن النفس الإنسانية متشابهة فى النوع وسمى ذلك ، فلاشك أنها مختلفة فى الشخص والعين بحسب اختلاف العوارض المشخصة ، فيختلف الاستعداد فى العقل الهولانى على حسب ذلك . فإن النفس إنما تفيض من المبادئ على قدر الاستعداد . فكلما كان المزاج أعدل كانت النفس أشرف ، وينضاف إليه طوابع الكواكب وأجرام

(١) الغزالي : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

الساوات . فإذا ، كما أن النفس وإن كانت متحدة في النوع فيبينها تفاضل وترتب ، فكذا الاستعداد مرتب على شرف النفس . فرب نفس نبى يستغنى عن الفكرة ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . ورب نفس غيبى لا يعود عليه الفكر برادة . . » (١).

ويذهب الغزالي إلى أن الله تعالى ذكر مراتب العقل النظري في القرآن الكريم في الآية التالية من سورة النور : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونية لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » (٢).

ويفسر الغزالي هذه الآية فيقول : « المشكاة مثل العقل الهولاني ، فكما أن المشكاة مستعدة لأن يوضع فيها النور ، فكذا النفس بالفطرة مستعدة لأن يفيض عليها نور العقل . ثم إذا قويت أدنى قوة ، وحصلت لها مبادئ المعقولات فهي الزجاجة . فإن بلغت درجة تتمكن من تحصيل المعقولات بالفكرة الصائبة فهي الشجرة ، لأن الشجرة ذات أفنان ، فكذا الفكرة ذات فنون . فإن كانت أقوى وبلغت درجة الملكة ، فإن حصل لها المعقولات بالحدس فهي الزيت . فإن كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضىء . فإن حصل له المعقولات كأنها يشاهدها ويطالعها فهو المصباح . ثم إذا حصلت له المعقولات فهو نور على نور ، نور العقل المستفاد على نور العقل الفطري . ثم هذه الأنوار مستفادة من سبب هذه الأنوار بالنسبة إليه ، كالسراج بالنسبة إلى نار عظيمة طبقت الأرض . فتلك النار هي العقل الفعّال المفيض لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية . وإن جعلت الآية مثالا للعقل النبوي فيجوز ، لأنه مصباح يوقد من شجرة أمرية مباركة نبويه ، زيتونية أمية لا شرقية طبيعية ، ولا غربية بشرية يكاد زيتها يضىء ضوء الفطرة وإن لم تمسسه نار الفكرة . نور من الأمر الربوبي على نور من العقل النبوي . يهدي الله لنوره من يشاء » (٣).

الإدراك العقلي

يفسر الغزالي عملية الإدراك العقلي ، كما فسرنا من قبل الفارابي وابن سينا ، بارتسام الصور العقلية في العقل من العقل الفعال . فالعقل الهولاني لا يخرج من القوة إلى الفعل ، ويصبح

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢-٥٣ .

(٢) النور : ٣٥

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥-٥٦ .

عقلًا بالفعل إلا بسبب اتصاله بالعقل الفعال الذى توجد عنده مبادئ الصور العقلية المجردة . ونسبة العقل الفعال إلى نفوسنا كنسبة الشمس إلى أبصارنا . فكما أن البصر يُبصر بنور الشمس ، فكذلك نفوسنا تعقل إذا أشرق عليها نور العقل الفعال^(١) . فإذا طالعت النفس الناطقة الجزئيات الموجودة فى الخيال ، وفكرت فيها وتأملتھا ، فإن ذلك يُعدها لأن تفيض عليها المعانى العقلية المجردة من العقل الفعال . يقول الغزالي : « . النفس الناطقة إذا طالعت تلك الصور الخيالية ، واتصل بها نور العقل الفعال ضربًا من الاتصال استعدت لأن يحدث فيها من ضوء العقل مجردات تلك الصور من الشوائب . فأول ما يتميّز عند العقل الإنسانى أمر الذاتى منها والعرضى ، وما به يشابه ، وما به يختلف ؛ فنصير المعانى معنى واحدًا فى ذات العقل . . »^(٢) . وهكذا يدرك الإنسان من العقل الفعال المعانى الكلية المتضمنة فى الجزئيات المدركة بالحس . ويشير الغزالي بذلك إلى أهمية المعرفة الحسية كخطوة تمهيدية للحصول على المعرفة العقلية . فإذا طالعت النفس الناطقة صور المحسوسات الموجودة فى المصورة ، واتصل بها العقل الفعال نوعًا من الاتصال ، أصبحت مستعدة لأن تدرك فى ضوء العقل الفعال المعانى الكلية . ويلاحظ الشبه الكبير بين أقوال الغزالي فى هذا الموضوع وبين ما سبق أن قاله الفارابى^(٣) وابن سينا^(٤) فى نفس الموضوع .

والعقل الإنسانى مستعد بطبيعته لإدراك المعقولات المجردة عن العقل الفعال ، غير أن انشغال العقل بأمور البدن يحول دون بلوغ أفضل كماله وهو تعقل المعقولات المجردة . يقول الغزالي : « . والعقل ليس قصوره عن تصور الأشياء التى هى فى غاية المعقولية والتجرد عن المادة لأمر فى ذات تلك الأشياء ، ولا لأمر فى غريزة العقل ، بل لأجل أن العقل مشغول بالبدن ، ويحتاج فى كثير من الأمور إلى البدن ، فيبعده البدن عن أفضل كماله . فإذا زال عنه هذا الغمر كان تعقل النفس للمجردات أفضل التعقلات وأوضحها وألدها »^(٥) .

الدوافع والانفعالات

لم يهتم الفلاسفة المسلمون قبل الغزالي اهتمامًا كبيرًا بدراسة الناحية الدافعية والانفعالية فى الإنسان ، ولكن الغزالي كان أكثر منهم اهتمامًا بدراستها . وقد قال الغزالي بالدوافع الرئيسية التى

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ، مرجع سابق ، ص ٦٤-٦٦ .

(٤) ابن سينا : الشفاء ، ص ١٩٧ ، ٢٠٨ ؛ الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ النجاة ، ص ٢٩٧-٢٩٨ ؛ مبحث عن القوى النفسانية ، ص ٦٠ . انظر عرضنا السابق لأراء كل من الفارابى وابن سينا فى هذا الموضوع .

(٥) الغزالي : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

سبق أن قال بها الفارابى وابن سينا ، وهى التى تتضمنها القوة النزوعية بفرعها : « الشهوة » و« الغضب » . ويدخل فى مضمون الشهوة جميع الدوافع الفطرية التى تدفع الإنسان إلى الأشياء التى تشبع حاجاته الفطرية الضرورية ، كالغذاء والماء والملبس والمنكح ، وكذلك جميع الدوافع المكتسبة التى تدفع الإنسان إلى طلب كل ما يشتهيه من أمور أخرى غير ضرورية لحفظ حياته ، أو بقاء نوعه . ويدخل فى مضمون الغضب (القوة الغضبية) الدوافع التى تدفع الإنسان إلى دفع ما يضره ويؤذي ، وإلى القتال دفاعاً عن النفس ، أو الانتقام من الأعداء (١) .

ويذهب الغزالى إلى أن الإنسان يجمع فى نفسه « أربعة أنواع من الأوصاف وهى : الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والربانية . فهو من حيث سُلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة ، والبغضاء ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث له فى نفسه أمر ربانى (قل الروح من أمر ربي) فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويجب الاستيلاء ، والاستعلاء ، والتخصص ، والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ريقة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية ، وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتميز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شراً يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين » (٢) .

ويلاحظ أن هذه الأنواع الأربعة من الأوصاف التى يتصف بها الإنسان تتضمن كلاً من الدوافع الفطرية والمكتسبة ، كما تتضمن أيضاً الميول ، فالغزالى لا يميز بين الدافع والميل ، فهو يستخدم لفظ « الميل » بمعنى الدافع ، أو الشهوة . ويلاحظ أيضاً أن الغزالى يضم فى هذه الأوصاف الأربعة التى يتصف بها الإنسان الأخلاق التى تنتج عن هذه الدوافع والميول .

ويرى الغزالى أن أكثر الدوافع أهمية عند الإنسان هى الدوافع الفطرية المرتبطة بحفظ الذات وبقاء النوع . يتضح ذلك من قوله : « . . أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجلاح » (٣) على

(١) إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٦٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠-١١ .

(٣) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٥٦ ؛ انظر أيضاً : عبد الكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٣ م ، ص ١٧٣ .

اعتبار أنها الأصلح للحياة. كما يقول في مواضع أخرى : إن شهوة البطن والفرج أهم ميول الدنيا^(١). ولكن ، مع ذلك ، فإن الغزالي يؤكد أيضًا أهمية الدوافع المكتسبة التي قد تبلغ من القوة والشدة ما يجعل الإنسان يتمسك بها تمسكًا شديدًا . ويذكر الغزالي كثيرًا من الأمثلة لهذه الدوافع المكتسبة ضمن الأوصاف الأربعة التي يتصف بها الإنسان ، والتي ذكرناها سابقًا . وهو يذكر أيضًا في مواضع أخرى المال والجاه كمثالين للدوافع والميول المكتسبة^(٢).

ويذهب الغزالي أيضًا ، متتبعًا في ذلك رأى ابن سينا ، إلى أن العقل العمل ، بالاشتراك مع القوة النزوعية ، يدفع الإنسان إلى القيام بالأفعال الجزئية الخاصة به ، مثل انفعالات الخجل ، والحياء ، والضحك ، والبكاء ، وما أشبه ذلك من الانفعالات . وعلى ذلك ، فإن منشأ الانفعالات الخاصة بالإنسان هو العقل العمل بالاشتراك مع القوة النزوعية^(٣).

ولقد سبق أن ذكرنا أثناء كلامنا عن رأى الغزالي في القوى المحركة ، أنها إما أن تكون باعثة على الفعل ، أو أنها فاعلة . والباعثة على الفعل هي الدوافع والميول ، الشهوية والغضبية ، وهي ما يعبر عنها بالإرادة . ولكي تنبثق الإرادة لأد من حدوث العلم أولًا بأن هذا الشيء معلوم أنه خير ومفيد فيطلب ، أو أنه شر ومضر فيُدفع . فلا جد من حدوث هذا العلم أولًا حتى تنبثق الإرادة ، فإذا لم يحدث هذا العلم لم تنبثق الإرادة . وإذا حدث العلم وانبعثت الإرادة ، انبعثت القوة المحركة الفاعلة ، وهي قوة تنبثق في الأعصاب والعضلات لتقوم بالحركة المناسبة ، إما لجلب النافع ، أو لدفع الضار . . وهذه القوة هي التي يُعبر عنها بالقدرة^(٤). وهكذا نرى الغزالي يؤكد وجود علاقة وثيقة بين العقل العمل الذي يحكم بأن شيئًا ما مفيد ، أو مضر ، وبين الإرادة وهي انبعاث الدوافع والميول ، وبين الفعل الحركي ، أى السلوك الذي يقوم بتنفيذ ما تطلبه الإرادة . وإذا غاب عنصر من هذه العناصر الثلاثة ، لم يحدث الفعل ، أى السلوك . وما دام عنصر العلم ضروريًا في حدوث الدوافع ، فإن الدوافع عند الغزالي ، إذن ، هي جميعها دوافع شعورية . ولا يتصور في رأى الغزالي وجود دوافع لا شعورية كما يذهب إليه التحليل النفساني وعلم النفس الحديث .

وحدة النفس الإنسانية

يبين الغزالي كيف ترأس قوى النفس بعضها بعضًا ، وكيف يخدم بعضها بعضًا ، وهو يردد في

(١) عبد الكريم العثمان : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) الغزالي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٥-٨١ ؛ عبد الكريم العثمان : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٣) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ٤٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ .

هذا الصدد ما سبق أن قاله الفارابي وابن سينا عن وحدة النفس الإنسانية . يقول الغزالي : إن العقل المستفاد هو الرئيس المطلق الذي تخدمه كل القوى الأخرى ، وهو الغاية القصوى . ثم العقل بالفعل يخدمه العقل بالملكة ، ثم العقل بالملكة يخدمه العقل الهولاني ، وهذه كلها مراتب العقل النظرى كما ذكرنا سابقاً . والعقل النظرى يخدمه العقل العمل الذى يتولى تدبير البدن من أجل تكميل العقل النظرى . والعقل العمل يخدمه الوهم . والوهم يخدمه قوتان ، قوة بعده وقوة قبله . القوة التى بعده هى الحافظة الذاكرة التى تحفظ ما يؤديه الوهم من المعانى الجزئية . والقوة التى قبله هى جميع القوى الحيوانية . ثم القوة المتخيلة تخدمها قوتان ، إحداها القوة الخيالية لقبولها ما تقوم به المتخيلة من تركيب ما فيها من صور بعضها إلى بعض ، أو فصل بعضها عن بعض . والثانية هى القوة النزوعية لإطاعتها أوامر المتخيلة التى تبعثها على التحريك . ثم القوة الخيالية يخدمها الحس المشترك ، والحس المشترك تخدمه الحواس الخمس . والقوة النزوعية تخدمها الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب تخدمها القوة المحركة بالفعل . وإلى هنا تنتهى القوى الحيوانية . ثم القوى الحيوانية تخدمها قوى النفس النباتية . وأولها ورئيسها المولدة ، ثم المربية تخدم المولدة ، ثم الغازية تخدمها جميعاً^(١) . فقوى النفس الإنسانية المختلفة لا تعمل مستقلة بعضها عن بعض ، بل هى تعمل فى تعاون تام ، فالنفس الإنسانية تكون وحدة متساسة ، تؤدى وظائفها النفسية المختلفة عن طريق قوى نفسية متعاونة فيما بينها بحيث يخدم بعضها البعض فى نظام متكامل .

الأحلام والرؤى والوحى والنبوة

ينسب الغزالي للقوة المتخيلة دوراً هاماً فى الأحلام والرؤى والوحى والنبوة ، متبعاً فى ذلك كلاً من الفارابي وابن سينا . فحينما لا تكون القوة المتخيلة مشغولة بخدمة الحواس ، سواء فى اليقظة ، أو المنام ، فإنها تنجذب مع النفس الناطقة إلى جهة العقل الفعال ، فيشاهد العقل ما هناك ، ويؤدى ما يشاهده إلى القوة المتخيلة ، فيظهر هناك كالمشاهد والمسموع^(٢) . ويقول الغزالي فى هذا المعنى فى كتاب « كيمياء السعادة » : « اعلم أن للقب بابين للعلوم : واحد للأحلام ، والثانى لعالم اليقظة ، وهو الباب الظاهر إلى الخارج . فإن نام غلق باب الحواس ، فينتفتح له باب الباطن ، ويكشف له غيب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ ، فيكون مثل الضوء ، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام »^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) الغزالي : كيمياء السعادة ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

ويتفاوت الناس فيما بينهم في قوة القوة المتخيلة ، وفي استعداد نفوسهم تبعاً لذلك في الاتصال بالعالم العلوي ، أى بالعقل الفعال ، وتقبل الصور منه . ويضعف هذا الاستعداد في بعض النفوس لضعف القوة المتخيلة ، ويقوى هذا الاستعداد في بعض النفوس الأخرى بسبب عدم انشغال القوة المتخيلة بالحس ، فتصبح مستعدة لقبول ما يرد عليها من جهة العقل الفعال ، « إلا أن القوة المتخيلة لما فيها من الغريزة المحاكية والمتنقلة من شيء إلى شيء غيره تترك ما أخذت وتورد شبيهه أو ضده أو مناسبه » (١) ، كما يحدث عادة أثناء اليقظة ، أو في الرؤى أثناء النوم . ولذلك تحتاج الرؤى إلى تعبير وهو « تحليل بالعكس لفعل التخيل حتى ينتهي إلى الشيء تكون النفس قد شاهده حين اتصالها بذلك العالم ، وأخذت المتخيلة تنتقل عنه إلى أشياء أخرى » (٢) . وحينما تكون القوة المتخيلة في مرتبة أعلى من القوة ، فإنها « تستثبت ما نالته هناك ويستقر عليه الخيال ، من غير أن يغلبه الخيال وينتقل إلى غيره ، فتكون الرؤيا التي لا تحتاج إلى تعبير » (٣) .

وقد تبلغ القوة المتخيلة من كمال القوة والشدة في بعض الناس بحيث لا يمنعه ما تورد عليها القوى الحسية عن خدمة النفس الناطقة في اتصالها بتلك المبادئ العالية الموحية بالأمور الجزئية في حال اليقظة وتقبل الصور منها . « ثم إن المتخيلة تفعل مثل ما تفعل في حال الرؤيا المحتاجة إلى التعبير بأن تأخذ تلك الأحوال وتحاكيها وتستولى على الحسية حتى يؤثر ما يتخيل فيها من تلك في قوة بطناسيا (٤) ، بأن تنطبع الصور الحاصلة فيها في البطناسيا المشاركة ، فيشاهد صوراً إلهية عجيبة مرئية ، وأقاول إلهية مسموعة هي مثل تلك المدركات الوحيية ، وهذه أدون درجات المعنى المسمى بالنبوة . وأقوى من هذا أن يستثبت تلك الأحوال والصور على هيئتها مانعة للقوة المتخيلة على الانصراف إلى محاكاتها بأشياء أخرى . وأقوى من هذا أن تكون المتخيلة مستمرة في محاكاتها والعقل العمل والوهم لا يتخيلان عما استثبتاه ، فثبت في الذاكرة صورة ما أخذت ، وتقبل المتخيلة على بطناسيا وتحاكي فيه ما قبلت بصور عجيبة مسموعة ومبصرة ، ويؤدي كل واحد منهما على وجهه . وهذه طبقات النبوة المتعلقة بالقوى العقلية العملية والخيالية . » (٥) .

نظرية المعرفة

يرى الغزالي أن الإنسان يكتسب المعرفة عن طريقين : أحدهما هو طريق التعلم تحت إرشاد معلم ، وبالاتعانة بالحواس والعقل . وعن هذا الطريق يعرف الإنسان العالم الحسى ، ويحصل

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ١٤٠ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) البطناسيا هي الحس المشترك .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

العلوم والمعارف ، ويتعلم الحرف والصناعات . وثانيها هو طريق التعلم الرباني ، أو اللدني ، الذي فيه تنكشف المعرفة للقلب مباشرة عن طريق الإلهام والوحي .

والإلهام هو ، كما يقول الغزالي ، تنبيه من الله تعالى للنفس الإنسانية إذا ما بلغت قدراً من الصفاء وقوة الاستعداد فتحصل لها المعرفة دون وساطة بينها وبين الله تعالى . والوحي هو تلقي النور الإلهي ، ويشترط فيه كمال النفس ونقاؤها من الدنس ، وانقطاعها عن الشهوات الدنيوية ، وإقبالها على الله سبحانه وتعالى إقبالاً كلياً يؤدي إلى صقل النفس وتهيتها لكي يشرق عليها النور الإلهي ، وتنتش فيها جميع العلوم^(١).

والمعرفة الربانية ، أو المعرفة اللدنية ، هي أرقى أنواع المعرفة ، وتحتاج إلى عبادة وزهد ومجاهدة ورياضة نفس على الخلق الكريم . ويلاحظ أن الغزالي يربط بين ارتقاء النفس الإنسانية وكمالها وبين ترقيقها في تحصيل المعرفة ، فكما ازدادت النفس الإنسانية رقياً وسمواً - باتصالها بالله تعالى - كلما ازدادت معرفة . ويذهب الغزالي إلى أن المعرفة الربانية تحتاج ، كما قلنا سابقاً ، إلى عبادة وزهد ومجاهدة ورياضة النفس على الخلق الكريم . ومن هنا يلاحظ أن الغزالي يربط بين الأخلاق والمعرفة ، كما لاحظنا ذلك من قبل عند الفارابي^(٢).

والمعرفة التي يحصل عليها الإنسان عن طريق الحواس والعقل معرفة محدودة ، وهي وحدها لا تربط الإنسان بعالم الغيب . أما المعرفة الربانية فهي وحدها التي تربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى ، وهي التي بها ينال الإنسان الطمأنينة ، والسعادة ، ولذة المعرفة الحقيقية . ولا يحصل الإنسان على المعرفة الربانية إلا بتصفية النفس من الصفات المذمومة ، وتحليتها بالصفات المحمودة التي تؤهلها لتلقي المعرفة الربانية ، وهي المعرفة الحقيقية^(٣).

السعادة

إن رأى الغزالي في السعادة هو نفس الرأى الذي قال به ابن سينا من قبل ، فهو ينقل رأى ابن سينا في « النجاة »^(٤) و « أحوال النفس الناطقة »^(٥) . يقول الغزالي : « إن لكل قوة نفسانية لذة

(١) الغزالي : الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي . القاهرة : محيى الدين صبرى الكردى ، ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ انظر أيضاً : عبد الحفيظ أحمد علاوى البريزات : نظرية التربية الخلقية عند الإمام الغزالي . عمان : دار الفرقان ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣ - ٣٥ ؛ فكتور سعيد باسيل : منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي . بيروت : دار الكتب اللبنانية (د.ت) ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢) انظر الفصل الثالث ، ص ٦٩ .

(٣) الغزالي : الجواهر الغوالي ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ ، انظر أيضاً : عبد الحفيظ أحمد علاوى البريزات ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٤) النجاة ، ص ٤٧٧ - ٤٨٧ . (٥) أحوال النفس الناطقة ، ص ١٢٧ - ١٣٧ .

وخيراً يخصصها ، وأذى وشراً يخصصها ، مثاله أن لذة الشهوات أن يتأذى إليها من محسوساتها كيفية ملائمة من الحس ، وكذلك لذة الغضب الظفر ، ولذة الوهم الرجاء ، ولذة الحفظ تذكر الأمور الماضية الموافقة ، وأذى كل واحد منها ما يضاده . وتشترك كلها نوعاً من الشركة في أن الشعور بموافقها وملائمتها هو الخير ، واللذة الحاصلة بها وموافق كل واحد منها بالذات والحقيقة هو حصول الكمال الذي هو بالقياس إليه كمال بالفعل ، فهذا أصل . وأيضاً فإن هذه القوى وإن اشتركت في هذه المعاني ، فإن مراتبها في الحقيقة مختلفة . فالذي كماله أفضل وأتم وأدوم وأوصل إليه وأحصل له والذي هو في نفسه أشد إدراكاً كانت اللذة التي له أبلغ وأوفر ، وهذا أصل . « (١) . ثم يقول الغزالي بعد ذلك ناقلاً عن ابن سينا نقلاً يكاد يكون حرفياً : « . . . فإذا تقررت هذه الأصول فنقول : إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن تصير عالماً عقلياً مرتسباً فيه صورة الكل ، والنظام المعقول في الكل ، والخير الفائض في الكل ، مبتدئاً من مبدأ الكل ، وسالماً إلى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة ، ثم الروحانيات المتعلقة نوعاً ما من التعلق بالأبدان ، ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها ، ثم كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله ، فتتقلب عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود كله ، مشاهداً لما هو الحسن المطلق ، والجمال المطلق ، ومتحدّاً به ، ومتعشّاً بمثاله وهيئته ، ومنخرطاً في سلوكه ، وصائراً من جوهره . فإذا قيس هذا بالكمالات المعشوقة التي للقوى الأخرى ، توجد في المرتبة التي يبحث يقبح معها أن يقال إنه أفضل وأتم منها ، بل لا نسبة لها ألينة بوجه من الوجوه فضيلة وتماثاً وكثرة ودواماً . وكيف يقاس الدوام الأبدى بدوام المتغير الفاسد . وكذلك شدة الوصول ، فكيف يكون ما وصوله بملاقة السطوح والأجسام بالقياس إلى ما وصوله بالسريان في جوهر الشيء كأنه هو بلا انفصال ، إذ العقل والمعقول واحد ، أو أقرب من الواحد ، أو قريب من الواحد . وأما أن المدرك في نفسه أكمل فهو أمر لا يخفى ، وأما أنه أشد إدراكاً فأمر أيضاً يكشف عنه أدنى بحث بل كيف يعاير هذا الإدراك بذلك الإدراك ، أو كيف يمكننا أن ننسب اللذة الحسية والبهيمية والغضبية إلى هذه السعادات والذات . ولكننا في عالمنا هذا وأبداننا هذه وانغمارنا في الرذائل لا نحس بتلك اللذة إذا حصل شيء من أسبابها عندنا . . . ولذلك لا نغلبها ولا نحس إليها اللهم إلا أن تكون قد خلعتنا ربة الشهوة والغضب وأخواتها عن أعناقنا . . . » (٢) . ويقول الغزالي في هذا المعنى في كتاب « كيمياء السعادة » : « اعلم أن شقاوة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ما خلق له . فلذة العين في الصورة الحسنة ، ولذة الأذن في الأصوات

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ قارن أقوال الغزالي بأقوال ابن سينا في « أحوال النفس الناطقة » ، ص ١٣٠ - ١٣٢ .

الطبية ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة . ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها . . . وكلما كانت المعرفة أكبر ، كانت اللذة أكبر . . . وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى . . . فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته . . . » (١).

ويذهب الغزالي ، كما ذهب ابن سينا من قبل ، إلى أن سعادة الإنسان في الآخرة ، أو شقاوته إنما يتوقف على مقدار ما بلغتة نفسه الناطقة من كمالها الخاص بها في الحياة الدنيا . فإذا كانت قد بلغت حدًا من الكمال فيمكنها إذا فارقت البدن أن تستكمل الكمال الذي لها أن تبلغه ، وتشعر حينئذ باللذة العظيمة التي ليست من جنس اللذة الحسية والحيوانية ، بل هي ألد من كل لذة وأشرف ، وهذه هي السعادة . أما إذا كانت النفس الناطقة لم تحصل في الحياة الدنيا كمالها الخاص بها بسبب انشغالها بالبدن ، وانغماسها في المكروهات والرذائل ، فإنها إذا فارقت البدن فإنها لا تستطيع أيضًا أن تبلغ كمالها الخاص بها في الحياة الآخرة ، ويسبب ذلك لها الشعور بالألم والشقاء» (٢).

ويذهب الغزالي ، مثلما ذهب كل من مسكويه والفارابي وابن سينا من قبل ، إلى أن السعادة الحقيقية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العمل من العقل ، فيجب أن يكون للعقل العمل السيطرة والاستيلاء على القوى البدنية ، ويجب أن تنقاد إليه القوى الحيوانية وتطاعه . أما إذا انقاد العقل العمل للقوى الحيوانية فإن ذلك « يلهيه ويغفله عن الشوق الذي يخصه ، وعن طلب الكمال الذي له ، أو الشعور بهذه الكمال إن حصل له ، أو الشعور بألم فقد الكمال إن قصر عنه » (٣).

كيف تعين معرفة النفس على معرفة الله

قال الغزالي في خطبة كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » : إن معرفة النفس تعين على معرفة الرب ، كما ذكرنا ذلك من قبل . ويعد أن فصل القول في النفس الإنسانية وقواها ، انتقل إلى شرح كيف نندرج من معرفة النفس إلى معرفة الرب ، فقال : « إنا أثبتنا النفس على الجملة بمعرفة آثارها وأفعالها . فالنفس النباتية عرفناها بآثارها من التغذية والتنمية وتوليد المثل ، والنفس الحيوانية بآثارها من الحس والحركة الاختيارية ، والنفس الإنسانية بالتحريك وإدراك الكليات . وعلمنا أن هذه الأفعال تتعلق بمبدأ ، يُسمى ذلك المبدأ نفسًا ، فيكون قوامها

(١) كيمياء السعادة ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ص ١٥٠ - ١٥١ ؛ قارن أقوال الغزالي بأقوال ابن سينا في « أحوال النفس الناطقة » ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

ووجودها وخاصيتها بذلك المبدأ الذى هو النفس . فكذلك فاعلم أن الموجود على قسمين ، إما أن يتعلق وجوده بغيره بحيث يلزم من عدم ذلك الغير عدمه أو لا يتعلق ، فإن تعلق سميناه يمكننا ، وإن لم يتعلق سميناه واجباً بذاته . فيلزم من هذا فى واجب الوجود معرفة أمور ^(١) . ويذكر الغزالي من هذه الأمور ما يلى :

١- أنه لا يكون عرضاً .

٢- أنه لا يكون جسماً .

(يلاحظ أن الغزالي قد بين أثناء كلامه عن تعريف النفس وإثبات وجودها ^(٢) أنها ليست عرضاً ولا جسماً) .

٣- إنه لا يجوز أن يكون شيئان كل منهما واجب الوجود ، كما أنه لا يكون للبدن الواحد إلا نفس واحدة ، فلا يكون للعالم إلا رب واحد هو مبدع الكل ، ويتعلق به الكل تعلق الوجود والبقاء ^(٣) .

٤- « إن كل ما سوى واجب الوجود ينبغى أن يكون صادراً من واجب الوجود ، كما أن النفس كمال جسم طبيعى آلى ، فكذلك الرب موجد الكل ، وبه كمال الكل ، وبقاء الكل ، وجمال الكل . . . » ^(٤) .

٥- . . . اعلم أنا أثبتنا وجود النفس ، وأنه جوهر ببهان خاصى وبهان تقرىبى المقدمات ، والبرهان الخاص أن النفس لا يعزب ذاته عن ذاته . . وإذا كانت النفس لا يعزب ذاته عن ذاته ، مع أنه ليس بواحد صرف ، فالواحد الحق الذى لا يحوم حول وحدانيته التكثّر والتجزى والتثنى أولى بأن لا يعزب ذاته عن ذاته ، فيكون عالماً بنفسه ، وعالماً بجميع ما أبدعه واختصره وأوجده وكوّنه ، لا تأخذه سنة ولا نوم . وهذا هو معنى الحى ، فإن الحى هو الواحد العالم بذاته . وقد بينّا أن النفس واحد ليس له كمية ومقدار ، فكذلك فاعلم أنه ليس للمبدع الحق سبحانه كمية ومقدار ^(٥) .

٦- إن واجب الوجود عالم بذاته « لا يعزب عنه ذاته ، وعلمه بذاته ليس زائداً عن ذاته حتى يوجب فيه كثرة ، وذلك لأن الإنسان إذا علم نفسه ، فمعلومه أهو غيره ، أو عينه ، فإن كان

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٢) لم نتعرض فى هذا الكتاب لأراء العلماء المسلمين فى إثبات وجود النفس ، لأن هذا الموضوع يخرج الآن عن مبادئ البحث فى علم النفس .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٤) المرجع السابق . (٥) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

غيره فإنه لم يعلم نفسه ، بل علم غيره ، وإن كان معلومه هو عينه ، فالعالم هو نفسه ، والمعلوم هو نفسه ، فقد اتحد العالم والمعلوم ، فكذلك فافهم في الباري جلّ جلاله . وكما أن العالم هو المعلوم ، فكذلك العلم هو المعلوم ، كما أن الحسّ هو المحسوس ؛ لأن المحسوس هو الذى انطبع في الحاس لا الخارج ، فكذلك العلم هو المعلوم ، وإنما تختلف العبارات بالعلم والعالم والمعلوم ، وتبين منه أنه عالم بجميع أنواع الموجودات وأجناسها ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . . » (١).

ثم يمضى الغزالي بعد ذلك في ذكر كثير من الموازنات بين النفس الإنسانية وبين الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله ، لتوضيح كيف تدرج من معرفة النفس الإنسانية وصفاتها وأفعالها إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة أوصافه وأفعاله . غير أنه يستدرك في آخر كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » ويقول : « أعلم أنا وإن تدرجنا إلى معرفة ذاته وصفاته من معرفة النفس ، فذلك على سبيل الاستدلال ، وإلا فالله تعالى منزّه عن جميع صفات المخلوقات . . » (٢) فالله تعالى لا مثال له ، ولا ينبغي أن يظن أن المشاركة في صفة تعنى المماثلة . فالله ليس له كفؤ أحد ، وهو أحد في ذاته وصفاته وأفعاله (٣) .

تعديل السلوك عند الغزالي

بينما كان الغزالي في تناوله لقوى النفس الإنسانية مقلداً وناقلاً عن الفلاسفة السابقين ، وبخاصة ابن سينا ، كما بينا سابقاً في كثير من المواضع ، فإنه كان مجدداً ومبدعاً حينما تناول في كتاب « إحياء علوم الدين » موضوع رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وعلاج أمراض القلب أى النفس ، وإن كان لم يخل أيضاً من التأثير ببعض المفكرين الذين سبقوه مثل مسكويه . لقد أزعج الغزالي ما كان يراه في كثير من الناس في عصره من سوء الأخلاق ، وانحراف السلوك ، وأمراض القلب (النفس) ، فأخذ على عاتقه مهمة القيام بإصلاح الأخلاق ، وعلاج آفات السلوك ، وهي مهمة قد تصدى لها أيضاً مسكويه وابن حزم من قبل ، غير أن الغزالي كان أكثر إسهاماً وأكثر عمقاً ودقة .

قام الغزالي بتحليل دقيق للأخلاق المذمومة الشائعة وحدد أسبابها ، ووصف أساليب ناجحة فعالة في علاجها ، وكان هذا إسهاماً رائعاً منه في موضوع تعديل السلوك ، تميّز بدقته وعمقه عما سبقه من المفكرين المسلمين ، كما أنه سبق به المعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين بحوالى تسعة قرون ، كما ستوضح ذلك فيما بعد .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

وقد كان تناول الغزالي لموضوع تعديل السلوك ، وعلاج أمراض القلوب منظرًا وواضحًا ومقتنعًا ، يدل على عقلية منظمة منظرية ، ودقة في الملاحظة ، وقدرة رائعة في تحليل السلوك ، والغوص في أعماق النفس البشرية ، ومعرفة دقيقة بأحوالها وبطرق تهذيبها وعلاجها . وبدأ الغزالي تناوله لهذا الموضوع بتعريف حسن الخلق ، أى السلوك السوى السليم ، إذ أنه على أساس معرفتنا به ، يمكن معرفة الخلق المذموم ، أى السلوك غير السوى ، أو المنحرف . وبين الغزالي ، كما بين من قبل مسكويه ، أن الأخلاق قابلة للتغيير ، أى أن الأخلاق يمكن أن تكتسب بالتعلم ، ويمكن تغييرها أيضًا بالتعلم . وهذا القول يتفق مع ما يقوله علماء النفس المحدثون من أصحاب نظرية التعلم . غير أن الغزالي لم يغفل أيضًا أهمية دور الورثة ، إذ أنه قد أشار إلى « أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة ، وللشرع أيضًا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما : بوجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين متقادتين للعقل والشرع ، فيصير عالمًا بغير تعليم ، ومؤدبًا بغير تأديب . . الوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعني به حل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد ، مثلاً ، أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود ، وهو بذل المال . فلا يزال يطالب نفسه ويوافظ عليه تكلفًا مجاهدًا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعًا له ، ويتيسر عليه ، فيصير به جوادًا » (١) .

وسوف نتناول فيما يلي تعريف الغزالي للخلق ، ونوضح رأيه في قبول الأخلاق للتغيير ، ونشرح أسلوبه في تهذيب الأخلاق وتعديل السلوك .

تعريف الخلق

يعرف الغزالي الخلق ، كما عرفه مسكويه من قبل ، بأنه « عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سُميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا . وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا . وإننا قلنا : إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ . وإننا اشتطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم » (٢) . ويقول الغزالي : إن

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(١) إحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٥٨ .

« أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ، ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة ، وتحملها على مقتضى الحكمة ، وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب متقادة للعقل في إقدامها وإحجامها . ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع . فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها » ^(١) . ويلاحظ أن الغزالي يستخدم مفهوم الخلق بنفس المعنى تقريباً الذي يستخدم به « جوردون ألبورت » Gordon W. Allport في العصر الحديث مفهوم السمة . فالسمة في رأى ألبورت هي نمط سلوكي عام ودائم نسبياً ، وثابت نسبياً يصدر عن الفرد في مواقف كثيرة ، هي استعداد أو قوة أو دافع داخل الفرد يدفع سلوكه ويوجهه بطريقة معينة . فالشخص الذي يتصف بالكرم ، مثلاً ، يكون دائماً ، في رأى ألبورت ، على استعداد للتصرف بكرم في جميع الظروف والمواقف ^(٢) . ويقرب هذا التعريف كثيراً من تعريف الغزالي للخلق .

قبول الأخلاق للتغيير

رفض الغزالي رأى من يقول إن الأخلاق لا تتغير ، وقال في الرد عليهم : « لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الرصايا والمواظب والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم » ^(٣) . وكيف ينكر هذا في خلق آدمى ، وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ يُنقل البازي من الاستيجاش إلى الأنس . . . والفرس من الجراح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق » ^(٤) .

ويذهب الغزالي إلى أنه ليس المقصود من المجاهدة في رياضة النفوس وتهذيب الأخلاق هو قمع الغرائز الموجودة في أصل جبلته الإنسان كالشهوة والغضب وقهرها كلية ، فإن ذلك غير ممكن ، وليس مقصوداً ، وإنما المقصود من مجاهدتها وتهذيبها هو السيطرة عليهما ووردهما إلى الاعتدال . فالشهوة والغضب ضروريان للإنسان ، ومفيدان له . « فلو انقطعت شهوة الطعام هلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٢) محمد عثمان نجاني : علم النفس والحياة ، مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته في الحياة ، ط ١٣ . الكويت : دار القلم ، ١٩٩١ ، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

(٣) حديث « حسنوا أخلاقكم » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ « يا معاذ حسن خلقك للناس » . انظر : إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، هامش رقم ١ .

(٤) إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

الإنسان عن نفسه ما يهلكه وهلك «^(١). والمطلوب من مجاهدة الشهوة والغضب هو ردهما إلى الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل، ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما، وهو المراد بتغيير الخلق^(٢).

ويشير الغزالي إلى أن الجبلات مختلفة، بعضها سريع القبول للتغيير، وبعضها بطيء القبول. ولذلك سببان: أولهما، قوة الغريزة في أصل الجيلة، فالشهوة، مثلاً، أشد قوة من الغضب، وأعصى على التغيير. وثانيهما، إن الخلق قد يتأكد ويثبت بكثرة العمل بمقتضاه^(٣).

إن ما ذهب إليه الغزالي من أن الأخلاق قابلة للتغيير أمر متفق عليه بين علماء النفس الحديث، وهو الأصل الذي تقوم عليه فلسفة التربية والتعليم والعلاج النفساني.

والاعتدال، الذي هو صفة الخلق الحسن، وسط بين الإفراط والتفريط. فالسخاء، مثلاً، خلق محمود، «وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)^(٤). وقال تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط...»^(٥). وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود. قال الله تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)^(٦). وقال صلى الله عليه وسلم: خير الأمور أوسطها^(٧).

أسلوب الغزالي في تعديل السلوك

يتخذ الغزالي من صحة البدن ومرضه مثلاً يشرح به صحة النفس ومرضها. فيقول: إن صحة البدن في اعتدال مزاجه، ومرض البدن ينشأ عن ميل مزاج البدن عن الاعتدال. وكذلك «إن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض»^(٨). ويتم علاج البدن بمحو العلل عنه والعوارض التي أدخلت باعتدال مزاجه، وكسب الصحة له برؤ مزاجه إلى الاعتدال. وكذلك علاج النفس يتم بمحو الرذائل والأخلاق السيئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الحسنة إليها. «وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعثر المعدة المضرة بعوارض الأخذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه - أي بالاعتدال والتعليم تكتسب الرذائل. وكما أن البدن في الابتداء

(١) المرجع السابق، ص ٥٦ - ٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٧.
(٤) الفرقان: ٦٧.
(٥) الإسراء: ٢٩.
(٦) الأعراف: ٣١.
(٧) إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٥٧.
(٨) المرجع السابق، ص ٦٠.

لا يُخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكَذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . . . وكما أن العلة المغيرة لا اعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكَذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتى تكلفاً^(١).

ويصف الغزالي أسلوبه فى علاج أمراض القلب وصفاً مجملاً ، فيقول : هو « سلوك مسلك المضاد لكل ما تنهوا النفس وتميل إليه . وقد جمع الله ذلك فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة فقال : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى)^(٢) » فعلاج الخلق ، أو السلوك السىء هو ، إذن ، تكلف فعل الخلق أو السلوك الحسن المضاد ، والاستمرار على فعله حتى يصير عادة وطبعاً . وبهذه الطريقة يزول الخلق أو السلوك السىء ، ويحل محله الخلق أو السلوك الحسن .

وإذا كان الخلق المطلوب علاجه متأصلاً ومستقرّاً فى السلوك ، فإن الغزالي ينصح باتّباع طريقة التدريب فى علاجه ، وذلك بأن يُنقل الفرد من الخلق السيئ إلى خلق آخر أخف منه ، ويستمر على هذا النحو حتى يتخلص نهائياً من الخلق السىء المطلوب علاجه فى الأصل . فمثلاً ، من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة ، فليُنقل إلى جاه أخف منه ، ويستمر على هذا النحو حتى يتخلص نهائياً من الجاه . وكذلك الأمر مع سائر الأخلاق السيئة . فإذا رأى ، مثلاً ، « شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهين الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى تقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه »^(٣).

ويلاحظ التشابه الكبير بين أسلوب الغزالي فى استخدام طريقة التدريب فى علاج الخلق السىء ، وبين أسلوب الكندي وأبى بكرى الرازى فى استخدام نفس هذه الطريقة فى علاج الأول للحزن^(٤) ، وفى التخلص الثانى من الهوى والشهوات^(٥) . ويلاحظ أيضاً أن القرآن الكريم قد سبق كلا من الكندي والرازى والغزالي فى استخدام طريقة التدريب فى تعديل السلوك . فقد استخدمه القرآن الكريم فى علاج تعاطى الخمر والربا ، إذ لم يجرهما دفعة واحدة ، بل تدرّج فى ذلك ، فقام

(١) المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١ . والآية المذكورة هى رقم ٤٠ من سورة النازعات .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٤) انظر ص ٣٥-٣٦ . (٥) انظر ص ٤٥-٤٦ .

بنتفير الناس منها بطريقة تدريجية حتى انتهى الأمر بتحريمها تحريماً تاماً^(١). ولم يستخدم المعالجون النفسانيون السلوكيون المحدثون هذه الطريقة في تعديل السلوك إلا في القرن العشرين ، متبعين في ذلك طريقة « التشكيل » التي استخدمها سكينر Skinner في بحوثه في الإشراف الإجرائي . وتتلخص طريقة التشكيل في التكوين التدريجي للاستجابة المطلوب تعلمها عن طريقة التعلم التدريجي . وقد اتبع جوزيف وولبي Joseph Wolpe هذه الطريقة « في علاج الخوف المرتبط بأشياء معينة ، وذلك عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف كالأسترخاء لسلسلة متدرجة من الأشياء المشابهة للشيء الأصلي المثير للخوف ، ولكنها ترتب في نظام متدرج من أقلها إثارة للخوف إلى أكثرها إثارة له ، وبحيث يكون الشيء الأصلي المثير للخوف والمطلوب علاج الفرد من الخوف منه في أعلى هذه السلسلة . ثم يبدأ العلاج بتعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيل الشيء الأدنى في السلسلة حتى يزول الخوف المرتبط به . ثم ينتقل العلاج إلى تعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيل الشيء الثاني في السلسلة والذي يثير قدرًا أكبر من الخوف ، ويستمر العلاج حتى يزول الخوف المرتبط به . وهكذا يستمر العلاج بالتخلص التدريجي من الخوف المرتبط بهذه السلسلة المتدرجة من الأشياء المثيرة للخوف حتى ينتهي العلاج إلى التخلص من الخوف المرتبط بالشيء الذي يوجد في قمة هذه السلسلة ، وهو الذي بدأ العلاج أساسًا للتخلص منه »^(٢).

علاج الكبر كمثال

سنذكر فيما يلي أسلوب الغزالي في علاج الكبر كمثال يبين أسلوبه في علاج الأخلاق السيئة بعامة . يقول الغزالي إن منشأ الكبر هو استحقاق الغير وإزدراؤه واستصغارهم . وقد شرح الرسول صلى الله عليه وسلم معنى الكبر بوصفه بأفتين في قوله : « الكبر بظر الحق وغمض الخلق »^(٣). و بظر الحق ردّه ، وغمض الخلق أى إزدراؤهم واستحقارهم . ووجه الآفة الأولى أن من به كبر إذا سمع الحق من أحد استنكف عن قبوله للترفع والتعظيم واستحقاق غيره حتى يأتى أن ينقاد له . ووجه الآفة الثانية أن الخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه^(٤).

(١) انظر مناقشتنا لهذا الموضوع في كتابنا « القرآن وعلم النفس » ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ - ١٨٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ جوليان روتر : علم النفس الإكلينيكي . ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . ط ٢ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ريتشارد م . شوين : علم الأمراض النفسية والعقلية . ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤٦ - ٨٥٤ .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . انظر : إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، هامش رقم ١ ، ص ٣٤٥ .
(٤) إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ؛ انظر أيضاً : محمد جمال الدين القاسمي دمشقي : موعظة =

ويحلّل الغزالي أسباب الكبر ويحصيها في سبعة أسباب هي (١):

- ١ - العلم . فيفيض العلماء يستشعرون في أنفسهم كمال العلم فيستجمل الناس ويستحقّروهم ، ويتكبر عليهم .
- ٢ - العمل والعبادة . لا يخلو بعض العبّاد من الكبر ، فيظنون أنهم أفضل من غيرهم ، وأكرم على الله تعالى منهم ، ويرى الناس هالكين ، ويرى نفسه ناجيًا . وإذا أساء إليهم أحد أو آذاه ، اعتقد أن الله تعالى سيغضب عليه ، وسوف يؤذيه كرامة له .
- ٣ - الحسب والنسب . فمن له نسب شريف يستحقّر من ليس له ذلك النسب ، وقد يتكبر بعضهم على الناس ، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم .
- ٤ - التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجري بين النساء .
- ٥ - التكبر بالمال ، فيستحقّر الغنى الفقير ويتكبر عليه .
- ٦ - الكبر بالقوة ، فالقوى يتكبر على الضعيف .
- ٧ - التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والأقارب .

أسلوب الغزالي في علاج الكبر (٢)

يتكوّن أسلوب الغزالي في علاج الكبر من عمليتين :

- ١ - الأولى هي قلع شجرته من مغرسها في القلب ، أى استئصال أصله .
- ٢ - والثانية هي دفع العارض منه بأسباب الكبر التي ذكرناها سابقًا .

ففيما يتعلق بالعملية الأولى ، فتتكوّن من شقين ، علمي وعمل ، ولا يتم الشفاء من الكبر إلا بهما معًا . أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى . فإذا عرف نفسه علم أنه لا يليق به إلا التواضع . وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله تعالى . ويكفيه لكي يعرف نفسه أن يعرف معنى آية واحدة من القرآن الكريم وهي : (قتل الإنسان ما أكفره . من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) (٣).

= المؤمنين من إحياء علوم الدين . ج ٢ : القاهرة : محي الدين صبرى الكردى ، ١٣٣١ هـ ، ص ١١٥ (وعند الكتاب مختصر كتاب إحياء علوم الدين) .

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ - ٣٥٣ ؛ انظر أيضًا : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، مرجع سابق ، ص ١١٦ - ١٢٠ .

(٢) إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ - ٣٦٧ ؛ موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ١٢٢ - ١٣٠ .

(٣) عبس : ١٧ - ٢٢ .

فمن كان هذا بدء نشأته من عدم ، وأصل تكوينه من نقطة قدرة ، ونهاية أمره جيفة في القبر ، ثم بعثه يوم القيامة للوقوف ذليلاً أمام ربه للحساب . فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء ؟ فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر . أما العلاج العملي فهو التواضع لله تعالى بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل .

وفيما يتعلق بالعملية الثانية وهي دفع الكبر بالأسباب السبعة التي ذكرناها سابقاً .

١ - فإن من يعتريه الكبر من جهة نسبه فليدأو قلبه بمعرفة نسبه الحقيقي ، وهو تراب ونطفة قدرة . فمن أين تأتيه الرفعة وهذا هو نسبه الحقيقي .

٢ - ومن يتكبر بسبب الجمال فليُنظر إلى باطنه ، ولا ينظر إلى ظاهره . ومن نظر إلى باطنه رأى من القبايح والأقذار ما يبعد عنه تكبره بجمال ظاهره ، ثم إنه سيموت فيصير جيفة .

٣ - والكبر بالقوة علاجه أن يعلم أن العلل والأمراض تجعله أعجز من كل عاجز . ولو أن شوكة دخلت في رجله لأعجزته . . فلا ينبغي أن يفترح بقوته .

٤ ، ٥ - التكبر بالأموال وكثرة المال ، وكثرة الأنبياع والأنصار ، فهو تكبر قبيح ، لأنه تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان ، فلو ذهب ماله ، أو احترقت داره لعاد ذليلاً .

٦ - التكبر بالعلم هو أعظم الآفات ، وعلاجه بأمرين : أحدهما : أن تعلم أن الله تعالى يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل غيره من العالم . فإن عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنابته أفحش ، وخطره أعظم . وثانيهما : أن تعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار عمقوتاً عند الله تعالى ، وهذا مما يزيل التكبر ، ويبحث على التواضع . وعليه أن يتذكر ما سبق من ذنوبه وأخطائه حتى تصغر نفسه في عينه .

٧ - التكبر بالورع والعبادة ، وذلك فتنه عظيمة على العباد . وعلاجه بأن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد .

إن العملية الرئيسية في أسلوب الغزالي في علاج الكبر وسائر الأخلاق السيئة وأمراض القلوب ، هي التخلص من الخلق السيئ عن طريق تعلم الخلق الحسن المحمود المضاد . فإذا كان الفرد يخاف من شيء معين ، فمن الممكن علاجه من هذا الخوف إذا أمكن تعليم الفرد حب هذا الشيء . فإذا ما أحبه ، تخلص من خوفه منه . وقد سبق الغزالي ، كما ذكرنا من قبل ، علماء النفس والمعالجين النفسانيين السلوكيين في العصر الحديث بحول تيسر قرون في استخدام هذا الأسلوب في تعديل السلوك . ولعل أول تجربة سيكولوجية في العصر الحديث استخدم فيها

أسلوب التخلص من سلوك معين بتعلم سلوك مضاد ، هي تجربة ماري كوفر جونز^(١) في عام ١٩٢٤ ، التي عاجلت فيها طفلاً من الخوف . وقد كان العالم النفساني الأمريكي واطسن^(٢) Watson قد أجرى قبل ذلك تجربة علم منها طفلاً الخوف من الفأر ، باستخدام طريقة الإشراف الكلاسيكي لبافلوف . وقد أثبتت ماري كوفر جونز بتجربتها أنه يمكن أيضاً باستخدام طريقة الإشراف الكلاسيكي إزالة خوف الطفل من الشيء الذي تعلم الخوف منه . وتتلخص تجربة ماري جونز في أنها أجرت تجربة إشرافية مماثلة لتجربة واطسن ، علمت فيها طفلاً الخوف من أرنب . ثم أجرت تجربة أخرى قدمت فيها لنفس الطفل الأرنب الذي تعلم الخوف منه وهو موجود في قفص مغلق موجود في مكان بعيد عنه ، بحيث يصبح خوف الطفل منه ضعيفاً بسبب كونه محبوباً في قفص موجود في مكان بعيد عنه . ونظمت التجربة الموقف التجريبي بحيث يكون الانفعال الغالب عند الطفل هو انفعال السرور والحب ، وذلك بأن أجلست بجوار الطفل شخصاً يحبه ويأمن له ، كأمه مثلاً ، وبحيث يتناول الطفل أيضاً غذاءً يحبه . وتكررت التجربة بهذه الصورة عدة أيام ، وكان الأرنب المحبوس في القفص يُقدَّم كل يوم مسافة قليلة نحو الطفل ، حتى أصبح الأرنب في النهاية يوضع على المائدة أمام الطفل دون أن يثير خوفه . وهكذا أثبتت ماري جونز أنه يمكن إزالة خوف الطفل من الأرنب ، عن طريق ربط الأرنب بانفعال مضاد لانفعال الخوف . ثم أخذ المعالجون النفسانيون السلوكيون المحدثون بعد ذلك يستخدمون نفس الأسلوب في علاج بعض اضطرابات السلوك ، مثل الخوف والقلق ، وقد سبق أن ذكرنا أسلوب جوزيف وولبي في علاج الخوف عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف ، وهي الاسترخاء^(٣).

وللاحظ أوجه الشبه والاختلاف بين أسلوب الغزالي وأسلوب ماري جونز والمعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين في تعديل السلوك . ولنأخذ تجربة ماري جونز كمثال نستخدمه في المقارنة بأسلوب الغزالي . ففي تجربة ماري جونز تم إزالة خوف الطفل من الأرنب عن طريق إيجاد ارتباط بطريقة تدريجية بين الأرنب وبين انفعال مضاد لانفعال الخوف ، وهو انفعال السرور ، أو الحب . فخوف الطفل من الأرنب ، إذن ، تمت إزالته بجعل الأرنب يثير في الطفل انفعالاتاً مضادة لانفعال الخوف ، وهذا الأسلوب يشبه الأسلوب الذي استخدمه الغزالي في علاج الخلق السيئ ، وهو

Jones , M.C. The elimination of children's fears. Journal of Experimental Psychology. 1924, 1(1) 383 - 390.

Watson, J.B., and Rayner, R. Conditioned emotional reactions. Journal of Experimental Psychology. 1920, 3 : 1 - 14.

(٣) انظر ص ١٥٩ .

تكوين خلق حسن مضاد للخلق السيئ ، بطريقة تدريجية عن طريق المواظبة والاستمرار في تكلف الخلق الحسن حتى يصبح عادة وطبعاً للفرد . ففي كلا الأسلوبين تمت إزالة السلوك غير المرغوب فيه عن طريق تكوين سلوك مضاد مرغوب فيه . ويختلف أسلوب م . جونز عن أسلوب الغزالي في أن تعلم الطفل عدم الخوف من الأرنب يحدث في التجربة الإشرافية بدون تدخل إرادة الطفل ، أو أية عمليات عقلية معرفية في عملية التعلم ، إذ أن التعلم في التجربة يحدث بطريقة غير إرادية . أما في أسلوب الغزالي فإن تدخل إرادة الفرد وعملياته العقلية والمعرفية في عملية اكتساب الخلق الحسن أمر هام وضروري ، حيث أن المواظبة على الاستمرار في القيام بالخلق الحسن حتى يصبح عادة مستقرة في سلوك الفرد يقتضى إرادة وعزيمة ، وصبراً على المجاهدة في سبيل تحقيق ذلك . ويلاحظ كذلك أن للعمليات العقلية المعرفية في أسلوب الغزالي دوراً هاماً في تعديل السلوك ، حيث أن الفرد يجب أن يعلم مضار الخلق السيئ ، وأهمية وفائدة الخلق الحسن ، وأهمية وضرورة المجاهدة في سبيل تعديل سلوكه . وقد سبق أن ذكرنا من قبل أن علاج الأخلاق السيئة يستلزم ، في رأى الغزالي ، علماً وعملاً ، وأن الشفاء لا يتم إلا بهما معاً . وهكذا نرى أن الغزالي قد سبق بذلك المعالجين النفسانيين السلوكيين المعرفيين المحدثين الذين لم يدخلوا العمليات العقلية المعرفية في العلاج إلا حديثاً جداً .

بعض آراء الغزالي التربوية : رياضة الصبيان وتأديبهم^(١)

رأينا فيما سبق اهتمام الغزالي بإصلاح الأخلاق وتهذيبها ، ولم يكن اهتمامه منصباً فقط على تهذيب أخلاق الشباب والكبار فقط ، وإنما اهتم أيضاً اهتماماً كبيراً بوقاية الأطفال في مرحلة نشوئهم من تعلم الأخلاق السيئة ، كما عُنِيَ برياضتهم وتأديبهم وتعليمهم الأخلاق الفاضلة منذ الصغر . وكان الغزالي يرى أن الطفل ينشأ ونفسه خالية من كل نقش وصورة ، وهي قابلة لكل نقش . فإذا عُوِّدَت على الأخلاق الفاضلة وعُلِّمَتها نشأت عليها ، وإذا عُوِّدَت على الأخلاق السيئة ، وأُهْمِلَ تهذيبها وتأديبها نشأت عليها . فإن الطفل بجوهره خُلِقَ قابلاً للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . ولذلك يصبح من الواجب على الأب أن يصون أطفاله من تعلم الأخلاق السيئة ، وأن يُعْنِيَ بتأديبه وتهذيبه وتعليمه محاسن الأخلاق وقد وضع الغزالي للآباء خطة لتهذيب أطفالهم وتأديبهم ، يمكن أن نلخص معالمها الرئيسية فيما يلي :

١ - حفظ الطفل من الاختلاط بقرناء السوء الذين يمكن أن يتعلم منهم الأخلاق السيئة .

(١) [حياة علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٧٢ - ٧٤ .

٢ - الاهتمام بعدم تعويد الطفل على التمتع والرفاهية ، فيقضى عمره في طلبها ، ولا يستطيع الصبر عن التمتع ، مما قد يسبب له الضرر والهلاك في كِبَره . ويجب أن يعوّد الحشونة في الملبس والمفرش والمطعم .

٣ - تعليم الطفل آداب تناول الطعام ، فلا يكون شرهاً في أكله ، ويُعَلِّم أخذ الطعام بيمينه ، وأن يقول بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يولّى بين اللقم . ويُقَبِّح عنده كثرة الأكل ، ويُجَبِّب عنده القناعة بالطعام الحشن .

٤ - يُعَلِّم الطفل في الكُتَّاب القرآن الكريم ، وقصص الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين .

٥ - تكميم الطفل وإثابته على كل ما يظهره من أخلاق جميلة ، وأفعال محمودة . فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة ، فينبغي أن يُنْغَافِل عنه ، ولا يُتَنَكَّر ستره . فإن عاد إلى ذلك مرة ثانية ، فينبغي أن يُعَاتَب سرّاً ، ويُنْصَح بعدم العودة إلى ذلك مرة أخرى . ولا تكثر عليه بالعتاب في كل حين ، فإن ذلك يهوّن عليه سماع العتاب والمهانة ، ويسقط وقع الكلام من قلبه .

٦ - يجب أن يُعوّد على المشى والحركة والرياضة ، حتى لا يغلب عليه الكسل .

٧ - يمنع عن الافتخار على أقرانه ، ويعود التواضع ، والإكرام لكل من عاشره .

٨ - يُقَبِّح إليه حبّ الذهب والفضة والطمع فيها ، فإن آفة حبّ الذهب والفضة والطمع فيها أضرّ من آفة السموم على الصبيان ، بل على الكبار أيضاً .

٩ - يُمنع اليمين على الإطلاق - صادقاً ، أو كاذباً - حتى لا يعتاد ذلك في الصغر .

١٠ - يُعوّد احترام من هو أكبر منه سنّاً ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويُعَلِّم طاعة الوالدين ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنّاً .

١١ - يمنع لغو الكلام وفحشه ، واللعن والسبّ .

١٢ - ينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر من الصراخ ، والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ، ويُذكر له أن ذلك من دأب الشجعان والرجال .

١٣ - ينبغي أن يؤذّن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الكُتَّاب ، فإن منع الصبي من اللعب ، فإن إرهاقه بالتعلم المستمر يبيت قلبه ، ويُتَّعَص عليه العيش ، ويكرهه في التعلم .

١٤ - وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان .

١٥ - وينبغى أن يخوَّف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والغش .

ويلاحظ أوجه الشبه بين بعض آراء الغزالي في تأديب الصبيان ، وبين بعض الآراء التي قالها مسكويه من قبل في هذا الموضوع . ومن المحتمل أن يكون الغزالي قد اطلع على آراء مسكويه ، ومن المحتمل أيضًا أن يكون كل منهما قد نقل عن مصدر واحد قديم . فقد سبق أن ذكرنا أن مسكويه قال : إنه نقل أكثر منهجه في تأديب الصبيان من كتاب « برويسن » ، فمن المحتمل أن يكون الغزالي قد اطلع أيضًا على هذا الكتاب .

الفصل التاسع

ابن باجه

٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) - ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)

حياته

هو أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجه (بتشديد الجيم ثم هاء ساكنة) ، ومعناها الفضة بلغة فرنج المغرب . ولد في سرقسطة وهي مدينة بالأندلس نحو ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) في الأغلب . وفيها نشأ وقال الشعر ، واستوزره أبو بكر بن ابراهيم وإلى غرناطة ، ثم سرقسطة . وغادر ابن باجه سرقسطة قبل أن تسقط في يد ألفونسو الأول ملك الأرغون عام ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وانتقل إلى أشبيلية ، ثم إلى غرناطة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى فاس بالمغرب حيث يوجد بلاط المرابطين ، ونال حظوة لديهم^(١) ، وتوصل إلى منصب الوزير . وتوفي سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) بمدينة فاس ، ودفن بها^(٢).

كان ابن باجه أول من استهلّ مرحلة التأليف الفلسفي الأصيل في الأندلس . ومع أنه ظهر في الأندلس قبله عدد من العلماء الذين اشتغلوا بالعلوم القديمة ، إلا أن كثيرًا منهم لم يقدم على إثبات شيء من آرائه ، في الأغلب بسبب خشية الأذى الذي يمكن أن يلحق بهم ، أو بسبب تقصيرهم عن فهم غرض الفلاسفة^(٣).

وقد شهد مؤرخو الحياة العقلية عند المسلمين بفضل ابن باجه . يقول ابن أبي أصيبعة عنه : إنه كان علامة زمانه في العلوم الحكمية ، وكان متميزًا في اللغة العربية والأدب ، وحافظًا للقرآن ، وكان متبحرًا في صناعة الطب ، والموسيقى ، والفلك ، وله تعاليق في الهندسة . وكان ثاقب

(١) جمال الدين القفطى ، ص ٢٦٥ ؛ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٦٠٧ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٤٣١ ؛ ابن أبي أصيبعة ، ص ٥١٦ .

(٣) ماجد فخري : رسائل ابن باجه الإلهية . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ .

الذهن ، حسن الفهم لأقاربيل أرسطو ^(١) . ويقول عنه جمال الدين القفطى : إنه « عالم بعلمه الأول ، وهو في الآداب فاضل ، لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره » ^(٢) .

وأقر ابن طفيل بفضل ابن باجه ، فقد قال إنه لم يخلف علماء الطائفة الأولى الذين ظهرُوا في الأندلس من هو « أثقَبَ ذهنًا ولا أصحَ نظرًا ولا أصدقَ رويّةً من أبي بكر بن الصائغ » ^(٣) . وقد تأثر ابن رشد أيضًا بابن باجه ، وأقرّ ابن رشد نفسه بذلك في كتابه « تلخيص كتاب النفس » ، حيث ذكر أن كل ما بيّنه في بحث العقل هو رأى ابن باجه . ولكن في بعض الأحيان كان ابن رشد ينتقد بعض آراء ابن باجه ^(٤) . وقد تأثر أيضًا بابن باجه ألبرت الأكبر من فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين ^(٥) .

عاش ابن باجه في عصر المرابطين ، وهو عصر عرف باضطهاد الفكر وأصحابه . وقد لحق ابن باجه نصيب من هذا الاضطهاد . يقول ابن أبي أصيبعة : إنه « بُلى بمحن كثيرة ، وشناعات من العوام ، وقصدوا هلاكه مرات ، وسلمه الله منهم » ^(٦) . ويقول القفطى : إنه كان يشارك الأطباء في صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسمومًا ^(٧) . وحمل عليه الفتح بن خاقان صاحب « قلائد العقبان » حملة شديدة ، ونسبه إلى التعطيل ومذهب الفلاسفة ، وإنحلال العقيدة ، وضعف الإيمان . ويقول ابن خلكان عن ذلك : « ولقد بالغ ابن خاقان في أمره وجاوز الحد فيما وصفه به من هذه الاعتقادات الفاسدة . . » ^(٨) .

وكان ابن باجه واسع الاطلاع على الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية ، كما كان ملهمًا بآراء الفلاسفة المسلمين المشرقيين مثل الكندي والفارابي والغزالي ، وعلى الأخص الفارابي الذي تأثر به ابن باجه كثيرًا . وكان ابن باجه يشبه الفارابي في ميله إلى حب العزلة وحياة التأمل والنظر العقلي .

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥١٥-٥١٧ .

(٢) جمال الدين القفطى ، ص ٢٦٥ .

(٣) ابن طفيل : حى بن يفظان . تقديم وتحقيق فاروق سعد ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٤ م ، ص ١١٢-١١١ .

(٤) محمد صغير حسن المعصومي . مقدمة « كتاب النفس » لابن باجه . دمشق : مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، ١٩٦٠ م ، ص ٧ .

(٥) هيزى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٤١ ؛ محمد على أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤١ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥١٥ .

(٧) جمال الدين القفطى ، ص ٢٦٥ .

(٨) ابن خلكان ، ص ٤٢٩-٤٣٠ ؛ انظر أيضًا : عمر فروخ : ابن باجة والفلسفة المغربية . بيروت : مكتبة المزيّنة ، ١٩٤٥ ، ص ٢٠ .

وانتقد ابن باجه الغزالي لأنه كان يرى أن « الطريق الصحيح في الوصول إلى الله هو التفكير والتأمل الفلسفي ، لا الأحوال الصوفية وترك التفكير »^(١)، كما كان يرى الغزالي .

مؤلفاته

لابن باجه مؤلفات كثيرة ضاع أغلبها ، ولم يصلنا منها إلا القليل . يقول القفطى : إن له مؤلفات في الرياضيات والمنطق والهندسية^(٢) . ويذكر ابن أبى أصيبعة أن له شروحاً كثيرة على كتب أرسطو وجالينوس ، وكتباً في الطب والهندسة . ومن الكتب التي يذكرها ابن أبى أصيبعة ولها علاقة بالنفس كتاب « اتصال العقل بالإنسان » ، و « قول على القوة النزوعية » ، و « كتاب النفس » ، و « كلام في الفحص عن النفس النزوعية ، وكيف هي ، ولم تنزع ، وبهاذا تنزع »^(٣) .

إن ما وصلنا من مؤلفات ابن باجه قد وصلنا عن طريق تلميذه أبى بكر الحسن على بن عبد العزيز الشهير بابن الإمام ، الذي جمع جميع كتبه في مجلد ضخيم ينقل منه تلاميذه^(٤) . وقد وصلنا أيضاً بعض مؤلفاته التي ترجمت إلى اللاتينية والعبرية . وكثير من مؤلفات ابن باجه المعروفة غير كاملة ، ويقول عنها ابن طفيل وهو معاصر لابن باجه : « وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي غير كاملة ومحرومة من أواخرها ككتابه في النفس ، وتدبير المتوحد ، وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة »^(٥) . وكثير مما وصلنا من مؤلفاته رسائل وتعليقات صغيرة ، وكثير منها بدون عنوان . وسنذكر فيما يلي المنشور من مؤلفاته التي لها علاقة بالنفس^(٦) .

١ - « كتاب النفس » . نشره محمد صغير حسن المعصومي . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٦٠ م وكان قد نشره قبل ذلك في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٣٤) : ٢ ، إبريل ١٩٥٨ وما بعد .

٢ - « رسالة الوداع » . نشرها أسين بلاثيوس في مجلة Al-Andalus ، المجلد الثامن ، سنة ١٩٤٣ من ص ١ - ٨٧ . ونشرها أيضاً ماجد فخرى في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ م .

(١) عمر فروخ : ابن باجه والفلسفة المغربية . بيروت : مكتبة فينة ، ١٩٤٥ ، ص ٣١ .
(٢) جمال الدين القفطى ، ص ١٥٩ . (٣) ابن أبى أصيبعة ، ص ٥١٦ - ٥١٧ .

(٤) محمد صغير حسن المعصومي ، مرجع سابق ، ص ٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥ ؛ انظر أيضاً : ابن طفيل : حنّ بن يقظان ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(٦) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، مرجع سابق ، ص ٦٠٨ ؛ « رسائل فلسفية للكندي والغزالي وابن باجه وابن عدى ، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ - ١٣٢ ؛ جمال الدين العلوى : مؤلفات ابن باجه ، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨٣ م ، ص ٣١ - ٣٩ .

٣- « تدبير المتوحد » . نشره أسين يلاثيوس في مدريد - غرناطة سنة ١٩٤٦ م ^(١) . ونشرها أيضًا عمر فروخ في كتابه « ابن باجه والفلسفة المغربية » ، بيروت ، ١٩٥٢ م . ونشرها ماجد فخرى في كتاب « رسائل ابن باجه الإكلية » المذكور سابقًا . جمع ابن باجه في هذا الكتاب آراءه الفلسفية ، ولكنه لم يتمه .

٤- « اتصال العقل بالإنسان » . نشر هذه الرسالة أسين يلاثيوس في مجلة Al-Andalus ، المجلد السابع ، سنة ١٩٤٢ م من ص ١ - ٤٧ . ثم نشرها أيضًا أحمد فؤاد الأهواني ملحقة بكتاب « تلخيص كتاب النفس لابن رشد . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ١٠٢ - ١٠٨ . ونشرها أيضًا ماجد فخرى في كتاب « رسائل ابن باجه الإكلية » المذكور سابقًا .

٥- « في الغاية الإنسانية » . نشرها ماجد فخرى في كتاب « رسائل ابن باجه الإكلية » المذكور سابقًا .

٦- « الوقوف على العقل الفعال » . نشرها ماجد فخرى في كتاب « رسائل ابن باجه الإكلية » المذكور سابقًا .

٧- « في الفحص عن القوة النزوعية » . نشرها عبد الرحمن بدوي في « رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجه وابن عدى ، ط ٣ . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٣ ، ص ١٤٧ - ١٥٦ .

٨- « ومن قوله في القوة النزوعية » . نشرها عبد الرحمن بدوي في المرجع المذكور سابقًا ، ص ١٥٧ - ١٦٧ . ونشرها أيضًا جمال الدين العلوى في كتاب « رسائل فلسفية لأبي بكر ابن باجه » ، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ١٢١ - ١٣٤ .

٩- « عن النفس النزوعية ، ولم تنزع ، وبماذا تنزع » . نشرها جمال الدين العلوى في كتاب « رسائل فلسفية لأبي بكر بن باجه ، المذكور سابقًا ، ص ١٠٨ - ١٢٠ .

١٠- « في المتحرك » نشرها جمال الدين العلوى في المرجع المذكور سابقًا ، ص ١٣٥ - ١٣٩ . وقد تناول فيها المحرك الأول للحيوان وهو القوة النزوعية ، والمحرك الأول للإنسان وهو النطق الذي تكون به الروية .

النفس وقواها

يعنى ابن باجه بدراسة النفس عناية كبيرة ، وهو يرى أن علم النفس أشرف العلوم جميعها ، وهو مقدمة ضرورية لمعرفة العلوم الأخرى ، ومعرفة الله سبحانه وتعالى . يقول ابن باجه : « والعلم

(١) انظر المرجع السابق .

بالنفس يتقدم سائر العلوم الطبيعية والتعاليم بأنواع الشرف كلها . وأيضاً فإن كل علم مضطرب إلى علم النفس ، فليس يمكننا الوقوف على مبادئ العلوم ما لم نقف على النفس ، ونعلم ما هي . . . وأيضاً فإن من الأمور الدائنة أن من لا يوثق بأنه يعرف حال نفسه فهو أخلق أن لا يوثق به في معرفة غيره . ونحن إن لم نعرف حال أنفسنا ، وما هي ، وإن لم يتبين لنا ما يقال فيها هل قيل على الصواب أم لا يوثق بذلك ، فنحن أخرى أن لا نثق بها يتبين لنا في سائر الأمور . وأيضاً فإن العلم بالنفس يكسب للناظر قوة على أخذ مقدمات لا يكمل العلم الطبيعي دونها . وأما الحكم المدنية فلا يمكن أن يكون القول فيها على نظام قبل المعرفة بأمر النفس . وأيضاً فإن العلم يشرف إما بالوثاقة وهو أن تكون أقاويله يقينية ظاهرة ، وإما بشرف الموضوع وإعجابه كالحال في علم حركات النجوم . وعلم النفس فقد جمع الحالين معاً . وأخلق بعلم النفس أن يكون أشرف العلوم جميعاً ما خلا العلم بالمبدأ الأول . . . وأيضاً فإن العلم بالمبدأ الأول لا يمكن ما لم يتقدم العلم بالنفس والعقل ، وإلا كان معلوماً بوجه أنقص . . » (١).

ويذكرنا قول ابن باجه السابق في أهمية علم النفس وشرفه وبأنه ضروري لمعرفة الله تعالى بما قاله الغزالي من قبل في هذا المعنى (٢).

يعرّف ابن باجه النفس ، كما عرفها أرسطو من قبل ، بأنها «استكمال أولى لجسم طبيعي آلي» (٣). وللنفس عدة قوى هي: الغاذية ، والحساسة ، والتمخيلة ، والناطقة . ويلاحظ ، بصفة عامة ، في وصف ابن باجه لقوى النفس تأثيره الكبير بأرسطو .

القوة الغاذية

القوة الغاذية (أو النفس الغاذية كما يسميها ابن باجه أحياناً ، إذ أنه يسمى قوى النفس أيضاً نفوساً) هي استكمال أول للجسم الآلي المعتدى (٤) . ففي كل الأجسام المنتفسة قوة تكون من الغذاء جسماً شبيهاً بالجسم الذي هي فيه ، لتحل محل ما يتحلل منه ، حتى يبقى ذلك الجسم ، لأنه إن لم يتكون عوض ما يتحلل منه تلف ذلك الجسم (٥) . ولهذا القوة رئيسة تكون في القلب في الحيوان ، ولها خواص جزئية في كل عضو من أعضاء الجسم (٦) . وتعاون القوة الغاذية قوتان هما : القوة النميمة ، والقوة المولدة .

-
- (١) ابن باجه : كتاب النفس . حققه محمد صغير حسن المعصومي . دمشق : مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٦٠ م ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) انظر ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٨٨ - ١٩٠ .
(٣) ابن باجه ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٤) ابن باجه ، المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٢ .
(٥) ابن باجه ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .
(٦) ابن باجه ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

القوة المنمّية

ولما كان لكل من النبات والحيوان نوع من العظم ، أو الحجم خاص به ويكمل به وجوده ، فإن فيه قوة يتحرك بها نحو هذا العظم ، وهذه هي القوة المنمّية . ولذلك فإن القوة الغذائية تكون من الغذاء أكثر مما يحتاج إليه الجسد لتعويض ما يتحلل منه ، ويبقى قدر زائد تحركه القوة المنمّية ليبلغ الجسد مقدار العظم الخاص به . والقوة المنمّية كالصورة للقوة الغذائية ، إذ لا يمكن أن تكون المنمّية دون الغذائية^(١).

القوة المولّدة

ويوجد في النبات والحيوان أيضًا قوة تحرك الغذاء الزائد عن تعويض ما يتحلل من الجسم ، وعما يحتاج إليه الجسم في عملية النمو ، وتكون منه جسيماً (البزير والنتى) يكون له قوة تكوين أفراد من نفس النوع^(٢) ، وذلك بغرض بقاء النوع . وتتعاون هذه القوى الثلاث : الغذائية ، والمنمّية ، والمولّدة ، بحيث تكون الغذائية كاللادة للقوة المنمّية ، وهذه كالتوطئة للقوة المولّدة ، وهذه كالغاية^(٣).

القوة الحساسة

يعرّف ابن باجه الإدراك بصورة عامة بنفس التعريف الذى عرفه به الفلاسفة الذين سبقوه ، وهو أنه قبول المدرك بصورة المدرك . وعلى ذلك ، فالإحساس هو قبول الحاسة لصورة المحسوس ، مجردة عن المادة نوعاً ما من التجريد . ولتجريد الصور المدركة مراتب ، وكل مرتبة يقال لها «نفس» و «قوة نفسانية» . ومن هذه المراتب «الحس» ، ثم «التخيّل» ، ثم «النطق» وهو أقصاها^(٤).

وحيثما يقول ابن باجه إن الحاسة تدرك صورة المحسوس ، فإنه يعنى بذلك أنها تدرك معنى المحسوس . يقول ابن باجه : « فالقوة الحساسة هي الاستعداد الذى فى الحاسة الذى يصير معنى ذلك المدرك . والفرق بين المعنى والصورة أن الصورة تصير مع الهيولى شيئاً واحداً ولا يكون هناك مغايرة . ومعنى المدرك هو صورة منفردة عن المادة . فالمعنى هو الصورة المنفردة عن المادة . فقبول قوة النفس معنى يجب أن يكون قبولاً له وهو معنى ، فالقابل هو معنى ما بالقوة»^(٥). ويقول

(١) كتاب النفس ، ص ٥٦-٥٧ .

(٢) كتاب النفس ، ص ٥٧-٦١ .

(٣) كتاب النفس ، ص ٦١ .

(٤) كتاب النفس ، ص ٧٩ .

(٥) كتاب النفس ، ص ٩٤ .

أيضاً : « ولما كان معنى الشيء هو الشيء ، وكان معنى الشيء هو ما وجوده بالفعل ، ولذلك إذا حصل عندنا معنى شخص ما كان عندنا أن ذلك الشخص قد أدركناه بتلك القوى التي هي لنا » (١).

والنفس الحساسة تحس بالآت خاصة هي أعضاء الحس التي يحس كل منها محسوسات خاصة. وهذه المحسوسات الخاصة بكل حاسة هي التي تثير هذه الحاسة وتحركها نحو الإحساس (٢). والمحسوسات نوعان : محسوسات خاصة بكل حاسة مثل اللون للبصر ، والصوت للسمع ، وهكذا ؛ ومحسوسات مشتركة لا تدركها الحواس الظاهرة ، وإنما يدركها الحس المشترك ، مثل الأطوال والأشكال (٣).

وأشار ابن باجه إلى خطأ الحواس ، وقال : إن الحس قد يخطئ وقد يكذب ، كما يحدث ، مثلاً ، حينما يحس المريض طعم المطعم على غير حقيقته (٤).

وأشار ابن باجه أيضاً إلى الناحية الوجدانية المصاحبة للإحساس ، فقد ذكر ما يصاحب الإحساس من التداد أو تألم ، مثل ما نشعر به من التداد عند رؤية منظر جميل ، أو من تألم عند سماع أغنية محزنة (٥).

البصر

« قوة البصر هي استكمال أول للعين ، وهي النفس الباصرة . وإذا أبصرت صارت بصراً ، وهذا هو اسمها من حيث هي بالكمال الأخير » (٦). وقوة البصر هي القوة الموجودة في العين التي ندرك بها اللون ، ومركزها عند ابن باجه هو الرطوبة الجليدية . ومحسوس البصر هو اللون . ويدرك البصر اللون بتوسط الهواء . ولا يمكن للهواء أن يخدم البصر في إدراكه إلا مع الضوء ، فهو شرط ضروري لإدراك اللون (٧).

السمع

القوة السامعة هي استكمال حاسة السمع ، وهي تدرك الأثر الحادث في الهواء عن تصادم

(١) كتاب النفس ، ص ٩٥ . (٢) كتاب النفس ، ص ٨٠ .

(٣) كتاب النفس ، ص ٩٩-١٠٠ .

(٤) ابن باجه : « تدبير المتوحد » . في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » . حققها وقدم لها ماجد فخري . بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٢ .

(٥) ابن باجه : « رسالة الوداع » . في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٦) كتاب النفس ، ص ١٠٢ . (٧) كتاب النفس ، ص ١٠٢-١٠٩ .

جسمين متقاومين ، وهو الذى يحدث عنه إحساس السمع . فإذا تصادم جسمان اندفع الهواء من بينهما مقروناً بحركة إلى جميع الجهات التى تلى المكان الذى تصادم فيه الجسمان . والمحسوس الأول للسمع هو ذلك الأثر الحادث فى الهواء أو الماء والمقرون بحركة ، وهو الصوت^(١) .

الشَّمِّ

الشَّم هو إدراك معنى المَشوم ، وهو الرائحة التى تحسها حاسة الشَّم الموجودة فى الأنف حينما يستنشق الحيوان ذو الرئة الهواء . ويظهر أن الرائحة تنتقل فى الهواء عن طريق دخان أو بخار ينبعث عن الأشياء ذات الرائحة .

والأشياء ذات الطعوم تكون أيضًا ذات روائح ، ولذلك تعرف طعوم أشياء كثيرة من روائحها . ولذلك كانت هذه الحاسة ضرورية في سلامة المختلى ، وأكثر الحيوان غير الناطق يستعملها في معاشة . وهذه الحاسة ضعيفة في الإنسان ، وقوية في الحيوان لأنه إليها أحوج (٢).

الذوق

حاسة الذوق تحسّ طعموم الأشياء . والطعم يحرّك رطوبة الفم (أى اللعاب) فتقبله على نحو ما يقبل الهواء اللون . وتحرك الرطوبة حاسة الذوق . ورطوبة الفم غير ذات طعم ، لئلا يعوّق طعمها قبول الطعموم المضادة لها . ولذلك يجد المريض الطعموم كلها مرة ، لأن الرطوبة التى فى فمه مرة . والطعم ضرورى للحيوآن فى اغتذائه ، ولذلك لا يوجد منه ما لا يطعم إلا قليل مثل جنس ذوات الأصداف وأسفنج البحر . ويظهر أن هذه تكتفى باللمس فى اغتذائها (٣).

اللميس

اللمس هو القوة على إدراك الملموس . والملموس قد يُظن أنه أصناف كثيرة ، فتكون قوة اللمس أصنافاً كثيرة ، كما قال بذلك من قبل كل من أرسطو وابن سينا ^(٤) . وحاسة اللمس شائعة في البدن كله ، وعضوها هو اللحم ، أو هو متصل باللحم ، وهو أحد ما به قوام اللحم . ويختلف ابن باجه هنا عن أرسطو الذي قال : إن عضو حاسة اللمس هو القلب ، وإن اللحم

(١) كتاب النفس، ص ١١١-١١٢.

(٢) كتاب النفس، ص ١١٥-١١٨.

(٣) كتاب النفس، ص ١٢٠-١٢١.

(٤) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٨٨-٨٩ .

المحيط بالبدن هو مجرد وسط لحاسة اللمس . ويقترب ابن باجه هنا قليلاً من ابن سينا الذى قال إن عضو حاسة اللمس هو اللحم والجلد المحيطان بالبدن والعصب المنتشر فيها^(١). وحاسة اللمس لا يخلو منها حيوان ، والملموسات كلها ترجع إلى الحار والبارد ، والرطب واليابس^(٢).

الحس المشترك

يحس كل من الحواس الخمس الظاهرة محسوساً خاصاً به . ولما كانت هناك محسوسات مشتركة لهذه الحواس الخمس ، كانت هناك قوة حاسة مشتركة تدرك هذه المحسوسات المشتركة . وهذه الحاسة المشتركة تدرك الأحوال الكثيرة للمحسوس ، فتدرك ، مثلاً ، أن للتفاحة طعماً ، ورائحة ، ولوناً ، وحرارة وبرودة ، وتقضى أن كل من هذه غير الآخر^(٣).

وفى الحس المشترك تحفظ آثار المحسوسات بعد غيبتها عن الحواس . ويختلف ابن باجه فى هذه النقطة عن الفارابى وابن سينا اللذين ينسبان عملية حفظ آثار المحسوسات بعد غيابها عن الحواس إلى القوة المصورة التى لا يذكرها ابن باجه ضمن القوى النفسانية .

القوة المتخيلة

إن رسوم المحسوسات الباقية فى الحس المشترك تحرك القوة المتخيلة ، فتدرك هذه الرسوم ، فى غيبة المحسوسات عن الحواس ، فى صورة خيالات . والخيالات هى محاكيات الأشياء المحسوسة . والخيالات فى القوة المتخيلة تظهر الإحساسات فى الحس المشترك . ولكن الخيالات أشد انتزاعاً أو تجريداً عن المادة من الإحساسات^(٤).

والقوة المتخيلة لا توجد فى الإنسان فقط ، بل هى توجد فى أكثر الحيوان غير الناطق ، وليس للحيوان غير الناطق أشرف منها . وبهذه القوة يتحرك الحيوان حركات مختلفة ، وبها تتحرك القوة النزوعية ، وبها يفعل الحيوان كثيراً من الصنائع كالنحل والعنكبوت^(٥).

والقوة المتخيلة يعرض لها أن تصدق وتكذب ، بل هى فى كثير من الأمور كاذبة ، وذلك حينما تركب صوراً من المتخيلات لم يدركها الحس من قبل ، مثل تخيلنا عنراً برأس أبل ، أو برأس فرس ،

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) كتاب النفس ، ص ١٢٢ - ١٢٧ .

(٣) كتاب النفس ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٤) كتاب النفس ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٥) كتاب النفس ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

أو غير ذلك من الأمور المتخيلة . وإذا كانت صادقة فإنها بالضرورة تدرك الأمر بالحال الذي أدركه الحس (١).

القوة المتخيلة لا تتحرك حتى تحركها الإحساسات الموجودة في الحس المشترك . وحينما يكون الحس المشترك مشغولاً بالإحساسات الواردة إليه من الحواس أثناء اليقظة ، فإن القوة المتخيلة لا تفعل ، وتكون بالقوة فقط ، ولكنها تصبح أظهر فعلاً أثناء النوم حينما يكون الحس المشترك بالقوة فقط ، أى غير مشغول باستقبال الإحساسات من الحواس (٢).

وإذا قوى الحس المشترك ، وضعف مزاج الحاسة ، انفعلت الحاسة عن الحس المشترك ، وقبلت منه أثرًا من المحسوسات المحفوظة فيه ، فظهر في الهواء من خارج كالشبح . ثم عاد هذا الأثر الظاهر كالشبح من خارج فحرك الحاسة ، وحركت الحاسة الحس المشترك ، ويصبح الحال كأنها يدرك الإنسان أشياء قائمة في الخارج ، كما يحدث ، مثلاً ، في حالات المهلوسة (٣).

ويلاحظ من وصف ابن باجه لوظائف المتخيلة تأثره الكبير بأرسطو ، وبكل من الفارابي وابن سينا .

قوة الذاكرة

لم يذكر ابن باجه في « كتاب النفس » قوة الذاكرة ، ولكنه ذكرها في كتاب « تدبير المتوحد » في الفصل الخاص بالصور الروحانية ، وهي صور المحسوسات التي توجد في الحس المشترك والقوة المتخيلة ، وهي تقابل في مصطلحاتنا الحديثة الصور الذهنية . قال ابن باجه : « . . الصور الروحانية لها في موضوعاتها مراتب ، هي بها أكثر روحانية وأقل روحانية . والصور التي في الحس المشترك أقل المراتب روحانية ، وهي أقرب الروحانية إلى الجسمانية . ولذلك يعبر عنها بالصنم ، فيقال بأن الحس المشترك فيه صنم المحسوس . ثم إن الصورة التي في الخيالية ، وهي أكثر روحانية وأقل جسمانية . . ثم التي في القوة الذاكرة ، وهي أقصى مراتب الصور الروحانية الخاصة (٤) » . ويقول أيضًا في موضع آخر من نفس الكتاب : « وكذلك يشارك الإنسان الحيوان غير الناطق . . في الحس والتخيّل والذكر ، والأفعال التي توجد عن هذه ، وهي للنفس البهيمة . ويمتاز عن جميع هذه الأصناف بالقوة الفكرية ، وما لا يكون إلا بها . فلذلك يوجد له

(١) كتاب النفس ، ص ١٣٥ .

(٢) كتاب النفس ، ص ١٣٩ .

(٣) كتاب النفس ، ص ١٣٧ .

(٤) تدبير المتوحد ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

التذكر ، ولا يوجد لغيره »^(١). وذكر ابن باجه أيضًا قوة الذكر في موضع آخر من نفس الكتاب أثناء كلامه عن أصناف الصور فذكر منها المعاني الموجودة في قوى النفس ، وهى الموجودة في الحس المشترك ، وفي قوة التخيل ، وفي قوة الذكر^(٢).

لم يتكلم ابن باجه في شيء من التفصيل والإيضاح عن قوة الذكر أو قوة الذاكرة ، ولم يشرح ما هو الفرق بين الذكر والتذكر ، غير أنه يفهم من كون التذكر لا يحدث للحيوان ، وإنما يحدث فقط للإنسان الذى يمتاز بالقوة الفكرية ، ومن كون الذكر يشارك فيه الإنسان الحيوان ، أن الذكر يحدث تلقائيًا دون قصد أو إرادة ، وأن التذكر يحدث عن قصد وإرادة ، وهذا هو رأى كل من أرسطو وابن سينا^(٣).

ويبدو من كلام ابن باجه عن قوة الذكر في المواضع التى ذكرناها سابقًا من كتاب « تدبير المتوحد » أنه كان يلخص رأى أرسطو في كتاب « الحس والمحسوس » ، ولم يكن يعبر عن رأيه الخاص ، وذلك لأنه كان كثيرًا ما يميل إلى هذا الكتاب . فقد قال ، مثلاً ، « وقد تلخص أمر هذه الصور الروحانية الخاصة وأصنافها في « الحس والمحسوس » ، واستقصى القول فيها من جهة ما هى أمور طبيعية . . . وقد يتبين هناك أن الموجود في الحس المشترك هى أحط منازل الروحانية ، ثم الموجودة في قوة التخيل ، ثم الموجودة في قوة الذكر . وأعلاها رتبة وأكملها هو وجودها في القوة الناطقة ، وإن هذه الثلاثة كلها جسمانية »^(٤). ووما يؤيد ذلك أن ابن باجه لم يذكر قوة الذاكرة إطلاقًا في كتاب النفس . فضلاً عن ذلك ، فإنه قال عن القوة المتخيلة في موضع آخر من كتاب « تدبير المتوحد » : « وليس في الحيوان قوة أخرى (يعنى غير القوة المتخيلة)^(٥) تحركها الصور الحاصلة في الحس المشترك ، فإن قو التحرك تنقطع عندها . ولا لها أيضًا إن وجدت جدوى ، فإنها لو وجدت لكانت باطلاً »^(٦). ثم إنه يقول صراحةً في كتاب النفس أثناء كلامه عن القوة المتخيلة : « فيئن أن القوة المتخيلة كمال لجسم طبيعي آلى ، فهى لذًا نفس . ويئن مما قلنا أنه لا يمكن أن توجد قوة أخرى غير هاتين ، أعنى الحس المشترك والقوة الخيالية »^(٧).

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ؛ انظر الفصل الخاص بابن سينا في هذا الكتاب ، ص ١٣٦ .

(٤) تدبير المتوحد ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٥) القوسان من عندنا لتوضيح المعنى .

(٦) تدبير المتوحد ، ص ٨١ .

(٧) كتاب النفس ، ص ١٢١ .

وبناء على ذلك ، فإننا نرجح أن ما ذكره ابن باجه عن قوة الذكر أو الذاكرة في المواضع التي ذكرناها سابقاً من كتاب « تدبير المتوَّجِّد » ، إنها هو تلخيص لأراء أرسطو ، وليس هو رأيه الخاص . ويبدو من مجمل نظرية ابن باجه في قوى النفس أن وظيفة الذكر أو الذاكرة ، إنها تقوم بها القوة المتخيلة ، وليست لها قوة نفسانية خاصة بها .

القوة الناطقة

يشارك الإنسان مع الحيوان في القوى النفسانية التي تكلمنا عنها سابقاً ، غير أنه يتميز عنه بالقوة الناطقة (أو العقل) التي يختص بها وحده دون سائر أنواع الحيوان . والقوة الحساسة ، والقوة المتخيلة يدركان أشخاصاً فقط ، أما الكليات فتدركها القوة الناطقة (١) .

والقوة الناطقة ليست دائماً بالفعل ، لأنه لو كانت كذلك لكان التعليم تذكراً ، ولكان التعلم غير مفتقر إلى الحس ، ولكان إذا نقصتنا حاسة من الحواس لم ينقصنا علم من العلوم ، والأمر بخلاف ذلك (٢) . فالقوة الناطقة تكون تارة بالقوة ، وتارة بالفعل ، والذي يخرجها من القوة إلى الفعل المعلومات التي تكتسبها النفس عن طريق المحسوسات ، والتي ترتسم رسومها في القوة المتخيلة . وتقوم القوة الناطقة بالنظر ببصيرتها في هذه المتخيلات ، فتدرك فيها المعاني الكلية ، أي المعقولات ، بمساعدة إشراق العقل الفعال (٣) .

وللعقل الإنساني عند ابن باجه قيمة كبيرة ، فهو يرى أن الإنسان يستطيع أن يعرف بعقله كل شئ في الوجود ، وأن يعرف نفسه ، وأن يعرف العقل الفعال . وقد بين ابن باجه في كتاب « تدبير المتوَّجِّد » مراحل الطريق الذي يوصل إلى الاتصال بالعقل الفعَّال ، ولكن هذا الطريق ليس طريق الرياضة الصوفية ، وإنما هو طريق النظر العقلي واستخدام الروية (٤) . وتستطيع أن نلاحظ بوضوح تأثير ابن باجه في تفكير ابن طفيل ، فإن مغزى قصته « حَيَّ بن يقظان » التي سنتناولها فيما بعد ، إنها هو بيان كيف أن العقل الإنساني يستطيع وحده ، وبدون تعليم من أحد ، أن يعرف جميع الوجودات في العالم ، وأن يعرف نفسه ، وأن يعرف الله تعالى .

ويتميَّز ابن باجه بين نوعين من « الصور المعقولة » : أحدهما هو « الصور المعقولة » الموجودة

(١) كتاب النفس ، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٢) كتاب النفس ، ص ١٤٥ .

(٣) محمد عل أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ ؛ عمر فروخ ؛ تاريخ الفكر العربي ، مرجع سابق ، ص ٦١٣ .

(٤) محمد عل أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

في مادة ، والتي يدركها الإنسان بعد تجريدها عن المادة . والثاني هو « الصور المعقولة » المفارقة في جوهرها للمادة ، وهذه يدركها الإنسان كما هي مجردة عن المادة . ويرى ابن باجه أن إدراك الإنسان للنوع الأول من الصور المعقولة يقود ، في نهاية الأمر ، في ظروف معينة من التدبير ، إلى إيجاد حالة من إدراك الصور المعقولة تماثل إدراك النوع الثاني^(١) ، كما سيتضح ذلك من الفقرة التالية .

والصور المعقولة من النوع الأول تسمى بالمعقولات الهيولانية^(٢) ، وهي توجد في عقل الإنسان بالقوة ، وإذا عقلها الإنسان تصبح معقولات بالفعل ، والذي يخرجها من القوة إلى الفعل هو العقل الفعال . وهذه المعقولات بالقوة ، عندما تجرد من الهيولى ، تصبح معقولات بالفعل ، وتصبح موضوعات للتفكير ، تضمحل علاقاتها بالهيولى التي جردت منها ، ويصبح وجودها وجود صور خالصة غير متعلقة مطلقاً بهيولى ، أي تصبح عقلاً بالفعل ، وهذا هو المقصود بالعقل المستفاد ، أي العقل المنبثق من العقل الفعال^(٣) .

أما فيما يتعلق « بالصور المعقولة » المفارقة التي لم تكن متعلقة أبداً بعبادة ، فإن العقل الإنساني يعقلها كما هي في ذاتها ، من حيث هي معقولات بحتة لا مادية ، وهي لا تتحول ، أو تتبدل عندما يعقلها الإنسان . « وكما أن العقل المستفاد هو صورة للعقل بالفعل ، كذلك تصبح هذه الصور المعقولة صوراً للعقل المستفاد ، وهذا بنفسه ، هو ، بدوره ، قوام لهذه الصور كما أنه ، أيضاً ، صورة للعقل بالفعل ، الذي هو قوام للعقل المستفاد »^(٤) .

ويرى ابن باجه أن جميع الصور الموجودة في العالم « مرتبطة بعبادة محسوسة موجودة في العقل الفعال بصورة معقولة مفارقة ، مثل وجودها في الإنسان في العقل بالفعل »^(٥) . فعند « ابن باجه ، إذن ، مستوى مثالي أولى لصور المحسوسات ، وذلك في العقل بالفعل ، ثم مستوى مثالي ثانٍ لهذه الصور في العقل الفعال . وهكذا يظهر أثر نظرية أفلاطون المثالية عند ابن باجه »^(٦) .

القوة النزعية

بالإضافة إلى القوى النفسانية التي ذكرناها سابقاً ، فهناك قوة نفسانية تحرك الحيوان والإنسان

(١) هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦ .

(٢) المعقولات الهيولانية هي المعقولات التي توجد في مادة ويمكن تجريدها عنها .

(٣) هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦-٣٤٧ ؛ محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٤ .

(٤) هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٥) محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٥ ؛ انظر أيضاً هذا المعنى عند هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٦) محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٥ .

نحو الأشياء التي يجيها ، ويعيدًا عن الأشياء التي يكرها . هذه القوة هي القوة النزوعية ، أو النفس النزوعية . يقول ابن باجه : « إن المحرك الأول للحيوان هو النفس النزوعية ، وهي صنفان متقابلان (لهما فعلان متقابلان) . أحدهما لا اسم لجنسه فلنسمه على الإطلاق المحبة . ومنها يكون الطلب والانبساط . وفي هذا الجنس تدخل الشهوة الغذائية والغضب وسائر الأصناف الأخر . والصنف الثاني الكراهية ، وبها يكون الهرب ، أو الترك ، وفيها يدخل الخوف والسأم والملاذ وما جأنسه » ^(١) . وتقابل « المحبة » القوة الشهوانية عند الفارابي وابن سينا . وتقابل « الكراهية القوة الغضبية عندهما . ويبدو من الغريب لأول وهلة أن يدخل ابن باجه الغضب تحت قسم « المحبة » من القوة النزوعية ، بدلاً من أن يدخله في قسم الكراهية . ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن في الغضب نوعاً من الطلب نحو الغلبة ، بينما الكراهية تؤدي إلى الهرب ، أو الترك ، وهو أمر لا يتفق مع طبيعة الغضب .

والسبب الذي يترك النفس النزوعية هو القوة المتخيلة في الحيوان وكذلك في الإنسان إذا كانت حركته حيوانية . أما الإنسان ، من حيث هو إنسان ، فإن المحرك الأول له هو الرأي ، صواباً كان أم خطأ . « فإذا تقدم الرأي تحركت الخيالية لتدرك ما أوجه الرأي ، وأحضر الحس المشترك صمم ذلك الرأي ، وحضر الاشتياق ، وتحرك الجسد » ^(٢) . فالحركة لا تحدث إلا بعد تشويق . « والتشويق يقع بخيال وبالفكر . وليس للحيوان غير الناطق غير تشويق الخيال ، وهو أقصى مراتبه . أما التشويق الفكري ، وهو تشويق الصواب ، فإنها هي للإنسان خاصة . وقد يتقابل هذان الشوقان » ^(٣) ، أي قد يتعارضان .

نظرية المعرفة

إن المعرفة عند ابن باجه تبدأ من الحس الذي يدرك صور الموجودات المحسوسة ، ويحفظ صورها في الحس المشترك بعد غيبة المحسوسات عن الحواس ، ثم يؤديها إلى القوة التخيلية ، حيث يقوم العقل بإدراك المعاني الكلية منها ، كما شرحنا ذلك سابقاً أثناء كلامنا عن القوة الناطقة . وهذا هو الطريق الذي يسلكه عامة الناس ، وكذلك الفلاسفة والعلماء ببحوثهم النظرية . فطريق

(١) ابن باجه : رسالة « في المتحرك » ، في كتاب « رسائل فلسفية لأبي بكر من باجه - نصوص فلسفية غير منشورة » . تحقيق وتعليق جمال الدين العلوي . بيروت : دار الثقافة ، (د . ت) ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) ابن باجه : رسالة « قول يتلو رسالة الوداع » . في كتاب : « رسائل ابن باجه الإكلية » ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(٣) ابن باجه : رسالة « الوداع » ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

المعرفة عند ابن باجه ، طريق صاعد من الحس إلى العقل . والإحساس مرحلة أولية ضرورية للتفكير والنظر العقل ، فإن ما لم نحس به ، أو ما لم نحس بشيء يشبهه أو يقوم مقامه ، لا نستطيع أن نتخيله ، ولا أن نفكر فيه . وإذا نقصتنا حاسة من الحواس نقصنا بالضرورة علم من العلوم^(١).

وينتقد ابن باجه الغزالي لاهتماده في المعرفة على النور الذي يقذفه الله تعالى في القلب ، أى الكشف الصوفى ، وهو يرى ، على خلاف الغزالي ، أن النظر العقلى هو وحده الذى يوصل إلى معرفة الحقيقة^(٢) ، وهو الذى يقود الإنسان إلى معرفة نفسه ومعرفة العقل الفعال^(٣) . ويلاحظ من ذلك تأثر ابن باجه بأرسطو ، كما يلاحظ أيضاً أن ابن طفيل وابن رشد قد سارا في نفس هذا الاتجاه .

وبالرغم من نقد ابن باجه للغزالي ولطريق الصوفية في المعرفة ، فإنه أشار في كتاب « تدبير المتوحد » إلى أن المراحل الأخيرة في ترقى الإنسان الفكرى والروحانى « ليست إنسانية بالكلية ، وإنما يتم استكمال هذه النعمة بنور يقذفه الله في صدور من يختارهم ، وهو شبيه بالنور الذى يصفه الغزالي بأنه : مفتاح أكثر المعارف »^(٤) . وقال ابن باجه أيضاً في رسالة « اتصال العقل بالإنسان » : « . . فمن أطاع الله وعمل ما يرضاه أثابه بهذا العقل وجعل له نوراً بين يديه يمتدى به . ومن عصاه وعمل ما لا يرضاه حجب عنه ، فبقى في ظلمات الجهالة مطبقة عليه ، حتى يفارق الجسد محجوباً عنه سائراً في سخطه . وذلك مراتب لا تدرك بالفكرة ، ولذلك تسمى الله العلم بها بالشرعية . ومن جعل له هذا العقل ، فإذا فارق البدن بقى نوراً من الأنوار يسبح الله ويقدسه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً »^(٥) . وهكذا نرى أن ابن باجه قد اتجه إلى التصوف بعد أن كان يتنكر له ، فقال بالإشراق الإلهى على العقل البشرى في مراحلها العليا ، غير أنه جعل هذا الإشراق الإلهى ، مثل ابن طفيل من بعده ، مقصوداً على الفلاسفة ومن يصطفيه الله تعالى من عباده^(٦).

السعادة

السعادة عند ابن باجه شبيهة بالسعادة عند الفارابى وابن سينا ، فهو يرى مثلها أن النظر

-
- (١) كتاب النفس ، ص ١٤٥ ، انظر أيضاً عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٦١٣ .
 (٢) عمر فروخ : ابن باجه والفلسفة المغربية ، مرجع سابق ، ص ٣٩ ؛ دى بور ، مرجع سابق ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .
 (٣) هنرى كوربان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .
 (٤) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٦١ .
 (٥) رسالة « اتصال العقل بالإنسان » ، في مجموعه « رسائل ابن باجه الإلهية » ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ .
 (٦) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٦١ .

العقل هو الطريق الذى يبلغ به الإنسان كماله الطبيعى ، ويتحقق له به السعادة العظمى . إن غرض التفكير الفلسفى عند ابن باجه ، يائثل غرضه عن الفارابى وابن سينا ، هو اتصال ، أو اتحاد العقل البشرى بالعقل الفعّال ، ويصبح حينئذ جزءاً من العالم العقلى ، ويتحقق له به السعادة العظمى . ولكن ذلك لا يتيسر إلّا لذوى الفطر الفائقة ^(١) . وقد انتقد ابن باجه الصوفية فقال : « يزعم الصوفية أن إدراك السعادة القصوى قد تكون بلا تعلم ، بل بالتفريغ ، وبأن لا يخلو طرفة عين عن ذكر المطلق . . . وذلك كله ظنون . . . » ^(٢) وانتقد ابن باجه أيضاً الغزلى الذى كان يرى « أن العالم العقلى لا ينكشف للإنسان إلّا بالخلوة ، فبرى الأنوار الإلهية ويلتذ بها لذة كبيرة . ويقول ابن باجه : إن الغزلى حسب الأمر هيناً حينما ظن أن السعادة إنما تحصل للمرء عن طريق امتلاكه للحقيقة بنور يقذفه الله فى القلب . بل الحق أن النظر العقل الخالص الذى لا تشوبه لذة حسية هو وحده الموصول إلى مشاهدة الله . أما المعرفة الصوفية بها تنطوى عليه من صور حسية فإنها تكون عائقاً عن الوصول إلى معرفة الله ، إذ هى تحجب وجه الحقيقة » ^(٣) . غير أن ابن باجه ، كما ذكرنا سابقاً أثناء كلامنا عن نظريته فى المعرفة ، قد انجبه أخيراً إلى التصوف بعد أن كان ينتقده ، وقال بالإشراق الإلهى على العقل البشرى الذى يتحقق به للإنسان السعادة العظمى .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٨-٣٥٩ .

(٢) « تدبير المتوحد » ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(٣) محمد على أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤١ .

الفصل العاشر

ابن طفيل

(أوائل القرن السادس الهجري - ٥٨٠ هـ / ١١٨٥ م)

حياته

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي ، ولد في وادي آشن من إقليم غرناطة في أوائل القرن السادس الهجري الموافق العقد الأول من القرن الثاني عشر الميلادي . ونحن لا نعرف عن نشأته وثقافته ونشاطه العلمي إلا القليل . يقول عنه ابن خلكان : إنه « كان متحققاً لجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه وغيره . ولابن الطفيل هذا تصانيف كثيرة ، وكان حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة ، وكان مفتناً ^(١) . وكان ابن طفيل عالماً واسع الاطلاع ، وطبيباً ، ورياضياً ، ومنجماً ، وفيلسوفاً ، وشاعراً . وعمل حاجباً (وزيراً) لحاكم غرناطة ، ثم انتقل في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) إلى بلاط الموحدين بإفريقية وعُيِّن كاتباً لرسر الأمير أبي سعيد بن عبد المؤمن حاكم سبتة وطنجة ، ثم أصبح صديقاً حميماً ثم وزيراً وطبيباً لأبي يعقوب يوسف ثاني الخلفاء الموحدين ، وذلك في عام ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) ^(٢) . وكان ابن طفيل يجمع العلماء لأبي يعقوب يوسف من جميع الأقطار ، وكان بمن جمعهم إليه أبو الوليد بن رشد ، الذي عهد إليه ، بناءً على رغبة الخليفة شرح كتب أرسطو . وفي سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ - ١١٨٣ م) اعتزل ابن طفيل منصبه في بلاط السلطان أبي يعقوب يوسف ، وخلفه فيه تلميذه ابن رشد . وتوفي ابن طفيل في مراكش سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٥ م) ، ودفن بها .

عرف المدرسون اللاتينيون ابن طفيل من خلال نقد ابن رشد لكتابه في النفس الذي فقد ولم

(١) ابن خلكان ، جـ ٧ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ ؛ ابن طفيل : حق بن يقطان . تقديم وتحقيق فاروق سعد . بيروت : دار الأفاق الجديدة ، ١٩٧٤ م . انظر المقدمة لفاروق سعد ، ص ٧ (منشور إلى هذا المرجع فيما بعد بذكر عنوانه « حق بن يقطان » فقط) .

يصلنا . وقد انتقد ابن رشد رأى ابن طفيل في توحيده بين العقل الهولاني والقوة المتخيلة ، إذ أنه كان يرى أن القوة المتخيلة يمكنها بعد طول الممارسة أن تعقل المعقولات ، دون حاجة إلى افتراض عقل آخر غيرها (١).

وقد انتقد ابن طفيل الفارابي وقال عنه : إن كتبه كثيرة الشكوك والاضطراب . . فقد قال في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » : إن النفوس الشريرة تخلد في العذاب ، ثم قال في كتاب « السياسة المدنية » : إنها منحلة وصائلة إلى العدم . وكان يصفه أيضًا بسوء المعتقد في النبوة ، لأنه جعلها من وظائف القوة المتخيلة ، وفصل الفلسفة عليها (٢).

وبالرغم من أن ابن طفيل قد أشاد بفضل ابن باجه ، كما ذكرنا ذلك سابقًا أثناء كلامنا عنه ، إلا أنه قد انتقده أيضًا فقال : إن انشغاله بالدنيا ، وحته على جمع المال صرفه عن مواصلة المعرفة والوصول فيها إلى المراتب العليا . « ولذلك وصل ابن باجه إلى رتبة أهل النظر فقط ، وصل إلى رتبة ينتهي إليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري ، ولم يتخطها . إنها المرحلة الأولى وليست الأخيرة ، وهذه المرحلة الأخيرة هي مرحلة أهل الولاية - هي كل هم ابن طفيل » (٣).

وأشاد ابن طفيل بالغزالي فقال عنه : « أدبته المعارف ، وحذقته العلوم » (٤). وقال عنه أيضًا : « ولاشك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ، ووصل إلى تلك المراحل الشريفة » (٥). ولكنه مع ذلك ، فقد انتقد الغزالي « بأن مخاطبته للجمهور جعلته مضطربًا ، يربط في محل ما يحله في محل آخر ، ويكفر في أشياء يحلها في موضع آخر » (٦).

مؤلفاته

يذكر لابن طفيل عدد من المؤلفات في الطب ، والفلك ، والفلسفة ، وله كتاب في « النفس » ، غير أنه لم يصلنا من مؤلفاته إلا قصة « حَيّ بن يقظان » ، وهي قصة فلسفية صوفية ، اشتهر بها ابن طفيل شهرة كبيرة . وقد ترجمت هذه القصة إلى العربية في القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم ترجمت إلى اللاتينية في القرن السابع عشر الميلادي ، ثم ترجمت إلى الإنجليزية ، والهولندية ،

(١) هنري كوربان : مرجع سابق ، ص ٣٥٢ ؛ محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .

(٢) عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ورسالة حَيّ بن يقظان ، ط ٣ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٥ ، ص ٧٩ ؛ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، مرجع سابق ، ص ٦٢٧-٦٢٨ .

(٣) عبد الحليم محمود : مرجع سابق ، ص ٢٠ ؛ حَيّ بن يقظان ، ص ١٠٧ .

(٤) حَيّ بن يقظان ، ص ١٠٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١١٣ ؛ مصطفى غالب : ابن طفيل : بيروت . دار مكتبة الهلال ، ١٩٧٩ ، ص ٤٢ .

الحقائق العقلية العليا والأفلاك السماوية ، وعلّة العلل وهو العقل الفعّال ^(١) . ويلاحظ أن هناك خيطاً مشتركاً بين القصتين ، وهو أن الإنسان يصل إلى المعرفة بالحقائق العقلية والروحية العليا بفضل هداية العقل الفعّال ، إلّا أن مضمون القصتين مختلف .

ولابن سينا قصة أخرى بعنوان « سلامان وأيسال » لم يصلنا نصها ، ولكن وجد ملخص لها مازال مخطوطاً . يرمز ابن سينا في هذه القصة إلى الصراع بين « النفس الناطقة » بقسميها النظري والعمل ، وبين « النفس التزوعية » بقوتها الشهوانية والغضبية ^(٢) . ويلاحظ أن ابن طفيل قد استخدم في قصته اسمي « سلامان » و « أيسال » اللذين استخدمهما ابن سينا في قصته ، غير أن مضمون القصتين ، والمعاني التي يرمز إليها هذان الاسمان في القصتين مختلفة .

وتوجد أيضاً قصتان قديمتان باسم « سلامان وأيسال » . أحدهما ترجمها حنين بن إسحق عن اليونانية ، والأخرى لابن الأعرابي رواها في كتاب « النوادر » ^(٣) ، ولكن لا صلة بين هاتين القصتين وقصة ابن طفيل .

وللسهروردي ، وهو معاصر لابن طفيل ، قصة بعنوان « حَيّ بن يقظان » . وهي أيضاً قصة رمزية ، ترمز إلى الصراع بين العقل ، وبين الشهوات والغرائز التي تطلب ملذات الحياة الدنيا ، وإلى أن الإنسان يجد الهداية والنجاة في الشريعة وفي الحكمة المشرقية اللتين تؤديان به إلى معرفة الحق ، والاتصال بالله تعالى . ويرى أحمد أمين أن حَيّ بن يقظان عند السهروردي يمثل الإنسان الذي اكتمل عقله وأراد أن يصل عن طريق الكشف والذوق إلى معرفة ربه ، ثم وصل إلى ذلك بعد طول عناء ^(٤) .

ولعبد الرحمن جامي قصة شعرية بعنوان « سلامان وأيسال » ، وهي قصة رمزية مثل قصتي ابن سينا وابن طفيل ، ويماثل موضوعها موضوع القصة اليونانية التي ترجمها حنين بن إسحاق ، والتي أشرنا إليها سابقاً ^(٥) .

ولقد كانت لأراء ابن طفيل الفلسفية في قصة حَيّ بن يقظان تأثير كبير في التفكير الأوروبي بعد ترجمتها إلى كثير من اللغات الأوروبية . ونحن نستطيع أن نتتبع هذا التأثير عند كل من البرتوس

(١) حَيّ بن يقظان ، ص ٢١-٢٢ ؛ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، مرجع سابق ، ص ٦٦٦ .

(٢) حَيّ بن يقظان ، ص ٢٢-٢٤ .

(٣) حَيّ بن يقظان ، ص ٢٤-٢٥ .

(٤) أحمد أمين : حَيّ بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي ، ط ٣ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦ م ،

ص ٣٧-٣٨ ، عن حَيّ بن يقظان ، تقديم وتحقيق فاروق سعد ، ص ٣٤ .

(٥) حَيّ بن يقظان ، ص ٣٤ .

ماغنوس (١٢٠٦ - ١٢٨٠ م) ، توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) ، سبينوزا (١٦٨٨ م) ، دانتييل دي فو (١٦٦٠ - ١٧٣١ م) ، جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) ^(١).

النفس

إن النفس في الحيوان والإنسان ، عند ابن طفيل ، هي روح حيواني مركزه الأساسي في القلب ، وهو سبب حياة الحيوان والإنسان وأفعالها المختلفة . وينبعث الروح الحيواني عن طريق الأعصاب من القلب إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى جميع أعضاء الجسم ، وهو الذي به تتم جميع أفعال أعضاء الجسم ^(٢).

« ذلك الروح الحيواني واحد ، وإذا عمل بآلة العين كان فعله إبصارًا ، وإذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعًا ، وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شمًا ، وإذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقًا ، وإذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسًا ، وإذا عمل بالعضد كان فعله حركة ، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً » ^(٣) . ومع أن أعضاء الإنسان المختلفة يقوم كل منها بفعل خاص يختلف عن غيره ، إلا أن أفعالها جميعًا تصدر عن روح واحد ، هو حقيقة الذات ، وسائر الأعضاء كلها كالألات ^(٤).

ولما كانت سائر أجسام الجيادات والحياء مركبة من معنى الجسمية ، ومن معنى زائد على الجسمية هو الصورة ، « فإن الروح الحيواني الذي مسكنه القلب . . لابد له أيضًا من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة التي تختص به من ضروب الإحساسات ، وفنون الإدراكات ، وأصناف الحركات ، وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي انفصل به عن سائر الأجسام ، وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية . وكذلك أيضًا الشيء الذي يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان ^(٥) ، شيء يخصه هو صورته ، وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس النباتية » ^(٦).

النفس النباتية

للنفس النباتية وظائف أساسية تشترك فيها جميع أنواع النباتات على اختلافها ، وهي :

- (١) عمر فروخ : ابن طفيل وقصة حنّ بن يقطان . بيروت : مطبعة النجمة ، ١٩٤٦ م ، عن : حنّ بن يقطان ، تقديم وتحقيق فاروق سعد ، ص ٨٦ .
- (٢) حنّ بن يقطان ، ص ١٤٥ .
- (٣) حنّ بن يقطان ، ص ١٤٤ .
- (٤) حنّ بن يقطان ، ص ١٤٩ .
- (٥) يعني به الروح الحيواني .
- (٦) حنّ بن يقطان ، ص ١٥٧ .

التغذّي والنمو ^(١). والتغذّي هو أن يحيل المتغذّي ، المادة التي يتغذى بها ، إلى مادة شبيهة بجوهره لتحل محل ما يتحلل منه . والنمو هو الزيادة في الأقطار الثلاثة على نسبة محفوظة في الطول والعرض والعمق ^(٢).

« وهذان الفعلان عامان للنبات والحيوان ، وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما ، وهي المُعَبَّر عنها بالنفس النباتية » ^(٣).

النفس الحيوانية

تقوم النفس الحيوانية أيضًا بالأفعال الخاصة بالنفس النباتية ، وهي الاعتناء والنمو ، وتزيد عليها أفعال الحس والإدراك والحركة الإرادية ^(٤).

القوة الحاسة

يدرك الحيوان والإنسان المحسوسات بالحواس الخمس الظاهرة ، وهي : السمع ، وهو يدرك « المسموعات » ، وهي ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام ، والبصر إنها يدرك الألوان ، والشم يدرك الروائح ، والذوق يدرك الطعوم ، واللمس يدرك الأمزجة والصلابة واللين ، والخشونة والملاسه ^(٥).

القوة الخيالية

القوة الخيالية هي القوة التي تستحضر صور المحسوسات بعد غيبتها عن الحواس ^(٦).

القوة النزوعية

يشبه الإنسان سائر أنواع الحيوان ببذنه الذي يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ^(٧). فالإنسان يشعر بنزوع ، أي بدافعية ، توجهه إلى سد حاجات بدنية مما تدعو إليه الضرورة في بقاءه. وهذه أمرا « أحدهما ما يمدده من داخل ، ويخلف عليه بدل ما يتحلل منه ، وهو الغذاء . والآخر : ما يقبه من خارج ، ويدفع عنه وجوه الأذى : من البرد والحرّ والمطر ولفح الشمس

(١) حنّ بن يقطان ، ص ١٥٠ - ١٥١ .
 (٢) حنّ بن يقطان ، ص ١٥٩ .
 (٣) حنّ بن يقطان ، ص ١٥٩ .
 (٤) حنّ بن يقطان ، ص ١٥١ .
 (٥) حنّ بن يقطان ، ص ١٧٨ .
 (٦) حنّ بن يقطان ، ص ١٧٢ .
 (٧) حنّ بن يقطان ، ص ١٩٠ .

والحيوانات المؤذية ونحو ذلك» (١). ويشير ابن طفيل بذلك إلى حاجات البدن الأساسية التي تثير نزوع الإنسان، أي دافعيته، للقيام بإشباع هذه الحاجات لحفظ حياته وبقاء نوعه.

النفس الناطقة

النفس الناطقة أو القوة الناطقة هي التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوان، وهي القوة التي «تصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتقتنص منها المعنى الكلي» (٢). وهذه القوة الناطقة هي التي بها يدرك الإنسان وجود خالق لهذا العالم البديع الصنع. وهذه القوة «أمر رباني إلى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد، ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام، ولا يدرك بشيء من الحواس، ولا يُتخيل، ولا يتوصل إلى معرفته بآلة سواه، بل يُتوصل إليه به، فهو العارف والمعروف والمعرفة، وهو العالم والمعلوم والعلم» (٣).

نظرية المعرفة

يتضح لنا من قصة حنّ بن يقظان لابن طفيل أن للمعرفة طريقين، أحدهما طريق صاعد من الحس والملاحظة والتجربة، متدرجة إلى البحث والنظر العقلي القائم على الاستنتاج والاستنباط، حتى ينتهي إلى معرفة وجود واجب الوجود، الله سبحانه وتعالى، خالق الكون وكل ما فيه من موجودات. وهذا هو الحد الذي تنتهي إليه المعرفة عن هذا الطريق. وحينها وصل حنّ بن يقظان إلى هذه المعرفة، اشتدّ به الشوق إلى التعرف على الله سبحانه وتعالى، والتقرب إليه، ومشاهدته والاتصال به. ولما لم يستطع أن يصل إلى طلبه هذا عن طريق العقل، فقد لجأ إلى سلوك الطريق الثاني.

والطريق الثاني، وهو طريق التصوّف، هو طريق هابط تفيض فيه المعرفة من الله سبحانه وتعالى على أنبيائه ورسله وأوليائه الصالحين. وقد بدأ حنّ بن يقظان في سلوك هذا الطريق بالرياضة الروحية، وإلزام نفسه استمرار التفكير في واجب الوجود، وعدم التفكير في شيء سواه، وقطع جميع علاقاته بالمحسوسات، والكفّ عن استخدام حواسه وتخيله وقواه الجسدية المختلفة. وقد استمر في المجاهدة في هذا الطريق، «ومازال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق، حتى تأثّر له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السباوات والأرض وما بينهما،

(١) حنّ بن يقظان، ص ١٩٣.

(٢) حنّ بن يقظان، ص ٢١٠.

(٣) حنّ بن يقظان، ص ١٨٩.

وجميع الصور الروحانية والقوى الجسائية ، وجميع القوى المارقة للمواد ، والتي هي الذوات العارفة بالموجود الحق ؛ وغابت ذاته في جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل ، وصار هباءً منثوراً ، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود . وهو يقول بقوله الذي ليس معنى زائداً عن ذاته : (لمن الملك اليوم ؟ الله الواحد القهار !) ففهم كلامه وسمع ندائه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ، ولا يتكلم . واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ! ولا خطر على قلب بشر » (١).

ويرى ابن طفيل أن الطريق الأول ، طريق الحس والتجربة والنظر العقلي خطوة أولية لابد منها لكي يصل الإنسان إلى معرفة وجود خالق لهذا الكون ، ولكنها ليست وحدها كافية لحدوث الإشراف ، ومشاهدة الحق جلّ جلاله .

ويرى ابن طفيل أن المعرفة التي يصل إليها الإنسان عن طريق الحس والتجربة والبحث النظرية تتفق مع ما يصل إليه من معرفة عن طريق الكشف الصوفي ، أو عن طريق الوحي في الشرائع المنزلة عن الأنبياء » (٢).

السعادة

إن السعادة العظمى عند ابن طفيل هي في مشاهدة واجب الوجود ، خالق الموجودات ، الله سبحانه وتعالى الذي « لا نهاية لكماله ، ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه ، وهو فوق الكمال والبهاء والحسن ، وليس في الوجود كمال ، ولا حسن ، ولا بهاء ، إلا صادر من جهته ، وفائض من قَبْله . فمن فقد إدراك ذلك الشيء بعد أن تعرّف به ، فلا محالة أنه ما دام فاقداً له ، يكون في آلم لا نهاية لها ؛ كما أن من كان مدرّكاً له على الدوام ، فإنه يكون في لذة لا انفصام لها ، وغبطة لا غاية وراءها ، وبهجة وسرور لا نهاية لها » (٣). إن سعادة الإنسان وفوزه من الشقاء « إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود واجب الوجود ، حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين » (٤). إن كمال ذات الإنسان ولذتها ، عند ابن طفيل ، « إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام ، مشاهدة بالفعل أبداً ، حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته ، وهو في حال المشاهدة بالفعل ، فتصل لذته دون أن يتخللها ألم » (٥).

(١) حنّ بن يقظان ، ص ٢٠٥ .

(٢) حنّ بن يقظان ، ص ٢٢٦ .

(٣) حنّ بن يقظان ، ص ١٨١ .

(٤) حنّ بن يقظان ، ص ١٩١ .

(٥) حنّ بن يقظان ، ص ١٨٣ .

والطريق الذى يسلكه الإنسان لكى يتأتى له دوام المشاهدة ، هو أن يلازم التفكير فى واجب الوجود فى كل ساعة ، وأن ينأى عن جميع المحسوسات ، التى حينها يقوى تأثيرها عليه بسبب اشتداد الجوع أو العطش ، أو البرد ، أو الحر ، أو غير ذلك من المؤثرات الحسية المختلفة ، فإنها تؤدى إلى إعراضه عن حال المشاهدة^(١). فالأمور المحسوسة كلها حجب تحول دون المشاهدة^(٢).

فعلى الإنسان ، لكى يحصل على السعادة ، « أن يلازم الفكرة فى ذلك الموجود واجب الوجود، ثم يقطع علائق المحسوسات ، ويغمض عينيه ، ويسدّ أذنيه ، ويصرف جهده عن تتبع الخيال ، ويروم بمبلغ طاقته ألا يفكر فى شئ سواه ، ولا يشرك به أحدًا . . . »^(٣). وسوف ينتهى به الأمر ، إذا داوم على هذه الحال أن تغيب عنه ذاته نفسه ، وتغنى وتنتلشى ، وكذلك سائر الذوات ، ولا يبقى إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود ، جلّ جلاله^(٤).

وإذا سعدت النفس الإنسانية باتصالها بالله تعالى فى هذه الدنيا ، ثم فارقت البدن وهى على هذا الاتصال ، استمرت فى سعادة دائمة . أما من وافته المنية وهو محروم من مشاهدة الله تعالى ، بقى فى عذاب وآلام لا نهاية لها^(٥).

(١) حنّ بن يقظان ، ص ١٨٣ .

(٢) حنّ بن يقظان ، ص ١٩١ .

(٣) حنّ بن يقظان ، ص ١٩٩ .

(٤) حنّ بن يقظان ، ص ١٩١ - ١٩٢ ، ٢٠٥ .

(٥) حنّ بن يقظان ، ص ١٨٣ ، انظر أيضًا عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٦٣٨ .

الفصل الحادى عشر

ابن رشد

٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) - ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م)

حياته (١)

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . وُلِدَ في قرطبة عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) في أسرة عريقة معروفة بالفقه والقضاء ، فكان جده لأبيه من كبار الفقهاء المالكيين ، وتولى منصب قاضى القضاة ، وكان أبوه قاضى قرطبة . وتعلّم ابن رشد العلوم التقليدية في عصره ، فدرس الفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، واللغة ، والأدب ، والرياضيات ، والطب ، والحكمة . وكان حسن الرأى ذكياً فأتقنها ، وعُرف فضله وسعة علمه .

ولما بلغ السابعة والعشرين من عمره سافر إلى مراكش واتصل بعبد المؤمن أول ملوك الموحّدين ، فاستعان به في إنشاء المدارس ومعاهد العلم وتنظيمها . وفي هذه الفترة عرف ابن رشد آل زُهر الأطباء المشهورين ، وكان على علاقة طيبة بأبى مروان بن زهر . فلما قام ابن رشد بتأليف كتابه في الطب المعروف « بالكليات » في عام ١١٦٩ م ، وهو في الأمور الكلية ، ومن المؤلفات الكبرى في الطب ، سأل أبا مروان بن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية ، ليتكوّن من الكتابين كتاب جامع شامل في الطب . وقد قام أبو مروان بتأليفه وسماه « التيسير في المداواة والتدبير » . ولما مات عبد المؤمن ، خلفه في حكم المغرب ابنه أبو يعقوب يوسف خليفة دولة الموحّدين ، وكان محباً للعلم والعلماء ، وكان ابن طفيل وزيراً له ، فأشاد بفضل ابن رشد للخليفة ، وأثنى عليه ، وقدمه إليه في عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، فأعجب به أبو يعقوب وقرّبه إليه ، وعينه قاضياً في أشبيلية عام ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ، ثم عينه قاضياً في قرطبة عام ١١٧١ م . وفي عام ١١٨٢ م عينه رئيس أطبائه ، ثم عينه قاضى قضاة قرطبة وهو المنصب الذى كان يشغله جده .

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، ص ٥٣٠-٥٣٣ ؛ عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٦٤٦-٦٤٨ ؛ محمد على أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٥٣-٤٥٦ ؛ جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٤٤٣-٤٤٩ .

ويقال : إن الخليفة وجد صعوبة في فهم كتب أرسطو ، وطلب من ابن طفيل أن يجد من يقوم بشرحها ، فاقترح على ابن رشد أن يقوم بتلخيص كتب أرسطو وشرحها وتقريب أغراضها . وقد عكف ابن رشد في هذه الفترة على تلخيص كتب أرسطو وتفسيرها ، فقدّم بذلك للعلم خدمة عظيمة ، إذ خلّص آراء ونظريات أرسطو من الشوائب التي كانت قد لحقت بها .

ولما توفى أبو يعقوب ، خلفه ابنه يعقوب أبو يوسف الملقّب بالمنصور عام ٥٨٩ هـ (١١٨٤م) ، وكان محباً للعلم ، فقترب إليه ابن رشد وكرّمه وأبقى على مكانته الكبيرة في بلاط الخليفة . وكانت منزلة ابن رشد وحظوته لدى الخليفة سبباً في حسد الفقهاء وحقدهم عليه مما دعاهم إلى دسّ الدسائس عليه ، وإيغار صدر الخليفة عليه ، وإتهامه بالكفر والزندقة لاشتغاله بعلوم الأوائل من الفلاسفة ، وصرحوا باللعنة على من يقرأ كتبه وكتب الفلاسفة بعامة . وكان الخليفة في ذلك الوقت في حرب مع ملك قشتالة ألفونس التاسع ، وكان في حاجة إلى تأييد جمهور الشعب ، وكان للفقهاء تأثير كبير عليهم ، فاستجاب الخليفة لرأي الفقهاء ، واضطر إلى استرضائهم ، فأمر بحرق كتب ابن رشد ، وحظر تدريس موضوعاتها . وسرى هذا الأمر على كتب الفلاسفة الآخرين فأحرقت ، فيما عدا كتب الطب والحساب ومبادئ الهيئة . وقام الخليفة بنفى ابن رشد إلى قرية «اليسانة» وهي قرية من قرطبة ، كما نفى أيضاً مجموعة من الفضلاء المشتغلين بالحكمة وعلوم الأوائل .

وعندما انتهت الحرب ، وهدأت الأحوال ، أفرج الخليفة عن ابن رشد وعلى جماعة الفضلاء الآخرين الذين كان قد غضب عليهم ونفاهم ، وأباح دراسة الفلسفة ، واسترضى ابن رشد ، وأعادته إلى بلاطه في مراكش . ولكن لم تطل حياته بعد ذلك كثيراً ، إذ قد توفى في عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وهو في الثانية والسبعين من العمر ، ودفن في مراكش ، ثم نقل جثمانه إلى قرطبة .

عصر ابن رشد

كان الأندلس منذ الفتح الإسلامي في عام ٩٢ هـ حتى عام ٣٠٠ هـ ، تحت حكم أمراء مستقلين لم يصلوا بعد إلى درجة الخلافة ، وكانوا يعيشون في حياة قلق مضطربة بسبب ما كان يسود البلاد في تلك الفترة من فتن واضطرابات ، ولذلك لم يتيسر لهم الجو الملائم للتفرغ لتشجيع العلم والعلماء^(١) . ولم يكن «يُعنَى أهلها بشيء من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن

(١) محمد بيسار : في فلسفة ابن رشد ، الوجود والخلود ، ط ٣ ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٢ ؛ صاعد مرجع سابق ، ص ١٠٢ ؛ عمر فروخ ، مرجع سابق ، ص ٥٧١ .

توطد الملك لبنى أمية بعد عهد أهلها بالفتنة . فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم ^(١) . وإبتدأ الاهتمام بطلب العلم في منتصف المائة الثالثة ، وأخذت الحركة العلمية بعد ذلك تتقدم تقدماً مطرداً . ويعتبر عهد « عبد الرحمن الثالث » (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) الذي كان أول من لقب نفسه بلقب خليفة ، عهد أمن واستقرار في الأندلس ، مما مهد الطريق لنهضة علمية واجتماعية ظهرت في عهد حكم ابنه « الحكم الثاني » الذي تعتبر فترة حكمه أزهى عصور الأندلس . وقد اهتم بجمع الكتب ، وتقريب العلماء إليه ، وتكريمهم ، وتشجيعهم . وقد أدى ذلك إلى ازدهار النهضة العلمية والفلسفية في الأندلس ^(٢) .

وبالرغم من هذا الازدهار للحركة العلمية والثقافية في الأندلس ، بصفة عامة ، إلا أن الفلسفة قد نكبت في عهد « هشام بن الحكم » الذي تولى الحكم في عام ٣٦٦ هـ وهو صغير السن . وقد استطاع حاجبه المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٣ هـ أن يستأثر بتدبير أمور السلطة ، وأمر بإحراق كتب الفلسفة والمنطق والتنجيم . ويقول صاعد : « وفعل ذلك تحمياً إلى عوام الأندلس وتقييحاً للمذهب الخليفة الحكم عندهم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم . وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج من الملة ، ومظنوناً به الإلحاد في الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم ، وتسترأ بها كان عندهم من تلك العلوم . ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية من الأندلس » ^(٣) .

وقد سادت الاضطرابات في قرطبة بعد موت المنصور أبى عامر ، وكانت نهايتها سقوط الخلافة الأموية في الأندلس ١٠٣١ م ، وحلت محلها دويلات صغيرة حكمها أمراء يعرفون بملوك الطوائف . ثم وقعت الأندلس بعد ذلك في حكم المرابطين ، وهم جماعة من بربر مراكش ، وكان ذلك بعد عام ١٠٨٦ م . وكان المرابطون يقربون إليهم الفقهاء ورجال الحديث ، أما الفلاسفة فكانوا في عهدهم عرضة للاضطهاد ، فاضطر كثير منهم ترك الاشتغال بالفلسفة ^(٤) .

ثم بدأ الاهتمام بالفلسفة ينشط في عهد حاكم الموحدين الذين قضوا على حكم المرابطين في إفريقيا والأندلس من عام ١١٤٥ - ١١٥٠ م . وكان الموحدون يقربون العلماء ويكرمونهم ويشجعونهم . ويحثون على جمع الكتب ، ونشر العلوم ، مما أدى إلى ظهور نهضة علمية في

(١) صاعد ، ص ٩٧ .

(٢) صاعد ، ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ محمد بيبسار ، مرجع سابق ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٣) محمد بيبسار ، المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .

عهدهم ، وبخاصة في عهد أبي يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م) الذي اتخذ ابن طفيل الفيلسوف طبيباً ووزيراً له ، وكان يساعده على جلب العلماء وتعريفهم بهم ، وعن عرفه بهم « ابن رشد » . وهكذا اتيج للفلسفة أن تنهض في الأندلس تحت حكم الموحدين ، واتيج لابن رشد في عهدهم القيام بشرح كتب أرسطو ، وتأليف ما ألفه من كتب ورسائل^(١).

غير أن هذا الهدوء لم يلبث طويلاً حتى انفجرت عاصفة هوجاء ضد ابن رشد ، حيث قد اتهمه بعض الفقهاء بالكفر والزندقة ، وشكوه إلى الخليفة يعقوب أبي يوسف الذي أمر بحرق كتبه وكتب غيره من الفضلاء المشتغلين بالحكمة ، وبنفية هو ومجموعة من هؤلاء الفضلاء إلى أماكن مختلفة خارج قرطبة . ثم بعد فترة أفرج الخليفة عنهم ، واسترضى ابن رشد ، وأعادته إلى بلاطه في مراکش ، كما ذكرنا ذلك من قبل أثناء كلامنا عن حياة ابن رشد .

مؤلفاته

ألف ابن رشد في كثير من الموضوعات العلمية ، في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطب ، واللغة ، والأدب ، والأخلاق . وألف أيضاً في التدليل على وحدة الحقيقة ، وعلى الاتفاق الجوهرى بين الفلسفة والشرعة ، بين العقل والوحى . وألف كتباً في نقد كل من الفارابى وابن سينا لانحرافهما عن مذهب أرسطو ، كما نقد الغزلى أيضاً في كتابه « تهافت التهافت » ورد عليه فيها آثاره من نقد على الفلاسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة » . وعنى ابن رشد عناية خاصة بتلخيص كتب أرسطو وشرحها . وقد خلف شروحا لكثير من كتب أرسطو ، بعضها مطولة ، وبعضها متوسطة ، وبعضها صغرى . وكان كثيراً ما يذكر خلال شروحه لكتب أرسطو آراءه وتفسيراته الخاصة . ومن شروح ابن رشد التى تهمنا في موضوع دراستنا في هذا الكتب شرحه لكتاب النفس لأرسطو . وقد لقيت شروح ابن رشد لكتب أرسطو اهتماماً كبيراً بين فلاسفة اليهود والمسيحيين في العصور الوسطى ، وترجمت هى ومؤلفاته إلى العبرانية واللاتينية . وبلغ عدد كتب ورسائل ابن رشد ، على حسب ما ذكره رينان في كتابه « ابن رشد والرشدية » ثمانية وسبعين كتاباً ورسالة ، ضاع كثير منها ، والمطبوع مما بقى منها قليل ، وبعضها ضاع أصلها العربى ، ووصلتنا عن طريق ترجماتها العربية واللاتينية^(٢) . ويمكن الاطلاع على ثبت كامل بجميع مؤلفات ابن رشد في كتاب « مؤلفات ابن رشد » للأب جورج شحاته فنواتى^(٣).

(١) المرجع السابق ، ص ٣١-٣٤ .

(٢) جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .

(٣) الأب جورج شحاته فنواتى : مؤلفات ابن رشد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجزائر ، ١٩٧٨ م (صدر بمناسبة مهرجان ابن رشد في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته ابن رشد) .

ومن أهم مؤلفات ابن رشد المتعلقة بالنفس ما يلي :

- ١ - « تلخيص كتاب النفس » . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ . (ونشر هذا الكتاب أيضًا بعنوان « كتاب النفس » ضمن كتاب « رسائل ابن رشد » ، ط ١ ، حيدر آباد الدكن بالهند : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) .
 - ٢ - تلخيص كتاب « الحساس والمحسوس لأرسطو » ، ضمن كتاب « أرسطو طاليس في النفس » ، ط ٢ ، شرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي . الكويت وبيروت : وكالة المطبوعات ودار العلم ، ١٩٨٠ .
 - ٣ - مقالة هل يتصل بالعقل الميولاني العقل الفعّال . ملحق بكتاب « تلخيص كتاب النفس » المذكور سابقًا ، ص ١١٩ - ١٢٤ .
 - ٤ - تهافت التهافت ، ط ٣ ، (جزءان) . تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ و ١٩٨١ .
- وينظر المؤرخون الغربيون إلى ابن رشد باعتباره أشهر فلاسفة الإسلام ، وأعظمهم تأثيرًا في التفكير الأوربي ، فعن طريق شروحه لكتب أرسطو عرف الأوروبيون أرسطو وتأثروا به ، ولذلك أطلقوا عليه لقب « الشارح الكبير » . وعرف ابن رشد كثيرًا من كتب أرسطو التي لم يعرفها فلاسفة المشرق ، ومكنه ذلك من أن يكون أكثر توفيقًا من فلاسفة المشرق في فهم كثير من آراء أرسطو الصحيحة ، وإن لم يكن قد استطاع التخلص نهائيًا من بعض شوائب الأفلاطونية الجديدة ، ومن أخطاء المترجمين من العرب والسرّيان .
- وقد عظم ابن رشد من شأن العقل والبرهان العقلي في النظر في الموجودات ، وفي الوصول إلى الحقيقة ، فكان بحق فيلسوف العقل الذي أطلق عقول الأوروبيين من عقالها . وأدت نزعته العقلية هذه إلى أن يقف من آراء الفلاسفة السابقين موقفًا يتصف بالإنصاف والحكمة والعقلانية ، وكان يرى أنه يجب أن يستعين كل مفكر بآراء المفكرين السابقين ، وأن يحكم عقله فيها على مقتضى البراهين العقلية الصحيحة ، فما كان منها صوابًا قبلناه ، وما كان غير صواب لم نقبله ، ونهينا إليه وحذرنا منه . يقول ابن رشد : « .. يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرًا في الموجودات واعتبارًا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك ، وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسرنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » (١) .

(١) ابن رشد : فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشرعة من الاتصال . ط ٢ ، القاهرة : المكتبة المحمودية التجارية ، ١٢٥٣ هـ - ١٩٣٥ م ، ص ١٣ .

وثنى ابن رشد بالتوفيق بين الفلسفة والدين ، أو بين الحكمة والشرعة ، وذهب إلى أن العقل يمكن عن طريق البرهان العقل أن يصل إلى الحقيقة التي يعبر عنها الوحي ، وإذا حدث اختلاف ظاهري بين العقل والوحي ، فيجب تأويل ما جاء به الوحي ^(١).

وكان لأراء ابن رشد تأثير كبير في فلاسفة القرون الوسطى اليهود والمسيحيين في أوروبا . فقد اهتموا بدراسة كتبه وترجمتها إلى اللاتينية ، ونشأت مدرسة رشدية لاتينية تنشر آراءه ، وتنهج منهجه . ويبدو تأثير ابن رشد واضحاً في القديس توما الأكويني ، وباروخ اسبنوزا ^(٢).

النفس وقواها

يعرف ابن رشد النفس بأنها « كمال أول لجسم طبيعي لى » ، وهو نفس التعريف الذى قال به أرسطو وجميع الفلاسفة المسلمين السابقين . وقال استكمالاً أولاً لتمييزه عن الاستكالات الأخيرة التى هى الأفعال والانفعالات التى تتبع الاستكمال الأول وتصدر عنه . ويختلف معنى الاستكمال ، أو الكمال باختلاف أجزاء النفس المختلفة : الغذائية (أو النباتية) ، والحساسة ، والمتخلية ، والزوعية ، والناطقة . وهذه القوى لا تختلف فقط من حيث أفعالها ، وإنما تختلف كذلك من حيث مواضعها ^(٣).

القوة الغذائية

القوة الغذائية من عداد القوى الفاعلة ، لأنها تحرك ما هو غذاء بالقوة وتخرجه من حال القوة إلى الفعل ، أى تجعله غذاء بالفعل مستعينة في تحقيق ذلك بالحرارة الغريزية . وسبب وجود هذه القوة في الحيوان والنبات هو حفظ بقائهما ، « وذلك لأن أجساد المنتفسات (أى الحيوان والنبات) لطيفة متخلخلة سريعة التحلل ، فلو لم تكن فيها قوة شأنها أن تخلف ما تحلل منها ، لما أمكن في المنتفس أن يبقى زماناً له طول ما » ^(٤).

وتلحق بهذه القوة قوة أخرى هى كالكمال والصورة للقوة الغذائية ، وهى القوة النامية . وهذه القوة هى القوة التى من شأنها عندما تولد الغذائية من الغذاء أكثر مما تحلل من الجسم ، أن تنمى الأعضاء في جميع أجزائها وأقطارها على نسبة واحدة ^(٥).

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ . (٢) محمد على أبو ريان ، مرجع سابق ، ص ٤٦٢ .
(٣) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ١٢ و ١٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٦ . (٥) المرجع السابق ، ص ١٧ .

وتلحق بهذه القوة قوة أخرى هي القوة المؤلدة ، وهي قوة « تفعل من الغذاء ما شأنه أن يتكون عنه مثل الشخص الذي توجد له هذه القوة » (١). هي قوة « شأنها أن تفعل مما هو بالقوة شخص من نوعه شخصاً بالفعل . والغاذية إنما تفعل جزء شخص وإني جعلت هذه القوة في الأشياء التي هي موجودة فيها لا على جهة الضرورة كالحال في القوة الغاذية والنامية ، بل على جهة الأفضل ليكون لهذه الموجودات حظ من البقاء الأزلي بحسب ما يمكن في طباعها » (٢).

القوة الحساسة (أو الحاسة)

يعرف ابن رشد القوة الحساسة بأنها « هي القوة التي من شأنها أن تستكمل بمعاني الأمور المحسوسة ، أعنى القوة الحسية من جهة ما هي معان شخصية » (٣). ومعنى هذا الاستكمال إنما هو وجود معانٍ ، أى صورها ، في القوة الحساسة مجردة عن مادتها ، ولكن بوجه ما له نسبة شخصية إلى المادة بها صار معنى شخصياً . والقوة الحساسة تستعمل في فعلها آلات جسيائية هي أعضاء الحواس الخمس : اللمس ، والدوق ، والشم ، والسمع ، والبصر .

وقوة اللمس هي أقدم القوى الحساسة ، وهي يمكن أن توجد بدون سائر القوى الحساسة ، كما في الإسفنج البحري ، ولكن لا توجد سائر القوى الحساسة بدونها ، وذلك لأن هذه القوة أكثر ضرورة في وجود الحيوان من سائر قوى ، إذ لولاها لأفسدته الأشياء الخارجية (٤).

وقوة الدوق هي ضرب من اللمس ، وبها يختار الحيوان الملائم من الغذاء . وقوة الشم شبيهة بقوة الدوق ، إذ يستعين بها الحيوان أيضاً في الاستدلال على الغذاء . وهذه القوى الثلاث ضرورية في وجود الحيوان . أما القوتان الباقيتان وهما السمع والبصر فموجودتان « في الحيوان من أجل الأفضل لا من أجل الضرورة ، ولذلك كان الحيوان المعروف بالخلد لا بصر له » (٥).

والمحسوسات إما تكون محسوسات خاصة بحاسة واحدة ، وإما محسوسات مشتركة لأكثر من حاسة واحدة ، والمحسوسات الخاصة مثل الألوان للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للدوق ، والروائح للشم ، والحرارة والبرودة لللمس . أما المحسوسات المشتركة لأكثر من حاسة واحدة كالحركة والسكون والعدد والشكل والمقدار .

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ - ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

الحواس الخمس الظاهرة

يتناول ابن رشد الحواس الخمس الظاهرة ، ويبدأ أولاً بالكلام عن حاسة البصر .

البصر

قوة البصر « هى التى من شأنها أن تقبل معانى الألوان مجردة عن الهوى من جهة ما هى معان شخصيته »^(١) . وقوة البصر لا تدرك إلا فى الضوء ، وهى تدرك عن طريق وسط شفاف هو الهواء أو الماء يصل بينها وبين محسوساتها^(٢) .

السمع

قوة السمع تدرك الأصوات الناجمة فى الهواء عن مقارعة الأجسام الصلدة أو ارتطامها بعضها ببعض . والسمع ، مثل البصر ، لا يدرك محسوسة عن طريق المماس ، وإنما يدركه عن طريق انتقال الصوت خلال وسط هو الهواء أو الماء ، من جهة سرعة ميولها للحركة والتشكل بها ، وبقاء الحركة فيها فترة من الزمن بعد توقف المتحرك . وحينئذ يصل الهواء المتحرك الناجم عن ارتطام جسمين صليدين إلى الأذنين ، فإنه يحرك الهواء الموجود فى الأذنين الذى هو آلة السمع كما يقول أرسطو^(٣) .

الشم

قوة الشم هى القوة التى تقبل الروائح . وتحدث الروائح نتيجة ما يتحلل من المشروبات ، فيحملها الوسط ، وهو الهواء والماء ، إلى حاسة الشم . والرائحة توجد لدى الطعم ، ولذلك فإننا كثيراً ما نستدل على الرائحة من الطعم . ونحن كثيراً أيضاً ما نسمى الروائح بأسماء الطعم . وحاسة الشم فى الإنسان أضعف منها فى كثير من الحيوان^(٤) .

الذوق

قوة الذوق هى القوة التى تدرك الطعم ، وهى كأنها لمس ، لأنها إنما تدرك محسوسها بوضعه

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩-٣٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤-٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩-٤٠ .

على آلة حاسة الذوق . ولذلك يرى الإسكندر ، كما يقول ابن رشد ، أن هذه القوة ليست في حاجة إلى وسط ، مثل حاسة اللمس . ويذكر ابن رشد رأيًا آخر يذهب إلى أن اللعاب وسط تنتقل خلاله الطعوم إلى حاسة الذوق . غير أن ابن رشد يرجح رأى الإسكندر ، ويقول : إنه الأولى أن نقول إن اللعاب أحد آلات الذوق من أن نقول إنه وسط ^(١).

اللمس

قوة اللمس هي القوة التي تستكمل باللمسوسات ، وهذه إما تكون ملموسات أول ، وهي : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ؛ وإما ملموسات ثوانٍ ، وهي المتولدة عن اللمسوسات الأول كالصلابة واللين . ويقول ابن رشد : إن اللمس ، مع أنه يدرك عدة متضادات ، إلا أنه قوة واحدة ^(٢) ، على خلاف ما ذهب إليه أرسطو وابن سينا ^(٣) . وقوة اللمس تحس اللمسوسات بالمماس ، ولذلك فهي ليست في حاجة إلى وسط ^(٤) مثل الخواص التي تدرك محسوساتها عن بعد مثل البصر والسمع والشم . ويختلف ابن رشد هنا عن أرسطو الذي قال : إن اللحم هو وسط حاسة اللمس ^(٥) ، وهو يتفق مع ابن سينا الذي ذهب إلى أن حاسة اللمس تحس محسوساتها بملاستها مباشرة بدون توسط شيء آخر . وعضو حاسة اللمس عند ابن رشد هو اللحم ^(٦) ، وهو هنا يختلف عن أرسطو الذي يقول : إن عضو حاسة اللمس هو القلب ^(٧) ، وإن اللحم المحيط بالبدن فهو وسط لحاسة اللمس . وهو يختلف أيضًا في هذه النقطة بعض الشيء عن ابن سينا الذي يذهب إلى أن عضو حاسة اللمس هو اللحم والجلد والعصب المنتشر فيها ^(٨).

الحس المشترك

سبق أن ذكرنا أن المحسوسات إما أن تكون محسوسات خاصة بحاسة واحدة ، وإما أن تكون مشتركة لأكثر من حاسة واحدة ، مثل الحركة ، والسكون ، والعدد ، والشكل ، والمقدار . ولما

(١) المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ - ٥٣ .

(٣) انظر مناقشتنا لحاسة اللمس عند ابن سينا في الفصل السادس ، ص ١٢٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٥) Aristote De Anima, 11,2,423 a 15-17; 423a 15-17 (٥)

(٦) تلخيص كتاب النفس ، ص ٤٧ .

(٧) Aristote, op.c., 11,2,423b 22-23; Beare op.c., pp. 194-195; (٧)

سينا ، مرجع سابق ، ص ٨٦ .

(٨) الشفاء ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ انظر أيضًا محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٨٧ .

كانت الحواس الخمس الظاهرة لا يحس كل منها إلا بمحسوسها الخاص بها ، فلزم أن تكون هناك قوة تحس المحسوسات المشتركة لأكثر من حاسة واحدة . وكذلك ، لما كنا أيضاً ندرك التغيرات بين المحسوسات الخاصة بالحواس الخمس الظاهرة ، فنذكر ، مثلاً ، أن هذه التفاحة ذات لون وطعم ورائحة ، وأن هو المحسوسات متغيرة ، فلا بدّ ، إذن ، أن تكون لدينا قوة واحدة تجتمع فيها هذه المحسوسات فتدركها ، وتدرك التغيرات بينها . وهذه القوة هي الحس المشترك ^(١) ، وهي حاسة باطنة ، تدرس محسوساتها ، مثل الحواس الخمس الظاهرة ، مجردة عن مادتها . ويقول ابن رشد إنه بالإضافة إلى ذلك ، فإن « . . في الحس المشترك قوة على التمسك بآثار المحسوسات وحفظها » ^(٢) بعد غياب المحسوسات .

القوة المتخيلة

القوة المتخيلة حاسة باطنة تدرك المحسوسات بعد غيبتها . ويحدث التخيل إذا ما انكبت القوة المتخيلة على الآثار الباقية من المحسوسات في الحس المشترك . ويكون التخيل أتم وأظهر عند سكون فعل الحواس كما يحدث في حال النوم ^(٣) . وبالإضافة إلى عملية التخيل ، فإن للقوة المتخيلة فعلين آخرين في الآثار الباقية في الحس المشترك ، هما التركيب والتفصيل ، فهي تركّب بعضها على بعض ، أو تفصل بعضها عن بعض ، فتصور أموراً لم نحس بها من قبل ، كتصورنا للغول وما يشبه ذلك من الأمور التي ليس لها وجود خارج النفس ^(٤) .

ويقول ابن رشد : إن علة وجود القوة المتخيلة في الحيوان هو « من أجل الشوق الذي يكون عنها إذا اقترن إلى هذه القوة الحركة في المكان ، وذلك أن بقوة التخيل مقترناً بها الشوق يتحرك الحيوان إلى طلب اللذة وينفر عن الضار » ^(٥) .

القوة النزوعية

القوة النزوعية عند ابن رشد ، كما هي عند الفلاسفة المسلمين السابقين ، هي « القوة التي بها ينزع الحيوان إلى الملاثم ، وينفر عن المؤذى . وهذا النزوع إن كان إلى الملدّ سُمي شوقاً ، وإن كان إلى الانتقام سُمي غضباً ، وإن كان عن روية سُمي اختياراً وإرادة » ^(٦) . والشوق والغضب والإرادة هي أقسام القوة النزوعية .

وتوجد هذه القوة مصاحبة دائماً للتخيل ، أو النطق . فتخيّل الشيء الملدّ أو التفكير فيه يثير

(١) تلخيص كتاب النفس ، ص ٥٤-٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٦٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٩٧-٩٨ .

في الحيوان شوقاً إلى طلبه ، وتحليل الشيء المؤدى ، أو التفكير فيه يثر نزوعاً إلى الابتعاد عنه . وعندما تتحرك القوة النزوعية بسبب الصور المتخيلة أو المتفكر فيها ، فإنها تحرك الحمار الغريزي ، فيحرك هو سائر أعضاء الحركة ، وهذا ما يُسمى « بالإجماع »^(١).

القوة الناطقة

يقول ابن رشد : إن الإدراك على نوعين : إدراك شخصي (أو جزئي) ، وإدراك كلي . والإدراك الشخصي هو إدراك المعنى في هيولى ، كإدراك الحس : أو الخيال ، اللذين يدركان المعاني إدراكاً جزئياً من حيث هي متصلة بالهيولى . أما الإدراك الكلي فهو إدراك المعنى العام مجرداً من الهيولى . والقوة التي تدرك المعاني الكلية هي القوة الناطقة . وبالإضافة إلى إدراك المعاني الكلية ، فإن القوة الناطقة تقوم بفعلين ، هما تركيب المعاني الكلية بعضها على بعض ، أو تحكم ببعضها على بعض^(٢) . وخلافاً للقوتين الحاسة والمتخيلة اللتين وجدتا في الحيوان من أجل سلامته في تحركه إلى المحسوسات ، أو عنها ، فإن القوة الناطقة وجدت في الإنسان لا من أجل سلامته ، بل من أجل وجوده على وجه أفضل ، فهي تدرك المعاني الكلية ، وتركب بعضها على بعض ، وتستنبط بعضها عن بعض ، وتكون من ذلك صنائع كثيرة نافعة في وجود الإنسان ، كما تكون العلوم النظرية^(٣) . ومن هنا جاء تقسيم القوة الناطقة إلى قسمين : أحدهما يسمى العقل العمل ، والآخر العقل النظري .

العقل العمل

العقل العمل هو القوة التي تدرك المعقولات العملية الحاصلة بالتجربة ، والتي تقوم على الحس والتخيّل . « وكما هذه القوة وفعلها إنها هو في أن توجد صوراً خيالية بالفكر والاستنباط يلزم عنها وجود الأمور المصنوعة . . . وهذا النوع من الصور الخيالية قد توجد لكثير من الحيوان كالسدس الذي يوجد في النحل ، والحياسة التي توجد للعنكب ، ولكن الفرق بينهما أنها في الإنسان حاصلة من الفكر والاستنباط ، وهي في الحيوان حاصلة عن الطبع »^(٤).

والعقل العمل هو مصدر الانفعالات والعواطف ، إذ أننا نحب ونغضب وبالجملة ، فإن العقل العمل هو مصدر الفضائل العملية ، ذلك لأنها ليست شيئاً أكثر من وجود الخيالات التي عنها يتحرك الإنسان إلى الأفعال الإرادية التي تتصل بالفضائل العملية مثل المحبة والصدقة

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠ - ٧١ .

والشجاعة والقناعة، إلخ . . ، إذ أن وجود هذه الفضائل منوط بشيء من التقدير والتخيّل الجزئى لما ينبغى فعله^(١).

العقل النظرى

العقل النظرى هو القوة التى تدرك المعقولات الكلية . ولإدراك المعقولات الكلية صلة وثيقة بالحس والتخيّل . فنحن ، كما يقول ابن رشد ، « مضطرون فى حصولها لنا أن نحسّ أولاً ، ثم نتخيّل ، وحينئذ يمكننا أخذ الكلى . ولذلك من فائته حاسة ما من الحواس ، فاته معقول ما ، فإن الأكمه ليس يدرك معقول اللون أبداً ، ولا يمكن فيه إدراكه . وأيضاً فإنه من لم يحس أشخاص نوع ما ، لم يكن عنده معقوله ، كالحال عندنا فى الفيل . وليس هذا فقط ، بل يحتاج مع هاتين القوتين إلى قوة الحفظ ، وتكرر ذلك الإحساس مرة بعد مرة حتى ينقذح لنا الكلى . ولهذا صارت هذه المعقولات إنما تحصل لنا فى زمان »^(٢) . إن إدراك المعقولات الكلية . إذن ، يتوقف على ما لدينا من صور حسية وخيالية ، وإلا كنا نعقل أموراً كثيرة دون أن نحسها ، « ويكون التعلم تذكراً كما يقول أفلاطون »^(٣) . فليس للكليات وجود خارج النفس ، كما ذهب إليه أفلاطون ، وإنما الموجود منها خارج النفس هو أشخاصها فقط^(٤).

المعقولات

ويتم إدراك المعقولات ، فى رأى ابن رشد ، على مراحل . فما هى هذه المراحل ، أو ما هى أقسام العقل ؟

العقل المهيولانى

العقل المهيولانى هو عقل بالقوة ، هو استعداد فى النفس لإدراك المعقولات ، هو استعداد فى الصور الخيالية لتصبح صوراً معقولة^(٥). والعقل الفعّال هو الذى يصيّر الصور الخيالية معقولات ، والعقل المهيولانى هو الذى يقبل هذه المعقولات .

العقل بالملكة

وحينما تحصل المعقولات فى العقل المهيولانى بالفعل ، بحيث يعقلها الإنسان متى شاء ، فإن

-
- (١) المرجع السابق ، ص ٧١ ؛ انظر أيضاً ماجد فخري : ابن رشد ، فيلسوف قرطبة . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٥ ؛ جميل صليبا : مرجع سابق ، ص ٤٩٥ .
 (٢) تلخيص كتاب النفس ، ص ٧٩ .
 (٣) المرجع السابق ، ص ٨٠ .
 (٤) المرجع السابق ، ص ٨١ .
 (٥) المرجع السابق ، ص ٨٦-٨٨ ؛ انظر أيضاً ماجد فخري : مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

العقل يسمى حينئذ العقل بالملكة ، وهو كمال العقل الهولاني ^(١) ، وهو مرتبة أولى من الاستكمال ، متوسطة بين القوة المحضة والفعل المحض ^(٢) . وحينما يبلغ العقل كماله الأخير ، فإنه لا يعقل المعقولات فحسب ، بل يعقل ذاته أيضًا ، وبات متصلاً بالعقل الفعّال . وهذه المرتبة من الإدراك هي العقل المستفاد ، « وهو التمام والكمال والعقل الذي كان الهولاني قوة عليه » . والذي يصير تلك القوة التي فيه فعلاً هو العقل الفعّال . والعقل المستفاد هو أسى مراتب الكمال الإنساني ^(٣) .

العقل الفعّال

إن المعقولات لا تخرج من حال القوة إلى حال الفعل إلا بتأثير محرك ينقلها من القوة إلى الفعل . هذا المحرك هو العقل الفعّال ^(٤) ، وهو موجود بالفعل عقلاً دائماً ، سواء عقلناه أم لم نقله . « تأثير العقل الفعّال في العقل الهولاني كتأثير الشمس في الإبصار ، فكما أن العين لا تبصر الألوان إلا إذا نقلها نور الشمس من القوة إلى الفعل ، كذلك العقل الهولاني لا يعقل الصور إلا إذا صارت معقولة له بتأثير نور العقل الفعّال » ^(٥) . فللعقل الفعّال ، إذن ، وجودان : أحدهما وجود مفارق من حيث جوهره ، والثاني وجود غير مفارق من حيث هو محرك للمعقولات في العقل الهولاني من القوة إلى الفعل ^(٦) .

ويلاحظ أن ابن رشد يختلف عن الفلاسفة المسلمين السابقين في موضوع العقل الفعّال . فهؤلاء يعتبرون العقل الفعّال جوهرًا مفارقًا ، هو العقل العاشر في سلسلة العقول المفارقة ، أما ابن رشد « فعنده أن هذا العقل ، بالإضافة إلى كونه جوهرًا مفارقًا من حيث ماهيته ، هو صورة العقل الهولاني من حيث فعله ، وأن له بالنفس صلة جوهرية ، تحكي صلة الصورة بالمادة » ^(٧) .

وحدة النفس

للنفس ، كما ذكرنا سابقًا ، وظائف عديدة تقوم بها عدة قوى نفسانية مختلفة . وليست هذه

(١) تلخيص كتاب النفس ، ص ٨٨ .

(٢) ماجد فخري ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٤) ابن رشد : مقالة هل يتصل بالعقل الهولاني العقل النعال وهو متلبس بالجسم ، ملحق بكتاب « تلخيص كتاب النفس » ، ص ١٢١ .

(٥) جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٥٠١ .

(٦) فعالة هل يتصل بالعقل الهولاني العقل الفعّال ، مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ انظر أيضًا ماجد فخري ، مرجع سابق ، ص ١١١ ؛ وجميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٥٠١ .

(٧) ماجد فخري ، مرجع سابق ، ص ١١١ ؛ جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

القوى مستقلة بعضها عن بعض ، بل إن بينها تعاونًا وثيقًا ، بحيث تعمل جميعها في وحدة متكاملة . وذكر ابن رشد أنه يوجد تدرج طبيعي بين مختلف وظائف القوى النفسانية ، « وعبر عن هذا التدرج بقوله إن بينها اتصالاً من جهة الوجود والعلم . أما من جهة الوجود فذلك لأن كل وظيفة منها تُعد شرطاً أو أساساً مادياً للوظيفة التي تليها ، كما تُعد في الوقت نفسه كمالاً وصورة للوظيفة التي هي أدنى مرتبة منها . مثال ذلك أن الحس يعد شرطاً في الإدراك العقلي ومادة أولية له . لكنه كذلك يعد أيضاً كمالاً وصورة للوظائف الدنيا كالتغذية والنمو. أما من جهة العلم. فلأنه لا خيال دون حس، ولا تفكير دون خيال، بمعنى أن الحس والخيال شرطان ضروريان في الإدراك العقلي»^(١). ويتضح من هذا الكلام رأى ابن رشد في وحدة النفس على أساس أن كل قوة نفسانية تخدم ما فوقها ، وهي في نفس الوقت كمال لما تحتها ، وهو نفس الأساس الذي استخدمه جميع الفلاسفة المسلمين السابقين في إثبات وحدة النفس ، متأثرين في ذلك برأى أرسطو في هذا الموضوع^(٢).

نظرية المعرفة

يذهب ابن رشد ، مثل أرسطو ، إلى أن أساس المعرفة الإنسانية هو الحس . والحس يدرك صور محسوساته من حيث هي في هيولى ، أى مادة ، ثم تقوم القوة المتخيلة بحفظ صور المحسوسات مجردة عن المادة ، ولكنها لا تجردها تجريدًا تامًا عن لواحق المادة . ويقوم العقل بإدراك المعانى الكلية التي يقوم بتجريدتها من الجزئيات الكثيرة المحسوسة والمتخيلة . فالمعرفة ، إذن ، عند ابن رشد تبدأ من الحس وتصعد إلى العقل ، وتبدأ من الجزئيات وترتفع إلى الكليات^(٣). وليس للكليات في رأى ابن رشد وجود مستقل خارج النفس ، كما قال أفلاطون ، كما ذكرنا ذلك من قبل . وإنما توجد الكليات فقط في جزئياتها ، أى في أعيانها ، أو أشخاصها الموجودة في الخارج . ولذلك يقول ابن رشد ، كما ذكرنا من قبل « . . من فائته حاسة ما من الحواس ، فاته معقول ما . . »^(٤) . وينقد ابن رشد الفارابى وابن سينا اللذين قالوا بوجود الكليات وجودًا مستقلًا خارج النفس ، في العقل الفعال واهب الصور ، وإن المعرفة بالمعقولات الكلية تفيض منه إلى عقل الإنسان . وينتقد ابن رشد أيضًا طريق المتصوفين الذين يرون أن الإنسان يستطيع بدون علم وبحث ونظر الاتصال بالعالم العلوى ، واكتساب المعرفة من هناك .

(١) محمود قاسم : في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام ، ط ٤ . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٣٥ .

(٢) انظر رأى أرسطو في وحدة النفس في : محمود قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٣٤-١٣٨ .

(٣) عاطف العراقي : الزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، ط ٤ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٤ م ، ص ١٠١ .
١١٣ ؛ جميل صليبا ، مرجع سابق ، ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ . (٤) تلخيص كتاب النفس ، ص ٧٩ .

الفصل الثاني عشر فخر الدين الرازي

٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) - ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م)

حياته

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري ، الملقب بفخر الدين ، المعروف بابن خطيب الرئي ، وهو مجدد دين الأمة الإسلامية على رأس المائة السادسة الهجرية ، وأكبر مفكر إسلامي جاء بعد الإمام الغزالي^(١) . ولد بالرئي ، وهي مدينة تقع شرق طهران ، في سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) ، وقيل في سنة ٥٤٣ هـ . نشأ في أسرة معروفة بالعلم والفضل ، فكان أبوه الشيخ الإمام ضياء الدين عمر خطيب الرئي ، وكان يدرس ويخطب بالرئي ، وله مؤلفات عديدة في علم الأصول ، وفي الوعظ ، وغير ذلك . وكان مبدأ اشتغال فخر الدين الرازي بالعلم على والده^(٢) .

يقول عنه ابن خلكان : إنه « فريد عصره ، ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل ، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة . . . وكان له في الوعظ اليد البيضاء ، ويعط باللسانين العربي والعجمي ، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء . وكان يحضر مجلسه بمدينة هراة أرباب المذاهب والمقالات ويسألونه ، وهو يجيب كل سائل بأحسن إجابة ، ورجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة . وكان يلقب بهراة شيخ الإسلام^(٣) .

وقال عنه ابن أبي أصيبعة : إنه « أفضل المتأخرين ، وسيد الحكماء والمحدثين ، قد شاعت سيادته ، وانتشرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته ، وكان إذا ركب يمشي حوله ثلاثمائة تلميذ فقهاء

(١) فتح الله خليف : فخر الدين الرازي . الإسكندرية : دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٧ م ، ص ١ ، ٦ - ٧ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٦٥ ، القفطي ، ص ١٩١ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

وغيرهم ، وكان خوارزمه^(١) يأتي إليه . وكان ابن الخطيب شديد الحرص جدًا في سائر العلوم الشرعية والحكومية ، جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة ، كثير البراعة ، قوى النظر في صناعة الطب ومباحثها ، عارفاً بالأدب ، وله شعر بالفارسي والعربي . . . وكان الناس يقصدونه من البلاد ، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم ، وتفتنهم فيها يشتغلون به . فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه منه . . . »^(٢).

وقال عنه القفطى : « كان من أفاضل أهل زمانه ، بذّ القدماء في الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة ، وردّ على أبي على بن سينا ، واستدرك عليه ، وكان عظيم الشأن بخراسان ، وسارت مصنفاته في الأقطار ، واشتغل بها الفقهاء . . . »^(٣).

وللى جانب هؤلاء المؤرخين الذين يعلنون من قدره ، ويعظمون شأنه ، كان هناك من ينقده ويقدح فيه . فقال ابن حجر العسقلاني : إن « له تشكيكات على مسائل من دعائم الدين . . . »^(٤). وقال عنه الشهرزورى : إنه شيخ مسكين متحير في مذاهب الجاهلية التي تحيط فيها خبط عشواء ، ولم يظفر بالحكمة على جليها^(٥). غير أن هذه الاتهامات إنما هي في الحقيقة اتهامات تقليدية كثيراً ما وجهت إلى النابيين من رجال الفكر الناجحين المشهورين ، وكان فخر الدين الرازى كثير الأسفار ، فسافر إلى خراسان ووقف فيها على مؤلفات ابن سينا والفارابى وعلم منها علماً كثيراً . ورحل إلى بخارى ، وكان في ذلك الوقت فقيراً غير معروف . ثم سافر إلى خراسان مرة أخرى ، واتصل بالسلطان علاء الدين محمد بن تكش (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م - ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) المعروف بخوارزم شاه ، وحظى عنده بمنزلة عالية . وقصد أيضاً شهاب الدين الغورى الذى تولى على غزنة في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وأغدق عليه مالاً كثيراً ، وبنى له عدة مدارس^(٦).

وقد ناظر فخر الدين الرازى أهل الاعتزال في خوارزم ، وفيها وراء النهر ، وخراسان ، كما ناظر

(١) خوارزمه هو السلطان علاء الدين محمد بن تكش .

(٢) ابن أبى أصيبعة ، ص ٤٦٢ .

(٣) القفطى ، ص ١٩١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، حيدرآباد ، ١١٣٠ هـ - ١٩١٢ م ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ ، عن فتح الله خليف : فخر الدين الرازى ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٥) شمس الدين محمد بن محمود الشهرزورى : روضة الأفراح ، ونزهة الأرواح . مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٢٦٣٦٩ ، عن فتح الله خليف ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٦) محمد صغير حسن المصومى : مقدمة « كتاب النفس والروح وقوامها » ، تأليف فخر الدين الرازى . منشورات معهد الأبحاث الإسلامية بآسلام آباد ، ١٩٨٧ م ، ص أ-ب ؛ القفطى ، ص ١٩٠ .

الكرامية والباطنة في هراة والرّى . وقد ناصبته الكرامية العدااء ، ورموه بالكبائر ، ونسبوا إليه من الأقوال الشنيعة ما هو برىء منها (١) .

وقد استوطن فخر الدين الرازى مدينة هراة ، وتملك بها ملكاً ، وأنجب بها أولاداً ، وأقام بها حتى مات بها ، ودفن بها (٢) .

مؤلفاته

لفخر الدين الرازى مؤلفات كثيرة في فنون عديدة منها : التفسير ، وعلم الكلام ، وأصول الفقه ، والحكمة ، والجدل ، والنحو ، والأدب ، والطب ، والهندسة ، وعلم النفس ، وعلم الفراسة ، والأخلاق ، والمثل والنحل (٣) . وقُدِّر عدد مؤلفاته بما يزيد عن مائتى مؤلف (٤) .

وسمنا من كتبه التى وصلتنا ما يتعلق منها بعلم النفس ، وهى ما يلى :

١ - كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، تحقيق محمد صغير حسن المعصومى . إسلام آباد : معهد الأبحاث الإسلامية ، ١٩٦٨ م .

ويقول فخر الدين الرازى في مقدمته لهذا الكتاب إنه « كتاب في علم الأخلاق ، مرتب على المنهج البرهانى لا على الطريق الخطاى الإقناعى » . وتعرض فيه المؤلف لقوى النفس ، ولعلاج النفس من بعض صفاتها المذمومة .

٢ - المطالب العالية من العلم الإلهى . الجزء السابع : فى الأرواح العالية والسافلة (النفس) . بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٨٧ م .

٣ - الفراسة : دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح . تحقيق وتعليق مصطفى عاشور . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧ م .

طبيعة النفس

يعرّف فخر الدين الرازى النفس بأنها جوهر مغاير للبدن ، مفارق عنه بالذات ، متعلّق به

(١) محمد صغير حسن المعصومى : المرجع السابق ، ص ب-ج .

(٢) القفطى ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ ؛ القفطى ، ص ١٩١ - ١٩٢ ؛ خير الدين الزركلى ، ج ٦ ، ص ٣١٣ . انظر أيضاً شاملاً بجميع مؤلفات فخر الدين الرازى في ضميمة ملحقة « بكتاب النفس والروح وشرح قواهما ، لفخر الدين الرازى ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ - ١٩٨ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، ج ١٧ ، ص ٥٥ عن محمد صغير حسن المعصومى ، مرجع سابق ، ص ب .

تعلّق التصرف والتدبير ، وأعضاء البدن هي الآت وأدوات للنفس ، « فكما أن النجار يفعل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات مختلفة ، فكذلك النفس تبصر بالعين ، وتسمع بالأذن ، وتفكر بالدماع ، وتعمل بالقلب . فهذه الأعضاء آلات للنفس وأدوات لها » (١) .

والنفس ليست بجسم ، فهي جوهر مجرد عن الجسمية . ويذكر فخر الدين الرازي عدة أدلة على أنها ليست بجسم ، وهي أدلة سبق أن قال بها ابن سينا من قبل .

ويقول فخر الدين الرازي : إن « مذهب الجمهور من المحققين وأصحاب المكاشفات أن القلب هو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء ، وأن النفس متعلقة به أولاً ، وبواسطة ذلك التعلق تصير متعلقة بسائر الأعضاء ، وهذا هو مذهب أرسطو وأتباعه من عدة الحكماء » (٢) . ويرهن فخر الدين الرازي على ذلك بكثير من الأدلة المستمدة من القرآن الكريم ، والأخبار ، والحجج العقلية (٣) .

قوى النفس

لم يأت فخر الدين الرازي بشيء جديد فيما يتعلق بقوى النفس ، وإنما هو يستمد آراءه عنها من ابن سينا .

يذهب فخر الدين الرازي إلى أن للنفس ثلاثة أنواع من القوى هي : قوى نباتية ، وقوى حيوانية ، وقوى إنسانية .

القوى النباتية

إن جسم الإنسان حار رطب ، وتسبب الحرارة في الرطوبة تصاعد الأجزاء البخارية منه ، فيحدث عن ذلك الذبول والانحلال في الجسد ، فأودع الخالق الحكيم فيه « القوة الغذائية » التي تحيل مادة الغذاء إلى مادة شبيهة بمادة الجسم ، وتضيفه إلى أعضائه . كما أودع الخالق الحكيم فيه أيضاً « القوة المولدة » التي تقوم بفعل التوليد (٤) .

القوى الحيوانية

القوى الحيوانية نوعان : محرّكة ومدركة .

(١) كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، مرجع سابق ، ص ٣٢-٣٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ٥١ ، ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥١-٦٣ . (٤) المرجع السابق ، ص ٧٥-٧٦ .

(أ) القوى المحركة

إن القوى المحركة إما تكون مباشرة للتحريك أو باعثة عليه . والمباشرة للتحريك هي القوة الموجودة في العضلات . أما القوى الباعثة على التحريك فلها مراتب . أولى هذه المراتب هي « الإرادة الجازمة » و « الشوق الجازم » . وهذه الإرادة الجازمة إنما تتولد من شهوة تتعلق بجذب الملازم ، أو من غضب يتعلق بدفع المنافي . وهذه الشهوة وهذا الغضب إنما يتولدان من شعور الإنسان بكون الشيء ملائماً أو بكونه منافياً^(١).

(ب) القوى المدركة

القوى المدركة إما ظاهرة ، وهي الحواس الخمسة الظاهرة ، وإما باطنة وهي الحواس الخمسة الباطنة . وإذا توخينا الدقة في القول ، فإن هذه الحواس الخمسة الباطنة إما مدركة ، وإما متصرفة .

إن القوى المدركة الباطنة إما تكون مدركة لصور المحسوسات ، وهي التي تجتمع فيها صور المحسوسات من الحواس الخمسة الظاهرة ، وهي تسمى « الحس المشترك » . وإما تكون مدركة للمعاني الجزئية التي لا تكون محسوسة ، ولكنها تكون قائمة في المحسوسات الخارجية ، مثل حكمنا أن شخصاً معيناً صديق أو عدو . وهذه هي القوة التي تسمى « الوهم » .

ثم إن للحس المشترك خزانة تسمى « الخيال » ، وللوهم كذلك خزانة تسمى « الحافظة » .

والقوة الحاسة الباطنة الخامسة هي التي تتصرف في الصور المحسوسة الجزئية والمعاني الجزئية التي يدركها « الوهم » بالتركيب والتحليل ، وهي تسمى « القوة المفكرة »^(٢).

وتعين الحواس في تكميل كل من جوهر النفس وجوهر البدن . أما إعانتها في تكميل جوهر النفس فهو من جهة أنها الطريق الذي تكتسب به النفس المعرفة ، وأما إعانتها في تكميل البدن ، فهو من جهة أنها توقف الإنسان على معرفة ما يضره وما ينفعه ، فيشتغل بجلب النافع ، ودفع الضرر^(٣).

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٠ ؛ فخر الدين الرازي : المطالب العالية من العلم الإلهي . الجزء السابع : في الأرواح العالية والساقلة (النفس) . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .

القوى الإنسانية

للنفس الإنسانية قوتان : نظرية وعملية . « وأما القوة النظرية فهي القوة التي باعتبارها يستعد جوهر النفس لقبول الصور الكلية المجردة . وأما العملية فهي القوة التي باعتبارها يستعد جوهر النفس لتدبير هذا البدن ، والقيام بإصلاح مهماته » (١).

القوة النظرية

يذكر فخر الدين الرازي مراتب القوة النظرية (أو العقل النظرى) كما قال بها ابن سينا من قبل . ويلاحظ أنه شديد الإعجاب بابن سينا ، وكثيراً ما يذكره في كتبه ، ويأخذ عنه كثيراً من آرائه في النفس ، وقد قام بشرح كتابه « الإشارات والتنبيهات » ، كما قام أيضاً بتلخيص هذا الكتاب ومعهديه في كتاب مستقل بعنوان « لباب الإشارات » (٢). وهو يذكر للفعل مراتب أربعة هي ما يلي (٣).

١ - العقل الهولاني

المرتبة الأولى هي العقل الهولاني ، وهي نفس الطفل الخالية من جميع المعارف والعلوم ، إلا أنها قابلة للعلوم . وقد سميت بالعقل الهولاني لهذا المعنى .

٢ - العقل بالملكة

المرتبة الثانية هي العقل بالملكة . ويقسم فخر الدين الرازي العلوم إلى بدئية وكسبية . والعلوم البدئية تحصل في العقول أولاً . ثم بواسطة هذه العلوم البدئية يحصل الإنسان العلوم الكسبية . وحينما يحصل العقل العلوم البدئية والكسبية فإنه يسمى العقل بالملكة .

وتتفاوت العقول في هذه المرتبة من وجهين : « الأول : في كثرة العلوم البدئية وقلتها . والثاني : في أن صاحبها قد يكون بحيث يسهل عليه تركيب العلوم البدئية ، بحيث تتأدى تلك التركيبات إلى حصول العلوم بالتنتاج ؛ وقد يكون بحيث يصعب عليه ذلك ، وقد يكون بحيث تيسر عليه ذلك » (٤). ومراتب السهولة والصعوبة غير محددة بالضبط ، فقد تمتد بحيث تصل في

(١) كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، ص ٧٧ .

(٢) فخر الدين الرازي : كتاب لباب الإشارات . ط ٢ . القاهرة : مكتبة الجانجي ، ١٣٥٥ هـ .

(٣) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج ٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

طرف النقصان إلى الغنى الذى لا يتيسر عليه الكسب والطلب أصلاً ، وقد يصل فى « طرف الزيادة إلى الكامل الذى تحصل له تلك التركيبات على أكمل الوجوه ، وأحسن الترتيبات من غير سعى فى الطلب . وأصحاب هذا الكمال هم الأنبياء المعظمون ، والحكماء الكاملون . ومن الصوفية من يسمى هذا النوع من العلم بالعلم اللدنى ، أخذاً من قوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علماً) » (١).

٣- العقل بالفعل

« والمرتبة الثالثة هى العقل بالفعل ، وهو أن يحصل العلوم المكتسبة تحصيلاً تاماً وافرًا ، إلا أنها لا تكون حاضرة فى عقله ، ولكنها تكون بحيث متى شاء استحضارها ، قدر عليه من غير حاجة إلى مزيد عناء وتكلف » (٢).

٤- العقل المستفاد

والمرتبة الرابعة هى : « أن تكون العلوم حاضرة بالفعل ، مشقة تامة كاملة مضبوطة . وهذا هو المسمى بالعقل المستفاد . وإذا بلغت النفس البشرية إلى هذا الحد ، فقد وصلت إلى آخر الدرجات البشرية ، وأول منازل الملائكة » (٣).

القوة العملية

القوة العملية هى القوة العقلية التى بها تقوم النفس بتدبير البدن وإصلاح مهاته . فالنفس إنها دخلت العالم الجسمانى لتكتسب العلم النافع والعمل الصالح . وآلة النفس فى هذا الاكتساب هى النفس . وما لم تكن الآلة صالحة لا يتمكن المكتسب من الاكتساب . والقوة العقلية العملية هى التى تقوم بتدبير شئون البدن وإصلاح مهاته ليكون آلة صالحة للنفس فى اكتساب العلم النافع والعمل الصالح (٤) ، أو كما يقول بعبارة أخرى ، لكى تكتسب النفس حلية العلم ، وتصير متنقشة بنقش عالم الملكوت ، متحلية بحلية اللاهوت (٥). ويذكر فخر الدين الرازى بعض الأمثلة التى تبين أهمية قيام أعضاء البدن وقوى النفس المختلفة بخدمة النفس

(١) الكهف : ٦٥ ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ؛ كتاب النفس والروح وشرح قواها ، ص ٨٠ .

(٥) المطالب العالية من العلم الإلهى ، ج-٧ ، ص ٢٨٨ ؛ كتاب النفس والروح وشرح قواها ، ص ٨٢-٨٣ .

الناطقة . ومن هذه الأمثلة أن : « البدن كالمدينة ، والنفس الناطقة كالملك ، والحواس الظاهرة والباطنة كالجنود ، والأعضاء كالرعية ، والشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ، ويسعى في إهلاك رعيته . فإن قصد الملك قهر ذلك العدو ، استقامت المملكة ، وارتفعت الحصومة . وإن لم ينازع عدوه ضيَّع مملكته ، واحتلت ببلدته ، وصارت عاقبة أمره إلى الهلاك » (١).

ومن هذه الأمثلة أيضًا : « مثل النفس الناطقة ، مثل : فارس ركب لأجل الصيد . فشهوته فرسه ، وغضبه كلبه . فإن كان الفارس حاذقًا ، وفرسه مرتاضًا متقادًا ، وكلبه مُعَلِّمًا ، كان جديرًا بالنجح . ومتى كان هو في نفسه أخرق ، وكان الفرس جوحًا ، والكلب غير مُعَلِّم ، فلا فرسه تنبثق تحته على حسب إرادته ، ولا كلبه يسترسل بإرشاداته ، فهو خليق بأن يعطب ، فضلًا عن أن ينال ذلك الذي طلب » (٢) . ويلاحظ أن مسكويه قد ذكر نفس هذا المثال من قبل (٣).

وحدة النفس

يتنقد فخر الدين الرازي ما ذهب إليه الفلاسفة من تفريع أفعال النفس المختلفة على القوى المختلفة ، وإسناد كل فعل على حدة إلى قوة على حدة ، وهو يقول : إن « جميع هذه الإدراكات لجوهر النفس ، وجميع هذه الأفعال لجوهر النفس ، وكل عضو من أعضاء البدن فهو آلة النفس بحسب فعل خاص من أفعالها . فآلة النفس في الإبصار هي العين ، وفي السماع هي الأذن ، وفي النطق هو اللسان » (٤).

وهو يتنقد جالينوس الذي قال بنفوس ثلاثة هي : « النفس النطقية ومتعلقها الدماغ ، والنفس الغضبية ومتعلقها القلب ، والنفس الشهوانية ومتعلقها الكبد » ، ويقول ، إن الرأي الحق عنده هو رأي أرسطو الذي ذهب إلى أن النفس واحدة ، وتنبعث منها قوى مختلفة كثيرة ، بحسب الأفعال المختلفة (٥).

ويذكر فخر الدين الرازي عدة أدلة تثبت وحدة النفس منها :

١ - « إن الغضب حالة نفسانية تحدث عند محاولة دفع المنافي ، والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملائم . ثم من المعلوم بالضرورة أن دفع المنافي ، وطلب الملائم مشروط بحصول

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج٧ ، ص ٢٨٧ ؛ كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ٨١ .

(٢) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج٧ ، ص ٢٨٧ ؛ كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ٨١-٨٢ .

(٣) انظر ص ٧٨ .

(٤) كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ٧٨ .

(٥) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

الشعور بكون الشيء منافيًا ، أو ملائمًا . فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافاة إن لم يكن لها شعور بكون ذلك الشيء منافيًا ، امتنع كونها دافعة لذلك المنافاة على سبيل الاختيار والقصد . . . ثبت أن الذي يغضب لابد وأن يكون هو بعينه مدرئًا . . . والذي يشتهي لابد وأن يكون هو بعينه مدرئًا ، ثبت بهذا البرهان القاطع أن الإدراك والغضب والشهوة : صفات ثلاثة لذات واحدة ، ويمتنع كونها صفات ثلاثة لذوات ثلاثة متباينة » (١).

٢- « إنا إذا فرضنا جوهرين مستقلين ، يكون كل واحد منهما مستقلًا بفعله الخاص به ، امتنع أن يكون اشتغال أحدهما بفعله الخاص به مانعًا للآخر من الاشتغال بفعله الخاص به . إذا ثبت هذا فنقول : لو كان محل الفكر جوهرًا ، ومحل الغضب جوهرًا ثانيًا ، ومحل الشهوة جوهرًا ثالثًا ، وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعًا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ، ولا بالعكس » (٢). ولكن لما كان اشتغال الإنسان بالشهوة يمنعه من الاشتغال بالغضب ، وبالعكس ، فإن ذلك يدل على أن هذه الأفعال الثلاثة وهي الفكر والغضب والشهوة ، أفعال لجوهر واحد ، وليست أفعالاً لثلاثة جواهر مستقلة .

٣- إذا أدركنا شيئًا ، فقد يكون الإدراك سببًا لحصول الشهوة ، أو لحصول الغضب . فلو كان الجوهر الذي يدرك شيئًا مغايرًا للجوهر الذي يشتهي ، وللجوهر الذي يغضب ، لما كان إدراكنا لهذا الشيء يؤدي إلى حصول الشهوة ، أو حصول الغضب . وإنما كان إدراك الشيء سبب حصول الشهوة ، أو حصول الغضب ، لأن صاحب الإدراك هو نفسه صاحب الشهوة وصاحب الغضب (٣).

نظرية المعرفة

يذهب فخر الدين الرازي إلى أن كمال النفس الناطقة هو في معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير لأجل العمل به . ولكن عمل الخير مشروط أيضًا بالمعرفة ، وعلى ذلك ، فإن أهم مهات النفس هو اكتساب المعرفة (٤).

ويقول فخر الدين الرازي : إن النفس « خلقت في مبدأ الأمر خالية من معرفة أكثر الأشياء ، لكنها أعطيت الحواس الظاهرة والباطنة حتى أن النفس إذا أحست بواسطة هذه الحواس

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠ ؛ كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج ٧ ، ص ١٦٠ .

(٤) كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، ص ٧٩ .

بالمحسوسات تنبّهت لمشاركات بينها وبين مبادئها ، فتميّز عند جوهر النفس عما به اشتراك تلك الأشياء ، وعما به امتيازها ، وحينئذٍ تحصل في النفس تلك الصور المجردة ^(١) . فالحس ، إذن ، عند فخر الدين الرازى ، كما هو عند جمهرة فلاسفة وعلماء النفس السابقين ، هو الأساس الذى تعتمد عليه النفس في معرفة المعقولات . فطريق المعرفة عنده طريق صاعد من الحس إلى العقل . ويتضح من ذلك تأثره الكبير بأرسطو الذى جعل الحس أساس المعرفة .

ويميز فخر الدين الرازى بين نوعين من الصور العقلية المجردة . النوع الأول هو الصور العقلية البدئية ، « التى يكون مجرد تصوراتها موجباً جزم الذهن بإسناد بعضها إلى بعض بالنفى والإثبات » ^(٢) . والنوع الثانى هو الذى لا يكون مجرد تصورها موجباً جزم الذهن فيها بالنفى والإثبات ، وهى العلوم المكتسبة النظرية ^(٣) . وهو يذهب إلى أن الإنسان يكتسب المعرفة بالمعقولات البدئية عن طريق الحواس ، وهو يقول : « ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علم » ^(٤) . ويلاحظ التشابه الكبير بينه وبين ابن حزم فى القول باكتساب المعرفة بالمعقولات البدئية عن طريق الحس ^(٥) . كما يلاحظ أيضاً أنه يردد ما سبق أن قاله ابن باجه وابن رشد من أنه من فقد حاسة فقد علم ^(٦) .

ومع أن فخر الدين الرازى يذهب ، كما ذكرنا سابقاً ، إلى أن الحس هو أساس المعرفة ، إلا أنه يعترف أيضاً بإمكان حصول المعرفة عن غير طريق الحس ، وبدون تعلم ، ومن غير سعى فى الطلب ، وهو ما يسميه الصوفية « بالعلم اللدنى » ، أخذاً من قوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علماً) ^(٧) . ويقول فخر الدين الرازى : « مثل هذه القوة القدسية والقوة العقلية الإلهية تستغنى فى معرفة حقائق الأشياء عن التعلم والاستعانة بالغير ، إلا أن مثل هذا فى غاية الندرة والقلّة » ^(٨) . ويلاحظ هنا تأثره بالمعرفة الإشراقية التى قال بها كل من الفارابى وابن سينا ^(٩) .

الفروق الفردية فى الصفات النفسانية

يرجع فخر الدين الرازى أسباب الاختلافات فى الصفات النفسانية إلى نوعين رئيسيين من الأسباب . .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٤) انظر الفصل السابع ص ١٥٦ .

(٥) انظر الفصل التاسع ص ١٢٧ ؛ والفصل الحادى عشر ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ .

(٦) الكهف : ٦٥ ، المطالب العالية من العلم الإلهى ، ج ٧ ، ص ٢٨٠ .

(٧) كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، ص ٥٣ . (٩) انظر ص ٦٨ ، وص ١٤٠ - ١٤١ .

أحدهما : اختلاف النفوس في الماهيات والذوات . فالنفس البشرية جنس تحت أنواع مختلفة بالماهية . وتحت كل نوع أشخاص متساوية ، « فنوع منها حرة كريمة فاضلة ، قوية الفهم والأفعال الجميلة ، ونوع آخر منها نذلة شريرة بليدة » (١).

والنوع الثاني : يرجع إلى الأمور الخارجية عن الذات والجوهر ، ومنها اختلاف أحوال الكواكب المسامنة للبلدة والتربة التي يوجد فيها الإنسان . ومنها اختلاف أمزجة الأعضاء .

ويذكر فخر الدين الرازي بعض أنواع الفروق الواقعة في القوى الأصلية النفسانية الثلاثة ، وهى : القوة النطقية الدماغية ، والقوة الغضبية القلبية ، والقوة الشهوانية الكبدية ، ويشرح الفروق الفردية في الصفات النفسانية المتعلقة بهذه القوى النفسانية الثلاثة .

أولاً : الفروق الفردية في الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الناطقة

القوة الناطقة قسيان : أحدهما كالأصل وهو العقل ، والثاني كالفرع وهو العلوم المكتسبة . ومراتب الإنسان في العقل مختلفة بالقوة والضعف ، والكثرة والقلة ، وهذا ظاهر . والعلوم المكتسبة قسيان . أحدهما : العلوم العقلية أو النظرية ، والعلوم النطقية . والثاني هو العلوم العملية المتعلقة بإصلاح أمر المعاش . والإنسان قد يكون كاملاً في قسمي العلوم المكتسبة ، وهو نادر . وقد يكون أيضاً ناقصاً فيهما . وقد يكون كاملاً في تحصيل العلوم النظرية ، إلا أنه يكون ناقصاً في العلوم العملية . وقد يكون بالضد من ذلك (٢).

ومراتب الإنسان في العلوم النظرية كثيرة ، وذلك من عدة وجوه (٣):

١ - الأول : إن الإنسان قد يكون قادراً كاملاً في جميع أنواع العلوم ، وهو نادر جداً . وقد يكون مقصراً في الكل ، وهو غالب جداً . وقد يكون كاملاً في البعض ، ناقصاً في البواقي ، وهذا أيضاً يختلف الحال . . (٤).

٢ - النوع الثاني من الفروق بين الناس هو : « أن فيهم من يكون السريع الحفظ بطيء النسيان ، وهذا هو القسم الأشرف . وفيهم من يكون بطيء الحفظ سريع النسيان ، وهو القسم الأخسر . ومنهم من يكون سريع الحفظ سريع النسيان ، أو بطيء الحفظ بطيء النسيان . وهذان القسمان متوسطان » (٥).

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج ٧ ، ص ١٤٢ ، ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ . (٣) المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥١ . (٥) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

فيه ، وتأت الصور المتخيلة إلى القوة الفكرية ، ويكون الإنسان في هذه الحالة سريع الفطنة ، سريع الجواب ، حادّ الفهم . أما إذا انتقبض هذا الجسم ، فإنه حينئذ يقصر ويغلظ ، ويسدّ المجرى ، أو يكاد ، فيضعف نفاد الروح فيه من التجويف المقدم إلى التجويف المتوسط ، فيمتنع ، أو يقلّ دخول الصور الخيالية إلى القوة المفكرة ، ويكون الإنسان في هذه الحالة بطيء الفهم ، قليل الفطنة ، متأخر الجواب . وتوجد فروق بين الناس في حركة هذا الجسم الشبيه بالدودة في الامتداد والانقباض ، تبعاً لأمزجة الأدمغة ، ولذلك توجد فروق كثيرة بينهم في هذه الصفات النفسانية التي ذكرناها (١).

النوع الثالث من الأسباب الدماغية :

النوع الثالث هو شكل قحف الرأس ، « فإن الشكل الجيد أن يكون القحف شبيهاً بكرة غمز عليها من الجانبين ، حتى يظهر نتوء في القدام وفي الخلف ، ولطاء من الجانبين . فهذا الشكل موافق لحال الدماغ ، فأما إذا فقد نتوء القدام ، ضعف التخيل . وإن فقد نتوء الخلف ضعف التذكر . وإن فقد النتوءان جميعاً ، فقد التخيل والتذكر » (٢). ويلدركنا ذلك بفروض علم « فراسة الدماغ phrenology التي وضعها جال Gall في ألمانيا في أوائل القرن التاسع عشر ، والتي ذهب فيها إلى زيادة نمو القوى العقلية المتمركزة في أجزاء الدماغ بسبب نتوءات في أجزاء الجمجمة المقابلة لمراكز هذه القوى في الدماغ » (٣).

النوع الرابع من الأسباب الدماغية :

النوع الرابع من الأسباب الدماغية هو شكل الرأس بالنسبة إلى البدن . فإذا كان كل من الرأس والبدن كبيراً ، فحينئذ يكون كل من القلب والدماغ قوياً ، وهنا يحصل الكمال . وإذا كان الرأس والبدن صغيرين ، فهنا يحصل النقصان . « أما إن كان الرأس صغيراً والبدن كبيراً ، فحينئذ يكون القلب قوياً جاقاً ، ويكون الدماغ صغيراً لا يقوى على مقاومة القلب ، فحينئذ يكثر الطيش والغضب . وأما إذا كانت الرأس كبيرة ، والبدن صغيراً ، فحينئذ يكون كبر تلك الرأس بسبب الرطوبات الفصلية ، وهذا الإنسان يكون قليل الفهم ، ضعيف القلب ، مختل الأفعال » (٤).

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) Gardner Murphy and Joseph K. Kovach : Historical Introduction to Modern Psychology : 6th (٣) ed, London : Routledge & Kegan Limited, 1972, pp. 55-56.

(٤) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ج ٧ ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

ثانيًا : الفروق في الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الغضبية القلبية

تولد من البطن الأيسر من القلب أجسام لطيفة روحانية تسرى في الشرايين في جميع أعضاء البدن ، وتعطيها قوة الحياة والحرارة الغريزية . فإذا كانت هذه الحرارة قوية حصل التهور ، وإذا كانت ناقصة حصل الجبن ، وإن كانت معتدلة حصلت الشجاعة . ونفس الأمر صحيح أيضًا بالنسبة إلى النشاط والكسل ، والسرعة والإبطاء في الأفعال والأقوال . وإذا كان القلب والدماغ معتدلين حصلت هذه الأفعال على أحسن وجه ، خالية من الزيادة والنقصان . أما إذا كانا غير معتدلين ، فإنه في حالة زيادة الحرارة ، عظم الطيش والشطط ، وفي حالة زيادة البرودة عظم الجبن والخوف وقلت الحمية . وإذا كان القلب شديد الحرارة ، والدماغ معتدلاً ، فإن الدماغ المعتدل يمنع من الإفراط في الغضب ، وإن كان الغضب مستويًا على القلب . أما إذا كان القلب ضعيف الحرارة ، وكان الدماغ معتدلاً ، فإن العقل يحمله على أفعال الشجاعة ، وإن كان الجبن حاصلاً في القلب^(١).

ثالثًا : الفروق في الصفات النفسانية المتعلقة بالقوة الشهوانية الكبدية

يرجع اختلاف الناس في شهوة المأكول والمشروب إلى الفروق بينهم في حجم البدن ، وحجم المعدة ، ومقدار السوداء الطبيعية التي تنصب إلى فم المعدة ، وحجم الكبد ، واختلاف حاله من حيث الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأوردة الناشئة منه من حيث الاتساع والضيق . أما اختلاف الناس في شهوة الباه ، فيرجع إلى اختلاف مزاج البدن في الحرارة والرطوبة^(٢).

ويلاحظ تأثر فخر الدين الرازي بنظرية أبقراط Hippocrates (٤٠٠ ق.م) الذي أرجع اختلاف سمات الشخصية بين الناس إلى اختلاف الأخلاط ، أو سوائل الجسم الأربعة التي اقترض أن الجسم يتكون منها وهي الدم والسوداء والصفراء والبلغم ، وذهب إلى أن سيادة أحد هذه الأخلاط يؤدي إلى سيادة أحد الأمزجة على الإنسان . وأرجع أبقراط الفروق بين الناس في سماتهم الشخصية إلى الفروق بين الأمزجة السائدة في أجسامهم^(٣).

ويلاحظ أيضًا أن ما ذهب إليه أبقراط ، وتبعه في ذلك فخر الدين الرازي ، فيما يتعلق بتأثير

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٥- ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(٣) محمد عثمان نجاتي : علم النفس والحياة ، مرجع سابق ، ص ٣٥٦ .

أخلاق الجسم على الأمزجة يتفق إلى حد كبير مع ما يؤكد العلم الحديث من تأثير هرمونات الغدد النماء على السلوك^(١).

اللذة والألم

يقول فخر الدين الرازي إنه لا يوجد شيء محبوب لذاته سوى اللذة والكمال . ولا يوجد في الحقيقة فرق بينهما ، لأن ما يكون لذيقًا يكون سببًا لحصول الكمال للممتد ، وما يكون كمالًا يكون لذيقًا . ولكننا نسمى اللذيق الجسائي باللذة ، واللذيق الروحاني بالكمال^(٢).

والشيء المكروه بذاته هو الألم والنقصان . ولا يوجد في الحقيقة فرق بينهما . « فالكمال محبوب لذاته وبذاته ، من حيث أنه كمال ؛ والنقصان مكروه بذاته ولذاته ، من حيث أنه نقصان »^(٣).

واللذات ليست في الحقيقة إلا دفع الآلام . فإنه لا معنى للذة الأكل إلا دفع ألم الجوع ، ولا معنى للذة الملابس إلا دفع ألم الحر والبرد . فحقيقة اللذة ، إذن ، هي دفع الألم ، ويتبين من ذلك أن الأشياء التي يظن بعض الناس أنها لذات ، هي ليست في الحقيقة بلذات ، بل هي سعى في دفع الآلام^(٤).

وإذا كانت الحاجة إلى الشيء أشد ، كان الالتذاذ به إذا وجد أقوى . وبالعكس ، إذا كانت الحاجة إلى الشيء أقل ، كان الالتذاذ به إذا وجد أضعف^(٥).

والشيء اللذيق إذا بقي واستمر لم يبق لذيقًا في حالة بقائه ، لأنه في حالة الاستمرار والاستقرار يزول الانفعال ، فلا يحصل الشعور ، وإذا لم يحصل الشعور لا يحصل الالتذاذ ، وكذلك الأمر إذا كان مؤلمًا . فاللذة والألم لا يحصلان إلا عند الانتقال من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر^(٦).

ويلاحظ وجه الشبه بين رأى كل من فخر الدين الرازي وأبي بكر الرازي في اللذة والألم ، وأن كلا منهما قد تأثر برأى أفلاطون الوارد في كتاب طياوس^(٧).

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

(٢) كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨ ، ٩٧ .

(٧) انظر الفصل الثاني ، ص ٤٤ .

السعادة

ليست سعادة الإنسان في الحصول على اللذات الحسية ، لأنها غير دائمة ، ولما ينشأ عنها من الأضرار الكثيرة إذا ما استغرق الإنسان في تحصيلها . واللذات الحسية تنافي معنى الإنسانية ، « ذلك لأن الإنسان إنما يكون إنساناً لحصول نور العقل ، وإطلاعه على عالم الغيب والأنوار الإلهية . فإذا اشتغل الإنسان باستيفاء هذه اللذات الجسائية تكدرت القوة العقلية ، وانسدّ عليه باب المعارف ، وصارت البهيمية غالبية عليه ، والإنسانية مفقودة منه »^(١). ويقول فخر الدين الرازي : « إن أصل أحوال الإنسان اشتغاله بمعرفة الله تعالى ، وإقباله على طاعته ، واستغراقه في محبته ، ثم إن اشتغال الإنسان باستيفاء اللذات الجسائية ، والطيبات الحسية يمنعه عن عبودية الله ويصدّه عن ذكر الله . ولما كانت هذه المعارف أشرف مراتب المخلوقات ، وهذه اللذات الحسية مانعة عنها ، كانت هذه اللذات أخسّ الأشياء ضرورة »^(٢).

ثم إن الحصول على اللذات الجسائية مشروط بتعلق النفس بالبدن ، غير أن التعلق منقطع ، وعن انقطاعه يتمتع الحصول على اللذات الجسائية . أما اشتغال النفس بطلب كمال العلم فهو لذة في الحال ، وسعادة في الاستقبال ، وذلك لأن « قبول النفس للجلال القدسية ، والمعارف الإلهية ، فغير موقوف على تعلق النفس بالبدن ، بل هذا التعليق كالعائق عن حصول كمالها . فإذا انقطع هذا التعلق أشرقت تلك الجلال الإلهية »^(٣). فسعادة الإنسان ، إذن ، هي في توجه الروح إلى العالم الأعلى ، وفي صرفها عن العالم الأسفل ، « فإن المتوجهين إلى عالم القدس وجدوا بقاءً بلا فناء ، وعزاً بلا ذلّ ، ولذة بلا ألم ، وأماناً بلا خوف »^(٤).

ويصنّف فخر الدين الرازي النفوس على أساس توجه الروح إلى العالم الأعلى ، أو إلى العالم الأسفل ، أو التوسط بينهما إلى ثلاثة أقسام :

١ - أعلاها درجة هم هؤلاء الذين يسميهم القرآن الكريم بالسابقين ، حيث قال : (والسابقون السابقون ، أولئك المقربون)^(٥)، وهؤلاء هم المتوجهون إلى العالم الإلهي ، المستغرقون في تلك الأنوار الصمدانية والمعارف الإلهية .

٢ - الدرجة الوسطى هم أصحاب النفوس التي سهاها القرآن الكريم « بأصحاب الميمنة

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨-٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٥) الواقعة : ١٠ .

والمقتصدين » ، وهؤلاء هم الذين يبلغون إلى العالم الأعلى تارة بالعبودية والخضوع ، وإلى العالم الأسفل تارة أخرى بالتدبير والتصرف .

٣- الدرجة الثالثة هم المتوجهون إلى العالم الأسفل ، المتوغلون في طلب لذاته ، وهم الذين سباهم القرآن الكريم « بأصحاب الشمال والظالمين »^(١).

علم الفراسة

اهتم فخر الدين الرازي بموضوع « الفراسة » ، وهي على حسب تعريفه لها : « الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة »^(٢) . ومعنى الفراسة من الناحية اللغوية هو : « المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها »^(٣) . ويقول أبو القاسم الراغب : إن لفظ الفراسة أُشتق من قولهم : « فرس السبع الشاة » ، فكانت الفراسة عبارة عن اختلاس المعارف بهذا الطريق المعين^(٤) . وجاء في الحديث : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » . ثم قرأ : « إن في ذلك لآيات للمتوسمين »^(٥) . والمتوسمون أى المتفرسون . فالفراسة نور يقذفه الله تعالى في قلب مَنْ يشاء فيرى به الأمور الخفية^(٦).

ويعتد الرازي رائداً في مجال « علم الفراسة » بعد أرسطو ، وقد قام في كتابه عن الفراسة بتلخيص كتاب أرسطو مع إضافة زيادات مهمة إليه . وقد كتب بعض العلماء المسلمين الآخرين أيضاً في موضوع الفراسة ، منهم محمد بن الصوفي الذي ألف كتاباً في « السياسة في علم الفراسة » . كما تناول ابن قيم الجوزية أيضاً موضوع الفراسة في كتابه « مدارج السالكين »^(٧).

وفي أوائل القرن التاسع عشر اهتم فرانتز جوزيف جال Franz Joseph Gall (١٧٥٨ - ١٨٢٨ م) وتلميذه سبورتنزهايم Spurzheim (١٧٧٦ - ١٨٣٢ م) في ألمانيا بدراسة العلاقة بين شكل الجمجمة والقدرات العقلية والسمات النفسانية . وقد قاما بوضع عدة افتراضات هي :

- (١) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- (٢) فخر الدين الرازي : الفراسة - دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكانهم كتاب مفتوح . تحقيق وتعليق مصطفى عاشور . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٨٨٧ ، ص ٢٧ .
- (٣) المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٨١ .
- (٤) فخر الدين الرازي : الفراسة ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .
- (٥) رواه الترمذي عن أبي سعيد . انظر منصور على ناصف : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ط ٤ ، ج ٤ : القاهرة : دار الفكر ، ١٩٧٥ ، ص ١٥٥ .
- (٦) المرجع السابق ، هامش رقم ٤ ، ص ١٥٥ .
- (٧) مصطفى عاشور : مقدمة كتاب « الفراسة » ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

- ١ - إن القدرات العقلية والسمات النفسانية تتمركز في مناطق معينة من الدماغ .
 - ٢ - إن درجة نمو هذه القدرات العقلية والسمات النفسانية تتوقف على مقدار نمو أجزاء الدماغ التي تتمركز فيها :
 - ٣ - إن زيادة النمو في أى جزء من أجزاء الدماغ يحدث ضغطاً على جدار الجمجمة المقابل له ، ويؤدى ذلك إلى حدوث تنوء في هذا الجزء من الجمجمة .
 - ٤ - يمكن عن طريق تحسس أجزاء الجمجمة بالأصابع ، وعن طريق قياس مساحات أجزائها المختلفة ، معرفة القدرات العقلية والسمات النفسانية التي يتفوق فيها الفرد .
- ولم تؤيد الدراسات التجريبية التي أجريت بعد ذلك حول فسيولوجية المخ صدق الافتراضات التي قام عليها علم « فراسة الدماغ » pbrenology الذى أنشأه جال وتلميذه ^(١).
- وسوف نرى فيما بعد عندما نعرض آراء فخر الدين الرازى في علم الفراسة أنه سبق جال وتلميذه في القول بوجود علاقة بين شكل الجمجمة وبين القدرات العقلية .
- ويقسم فخر الدين الرازى علم الفراسة إلى قسمين :
- القسم الأول : هو حصول « خاطر في القلب أن هذا الإنسان من حاله وخلقه كذا وكذا من غير أن تحصل هناك علامة جسمية ، ولا إمارة محسوسة » ^(٢). وهذا النوع من الفراسة يحصل لبعض الناس الذين يتميزون بصفاء القلب ، وشفافية الروح ، والقوة القدسية ، وهو فراسة الأنبياء وأكابر الأولياء ^(٣). ومن أمثلة هذا النوع من الفراسة ، فراسة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يك في أمى أحد فإنه عمر » ^(٤). وهذا القسم من الفراسة لا يتناوله فخر الدين الرازى في كتابه .

القسم الثانى : أما القسم الثانى من الفراسة فهو الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ، أى الحكم « بمقتضى الأحوال الظاهرة المحسوسة في الجسد على الأحوال الباطنة » ^(٥).

(١) Gardner Murphy and Joseph K. Kovaeh, op.c., pp. 55-56.; James F. Brennan : History and Systems of Psychology. New Jersey : Preutice - Hall, Inc., 1982, p. 150-151.

(٢) الفراسة ، ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ، الحديث رقم ٣٦٨٩ ، فتح البارى بشرح البخارى ، ج ١٤ ، ص ١٨٩ .

(٥) الفراسة ، ص ٣٢ .

ويقول فخر الدين الرازي : « إن أصول هذا العلم مستندة إلى العلم الطبيعي ، وتفاريه مقرر بالتجارب ، فكان مثل الطب سواء بسواء »^(١). وهذا النوع من علم الفراسة هو الذى يجرى فيه التعليم والتعلم ، وهو الذى يتناوله فخر الدين الرازي فى كتابه .

العلامات النفسانية للأمزجة البدن

يذكر فخر الدين الرازي أن معرفة الأخلاق الباطنة فى الإنسان إنما يستدل عليها من معرفة علتها الموجبة وهى « المزاج البدنى » ، أو سائر أحوال الإنسان الأخرى التى يكون المزاج البدنى علتها^(٢) .

ويذكر فخر الدين الرازي العلامات النفسانية للأمزجة البدنية التى تغلب عليها الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة . فالعلامات النفسانية للمزاج الحار هو الذكاء ، والفطنة ، وسرعة الكلام ، وسرعة الحركة ، والشجاعة ، وقلة التهيب . والعلامات النفسانية للمزاج البارد هو أصداد ما ذكرناه فى المزاج الحار ، وهى قلة الفهم ، وبطء الذهن ، وثقل اللسان ، وبطء الحركة ، والجبن ، والخوف . والعلامات النفسانية للمزاج الرطب هى البلادة ، وكثرة النوم ، وكدر الخواص ، وقلة الجلد والقوة ، وكثرة التعب . والعلامات النفسانية للمزاج اليابس هى أصداد ما ذكرناه بالنسبة للمزاج الرطب ، وهى صفاء الخواص ، وكثرة السهر ، وكثرة الجلد ، والصبر على التعب^(٣) .

العلامات النفسانية للأمزجة الدماغ

إن شكل الرأس المقبول هو أن يكون له نتوء من قدام ، ومنتوء من خلف ، مع انخفاض الجانبين . أما الشكل المرتفع ، أو الناتئ ، فمذموم ، إلا إذا كان لقوة المصوِّرة^(٤) . ويلاحظ أن العلاقة بين نتوء طرف الجمجمة وبين قوة القوة المصوِّرة التى أشار إليها فخر الدين الرازي فى عبارته السابقة ، تقرب كثيراً مما قاله جال Gal فيا بعد بحوللى ستة قرون عن وجود علاقة بين نتوءات الجمجمة وبين القوى العقلية المتمركزة فى أجزاء الدماغ المقابلة لهذه النتوءات .

ويذكر فخر الدين الرازي رأى جالينوس الذى يذهب إلى أن « صغر الرأس لا يخلو ألبتة عن

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠ - ٧١ .

دلالة على رداءة هيئة الدماغ لأنها تكون ضعيفة القوى . ثم إن كان مع ذلك ردىء الشكل كان في غاية الرداءة ، وإن كان حسن الشكل كانت الرداءة أقل . فلذلك قال أصحاب الفراسة : هذا الإنسان يكون لجوئاً ، جباناً ، سريع الغضب ، متحيزاً في الأمور » (١).

أما إذا كانت الرأس كبيرة حسنة الشكل ، وانضم إلى ذلك غلظ العنق ، وسعة الصدر ، وقوة القلب ، فإن ذلك هو نهاية الجودة . أما إذا اختل شيء من هذه الأمور ، حدث بعض الاختلال في وجهه من الوجوه (٢).

ويذهب فخر الدين الرازي أيضاً إلى أنه يمكن الاستدلال على أحوال مزاج الدماغ من أحوال العين ، واللسان ، والوجه ، ومجاري اللهاة ، واللوزتين ، والرقبة ، والأعصاب . فمثلاً ، « إن جفاف العين يدل على ييس الدماغ ، وسيلان الدمع بغير سبب ظاهر يدل في الأمراض الحادة على اشتعال الدماغ وأورامها . وإن كثرة الطرف يدل على اشتعال وجنون . والاستمرار في النظر إلى موضع واحد يدل على « ماليخولنا » . ويستدل أيضاً من كيفية حركات العين على أحوال الدماغ من غضب ، أو وهم ، أو خوف ، أو غيرهما » (٣).

العلامات النفسانية لشكل الجبهة

الجبهة الصغيرة تدل على الجهل ، لأن ذلك يدل على صغر البطن المقدم من الدماغ ، وذلك يوجب دخول الآفة في الحفظ والفكر . والجبهة العظيمة تدل على الكسل والغضب ، لأن عظم الجبهة يحتمل أن يكون لكثرة المادة ، ويسبب ذلك الكسل ، ويحتمل أن يكون لقوة الحرارة الغريزية الدماغية التي تقتضي توسيع المنافذ ، وحيث أن الإنسان غضوباً . والجبهة كثيرة الغضون تدل على الصلف . والجبهة المنبسطة التي لا غضون فيها تدل على الشغب (٤).

والحاجب الكثير الشعر يدل على كثرة الهم والحزن ، وغث الكلام . والحاجب الذي يميل من ناحية الأنف إلى أسفل ، ومن ناحية الصدغ إلى فوق فإنه يدل على أن صاحبه صلف أبله (٥).

والعين العظيمة المقدار تدل على الكسل . والعينان الجاحظتان تدلان على أن صاحبهما جاهل مهذار . والعينان الغائرتان تدلان على الخبيث . وإذا كانت العينان غائرتين قليلاً ، فبدل ذلك على

(١) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

نبل النفس . وإذا كان جفن العين منكسراً ، أو ملتوياً فصاحبه مكار ، كذاب ، أحمق . ومن كانت عيناه تتحركان بسرعة وحدة ، وكان حادّ النظر فهو مكار ، محتال ، لص . ومن كانت عيناه تتحركان ببطء كأنها جامدة ، فهو صاحب فكر ومكر (١).

ويذكر فخر الدين الرازي أيضاً دلائل كثيرة على الخلق الباطن من شكل الأنف ، والفم ، والشفة ، واللسان ، والوجه ، والأذن ، والعنق ، والصوت ، والنفس ، والكلام ، والحركات ، وشكل البطن ، والظهر ، والذراع ، والكف ، والورك ، والساق ، والقدم (٢).

علاج الأخلاق الذميمة

اهتم فخر الدين الرازي بتحليل بعض الأخلاق الذميمة ، بهدف معرفة أسبابها ، وبيان طرق علاجها . ومن الأخلاق الذميمة التي تناولها بالتحليل البخل ، الذي سوف نذكره فيما يلي كنموذج يبين أسلوبه في تحليل الأخلاق الذميمة ، وطرق علاجها .

البخل

يفرق فخر الدين الرازي بين الحرص والبخل . « فالحرص هو السعى التام في تحصيل المال عند عدمه ، أو عند قلته . والبخل هو السعى التام في إمساكه عند وجوده . فعجب المال حاصل في الأمرين ، إلا أن حب الجمع والتحصيل هو الحرص ، وحب الإبقاء هو البخل » (٣).

وعلاج البخل يتم بطريقتين : طريق العلم ، وطريق العمل ، محتذياً في ذلك حدو الغزالي الذي كان يوصي بعلاج الأخلاق الذميمة بطريقتي العلم والعمل . وقد تأثر فخر الدين الرازي كثيراً بما قاله الغزالي من قبل عن علاج البخل ، وأخذ عنه كثيراً من آرائه في هذا الموضوع (٤).

علاج البخل بطريق العلم

يمكن علاج البخل بطريق العلم بعدة شُبل منها (٥):

(١) المرجع السابق ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤ - ١١٧ .

(٣) كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ١١٣ .

(٤) قارن ما قاله الغزالي عن البخل في « إحياء علوم الدين » ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٢٦١ - ٢٦٣ ، مما قاله

فخر الدين الرازي في كتاب « النفس والروح وشرح قواهما » ، ص ١١٤ - ١٢٣ .

(٥) كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، ص ١١٤ - ١٢١ .

١ - أن يكثر من ذكر الموت ، والتأمل في موت الأقران ، وفي أن المرء لا يمكنه الانتفاع بالمال إلا في الزمان الحاضر . ثم عليه أن يقلل من حاجاته ، فحينئذ يقل حرصه على تحصيل المال الذي يُسدّ به هذه الحاجات .

٢ - أن يتأمل في الآيات والأحاديث الواردة في ذم البخل ، ومدح السخاء ، والوعد بالثواب العظيم في السخاء ، والوعيد بالعقاب في البخل^(١) .

٣ - أن يكثر التأمل في أحوال البخلاء ، ونفور الناس منهم ، وكثرة ذمهم لهم ، وحينئذ يعلم حقيقة شعور الناس نحوه .

٤ - على المرء أن يعلم أنه لا سبيل إلى الانتفاع بالمال إلا بخروجه من اليد . ومنافع المرء إما جسدانية قليلة حقيرة ، وهذه لا حاجة في تحصيلها إلى المال الكثير . وإما روحانية ، وهذه لا فائدة للمال في تحصيلها .

٥ - إن البخل قد يعرض له من الظروف ما يجعله يفقد ماله ، وحينئذ لا يجد من الناس حمداً ، ولا من الله تعالى أجراً . أما إذا كان المرء ينفق ماله في وجوه الخير ، فإنه سيلقى الحمد من الناس ، والأجر والثواب من الله تعالى .

٦ - إن البخليل يكون كالأسير في قبضة استيلاء حب المال عليه ، أما إذا قدر على الإنفاق كان المستولى على المال ، القاهر له . وكون الإنسان قاهراً للمال ، أحسن وأفضل من كونه مقهوراً له .

٧ - إذا مات البخليل ، فإنه يترك ماله لغيره ، وهؤلاء سوف ينفقونه في منافعهم ، ولا يذكرونه إلا بالدم . فالبخليل ، إذن ، لا يجد من ماله إلا الدم في الدنيا ، والعقاب في الآخرة .

٨ - السخى يكون ممدوحاً محبوباً من كافة الناس ، والبخليل يكون مبعوضاً ممقوتاً منهم . فالسخى بذل المال وملك أرواح الناس . أما البخليل فأمسك المال وحرم من ملك الأرواح . والأرواح البشرية من جوهر الملائكة ، والذهب والفضة من جنس الجمادات . ولذلك ، كان التفاوت بين الأمرين كبيراً جداً .

٩ - « إن المواظبة على القناعة يفيد ملكة الاستغناء عن الشيء ، والتنعم بطيبات الدنيا ولذاتها يفيد ملكة الاستغناء بالشيء ودوام الحاجة إليه . والاستغناء عن الشيء أكمل من الاستغناء بالشيء ، لأن الأول صفة الحق ، والثاني صفة الخلق . ولأن الأول استغناء صرف ، والثاني استغناء ممتزج بالحاجة »^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

١٠ - « إن صاحب المال يحتاج إلى الجهد الشديد في حفظه وصونه من الآفات والهلاك . بل إن تلف حصل له الغم الشديد ، وإن لم يتلف فلا يزال خائفًا عليه متعويًا لأجله . أما المتحرر عن المال باكتساب كمال النفس فإنه خالٍ عن هذا الخوف والتعب » (١) .

إن العلم بكل هذه الحقائق السابقة من شأنها أن تغتير نظرة البخل إلى المال ، وأن تقلل من حرصه على اكتنازه وعدم إنفاقه ، فيتخلص بذلك من بخله . وهكذا نرى أن فخر الدين الرازي ، مثل الكندي ، وأبى بكر الرازي ، ومسكويه ، والغزالي ، قد سبق المعالجين النفسانيين المحدثين من أتباع مدرسة العلاج النفساني السلوكي المعرفي .

علاج البخل بطريق العمل

ويذكر فخر الدين الرازي عدة وسائل يمكن بها علاج البخل بطريق العمل ، منها : (٢)

١ - مجالسة الفقراء ، والابتعاد عن مجالسة الأغنياء ، فمجالسة الفقراء المنقطعين إلى الله يقلل من ميل الإنسان إلى تحصيل المال .

٢ - إذا تأمل البخل ما سبق أن ذكرناه من مدام البخل ، ومحاسن السخاء ، فإنه لابد أن يميل إلى اختيار المحاسن . فينبغي عليه حينئذ أن يبادر ببذل المال والجود به قبل أن يعارضه الشيطان بشبه فيصده عن ذلك .

٣ - أن يتفق للإنسان أستاذ مشفق يعينه على التخلص من الأشياء التي يتعلق بها قلبه (٣) .

٤ - إن البخل هو فرط عشق المال ، والعشق إذا تمكّن فهو مرض شديد ، وأحسن دواء له هو البعد عن المعشوق ، والرحيل عن بلد هو فيها ليكنه السلو عنه . وكذلك حب المال ، يعالج بإنفاقه ليزول عشقه من القلب ، فتزول صفة البخل . فعلاج البخل ، إذن ، هو في كثرة إنفاق المال . ويذكر فخر الدين الرازي هنا قاعدة عامة هي : « إن كثرة الأفعال تفيد الملكة الراسخة القوية ، وكذا كثرة المفارقة تفيد ضعف تلك الملكة » (٤) . وبناءً على ذلك ، فإن كثرة إمساك المال يقوى صفة البخل ، أما كثرة إنفاقه فيضعف صفة البخل .

إن هذا الأسلوب في العلاج هو ، في الحقيقة ، علاج الخلقُ الذميمة بضده ، كما أوصى الغزالي

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٣) انظر ما قاله الغزالي في هذا المعنى في « إحياء علوم الدين » ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .

(٤) كتاب النفس والروح وشرح قوامها ، ص ١٢٣ .

بذلك من قبل . يتبين ذلك بوضوح من قول فخر الدين الرازى الذى اقتبسه من الغزالى :
«والحاصل أن المعاليج لهذه الأخلاق الذميمة يسلط بعضها على بعض ، فيسلط الشهوة على
الغضب ويكسر سورته بها ، وبالعكس ، فكذا هاهنا» (١).

ويلاحظ أن أسلوب علاج البخل بطريق العمل يشبه كثيراً الأساليب التى يتبعها المعالجون
النفسانيون السلوكيون المحدثون فى علاج اضطرابات السلوك ، وبخاصة أسلوب علاج السلوك
السيئ بضده . وقد سبق فخر الدين الرازى ، وكذلك الغزالى من قبل ، المعالجين النفسانيين
السلوكيين المحدثين فى استخدام هذا الأسلوب فى تعديل السلوك وعلاجه . وقد سبق أن بينا هذه
النقطة فى شيء من التفصيل أثناء كلامنا عن الغزالى (٢).

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣ . قال الغزالى فى هذا المعنى : « . . فكذا هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط
بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر
سورتها به » (إحياء علوم الدين ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٢) .
(٢) انظر الفصل الثامن ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الفصل الثالث عشر

ابن تيمية

٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) - ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م)

حياته

هو أحمد تقي الدين بن تيمية الملقب بشيخ الإسلام . وهو سليل أسرة كريمة اشتهرت بالعلم والدين . ولد بحرّان سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) ، وعاش فيها بضع سنين ، ثم انتقل مع أسرته إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ عندما أغار التتار على حرّان ، واشتغل أبوه عبد الحلّيم بن تيمية بالتدريس في الجامع الأموي بدمشق . نشأ ابن تيمية في دمشق ، وتلقى فيها تعليمه ، وانتهى من حفظ القرآن في سن مبكر ، ودرس الفقه والحديث والتفسير وعلوم العربية ، وكان يحضر رغم صغر سنه مجالس التدريس عند والده وغيره من العلماء . واشتهر ابن تيمية بسرعة الحفظ وقوة الذاكرة ، وشهد له بذلك أساتذته وتلاميذه . وأخذ في تفسير القرآن أيام الجمع في المسجد . وبلغ من نبوغه أنه تأهل للتدريس والفتوى قبل أن يتم العشرين من عمره ، ثم قام بوظائف أبيه العلمية بعد وفاته وهو في سن واحد وعشرين سنة تقريباً^(١) .

ويذكر التاريخ لابن تيمية مواقف مجيدة في الدعوة إلى مقاومة زحف التتار ، فقد ذهب إلى سلطان مصر وحثه على إيقاف زحف التتار ، فخرج السلطان بجيشه إلى الشام وهزم التتار^(٢) . ولم يكتفِ ابن تيمية بحثّ الناس والسلطان وتحريضهم على محاربة التتار ، بل اشترك هو نفسه في حربهم في واقعة « شقجب » التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً .

وكان ابن تيمية ، مثل ابن حزم الأندلسي ، من دعاة الاتجاه التقليدي الآخذ بالدلالة الحرفية

(١) محمد يوسف موسى : ابن تيمية . بيروت : المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٦٢ ، ص ٦٦ - ٧٤ ؛ أبو الحسن علي الحسيني الندوي : الحافظ أحمد بن تيمية . تعريب سعيد الأعظمي الندوي ، الكويت : دار القلم ، ١٩٨١ ، ص ٣٤ - ٣٩ .

(٢) محمد يوسف موسى : مرجع سابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

لنصوص القرآن والحديث ، وكان مثله شديد النقد للمذاهب الكلامية ، وعينياً في الهجوم على الفلاسفة ، وكان يرى « أن مصدر كل حقيقة دينية هو القرآن والحديث كما رواه الصحابة والتابعون »^(١).

وكان لابن تيمية بعض الخصوم الذين أثارهم شهرته ونبوغه ، ومخالفته لهم في بعض الآراء الفقهية ، فأخذوا يكيدون له لدى السلطان ، فحبسه في القاهرة سنة ٧٠٥ هـ . ثم أفرج عنه وبقي في القاهرة يدرس ويتكلم في الجوامع والأماكن العامة . ثم سجن بعد ذلك في الإسكندرية إلى أن أفرج عنه الملك الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٠٩ هـ ، واستمر في القاهرة حتى عام ٧١٢ هـ . ثم عاد بعد ذلك إلى دمشق وتفرغ لنشر العلم والتأليف ، والإفتاء . وقد اختلف مع الفقهاء بسبب رأيه في أن الطلاق لا يقع بالحلف به بدلاً من الحلف بالله ، وشكوه إلى السلطان الذي أصدر أمراً بمنعه من القول بهذه الفتوى . ولما لم يمتنع عن ذلك حبسه في قلعة دمشق خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم أفرج عنه . ثم حبسه مرة أخرى بسبب ذلك أيضاً . ثم اعتقل في سنة ٧٢٦ هـ بسبب فتواه بأن السفر لأرضه الألبانية غير مشروع بسبب قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا تشذ الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والأقصى ، ومسجدى هذا » . وبقي في اعتقاله حتى توفي سنة ٧٢٨ هـ^(٢).

مؤلفاته

لابن تيمية مؤلفات كثيرة ، بعضها كتب مطولة ، وبعضها رسائل صغيرة ، في كثير من موضوعات العلوم المعروفة في عصره : في التفسير ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، وفي الفتاوى ، والرد على مخالفيه وبخاصة علماء الكلام ، وفي المنطق ، والتصوف ، والفلسفة . ويقدر أكثر من ترجموا له عدد مؤلفاته بما يقرب من خمس مائة مؤلف^(٣) . والذي يهمننا من هذا العدد الضخم من المؤلفات في دراستنا الحالية هو ما تناول فيه ابن تيمية موضوعات تتعلق بعلم النفس ، وهي الرسائل أو « الفصول التالية » :

١ - فصل في مرض القلوب وشفائها : وهو فصل في مجلد « علم السلوك » ، وهو المجلد العاشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . مطبوع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين (د . ت) ، ص ٩١ - ١٣٨ .

(١) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٤٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ - ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١٢٠ ؛ انظر أيضاً : خير الدين الزركلي : الأعلام : قاموس تراجم . المجلد الأول ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

٢- فصل « في مرض القلوب وشفاؤها » . منشور في مجلد « علم السلوك » المذكور سابقاً ، ص ١٣٨-١٤٩ .

وقد قام محمود مطرجي بنشر الفصلين السابقين في كتاب مستقل بعنوان « أمراض القلوب وشفاؤها » . بيروت : دار القلم ، ١٩٨٦ .

٣- « رسالة في العقل والروح » . منشورة في « مجموعة الرسائل المنيرة » ، الجزء الثاني ، بيروت : محمد أمين دمع ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠-٤٩ .

٤- « العبودية » . منشور في مجلد « علم السلوك » المذكور سابقاً ، ص ١٤٩-١٣٧ . وقد نشرت هذه الرسالة في كتاب مستقل ، الطبعة السادسة ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٨٣ .

النفس والروح والعقل

يذهب ابن تيمية إلى أن النفس ليست مركبة من الجواهر المفردة ، ولا من المادة والصورة ، وهي ليست جسماً ، وليست من باب الأعراض التي هي صفات قائمة بغيرها^(١) . إنها قائمة بنفسها تبقى بعد فراق البدن بالموت^(٢) .

ويرى ابن تيمية أن لفظ « الروح » يستخدم أيضاً بمعنى « النفس » . يقول ابن تيمية : « والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما نام عن الصلاة (إن الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء)^(٣) . وقال له بلال : يارسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . وقال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)^(٤) . . . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا نام : (باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)^(٥) . وثبت أيضاً بأسانيد صحيحة : (إن الإنسان إذا قبضت روحه فتقول الملائكة أخرجى أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجى راضية مرضياً عنك . ويقال أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد

(١) ابن تيمية : « رسالة في العقل والروح » . منشور في « مجموعة الرسائل المنيرة » . الجزء الثاني . بيروت : محمد أمين دمع ، ١٩٧٠ م ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرها . إلا أنه بلفظ « إن الله قبض أرواحكم » إلخ .

(٤) الزمر : ٤٢ . (٥) رواه الشيخان من حديث أبى هريرة .

الخيث . أخرجى ساخطة مسخوطة عليك (١١) . . . وفي الحديث الصحيح : (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) (١٢) . فقد سمي المقبوض وقت الموت ووقت النوم روحاً ونفساً . وسمى المعروج به إلى السماء روحاً ونفساً . لكن تسمى نفساً باعتبار تدبيره للبدن ، وتسمى روحاً باعتبار لطفه ، فإن لفظ الروح يقتضى اللطف ، ولهذا يسمى الريح روحاً (١٣) .

ويذكر ابن تيمية أن للفظ الروح والنفس عدة معانٍ (١٤) :

- ١ - ويراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه .
- ٢ - ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب والسارى في العروق ، وهو الذى يسميه الأطباء الروح الحيوانى .
- ٣ - ويراد « بنفس » الشئ ذاته وعينه ، كما فى قوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١٥) .
- ٤ - ويراد بالنفس الدم الذى يكون فى الحيوان ، كقول الفقهاء : « ماله نفس سائلة ، وما ليس له نفس سائلة » .
- ٥ - ويراد بالنفس أيضاً صفاتها المذمومة ، أو النفس المتبعة لهاها .

ويقول ابن تيمية أن لفظى النفس والعقل عند الفلاسفة إنما يدلان على شئ واحد ، فهم يستخدمون لفظ النفس من حيث هى مدبّرة للبدن ، « فإذا فارقت سموها عقلاً لأن العقل عندهم هو المجرّد عن المادة وعن علائق المادة ، وأما النفس فهى المتعلقة بالبدن تعلّق التدبير والتصريف » (١٦) .

وينتقد ابن تيمية الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن العقل جوهر قائم بنفسه . يقول ابن تيمية : « إنهم يعبّرون بلفظ العقل عن جوهر قائم بنفسه ، ويثبتون جواهر عقلية بسمونها المجرّدات والمفارقات للمادة . وإذا حُقّق الأمر عليهم لم يكن عندهم غير نفس الإنسان التى يسمونها الناطقة ، وغير ما يقوم بها من المعنى الذى يسمى عقلاً » (١٧) ، يعنى بذلك المعانى الكلية المعقولة فى نفس الإنسان .

(١) ذكر الحديث ابن تيمية فى « مجموعة الرسائل المنيرية » ، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) رواه مسلم وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل عن أم سلمه .

(٣) مجموعة الرسائل المنيرية ، مرجع سابق ، ص ٣٦-٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩-٤١ .

(٥) الأنعام : ٥٤ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

إن العقل عند ابن تيمية ليس شيئاً قائماً بذاته ، وإنما هو قائم في العاقل . يقول ابن تيمية : «العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل ، سواء سُمي عرضاً أو صفة ، ليس هو عيناً قائمة بنفسها ، سواء سُمي جوهرًا أو جسماً ، أو غير ذلك . وإنما يوجد التعبير باسم العقل عن الذات العاقلة التي هي جوهر قائم بنفسه في كلام طائفة من المتفلسفة الذين يتكلمون في العقل والنفس ويدعون ثبوت عقول عشرة»^(١).

ويقول ابن تيمية أيضًا : « ثم من الناس من يقول : العقل هو علوم ضرورية ، ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم . والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا . وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحاتر المحاسبي وغيرهما : إن العقل غريزة . وهذه الغريزة ثابتة عن جمهور العقلاء ، كما أن في العين قوة بها تبصر ، وفي اللسان قوة بها يذوق ، وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء »^(٢).

أما فيما يتعلق أين مسكن النفس ، أو الروح من الجسد ، يقول ابن تيمية : « فلا اختصاص للروح بشيء من الجسد ، بل هي سارية في الجسد كما تسرى الحياة التي هي عرض في جميع الجسد ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا الروح في الجسد ، كان فيه حياة ، وإذا فارقت الروح فارقت الحياة »^(٣).

وفيما يتعلق أين مسكن العقل فيه ، فيقول ابن تيمية : « فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال الله تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها . .) »^(٤). وقيل لابن عباس : بإذا نلت العلم ؟ قال : « بلسان سؤل وقلب عقول » . لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد)^(٥). وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه . . . وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا ، فالعقل متعلق

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤-٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ .

(٤) الحج : ٤٦ .

(٥) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير .

بدماعه أيضًا ، ولهذا قيل : إن العقل في الدماغ . والتحقيق إن الروح التي هي النفس لها تعلق بهذا وهذا ، وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا . لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة في القلب . والعقل يراد به العلم ، ويراد به العمل . فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة ، وأصل الإرادة في القلب ، والمريد لا يكون مريدًا إلّا بعد تصوّر المراد ، فلا بد أن يكون القلب متصورًا ، فيكون منه هذا وهذا ، ويبتدئ ذلك من الدماغ ، وأثاره صاعدة إلى الدماغ ، عنه المبتدأ ، وإليه الانتهاء . وكلا القولين له وجه صحيح ^(١).

قوى النفس وأحوالها

يذكر ابن تيمية تقسيم الفلاسفة للنفس إلى نفس نباتية محلها الكبد ، وحيوانية محلها القلب ، وناطقة محلها الدماغ . ويقول : « إن أرادوا به أنها ثلاثة قوى تتعلق بهذه الأعضاء فهذا مسلم ، وإن أرادوا أنها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها فهذا غلط يَبِّن » ^(٢).

ويذكر ابن تيمية أيضًا أنه يقال : إن « النفوس ثلاثة أنواع : وهي النفس الأمارة بالسوء التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي ، والنفس اللوامة وهي التي تذلّب وتنبّه ، ففيها خير وشر ، ولكن إذا فعلت الشر تابت وأُنابت ، فتسمى لوامة لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ، ولأنها تلتوّم أى تتردد بين الخير والشر . والنفس المطمئنة وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده ، وتبغض الشر وتكره ذلك . وقد صار ذلك لها خلقًا وعادة وملكة » ^(٣). وينكر ابن تيمية أن تكون هذه أنواعا ثلاثة من النفوس ، فنفس الإنسان واحدة ، وإنما هذه صفات وأحوال لذات واحدة ^(٤).

حاجات الإنسان ودوافعه

يتكلم ابن تيمية عن حاجات الإنسان فيقول : إنها نوعان : نوع ضروري يحتاج إليه الإنسان لبقائه ، مثل حاجته إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك ^(٥). ويشير ابن تيمية بذلك إلى حاجات الإنسان الأولية الفطرية التي هي مصدر انبعاث ما يطلق عليه علماء النفس

(١) مجموعة الرسائل المتبرية ، مرجع سابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٥) ابن تيمية : العبودية ، ط ٦ . بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٨٣ م ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

المحدثون الدوافع الأولية أو الدوافع الفسيولوجية . ويرى ابن تيمية أن هذه الحاجات يطلبها الإنسان من الله تعالى ، ويرغب فيها دون أن تستعبده . والنوع الثاني من الحاجات هو ما لا يحتاج إليه الإنسان لبقائه ، ومثل هذه الحاجات لا ينبغي أن يعلق الإنسان بها قلبه ، لأنه إن فعل ذلك ، صار مستعبداً لها . وحيث لا يحق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد درهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الحميصه » ^(١) . ويشير ابن تيمية بهذا النوع الثاني من الحاجات إلى الدوافع الثانوية ، أو الدوافع الاجتماعية المكتسبة كما يسميها علماء النفس المحدثون . وهذه لا يجب أن تستعبد الإنسان ، بل يجب أن يكون الإنسان هو المسيطر عليها ^(٢).

الناحية الوجدانية المصاحبة للإدراك

من المعروف أن الإدراك تصاحبه حالة وجدانية . فإذا أدركنا شيئاً نجبه شعرنا بالسرور والرضا ، وإذا أدركنا شيئاً نكرهه شعرنا بالنفور والكراهية . وقد تناول ابن تيمية هذه الناحية الوجدانية المصاحبة للإدراك أثناء تحليله لحلاوة الإيمان . يذكر ابن تيمية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره إن رجع إلى الكفر . يعد إذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » ^(٣) . ثم يقول ابن تيمية تعليقاً على هذا الحديث : « أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان فيه هذه الثلاث وجد حلاوة الإيمان ، لأن وجد الحلاوة بالشئ يتبع المحبة له ، فمن أحب شيئاً أو اشتهاه ، إذا حصل مراده ، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقب إدراك الملائم الذي هو المحبوب ، أو المشتهى » ^(٤) . ويتفق ابن تيمية الفلاسفة الذين يقولون : إن اللذة هي إدراك الملائم ، فهو يرى أن اللذة ليست هي إدراك الملائم ، وإنما هي تحدث عقب إدراك الملائم . يقول ابن تيمية : « ومن قال إن اللذة إدراك الملائم - كما يقول من يقوله من المتفلسفة والأطباء - فقد غلط في ذلك غلطاً بيئاً . فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة . فإن الإنسان ، مثلاً ، يشتهي الطعام ، فإذا أكله حصل له عقب ذلك اللذة . فاللذة تتبع النظر إلى الشئ ، فإذا نظر إليه التذبه . واللذة التي تتبع النظر ليست نفس

(١) رواه البخاري وابن ماجه .

(٢) العبودية ، مرجع سابق ، ص ١٠١-١٠٢ .

(٣) متفق عليه . المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

النظر ، وليست هي رؤية الشيء ، بل هي تحصل عقب رؤيته . . . وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والألام : من فرح ، وحزن ، ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحجوب ، أو الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن « (١) .

انفعال الحب وعلاقته بالدافعية

تناول ابن تيمية الحياة الانفعالية في الإنسان ، وبخاصة انفعال الحب ، الذي يجب أن يكون لله تعالى ورسوله ، إذ أن حبهما هو أسمى أنواع الحب الإنساني ، ويجب أن يكون أقوى وأعلى من حب أي شيء آخر . بل إن الإنسان إذا أحبَّ إنساناً أو شيئاً ما ، فيجب أن يكون حبه له في الله ، وإذا كره إنساناً ما أو شيئاً ما ، فيجب أن يكون كرهه له في الله « (٢) .

ويرى ابن تيمية أن الإنسان إذا ذاق لذة حب الله تعالى وعبادته ، انصرف قلبه بهذا الحب الصالح عن كل أنواع الحب الفاسد الأخرى . كما أنه يرى في عبادة الله تعالى وذوق حلاوة العبودية له ما يقوى قلب الإنسان ويقهر أهواءه « (٣) . وهو بذلك يرى في الإيمان بالله تعالى وعبادته وقاية من الانحرافات النفسية وعلاجها .

ويحلل ابن تيمية درجات الحب ومراتبه ، فيقول : « إن آخر مراتب الحب هو التَّيَمُّ ، وأوله العلاقة ، لتعلق القلب بالمحجوب ، ثم الصباية ، لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق . وآخرها التَّيَمُّ ، يقال : تَيَّم الله ، أي عبد الله ، فالتَّيَمُّ : المعبود لمحبيه » (٤) .

وأشار ابن تيمية إلى العلاقة بين الانفعال والدافع . من المعروف أن الانفعال يُولِّد الدافع . فالخوف ، مثلاً ، يولد دافع الهرب ، والحب يُولِّد دافع الإقدام والسعى للحصول على المحجوب . وقد أشار ابن تيمية إلى هذه العلاقة بين الحب والدافع الذي يثيره بقوله : « ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، فكلمة قويت المحبة في القلب ، طلب القلب فعل المحبوبات . فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات . . » (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

السلوك الظاهر والسلوك المستتر

يعرف ابن تيمية العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال ، الباطنة والظاهرة ^(١) . وفي هذا القول إشارة واضحة إلى تحليل السلوك إلى سلوك باطن وسلوك ظاهر . فالسلوك الباطن هو ما يضره الإنسان من عقائد وآراء ومشاعر وأحاسيس ، والسلوك الظاهر هو ما يقوم به الإنسان من أعمال وما يصدر عنه من أقوال . ويقرب ابن تيمية في ذلك ما يقوله علماء النفس المحدثون من تحليل السلوك الإنساني إلى ظاهر ومستتر . وفي رأى ابن تيمية أن العبادة الحققة تشمل كلا من السلوكين : الظاهر والباطن ، وبحيث يكون هناك اتفاق تام بين هذين النوعين من السلوك ، وبين أوامر الدين وما يحبه الله تعالى ويرضاه .

السعادة والأمن النفسى

يرى ابن تيمية أن سعادة الإنسان وأمنه النفسى لا يتحققان بالفعل إلا بعبوديته التامة لله تعالى ، وحبه له . يقول ابن تيمية : « . . فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يلتذ ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات ، لم يطمئن ، ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه ، من حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة ، والنعمة ، والسكون ، والطمأنينة » ^(٢) .

الكمال الإنسانى

يرى ابن تيمية أن عبودية الإنسان لله تعالى وحبه له لا يحققان له السعادة والأمن النفسى فحسب ، بل إنهما يحققان له أيضًا بلوغ أقصى الكمال الإنسانى . يقول ابن تيمية . « أكمل الخلق وأفضلهم وأغلاهم وأقربهم إلى الله ، وأقواهم ، وأهداهم : أنهم عبودية لله . . » ^(٣) . ويقول أيضًا : « إن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ، ازداد كماله وعلت درجته . . » ^(٤) .

إن كمال الإنسان ، إذن ، وسعاداته في الدنيا والآخرة ، إنما يتحققان ، في رأى ابن تيمية ، بتحقيق العبودية لله تعالى وإن العبودية لله تعالى هى الغاية من خلق الله تعالى للإنسان .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

أمراض القلوب وشفاؤها

اهتم ابن تيمية بموضوع «أمراض القلوب وشفاؤها» ، فتناوله في عدة فصول من كتاب «علم السلوك» . وقارن ، بغرض الشرح والتوضيح ، كما فعل الغزالي من قبل ، بين مرض البدن ومرض القلب ، أى مرض النفس . فذكر أن مرض البدن يحدث بسبب «فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية . فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه ، كما يدرك الحلو مرًا ، أو كما يتجلى إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج . وأما فساد حركته الطبيعية ، مثل أن تضعف قوته عن الهضم ، أو مثل أن يبغيض الأغذية التى يحتاج إليها ، ويجب الأشياء التى تضره ، ويحدث له من الآلام بحسب ذلك» (١).

ومرض القلب يشبه مرض البدن ، فهو «نوع فساد يحصل له فيفسد به تصويره وإرادته . فتصوره بالشبهات التى تعرض له حتى لا يرى الحق ، أو يراه على خلاف ماهو عليه ، وإرادته بحيث يبغيض الحق النافع ، ويحب الباطل الضار» (٢). ويقول ابن تيمية أيضًا : إن مرض القلب ألم يحصل في القلب ، أى في النفس (٣). ويقول أيضًا في موضع آخر : إن مرض القلب نوعان : «فساد الحس ، وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية . وكل منهما يحصل بفقدته ألم وعذاب . فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية الطبيعية تحصل اللذة والنعمة ، فكذلك بفسادهما يحصل الألم والعذاب» (٤). فهناك ، إذن ، ثلاث صفات يتميز بها مرض النفس ، فى رأى ابن تيمية ، هى : فساد ، أى اضطراب فى الحس والتصور ، أى فى الإدراك ، وفساد فى الحركة الطبيعية الإرادية ، أى فى السلوك ، وألم وعذاب يحدث فى النفس . وهذه الصفات الثلاث التى يذكرها ابن تيمية للمرض النفسى تتفق تمام الاتفاق مع ما وصل إليه علم الطب النفساني الحديث فى وصف السلوك المضطرب بثلاث صفات رئيسية هى : الإدراك المختل أو المشوّه للواقع ، والسلوك غير الملائم ، والشعور بالتعاسة (٥). ويتضح من ذلك أن ابن تيمية قد سبق علماء الطب النفساني الحديث بحوالى ستة قرون فى تحليل المرض النفساني وتحديد صفاته التى يتميز بها .

(١) ابن تيمية : فصل فى مرض القلوب وشفاؤها . منشور فى مجلد «علم السلوك» ، المجلد العاشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . مطبوع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين (د . ت) ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ . (٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) محمد عثمان نجاتى : علم النفس والحياة . مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته فى الحياة . الطبعة الثالثة عشرة ، الكويت : دار القلم ، ١٩٩٢ ، ص ٤١٤ .

ويذهب ابن تيمية إلى أن الصحة ، سواء صحة البدن أو صحة النفس ، « تحفظ بالمثل ، وتزال بالضد ؛ والمرض يقوى بمثل سببه ، ويؤول بضده . فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه ، وزاد ضعفه ، حتى ربما يهلك . وإن حصل له ما يقوى القوة ، ويزيل المرض ، كان بالعكس »^(١) . ويقول ابن تيمية أيضًا في هذا المعنى : « . . . الصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يزول بالضد . فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها ، أو هو ما يقوى العلم والإيمان من الذكر والتفكير والعبادات المشروعة ، وتزول أمراضه بالضد ، فتزول الشبهات بالبينات ، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق »^(٢) . فعلاج مرض النفس ينم ، في رأى ابن تيمية ، بالدين الشرعى^(٣) ، الذى يؤدي إلى إزالة الشبهات ، والتغلب على الشهوات .

ويذكرنا قول ابن تيمية بأن المرض يزول بضده بالغزالي الذى اتبع هذا الأسلوب في علاج العادات والأخلاق السيئة ، كما بينا ذلك من قبل أثناء كلامنا عن الغزالي ، وبيّنا أنه سبق بذلك المعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين . وقد ذكر ابن تيمية نفس هذا الأسلوب في علاج المرض النفساني . ويبدو أنه تأثر برأى الغزالي في هذا الموضوع .

ولا يهتم ابن تيمية بعلاج الأمراض النفسانية فحسب ، بل هو يهتم أيضًا بالوقاية منها قبل حدوثها . يقول ابن تيمية : « وكما أن الواجب الاحتياط من سبب المرض قبل حصوله ، وإزالته بعد حصوله ، فهكذا أمراض القلب يُحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداءً ، وإلى إعادتها - بأن عرض له المرض - دوائًا »^(٤) . ويرى ابن تيمية أن في القرآن شفاء لمرض النفس . يقول ابن تيمية : « والقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات . ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل ، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه ، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ، ما يوجب صلاح القلب ، فيرغب القلب فيما ينفعه ، ويرغب عما يضره »^(٥) .

تناذج من الأمراض النفسانية وعلاجها

الحسد

الحسد مرض نفسانى ، وهو «البغض والكراهة لما يراه (الحاسد) من حسن حال المحسود»^(٦) . وهذا الحسد نوعان : أحدهما : هو كراهة النعمة على المحسود مطلقاً . ويتألم الحاسد ويتأذى

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١١١ .

(١) فصل في مرض القلوب وشفاؤها ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

بوجود النعمة على الحسود ، ويلتذ بزوالها عنه . وهذا هو الحسد المذموم . والنوع الثاني هو أن يكره الحاسد فضل المحسود عليه ، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه . وهذا ما يسمى بالغبطة . وقد سُمي ذلك حسداً لأن مبدأه هو كراهة أن يكون غيره أفضل منه . أما من أحب أن ينعم الله تعالى عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء ، ويرى ابن تيمية أن غالب الناس يبتلون بهذا النوع من الحسد . وقد يسمى هذا النوع أيضاً المنافسة ، والتنافس ليس مذموماً مطلقاً ، بل هو محمود في الخير . قال تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (١).

ويقول ابن تيمية : إن مرض الحسد شائع بين الناس ، وخاصة بين النساء المتزوجات منهن بزواج واحد . وهو يقع كثيراً أيضاً بين المشاركين في رئاسة ، أو مال إذا أخذ أحدهم قسطاً من ذلك وفات الآخر ، ويكون أيضاً بين النظراء لكراهة أن يفضل أحدهما الآخر عليه كحسد إخوة يوسف (٢).

ويقول ابن تيمية في علاج الحسد : « فمَن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر ، فيكره ذلك في نفسه » (٣) ، وينهى نفسه عنه (٤) .

العشق

العشق مرض نفساني ، وهو المحبة المفرطة الزائدة عن الجسد المحمود (٥) ، « وإذا قوى أثر في البدن فصار مرضاً في الجسم ، إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا ، ولهذا قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك » (٥).

ومريض البدن قد يشتهي ما يضره ، فإذا لم يطعم ذلك تألم ، وإذا أطعم ذلك زاد مرضه . « فكل ذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وساماً . بل ويضره التفكير فيه والتخيل له ، وهو يشتهي ذلك . فإن مُنع من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أعطى مشتهاه قوى مرضه ، وكان سبباً لزيادة الألم » (٦).

(١) المطففين : ٢٢-٢٦ ، المرجع السابق ، ص ١١١-١١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤-١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٤-١٢٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٢٩-١٣٠ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

ويقول ابن تيمية : إن « القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى ، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده » (١) . « فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده . فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله عابداً له وحده » (٢) . ويرى ابن تيمية أن حب الله وحده وإخلاص الدين له يبقى القلب من حب أحد غيره ، فضلاً عن الابتلاء بالعشق . والقلب المحب لله تعالى ، المنيب إليه ، الخائف منه ، يصرفه عن العشق أمران .

أحدهما إنايته إلى الله ومحبته له والتذاده الشديد بذلك ، فلا تبقى مع محبة الله محبة المخلوق تزاحمه .

والثاني : خوفه من الله ، فإن الخوف الشديد من الله مضاد للعشق يصرفه (٣) .

ويرى ابن تيمية أن كل من أحب شيئاً ، سواء بعشق ، أو بغير عشق ، فإنه يمكن علاجه من هذه المحبة بأمرين : أحدهما بمحبة ما هو أحب إليه منه ، فتزاحمه وتصرفه . والآخر هو بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذلك الحب . « فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأخوف عنده من كل شيء ، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة ، إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف » (٤) .

ولما كانت الصحة ، سواء كانت صحة الأبدان ، أو صحة النفوس ، تحفظ بالمثل ، والمرض يُدفع بالضد ، فإن صحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل ، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح ، فتلك أغذية له (٥) .

ويلاحظ أن ابن تيمية قد استخدم في علاج العشق أسلوب العلاج بالضد ، وهو الخوف من الله تعالى ، فالخوف هو ضد الحب . كما يلاحظ أيضاً أنه عالج الحسد بالتقوى وكراهية الحاسد ذلك في نفسه . وتقوى الله تعالى ، وكراهية الحسد إنما يحدثان حالة نفسية مضادة للحسد وتعمل على مقاومته . فأساس علاج الأمراض النفسانية ، عند ابن تيمية ، هو ، إذن ، العلاج بالضد ، كما فعل ابن حزم والغزالي من قبل .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

الفصل الرابع عشر ابن قَيِّم الجوزية

٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) - ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م)

حياته

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي^(١) الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين ، الشهير بابن قَيِّم الجوزية^(٢). وكان أبوه قَيِّمًا على الجوزية ، وكان هو إمامًا بالمدرسة الجوزية ، ومدرسًا بالصدرية^(٣). ولد بدمشق سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) ، ونشأ في أسرة كريمة ذات علم وفضل . فكان أبوه عالمًا درس ابن القيم عليه وتأثر به . وقد كان ابن القيم من أركان الإصلاح الإسلامي ، شهد له العلماء بالفضل والعلم . وعنى بالحديث وفنونه ، وبالفقه ، والشريعة ، وعلم الكلام ، والتصوف ، واللغة العربية ، والنحو . وكان تلميذًا لابن تيمية ، وكان يحبه ويلزمه ، ويؤيده في أقواله ، ويتنصر له ، وإن كان أحيانًا يناقشه في بعض أقواله . وهو الذي هدَّب كتبه ونشر علمه .

وقد أصاب ابن قيم الجوزية من الأذى ما أصاب أستاذه ابن تيمية ، فقد اعتقل معه بقلعة دمشق ، بعد أن طيف به على جهل مضرورًا بالعصى . وكان يشتغل في مدة حبسه بالعباداة وتلاوة القرآن ، والتأمل والتفكير . ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية .

وكان ابن القيم حسن الخلق ، محبوبًا من الناس ، وكان يختلف في شخصيته عن ابن تيمية .

(١) الزرعي نسبة إلى زرع وهي قرية من حوران .

(٢) الجوزية مدرسة بناها محيي الدين بن الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي بسوق القمح بدمشق .

(٣) الصدرية مدرسة . انظر : عبد العظيم عبد السلام شرف الدين : ابن قَيِّم الجوزية ، عصره ومنهجه وآراءه في الفقه والعقائد والتصوف ، الطبعة الثالثة . الكويت : دار القلم ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٦٧ ؛ خير الدين الزركلي : مرجع سابق ، المجلد السادس ، ص ٥٦ ؛ مقدمة كتاب الروح لابن قَيِّم الجوزية ، تحقيق ودادة السيد الجميلي ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ١١ .

فقد كان ابن تيمية ثائراً عنيقاً ، يهاجم بشدة وعنف ، بينما كان ابن قيم الجوزية هادئاً متزنًا يميل إلى الحوار والإقناع العقلي .

وكان من أهم أهداف ابن قيم الجوزية الدعوة إلى مذهب السلف الذى يمثل الدين خاليًا من الآراء المنحرفة . واهتم بالتححرر الفكرى ، ونبذ التقليد ، ودعا إلى تفهم روح الشريعة والعمل بروحها ، ودعا إلى الاجتهاد^(١).

وتوفى فى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) وقد ناهز الستين من عمره .

مؤلفاته

لابن قيم الجوزية مؤلفات كثيرة فى الفقه ، والأصول ، والتصوف ، وعلم الكلام ، والسير ، والتاريخ . وكان واسع الثقافة ملماً بكثير من العلوم التى كانت معروفة فى وقته^(٢). ويهجننا من مؤلفاته ماله علاقة بعلم النفس ، وهى :

- ١ - الروح . تحقيق ودراسة السيد الجميل ، الطبعة الثانية . بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٢ - تحفة المودود بأحكام المولود . تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ، دمشق : مكتبة دار البيان ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ٣ - مفتاح دار السعادة . جزءان فى مجلد واحد . بيروت : دار الكتب العلمية (د . ت) .
- ٤ - روضة المحبين وزهرة المشتاقين . القاهرة : دار الفكر العربى ، (د . ت) .
- ٥ - طريق المهجرتين وباب السعادتين ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٠ .
- ٦ - رسالة فى أمراض القلوب . تحقيق محمد حامد الفقى . الرياض : دار طيبة ، ١٤٠٣ هـ .

حقيقة النفس

يستخدم ابن قيم الجوزية لفظى الروح والنفس بمعنى واحد ، ويقول : إن هذا هو ما ذهب إليه جمهور العلماء^(٣). وقد استعرض آراء السابقين فى حقيقة النفس ، وذكر أن منهم من قال : إن النفس جسم ، ومنهم من قال : إنها عرض ؛ ومنهم من قال : إنها ليست شيئاً أكثر من اعتدال

(١) عبد العظيم عبد السلام شرف الدين ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ - ٧٦ .

(٣) ابن قيم الجوزية : كتاب الروح : تحقيق ودراسة السيد الجميل ، ط ٢ . بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٨٦ ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٩ .

الطبايع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ ومنهم من قال : إنها معنى آخر غير الطبايع الأربع ؛ ومنها من قال إنها الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات ؛ ومنهم من قال : إنها التنسيم الداخل والخارج بالتنفس ؛ ومنهم من قال : إنها ليست جسماً ولا عرضاً ، وهي ليست في مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ، ولا هي في العالم ولا خارجه ولا بجانبه ولا مبانية ، وهذا قول المشائين . ويذكر قول ابن حزم في النفس بأنها جسم ذات طول وعرض وعمق وذات مكان ، وهي مصرفة للجسد . ويقول ابن القيم إن كل هذه الأقوال السابقة في النفس باطلة (١).

إن القول الصحيح في النفس عند ابن قيم الجوزية هو أنها : « جسم نوراني علوى خفيف حتى متحرك يتنقل في جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، والنار في الفحم . فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وإفادتها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية » (٢). ويستدل ابن القيم على صحة هذا القول بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ويذكر كثيراً من الآيات والأحاديث التي تدل على صحة هذا القول في النفس (٣).

ويذكر ابن القيم ما يقوله كثير من الناس عن أن للإنسان « ثلاث أنفس ، نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة ، وأن منهم من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى : (يأتيتها النفس المطمئنة (٤)) ، ويقول تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة (٥)) ، ويقول تعالى : (إن النفس لأمرأة بالسوء (٦)) . » (٧). ويقول ابن القيم إن نفس الإنسان ، في الحقيقة ، واحدة ، ولها صفات ثلاث ، وهي تسمى باسم الصفة الغالبة عليها ، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى الله تعالى بعبوديته ومحبتها والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . أما النفس اللوامة فقد قيل عنها إنها سميت كذلك لأنها لا تثبت على حال واحدة لكثرة تلومها ، أي ترددها وتقلبها وتلومها . وقيل فيها أيضاً إنها سميت كذلك لكثرة لومها لصاحبها . وأما النفس الأمارة فهي التي تأمر بكل سوء . والنفس الإنسانية « نفس واحدة ، تكون أمارة ، ثم لوامة ، ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحتها » (٨).

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٢-٢٧٧ . (٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٧-٢٨٩ . (٤) الفجر : ٢٧ .

(٥) القيامة : ١ ، ٢ . (٦) يوسف : ٥٣ .

(٧) كتاب الروح ، ص ٣٣٠ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٣٣٠-٣٤٠ ؛ رسالة في أمراض القلوب ، تحقيق محمد حامد الفقى . الرياض : دار

طبية ، ١٤٠٣ هـ ، ص ٧٥-٧٦ .

ويلاحظ التشابه بين أقوال ابن القيم عن هذه الصفات الثلاث للنفس ، وبين ما قاله ابن تيمية عنها من قبل (١).

ويذكر ابن قيم الجوزية أثناء كلامه عن المحبة في كتاب « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » تقسيم الفلاسفة للنفس إلى أنواع ثلاثة ، متأثرين في ذلك برأى أفلاطون ، ويذكر أنواع المحاب التي يجيبها كل نوع منها . وهذه الأنواع هي :

(أ) نفس سماوية علوية ، ومحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان ، واجتناب الرذائل .

(ب) نفس سبعة غضبية ، ومحبتها منصرفة إلى القهر والبغى والعلو في الأرض والتكبر والرياسة على الناس بالباطل .

(ج) نفس حيوانية شهوانية ، ومحبتها منصرفة إلى المأكول والمشرب والمنكح (٢).

وفيه من سياق كلام ابن القيم أن هذه الأنواع الثلاثة للنفس ليست أقساماً للنفس مستقلة بعضها عن بعض ، كما أنها ليست نفوساً ثلاثاً ، بل هي قوى ثلاث لنفس واحدة (٣).

الحواس والإدراك الحسى

تناول ابن قيم الجوزية الحواس والإدراك الحسى أثناء كلامه عن آيات الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان ، فذكر حكمة الله تعالى في جعل الحواس الخمس وآلات الإدراك الحسى كلها في الرأس ، وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطلية والحرس الكاشف للبدن . وذكر تركيب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة منها وصف مخصوص ، ومنفعة مخصوصة ، لو فقدت واحدة منها أو زالت عن هيئتها وموضعها تعطلت وظيفة الإبصار . وأركز الله سبحانه وتعالى داخل تلك الطبقات إنسان العين بقدر العدسة تبصر به جميع المراتيات .

وتكلم عن خلق الله تعالى للأذن وجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت وتؤدي إلى الصياح ، وجعل فيها غضوناً ونجاويف وأعرجاجات لتمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حذته ثم تؤدي إلى الصياح .

(١) انظر الفصل الثالث عشر ، ص ٢٧٢ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين . القاهرة : دار الفكر العربى (د.ت) ، ص ٢٥٩-٢٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٢-٢٥٥ .

وذكر حكمة الله تعالى في خلق الأنف الذي نستشق به الهواء ، والذي أودع فيه سبحانه وتعالى حاسة الشم التي بها ندرك أنواع الروائح الطيبة والخبيثة .

وذكر حكمة الله تعالى في خلق الفم الذي أودع الله تعالى فيه حاسة الذوق وآلة الكلام ، وهو اللسان أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته من القلب منزلة ترجمانه ووزيره .

وذكر حكمة الله تعالى في خلق حاسة اللمس التي أودعها في اللحم ، وبها ندرك جميع أنواع الملموسات .

وذكر حكمة الله تعالى في جعله في الرأس ثلاث خزائن متصلة بعضها ببعض ، خزانة في مقدمه ، وخزانة في وسطه ، وخزانة في آخره ، وأودع فيها من أسرار ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (١) .

وذكر حكمة الله تعالى في خلق القلب ، فهو الملك المستخدم لجميع آلات البدن ، « وهو أشرف أعضاء البدن ، وبه قوام الحياة ، وهو منبع الروح الحيواني ، والحجارة الغريزية ، وهو معدن العقل ، والعلم ، والحلم ، والشجاعة ، والكرم ، والصبر ، والاحتفال ، والحب ، والإرادة ، والرضا ، والغضب ، وسائر صفات الكمال . فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب » (٢) .

وأشار ابن القيم إلى الخلاف بين العلماء حول مركز العقل ، هل هو في القلب أم في المخ ، وقال : إن الصواب عنده هو : « أن مبدأه ومنشأه من القلب ، وفروعه وثمرته في الرأس . والقرآن قد دل على هذا بقوله : (أفلم يسبوا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) (٣) . وقال : (إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب) (٤) . ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات ، بل المراد ما فيه من العقل واللب » (٥) .

وذكر ابن القيم أيضًا الأوساط التي يتم خلالها تأثير المحسوسات في الحواس ، فذكر أن وسط حاسة البصر هو الضياء والشعاع ، فلو منع الضياء والشعاع لم تبصر العين . ووسط حاسة السمع الهواء الذي يحمل الأصوات في الجو ثم يودعها في الأذن فتحويه وتنقله إلى القوة السامعة . ولولا الهواء لما سمع الإنسان شيئاً . ووسط حاسة الشم النسيم اللطيف الذي يحمل الرائحة

(١) مفتاح دار السعادة ، ج ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية (د.ت) ص ١٨٩ - ١٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٣) الحجج : ٤٦ . (٤) ق : ٣٧ .

(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

ويؤديها إلى حاسة الشم فيدركها ، ولولا لما شَمَّ الإنسان شيئاً . ووسط حاسة الذوق اللعاب ، أو الريق المتحلل في الفم الذي تدرك به القوة الذائقة طعوم الأشياء . وليس للعاب طعم ، ولأنَّ كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه فلا يحس الإنسان طعم الأطعمة . أما حاسة اللمس فلأنها تدرك الملموسات بلا واسطة ، لأنها تدرك بالاجتماع والملاسة ، فلم تحتاج إلى واسطة (١) .

ويشير ابن القيم إلى تأثير الإدراك الحسى بميل الإنسان وأهوائه ، فيقول : « فالناظر يعين العداوة يرى المحاسن مساوئ ، والناظر بعين المحبة عكسه . وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته ، وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كيلة كما أن عين السخط تبدى المساويا » (٢) .

العقل

يشيد ابن قيم الجوزية بقيمة العقل وفضله ، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه . ويذكر قول بعض الحكماء السابقين وهو أن : « العقل ملك ، والبدن وروحه وحواسه وحركاته كلها رعية له ، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدتها وصل الخلل إليها كلها » (٣) .

ويقول ابن القيم : إن « العقل عقلان : عقل غريزة ، وهو أب العلم ومربيه وثمرته ، وعقل مكتسب مستفاد ، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته . فإذا اجتمع في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره ، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب . وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه ، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما » (٤) .

ويذكر ابن القيم أن « من الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي ، ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم له ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرص ، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرص لعدم علمه بها . وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام ، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقبه على المبادرة إليها ، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها ، فهو غالباً يؤتى من إقدامه ، والأول من إحجامه » (٥) .

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

وإن أفضل العقول وأكملها هو ما اجتمع فيه العقل الغريزي والعقل المكتسب المستفاد من مشكاة النبوة^(١). ويقرب ما قاله ابن القيم عن العقل الغريزي والعقل المكتسب مما يقوله علماء النفس المحدثون عن الجانب الفطري والجانب المكتسب من الذكاء .

ويقسم ابن القيم العقل أيضًا إلى عقل علمي وعقل عملي ، كما فعل الفلاسفة السابقون مثل الفارابي وابن سينا ، وذكر وجود فروق فردية بين الناس من حيث تفوق وغلبة أحد هذين العقلين على الآخر . فمن الناس من تكون قوته العقلية العلمية أقوى وأغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفًا في القوة العقلية العملية . ومنهم من يكون عكس ذلك . يقول ابن القيم : « فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفًا في القوة العملية ، يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه ما لم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهل في التخلف ، وفارقهم في العلم . وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله . ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه . وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد ، والانحرافات في الأفعال والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات . فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله . . »^(٢).

الحاجات والدوافع

أشار ابن القيم إلى حكمة الله تعالى في أن أودع في الإنسان بواعث ومستحثات تدفعه إلى القيام بالأفعال التي فيها قوامه ويقاؤه ومصلحته ، فأودع فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائمة وسعيه في طلب ما يصلحه ، ودفع ما يضره . وأشار إلى ما يصاحب الحاجة الفسيولوجية من آلام ، فالجوع ، والعطش ، والبرد والحر ، والتعب يصاحبها آلام تدفع الإنسان والحيوان إلى القيام بالأفعال التي تسد هذه الحاجات ، وتزيل هذه الآلام . فالجوع والعطش يستحثان الإنسان إلى طلب الأكل والشرب لما فيها من قوام البدن وحياته ، وبالأكل والشرب تزول آلام الجوع والعطش . وهكذا الأمر بالنسبة لحاجات البدن الفسيولوجية الأخرى ، فإن إشباعها يزيل الآلام

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢) طريق المجترئين وباب السعادتين ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

المصاحبة لها ، ويسبب الشعور باللذة ^(١) . ويلاحظ أن ما يقوله ابن القيم عن الحاجات والدوافع يماثل ما يقوله علم النفس الحديث .

الانفعالات والعواطف

ناقش ابن قيم الجوزية كثيرًا من الانفعالات والعواطف الهامة في حياة الإنسان ، مثل الحزن ، والخوف ، والمحبة ، والشوق ، والعشق .

(أ) الحزن (٢)

الحزن انخلاع عن السرور ، وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت ، أو توجّع لممتنع . ولم يأمر الله تعالى به ولا أثني عليه ، ولا رُتب عليه جزاء ولا ثوابًا ، بل نهى عنه كقوله تعالى : (ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأملون إن كنتم مؤمنين) ^(٣) . وكقوله تعالى : (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) ^(٤) . فالحزن بلية من البلائيا نسأل الله دفعها وكشفها . ولهذا يقول أهل الجنة : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ^(٥) . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيد بالله من الحزن في دعائه المأثور : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن . . » ^(٦) . والهم والحزن قرينان ، فإذا كان الألم الوارد على القلب على شيء مضى فهو الحزن ، وإذا كان على شيء في المستقبل فهو الهم .

والحزن مضر بالإنسان ، فهو يضعف القلب ، ويوهن العزم ، ومضرّ بالإرادة . فالحزن مرض من أمراض القلب يمنع من نهوضه وسيره وتشميره . والحزن على ما فات غير مجد ، بل الذى ينفع الإنسان هو أن يستقبل السير ، ويجد ويشمر ويبدل جهده .

ويقول ابن القيم : إن النفس إذا كانت صغيرة ، وورد عليها مكروه ، اشتغلت بفكرها فيه ، وانشغلت عن التفكير في الأسباب التى تمكنتها من دفعه والتخلص منه ، وهذا هو ما يورث الحزن . أما إذا كانت النفس كبيرة شريفة فإنها لا تفكر فيه ، بل تفكر في الطرق والأسباب التى تمكنتها من دفعه والخروج منه .

ويرى ابن القيم أن عبادة الله تعالى وحبه من أهم العوامل في علاج الحزن ، فإن ذلك يكشف عن القلب المغموم والغموّم والأحزان ، ويغمر القلب بالسرور والفرح .

(١) مفتاح دار السعادة ، جـ ١ ، ص ٢٧٢-٢٧٨ .

(٢) طريق المجرتين وباب السعادتين ، ص ٣٤٥-٣٤٨ .

(٣) آل عمران : ١٣٩ . (٤) المائدة : ٢٦ .

(٥) فاطر : ٣٤ . (٦) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدرى .

(ب) الخوف (١)

الخوف انفعال يحدث بسبب توقع مكروه . ويركز ابن القيم مناقشته لانفعال الخوف في الناحية الدينية فقط ، فيتكلم عن الخوف من الله تعالى الذى يعتبر ركناً هاماً من أركان الإيمان . قال تعالى : (فلا تخشوا الناس واخشون) (٢) . وقد أثنى سبحانه وتعالى على الأنبياء عليهم السلام بالخوف منه . قال تعالى : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) (٣) . وكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف . قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (٤) .

(ج) المحبة

ناقش ابن القيم عاطفة المحبة وذكر ما قاله عنها أبو العباس بن العريف (٥) في كتابه « محاسن المجالس » ، وشرحه وعلق عليه . وذكر كثيراً من الحدود التى قيلت في المحبة ، وذكر منها ما قاله أبو العباس وهى أنها مجرد تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه ، وإثارة المحبوب على غيره ، وموافقة المحبوب دائماً . وذكر أيضاً كثيراً من الحدود الأخرى التى قيلت في المحبة ، نذكر منها : إنها ميل القلب إلى محبوبه ، وتعلق القلب بالمحبيب ، وانصباب القلب إليه ، وسكونه إليه ، واشتغاله به بحيث لا يفرغ لغيره (٦) .

وذكر ابن القيم أن دواعى المحبة وأسبابها ثلاثة أمور : أحدها قائم بالمحبيب ، وهو جمال وصفاته التى تدعو إلى محبته . والثانى قائم بالمحب ، وهو شعوره بهذا الجمال وهذه الصفات . والثالث هو العلاقة بين المحب والمحبيب وهى الموافقة والملاءمة بين روجيهما ، وهو من أقوى أسباب المحبة . ومتى قويت هذه الأمور الثلاثة قويت المحبة واستحكمت ، وإذا ضعفت هذه الأمور الثلاثة جميعها ، أو ضعف أحدها ضعفت المحبة تبعاً لذلك (٧) .

والموافقة أو الملاءمة بين المحب والمحبيب هو « اتفاق أخلاق ، وتشاكل أرواح ، وشوق كل نفس إلى مشاكلها ، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل

(١) طريق المجترين وباب السعادتين ، ص ٣٤٨-٣٥٤ .

(٢) الأنبياء : ٩٠ . (٣) المائدة : ٤٤ .

(٤) فاطر : ٣٨ .

(٥) هو ابن الصائف أبو العباس بن محمد الصفهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ هـ كما جاء في كشف الطنون . انظر : « طريق المجترين وباب السعادتين ، ص ٣٦٤ ، هامش رقم ١ .

(٦) طريق المجترين وباب السعادتين ، ص ٣٦٥-٣٨٢ .

(٧) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ٦٨-٦٩ .

الخلقة ، فتجذب كل منها إلى الأخرى بالطبع ^(١) . ولذلك قيل : إن العشق « هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة » ^(٢) .

وإذا كان سبب المحبة هو المشاكلة والملاءمة بين روحى المحب والمحبيب ثبتت المحبة وتمكنت ودامت . أما إذا لم يكن سببها المشاكلة والملاءمة ، وإنما كانت محبة لغرض من الأغراض زالت عند انقضاءه ^(٣) .

ويلاحظ وجه الشبه الكبير بين ما قاله ابن القيم عن أسباب المحبة وما قاله عنها من قبل ابن حزم ^(٤) . ومن الثابت أن ابن القيم قد اطلع على كتاب « طرق الحماة في الألفه والآلاف » لابن حزم ، إذ أنه يقول صراحة إنه يذكر رأى ابن حزم فى أسباب المحبة ^(٥) .

وتكلم ابن القيم أيضًا عن العلامات التى تعبر عن المحبة ، ويلاحظ أنه تأثر كثيرًا بما قاله ابن حزم من قبل فى هذا الموضوع . ومن علامات المحبة التى يذكرها ابن القيم إدمان النظر إلى المحبوب ، وإقبال العين عليه ، فترى نظر المحب تدور مع محبوبه كيف دار . وإغضاء المحب نظره عند نظر المحبوب إليه ، وخفض طرفه نحو الأرض لمهابته له وحياته منه ، وكثرة ذكر المحب لمحبيه ، وإقياده لأمره ، وإيثاره على نفسه ، والإقبال على حديثه ، وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ، واتحاد مراد المحب والمحبيب ، ومحبة دار المحبوب وبيته وكل ما نسب إليه فهو محبوب ، كما يعبر عن ذلك الشاعر بقوله :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجسدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

ومن علامات المحبة أيضًا انجلاء هموم المحب وغمومه إذا زار محبوبه أو زاره ، وعودها إذا فارقه . ومنها البهت والروعة اللتان تحصلان له عند مواجهة المحبوب ، أو عند سماع ذكره ، ولاسيما إذا رآه فجأة . ومنها غيرته على محبوبه ، وسروره بما يسر به محبوبه كائنًا ما كان ، وإن كرمته نفسه . ومنها حب الوحدة ، والأنس بالخلوة والتفرد عن الناس ، واستكائه لمحبيه وخضوعه وذله له . ومنها ما يبيده المحبان كل منهما للآخر من مناجاة ، وملاطفة ، وإشارة ، وعتاب ،

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٤) انظر الفصل السابع ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

وشكوى^(١). ومن الواضح تأثر ابن القيم كثيراً بما قاله ابن حزم عن علامات المحبة ، فهو ينقل كثيراً من آرائه .

(د) الشوق

يذكر ابن القيم تعريف أبي العباس بن العريف للشوق بأنه : « هبوب القلب إلى غائب ، وإعواز الصبر عن فقده ، وإرتياح السر إلى طلبه »^(٢). ويعرف ابن القيم الشوق أيضاً بأنه « سفر القلب في طلب محبوبه ، بحيث لا يقر قراره حتى يظفر به ويحصل عليه . وقيل هو هبوب ينشأ بين أثناء الحشا ، سببه الفاقة . فإذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب . وقيل الشوق هبوب القلب إلى محبوب غائب . وقال ابن خفيف : الشوق ارتياح القلوب نحو المحبوب من غير منازع . ويقال الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد »^(٣).

ويذكر ابن القيم اختلاف الناس في الشوق والمحبة أيهما أعلى ؟ فقالت طائفة : إن المحبة أعلى ، واحتجوا على ذلك بأن الشوق أثر من آثار المحبة ، فهي الأصل وهو الفرع . ثم إن الشوق إنما يكون مع غيبة المحبوب ، وأما مع حضوره ولقائه فلا شوق . فالشوق يزول مع اللقاء ، أما المحبة فلا تزول . وقالت طائفة أخرى إن الشوق أعلى من المحبة ، لأنه يلهم المحب عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه^(٤).

واختلف الرأي في أمر الشوق ، هل هو يزول باللقاء أم يقوى ؟ فقالت طائفة : إن الشوق يزول باللقاء ، لأنه طلب ، فإذا حصل المطلوب زال الطلب ، لأن تحصيل الحاصل محال ، ولا معنى للشوق إلى شيء حاصل ، وإنما يكون الشوق إلى شيء مراد الحصول ، محبوب الإدراك . وقالت طائفة أخرى : ليس كذلك ، بل الشوق يزيد بالوصول واللقاء ، ويتضاعف بالدنو . ولهذا قال القائل :

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

... والقولان حق . وفصل الخطاب في المسألة أن المحب إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه ، فإذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلقاً بلقائه ، وحصل شوق آخر أعظم منه وأبلغ إلى

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٢-٢٧٦ ؛ طريق المجترين وباب العادتين ، ص ٣٨٢-٣٨٧ .

(٢) طريق المجترين وباب السعادت ، ص ٤٠١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠١-٤٠٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠١-٤٠٢ .

ما يزيد قربه والحظوة عنده . . . فاعلم أن الشوق نوعان : شوق إلى اللقاء ، فهذا يزول باللقاء ، وشوق في حال اللقاء ، وهو تعلق الروح بالمحبيب تعلقاً لا ينقطع أبداً ، فلا تزال الروح مشتاقة إلى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقاً لا يهدأ . وقد أفصح بعض المحبين للمخلوق عن هذا المعنى بقوله :

« أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
والثم فاهها كي تزول صبابتي فيشتد ما ألقى من الهيان » (١)

(هـ) العشق

ذكر ابن القيم رأى كثير من الطوائف في العشق مثل الأطباء والفلاسفة والأدباء وغيرهم . وذكر أن الأطباء يرون أن العشق : « مرض وسواسي شبيه بالماليينخوليا يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والتماثيل ، وسببه النفساني الاستحسان والفكر . . » (٢). وذكر أن الفلاسفة المشائين يرون أن العشق : « اتفاق أخلاق وتشاكل محبات وتجانسها ، وشوق كل نفس إلى مشاكلها وتجانسها في الحلقة القديمة قبل إهابها إلى الأجساد » (٣). وقال ابن القيم : إن هذا الرأي مبنى على قولهم الفاسد بتقديم النفوس على الأبدان (٤). كما ذكر ابن القيم رأى الجاحظ في العشق ، وهو أنه « اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود ، والبخل اسم لما جاوز الاقتصاد ، فكل عشق يسمى حباً ، وليس كل حب يسمى عشقاً ، والمحبة جنس ، والعشق نوع منها » (٥).

واختلف الناس في العشق ، هل هو اضطراري أم اختياري ؟ فقالت طائفة : إنه اضطراري ، وهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، وهذا عما لا يملك . وقالت طائفة أخرى إنه اختياري تابع لهوى النفس وإرادتها . فهو حركة اختيارية للنفس نحو محبوبها ، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة الفرد . ويذهب ابن القيم إلى أن « فصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلية تحت التكليف . فإن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري . فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره » (٥).

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٨-٤٠٩ .

(٢) روضة المحبين وازدهار المشتاقين ، ص ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٥٠ .

ويشبه ابن القيم العشق بالسكر ، فتناول السكر اختياري ، أما ما يتولد عنه فاضطراري . وبالمثل ، فإن متابعة النظر ، واستدامة الفكر بمنزلة شرب الخمر ، أمر اختياري ، فإذا حصل العشق من ذلك أصبح أمراً اضطرارياً^(١).

اللذة والألم

يعرّف ابن القيم اللذة والألم بنفس التعريف الذي قال به الفلاسفة ، فيقول : إن اللذة هي إدراك الملائم ، والألم هو إدراك المنافي . ويذكر أن شيخه ابن تيمية قال : « إن الصواب أن يقال إدراك الملائم سبب اللذة ، وإدراك المنافي سبب الألم ، فاللذة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافي ، والإدراك سبب لهما »^(٢) ، وليس الإدراك ذاته هو اللذة أو الألم ، كما يقول الفلاسفة . وقد سبق أن ذكرنا ذلك أثناء كلامنا عن ابن تيمية^(٣).

إن أقسام اللذة ، عند ابن القيم ، ثلاثة : لذة جثمانية ، ولذة خيالية وهمية ، ولذة عقلية روحانية . « فاللذة الجثمانية لذة الأكل والشرب والجماع . وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم ، فليس كمال الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها »^(٤).

« أما اللذة الوهمية الخيالية فلذة الرئاسة والتعظيم على الخلق ، والفخر ، والاستطالة عليهم . وهذه اللذة وإن كان طلابها أشرف نفوساً من طلاب اللذة الأولى ، فإن آلامها وماتوجه من المفسد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها . . . فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسرت بحصولها . . . وقد قيل : إنه لا حقيقة للذة في الدنيا ، وإنها غايتها دفع الألم ، كما يدفع ألم الجوع والعطش ألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع . ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرئاسة والجاه »^(٥). ويقرب ما يقوله ابن القيم عن لذة الرئاسة والتعظيم والجاه مما يقوله المحللون النفسانيون المحدثون عن « التعويض » ، وهو حيلة عقلية يقوم فيها الإنسان بسلوك معين كوسيلة لتخفيف حدة التوتر والألم النفساني اللذين ينشآن عن فشل الفرد أو وجود نقص أو عيب في نواحي شخصيته^(٦).

« وأما اللذة العقلية الروحية فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٣) انظر الفصل الثالث عشر ص ٣٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٦) محمد عثمانى نجاني : علم النفس والحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٠٤ .

والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها . فإن الالتداذ بذلك من أعظم اللذات ، وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة . فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله تعالى ومحبه وعبادته وحده لا شريك له ، والرضا به عوضاً عن كل شيء ، ولا يتعوض بغيره عنه . فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا » (١) .

النمو

تناول ابن قيم الجوزية أطوار نمو الإنسان بالدراسة ، فذكر ما جاء بشأنها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وما وصل إليه أيضًا علم التشريح في ذلك الوقت . فذكر قول الله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقًا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) (٢) . وقال ابن القيم إن الله تعالى قد استوعب في هذه الآيات مراتب خلق الإنسان ، ابتداءً من خلقه من سلالة من طين ، ثم بعد ذلك من نطفة تمكت أربعين يومًا ، ثم علقه تمكت كذلك أربعين يومًا أخرى ، ثم مضغة تمكت أيضًا أربعين يومًا . وفي هذا الطور تكون أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته . (٣)

وذكر ابن القيم اختلاف العلماء في أول ما يتشكل ويخلق من أعضائه ، هل هو القلب ، أم الدماغ ، أم الكبد ، وذكر الأدلة التي يستند إليها كل طائفة من هؤلاء العلماء . (٤)

وذكر تكون حجب ثلاثة حول الجنين ، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث) (٥) . وذكر تفسير العلماء في وقته لهذه الظلمات الثلاث ، فقال بعضهم هي : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وقال آخرون هي : ظلمة أصلاص الآباء ، وظلمة بطون الأمهات ، وظلمة المشيمة (٦) . وقد أمدنا علم الأجنة الحديث بتفسير جديد لهذه الظلمات الثلاث ، فقال : إنها الأغشية الثلاثة المحيطة بالجنين وهي :

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) المؤمنون : ١٢ - ١٦ .

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٥) الزمر : ٦ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

١- غشاء السلى أو الأمينون Amnion ، وهو مملوء بسائل ملحي يقوم بحماية الجنين من الهزات العنيفة ومن تأثيرات الحماذية .

٢- غشاء الكوريون Chorion وهو الغشاء الثاني الذي يحيط بالجنين .

٣- الغشاء الساقط Decidua وهو ثالث الأغشية المحيطة بالجنين ، وسمي بالساقط لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة. (١)

ويذكر ابن القيم أقوالاً يفرط في كتاب «الأجنة» عن مراحل تكوين أعضاء الجنين، ويذكر حديثين صحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد. فيذكر ما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدمكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد... الحديث» (٢).

ويذكر أيضًا ما جاء في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين [ليلة] فيقول: يارب، أشقى أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أى ربّ أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ووزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص » (٣).

ويلاحظ أن ما جاء في حديث حذيفة بشأن حضور الملك للقيام بمهمة التخليق والتصوير بعد مرور اثنين وأربعين ليلة منذ تكوين النطفة ، إنما يقابل الفترة التي دلت البحوث الحديثة في علم الأجنة على أنه يحدث فيها تكوين العظام والعضلات ، ثم كسوة العظام بالعضلات واللحم. ويتضح من ذلك أن هناك اتفاقاً بين ما جاء في حديث حذيفة وما وصلت إليه الدراسات الحديثة في علم الأجنة عن مراحل نمو الجنين .^(٤)

ويلاحظ ابن القيم وجود اختلاف في الحديثين المذكورين عن ابن مسعود وحذيفة ، فيقول عن ذلك : « فحديث حذيفة يدل على ابتداء التخليق عقب الأربعين الأولى ، وحديث ابن مسعود يدل على أنه عقب الأربعين الثالثة ، فكيف يجمع بينهما ؟ قيل : أما حديث حذيفة ،

(١) محمد عثمان نجاتي ، القرآن وعلم النفس ، الطبعة الخامسة ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٤) محمد عثمان نجاتي، الحديث النبوي وعلم النفس . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ٢٢٩ .

فصريح في كون ذلك بعد الأربعين ، وأما حديث ابن مسعود ، فليس فيه تعرض لوقت التصوير والتخليق ، وإنما فيه بيان أطوار النطفة وتنقلها بعد كل أربعين ، وأنه بعد الأربعين الثالثة ينفخ فيه الروح ، وهذا لم يتعرض له حديث حذيفة ، بل اختص به حديث ابن مسعود ، فاشتراك الحديثان في حدوث أمر بعد الأربعين الأولى . واختص حديث حذيفة بأن ابتداء تصويرها وخلقها بعد الأربعين الأولى ، واختص حديث ابن مسعود بأن نفخ الروح فيه بعد الأربعين الثالثة ، واشترك الحديثان في استئذان الملك ربّه سبحانه في تقدير شأن المولود في خلال ذلك ، فتصادقت كلمتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق بعضها بعضاً . وحديث ابن مسعود فيه أمران : أمر النطفة وتنقلها ، وأمر كتابة الملك ما يقدر الله فيها ، والنبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالأمرين في الحديث . قال الإمام أحمد ، حدثنا هشيم ، أنبأنا علي بن زيد ، قال : سمعت أبا عتبة بن عبد الله يحدث قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً على حالها لا تتغير ، فإذا مضت له أربعون صارت علقة ، ثم مضت كذلك ، ثم عظاماً كذلك ، فإذا أراد أن يسوّى خلقه بعث الله إليه الملك . فيقول الملك الذى يليه : أى ربّ ، أذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، أقصير أم طويل ، أناقص أم زائد ، قوته وأجله ، أصحيح أم سقيم ؟ قال : فيُكتب ذلك كله) (١) . فهذا الحديث فيه الشفاء ، وأن الحادث بعد الأربعين الثالثة تسوية الخلق عند نفخ الروح فيه » (٢) .

ويذكر ابن القيم بكاء الطفل عند ولادته لانفصاله عن الرحم ، ومفارقتها لما ألفه واعتاده في جميع أحواله دفعة واحدة ، ويقول إن هذه أول شدّة يلقاها في الدنيا . ويقرب ما يقوله ابن قيم الجوزية عن وقع شدة الميلاد على الطفل مما يقوله المحللون النفسانيون المحدثون عن صدمة الميلاد (٣) .

ويضحك الطفل عند الأربعين ، وذلك أول ما يعقل نفسه . وإذا تمّ له شهران رأى المناومات . ثم ينشأ معه التمييز والعقل على التدريج شيئاً فشيئاً حتى سنّ التمييز . فإذا صار له سبع سنين دخل في سنّ التمييز وأمر بالصلاة . وذكر ابن القيم حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع » (٤) .

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٣٥٥٣ وفيه ضعف وانقطاع .

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ . (٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ - ٢٩١ .

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٨٠ و ١٨٧ ، رواه أبو داود برقم ٤٩٥ في الصلاة . عن ابن القيم : تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٩٢ ، هامش رقم ١ .

وإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً واحتياجاً للعبادات ، فيضرب على ترك الصلاة ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم . ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى مراهقاً ومناهراً للاحتلام . وإذا بلغ خمس عشرة يحصل له الاحتلام ، ونبات الشعر الحشن حول القبل ، وغلظ الصوت . واختلف الفقهاء في تحديد سن البلوغ . « فقال الأوزاعي ، وأحمد ، والشافعي ، وأبو يوسف ، ومحمد : متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه . ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال : أحدهما : سبع عشرة ، والثاني ثمان عشرة ، والثالث خمس عشرة ، وهو المحكى عن مالك . وعن أبي حنيفة روايتان ، إحداهما : سبع عشرة ، الأخرى ثمان عشرة . والجارية عند سبع عشرة » (١) .

وبعد أن يصل الصبي إلى مرحلة البلوغ ، يأخذ في الدخول في مرحلة « بلوغ الأشد » ، وهي مرحلة تبدأ من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة . ثم بعد الأربعين يأخذ الإنسان في النقصان وضعف القوى على التدريج ، فيأخذ في الكهولة إلى الستين ، ثم يأخذ في الشيخوخة ، ثم تنحط قواه ويصبح هرمًا . فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه فقد سار إلى أرذل العمر . (٢)

أمراض القلوب

يردد ابن قيم الجوزية آراء أستاذه ابن تيمية في المقارنة بين مرض البدن ومرض القلب ، أي مرض النفس ، وفي طرق حفظ صحتهما ، فيقول مثله : إن مرض البدن هو « خروجه عن اعتداله الطبيعي بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية . فإما أن يذهب إدراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه . وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه ، كما يدرك الحلو مرًا ، والحديث طيبًا ، والطيب خبيثًا . وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قدرته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة . . . » (٣) .

وأما مرض القلب ، أو النفس ، فهو « نوع فساد يحصل له يُفسد تصوره للحق وإرادته له ، فلا يرى الحق حقًا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به إرادته له ،

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٠-٣٠٢ .

(٣) رسالة في أمراض القلوب ، ص ١٦ .

فيغض الحق النافع ، أو يحبّ الباطل الضار ، أو يجتمعان له ، وهو في الغالب . ولهذا يفسر المرض الذى يعرض له تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتاده في قوله تعالى : (فى قلوبهم مرض)^(١) أى شك ، وتارة بشهوة الزنا كما فسر به قوله تعالى : (فيطمع الذى فى قلبه مرض)^(٢) . فالأول مرض الشبهة ، والثانى مرض الشهوة^(٣) .

وبالرغم من أن هذين النوعين من مرض القلوب يسببان للإنسان أعظم الألم ، إلا أن الإنسان لفساد قلبه لا يحس بهذا الألم ، لأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم . ويرى ابن القيم أن أطباء هذين النوعين من مرض القلب هم الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فهم الذين يقومون بعلاجها .

وهناك نوع آخر من مرض القلوب يحسّ الإنسان بألمه فى الحال « كاهم والغم والحزن والغيط . وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية ، كإزالة أسبابه ، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب »^(٤) ، كأن تعالج هذه الأمراض بأضدادها من الفرح والسرور^(٥) .

فأمراض القلوب ، إذن ، منها ما يزول بالأدوية الشرعية الإيمانية ، ومنها ما يزول بالأدوية الطبيعية^(٦) .

ويرى ابن القيم الجوزية أن صحة القلب وكفاله وصلاحه وسعادته إنما تتحقق باستعماله للقوتين اللتين له وهما : قوة العلم والتمييز ، وقوة الإرادة والحب . فبقوة العلم يدرك الحق ويعرفه ، ويميّز بينه وبين الباطل ، وبقوة الإرادة المحبة يطلب الحق ويؤثره على الباطل^(٧) .

ويذهب ابن القيم إلى أن فى القرآن شفاءً لجميع أمراض القلب التى هى أمراض الشبهات والشهوات . « ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك ، بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه . . . أما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة ، والأمثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب والسليم إذا أبصر ذلك فيها ينفعه فى معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره ، فيصير القلب محباً للرشد ، مبغضاً للغى »^(٨) .

(١) البقرة : ١٠ . (٢) الأحزاب : ٣٢ .

(٣) رسالة فى أمراض القلوب ، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ . (٥) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٠ . (٧) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن « سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس »^(١) ، ويقصد بالنفس هنا النفس الأمارة بالسوء التي تأمر صاحبها بما تمواه من شهوات الغنى ، وإتباع الباطل . وهو يذكر أن هناك علاجين لمرض القلب من استيلاء النفس الأمارة بالسوء عليه : « محاسبتها ، ومخالفتها . وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ، ومن موافقتها وإتباع هواها »^(٢) . ويذكر ابن القيم في هذا الصدد الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(٣) .

وعنى ابن قيم الجوزية بعلاج مرض القلب من وسوسة الشيطان ، حيث أن « شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته ، فهي مركبة وموضع شره ، وموضع طاعته ، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك »^(٤) . وتعالج وسوسة الشيطان بقراءة القرآن ، ففيه شفاء لما في الصدور يُذهب ما يلقى الشيطان فيها من وساوس وشهوات وإرادات فاسدة^(٥) .

ويلاحظ في أقوال ابن قيم الجوزية عن علاج أمراض القلوب أمران : الأول : إنه يُعنى بأمر العلم والتمييز ، فبالعلم يدرك الإنسان الحق ويعرفه ، وبالتمييز يميز بين الحق والباطل ، فيطلب الحق ، ويتجنب الباطل . وهكذا نجد أن ابن قيم الجوزية قد عنى بأسلوب العلاج النفساني المعرفي للأمراض النفسية ، ويكون بذلك ، مثل العلماء السابقين الكندي وأبي بكر الرازي ومسكويه والغزالي وابن حزم وفخر الدين الرازي ، قد سبق المعالجين النفسانيين المحدثين من أتباع مدرسة العلاج السلوكي المعرف .

والأمر الثاني : إن ابن القيم قد أدرك ، مثل ابن حزم والغزالي وابن تيمية ، أهمية أسلوب علاج بعض الأمراض النفسية بأضدادها ، مثل علاج الحمّ والغمّ والحزن والغيب بأضدادها من الفرح والسرور ، ويكون بذلك قد سبق ، مثل ابن حزم والغزالي وابن تيمية ، المعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين الذين يتبعون هذا الأسلوب في علاج اضطرابات السلوك .

تأديب الأطفال

أفرد ابن قيم الجوزية في كتاب « تحفة المودود بأحكام المولود فصلين خاصين بموضوع تأديب الأطفال وتعليمهم وتربيتهم ، هما الفصلان الخامس عشر والسادس عشر . ذكر في الأول منها

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تنص على ضرورة العناية بتأديب الأطفال وتعليمهم . ومن الأحاديث التي ذكرها ما رواه الترمذى والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن »^(١). وذكر في الثاني مبادئ نافعة في تربية الأطفال . ومما ذكره أنه : « لا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه ، ولا سبياً لشربه اللبن إذا جاع ، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً ، فإنه يروّض أعضائه ، ويوسع إمعانه ، ويفسح صدره ، ويسخن دماغه ، ويحیی مزاجه ، ويثير حرارته الغريزية ، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول ، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره »^(٢).

وقال أيضًا : « ينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفرضه : من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها ، فلا ينتفع بها بعد كبره . فإذا عرض له عارض من ذلك ، ف ينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده ، وإيناسه بما يثبتيه إياه ، وأن يلقم نديه في الحال ، ويسارع إلى رضاعه لينزول عنه ذلك المزعج له ، ولا يرتسم في قوته الحافظة ، فيعسر زواله ، ويستعمل تمهيداً بالحركة اللطيفة إلى أن ينام ، فينسى ذلك ، ولا يهمل هذا الأمر ، فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه ، فينشأ على ذلك ، ويعسر زواله ويتعذر »^(٣).

وذكر أن تمام رضاع الطفل حولين كاملين ، كما جاء في الآية رقم ٢٣٣ من سورة البقرة . وإذا أراد الأبرار فطامه قبل ذلك بتراضيهما مع عدم مضرة الطفل ، فلها ذلك . كما أنه يجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر^(٤). وينبغي أن يتم فطام الطفل على التدريج ، وألا يفاجأ الطفل به وهلة واحدة ، بل يُعوّد عليه لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة^(٥).

وينبغي أن يعلم الأطفال الأكل دون الشبع ، فإن ذلك يؤدي إلى جودة هضمهم ، واعتدال أخطأهم ، وقلة الفضول في أبدانهم ، وصحة أجسادهم^(٦).

(١) رواه الترمذى حديث رقم ١٩٥٣ في البر ، وهو مرسل ضعيف ؛ ورواه الحاكم ٢٦٣/٤ في الأدب وصححه .

وقال الذهبي إنه مرسل ضعيف .

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ، ص ٢٣٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

وينبغي الاعتناء بأمر خُلُق الطفل ، فإنه ينشأ على ما عودته المربي في صغره من أخلاق وصفات . « وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل : مجالس اللهو ، والباطل ، والغناء ، وسماع الفحش ، والبدع ، ومنطق السوء ، فإنه إذ علق بسمعه ، عسر عليه مفارقتها في الكبر ، وعزّ على وليّه استنقاذه منه ، فتغير العوائد من أصعب الأمور ، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثابتة ، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدًّا » (١) .

وينبغي على وليّ الطفل أن يجنبه الأخذ من غيره ، لأنه متى اعتاد ذلك ، نشأ بأن يأخذ ، لا بأن يعطى . ويجب أن يعوّده البذل والعطاء . كما يجب أن يجنبه الكذب ، والخيانة ، والكسل ، والبطالة ، والدعة ، بل يجب أن يأخذ بأضدادها .

ويجب أن يجنبه فضول الطعام ، والكلام ، والمنام ، وشرب الخمر ، وليس الحرير ، والسرقة ، والكذب (٢) .

وينبغي أن يراعى ما يكون الصبي مستعدًّا له من الأعمال ، فلا يجعله على غيره ، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه . « فإذا رآه حسن الفهم ، صحيح الإدراك ، جيد الحفظ وإعيا ، فهذه من علامات ميوله ، وتبهرته للعلم وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، وهو مستعد للفروسية ، وأسبابها من الركوب والرمي ، واللعب بالرمح ، وأنه لا نفاذ له في العلم ، ولم يُخلّق له ، ممكن من أسباب الفروسية والتمرين عليها ، فإنه انفع له وللمسلمين . وإن رآه بخلاف ذلك ، وأنه لم يُخلّق لذلك ، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع ، مستعدًّا لها ، قابلاً لها ، وهى صناعة مباحة نافعة للناس ، فليمكنه منها . هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه . . . » (٣) .

ويتضح مما تقدم اهتمام ابن قيم الجوزية ، مثل ابن سينا من قبل ، بمراعاة استعدادات الفرد في توجيهه التربوي والمهني ، وهو أمر عُنى به علماء النفس المحدثون اهتمامًا كبيرًا .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٢) المرجع ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

المراجع

- ١ - إبراهيم مذكور : في الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيق ، ط ٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨ م .
- ٢ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . تحقيق نزار . بيروت : دار مكتبة الحياة ، (د . ت) .
- ٣ - ابن باجه : كتاب النفس . تحقيق وتقديم محمد صغير حسن المعصومي . دمشق : مطبوعات المجلس العلمي العربي بدمشق ، ١٩٦٠ م .
- ٤ - ابن باجه : تدبير المتوحد . في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » . حققها وقدم لها ماجد فخري . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٥ - ابن باجه : رسالة الوداع . في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » ، المذكور سابقاً .
- ٦ - ابن باجه : قول يتلو رسالة الوداع . في كتاب « رسائل ابن باجه الإلهية » ، المذكور سابقاً .
- ٧ - ابن باجه : رسائل فلسفية لأبي بكر بن باجه . تحقيق وتعليق جمال الدين العلوي - نصوص فلسفية غير منشورة . بيروت : دار الثقافة ، والدار البيضاء : دار النشر المغربية (د . ت) .
- ٨ - ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان . حيدرآباد ، ١١١٣ هـ - ١٩١٢ م .
- ٩ - ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والبخل . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٠ م .
- ١٠ - ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألف . القاهرة : المكتبة التوفيقية ، ١٩٧٦ م .
- ١١ - ابن حزم : الأخلاق والسير في مداواة النفوس . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ م .
- ١٢ - ابن خلكان : وفيات الأعيان . بيروت : دار الثقافة (د . ت) .
- ١٣ - ابن رشد : تلخيص كتاب النفس . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م .

- ١٤ - ابن رشد : فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشرعية من الاتصال ، ط ٢ . القاهرة : المكتبة المحمودية التجارية ، ١٢٥٣ هـ - ١٩٣٥ م .
- ١٥ - ابن رشد : مقال هل يتصل بالعقل المهيولاني العقل الفعال وهو متلبس بالجسم . ملحق بكتاب « تلخيص كتاب النفس » لابن رشد المذكور سابقاً .
- ١٦ - ابن سينا : الشفاء ، كتاب النفس . تحقيق الأب جورج قنواني وسعيد زايد ، ومراجعة إبراهيم بيومي مذكور . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .
- ١٧ - ابن سينا : الإشارات والتنبيهات : القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٢٥ هـ .
- ١٨ - ابن سينا : النجاة : القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٣١ هـ .
- ١٩ - ابن سينا : أحوال النفس . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ م .
- ٢٠ - ابن سينا : مبحث عن القوى النفسانية . تحقيق إدورد بن كرنيليوس فنديك . بيروت : دار العلم للجميع (د . ت) .
- ٢١ - ابن سينا : القانون في الطب . القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع (د . ت) .
- ٢٢ - ابن سينا : كتاب السياسة . نشر الأب بويس معلوف اليسوعي . بيروت : الطبعة الكاثوليكية ، ١٩١١ م .
- ٢٣ - ابن طفيل : حَيّ بن يقظان . تقديم وتحقيق فاروق سعد . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٤ م .
- ٢٤ - ابن قيم الجوزية : الروح ، ط ٢ . تحقيق السيد الجميلي . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٦ م .
- ٢٥ - ابن قيم الجوزية : مفتاح دار السعادة . بيروت : دار الكتب العلمية (د . ت) .
- ٢٦ - ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين . القاهرة : دار الفكر العربي (د . ت) .
- ٢٧ - ابن قيم الجوزية : طريق المهجرتين وباب السعادتين . بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٠ م .
- ٢٨ - ابن قيم الجوزية : رسالة في أمراض القلوب . تحقيق محمد حامد الفقى . الرياض : دار طيبة ، ١٤٠٣ هـ .

- ٢٩ - ابن قتيبة الجوزية : تحفة المودود بأحكام المولود . تحقيق عبد القادر الأرنؤوط . دمشق : مكتبة دار البيان ، ١٩٧١ م .
- ٣٠ - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : رسائل فلسفية ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٧ م .
- ٣١ - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني . تقديم وتحقيق عبد اللطيف العبد . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .
- ٣٢ - أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . بيروت : دار المعرفة (د . ت) .
- ٣٣ - أبو حامد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٥ م .
- ٣٤ - أبو حامد الغزالي : الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي . القاهرة : محيى الدين صبرى الكردى ، ١٩٣٤ م .
- ٣٥ - أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال . تحقيق جميل صليبا وكامل عياد . بيروت : دار الأندلس (د . ت) .
- ٣٦ - أبو حامد الغزالي : المستصفى من علم الأصول : القاهرة . المطبعة الأميرية ، ١٣٢٢ هـ .
- ٣٧ - أبو حامد الغزالي : كيمياء السعادة . تحقيق وتعليق محمد عبد العليم . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧ م .
- ٣٨ - أبو الحسن على الحسنى الندوى : الحافظ أحمد بن تيمية . تعريب سعيد الأعظمى الندوى . الكويت : دار القلم ، ١٩٨١ م .
- ٣٩ - أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى : طبقات الأمم . القاهرة : مطبعة السعادة (د . ت) .
- ٤٠ - أحمد أمين : حتى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهورردى ، ط ٣ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦ م .
- ٤١ - أحمد فؤاد الأهوانى : ابن سينا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٨ م .
- ٤٢ - أحمد فؤاد الأهوانى : الكندى فيلسوف العرب . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د . ت) .

- ٤٣ - أحمد بن تيمية : رسالة في العقل والروح . منشور في « مجموعة الرسائل المنيرة » ، الجزء الثاني . بيروت : محمد أمين ديج ، ١٩٧٠ م .
- ٤٤ - أحمد بن تيمية : فصل في مرض القلوب وشفاؤها . منشور في مجلد « علم السلوك » ، المجلد العاشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . مطبوع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين (د . ت) .
- ٤٥ - أحمد بن تيمية : العبودية . بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٨٣ م .
- ٤٦ - إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا . بيروت : دار صادر ودار بيروت (د . ت) .
- ٤٧ - إخوان الصفا : الرسالة الجامعة - تاج رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا . تحقيق مصطفى غالب . بيروت : دار صادر ، ١٩٧٤ م .
- ٤٨ - إخوان الصفا : جامعة الجامعة . تحقيق عارف تامر . بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٠ م .
- ٤٩ - جعفر آل ياسين : فيلسوفان رائدان : الكندي والفارابي . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٠ م .
- ٥٠ - جمال الدين العلوي : مؤلفات ابن باجه . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨٣ م .
- ٥١ - جمال الدين القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء . القاهرة : مكتبة المتنبي (د . ت) .
- ٥٢ - جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، ط ٢ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ م .
- ٥٣ - جورج شحاته قنواني ، الأب : مؤلفات ابن سينا . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٠ م .
- ٥٤ - جورج شحاته قنواني ، الأب : مؤلفات ابن رشد . الجزائر : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٨ م .
- ٥٥ - جوزيف الهاشم : الفارابي ، ط ٢ . بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٥٦ - جوليان روتر : علم النفس الإكلينيكي ، ط ٣ . ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- ٥٧ - خير الدين الزركلي : الأعلام - قاموس تراجم ، ط ٩ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٠ م .

- ٥٨ - دى بدر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ط ٥ . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .
- ٥٩ - ريتشارد م . شوين : علم الأمراض النفسية والعقلية . ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ م .
- ٦٠ - سارنوف أ . مدنيك وآخرون : التعلم ، ط ٣ . ترجمة محمد عماد الدين إسماعيل ، ومراجعة محمد عثمان نجاتى . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- ٦١ - سعيد زايد . الفارابى ، ط ٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ م .
- ٦٢ - عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، ط ٤ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٤ م .
- ٦٣ - عبد الرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى ، ط ٢ . الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ م .
- ٦٤ - عبد الرحمن بدوى : رسائل فلسفية للكندى والفارابى وابن باجه وابن عربى ، ط ٣ ، بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٣ م .
- ٦٥ - عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ورسالة حتى بن يقظان ، ط ٣ . بيروت : دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧٥ م .
- ٦٦ - عبد العظيم أحمد علاوى البريزات : نظرية المعرفة الخلقية عند الإمام الغزالى . عمان : دار الفرقان ، ١٩٨٤ م .
- ٦٧ - عبد العظيم عبد السلام شرف الدين : ابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه وآراؤه فى الفقه والعقائد والتصوف ، ط ٣ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ م .
- ٦٨ - عبد الكريم العثمان . الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٣ م .
- ٦٩ - عبد اللطيف محمد العبد : الإنسان فى فكر إخوان الصفا . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ م .
- ٧٠ - عمر فروخ : ابن باجه والفلسفة المغربية . بيروت : مكتبة منيمة ، ١٩٦٥ م .
- ٧١ - عمر فروخ : ابن طفيل وقصة حتى بن يقظان . بيروت : مطبعة النجمة ، ١٩٤٦ م .

- ٧٢ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون ، ط ٢ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ م .
- ٧٣ - عمر فروخ : إخوان الصفا ، ط ٣ . بيروت : دار التاب اللبنانى ، ١٩٨١ م .
- ٧٤ - الفارابى : عيون المسائل . القاهرة : ١٩٠٧ م .
- ٧٥ - الفارابى : الدعاوى القلبية . منشور فى مجموعة « رسائل الفارابى » . حيدر آباد الدكن - الهند : طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٢٦ م .
- ٧٦ - الفارابى : التنبيه على حصول السعادة . منشور فى مجموعة رسائل الفارابى ، المذكورة سابقاً .
- ٧٧ - الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ط ٣ . تقديم وتعليق ألبير نصرى نادر . بيروت : دار المشرق ، ١٩٧٣ م .
- ٧٨ - الفارابى : فصوص الحكم . تحقيق محمد حسن آل ياسين . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٧٦ م .
- ٧٩ - الفارابى : تحصيل السعادة . تحقيق جعفر آل ياسين . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨١ م .
- ٨٠ - الفارابى : رسالة فى العقل ، ط ٣ . تحقيق الأب موريس بويج . بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٣ م .
- ٨١ - فايز محمد على الحاج : نظرية الفعل المنعكس الشرطى عند الغزالى . بحث مقدم إلى « ندوة علم النفس والإسلام » . التى عقدت بجامعة الرياض فى عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م . مكتوب على الآلة الكاتبة ، ومنشور فى مجموعة بحوث الندوة .
- ٨٢ - فتح الله خليف : فخر الدين الرازى . الإسكندرية . دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٧ م .
- ٨٣ - فخر الدين الرازى : كتاب لباب الإشارات . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٥٥ هـ .
- ٨٤ - فخر الدين الرازى : كتاب النفس والروح وقواهما . تحقيق محمد صغير حسن المعصومى . إسلام آباد : منشورات معهد الأبحاث الإسلامية بإسلام آباد ، ١٩٨٧ م .
- ٨٥ - فخر الدين الرازى : المطالب العالية من العلم الإلهى ، الجزء السابع فى الأرواح العالية والسافلة (النفس) . بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٨٧ م .

- ٨٦ - فخر الدين الرازي : الفراسة - دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح . تحقيق وتعليق مصطفى عاشور . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧ م .
- ٨٧ - فكتور سعيد باسيل : منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي . بيروت : دار الكتب اللبنانية (د . ت) .
- ٨٨ - كارا دى فو ، البارون : الغزالي . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبي وشركاه ، ١٩٥٩ م .
- ٨٩ - كارا دى فو : ابن سينا . ترجمة عادل زعيتر . بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ م .
- ٩٠ - ماجد فخري : ابن رشد ، فيلسوف قرطبة . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٠ م .
- ٩١ - ماجد فخري : رسائل ابن باجه الإلمية . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٩٢ - ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية . نقله إلى العربية كمال البازجي . بيروت : دار المتحدة للنشر ، ١٩٧٩ م .
- ٩٣ - محمد بيسار : في فلسفة ابن رشد ، الوجود والخلود ، ط ٣ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٧٣ م .
- ٩٤ - محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين . القاهرة : محيي الدين صبرى الكردى ، ١٣٣١ هـ .
- ٩٥ - مسكويه ، أبو على أحمد بن محمد : الفوز الأصغر . تحقيق عبد الفتاح أحمد فؤاد . بنغازي ، ليبيا : دار الكتاب الليبي ، ١٩٤٧ م .
- ٩٦ - مسكويه ، أبو على أحمد بن محمد : الحكمة الخالدة ، ط ٢ . تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٠ م .
- ٩٧ - مسكويه ، أبو على أحمد بن محمد : تهذيب الأخلاق . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ م .
- ٩٨ - محمد عبد الرحمن مرجبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية . بيروت : منشورات عويدات ، ١٩٧٠ م .
- ٩٩ - محمد عبد الهادي أبو ريده : رسائل الكندي الفلسفية . القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ م .

- ١٠٠ - محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا - بحث في علم النفس عند العرب ، ط ٣ . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ م .
- ١٠١ - محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ . الكويت دار القلم ، ١٩٨٤ م .
- ١٠٢ - محمد عثمان نجاتي . القرآن وعلم النفس ، ط ٤ . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٩ م .
- ١٠٣ - محمد عثمان نجاتي : علم النفس والحياة - مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته في الحياة ، ط ١٣ . الكويت : دار القلم ، ١٩٩٢ م .
- ١٠٤ - محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام . الإسكندرية : دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٤ م .
- ١٠٥ - محمد يوسف موسى : ابن تيمية . بيروت : المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٦٢ م .
- ١٠٦ - محمود قاسم : في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام ، ط ٤ . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ م .
- ١٠٧ - مصطفى عبد الرازق : الكندي فيلسوف العرب . منشور في كتاب « خمسة من أعلام الفكر الإسلامي » . بيروت : دار الكاتب العربي (د . ت) .
- ١٠٨ - مصطفى غالب : ابن طفيل . بيروت : دار مكتبة الهلال ، ١٩٧٩ م .
- ١٠٩ - مكارثي ، الأب : النصائيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب . بغداد ، ١٩٦٢ م .
- ١١٠ - النديم : الفهرست ، ط ٣ . تحقيق رضا . بيروت : دار الشرق ، ١٩٨٨ م .
- ١١١ - هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية . ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي ، ومراجعة الإمام موسى الصدر والأمير عارف تامر . بيروت : المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات ، ١٩٦٦ م .
- ١١٢ - يحيى بن أحمد الكاشي : نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني . القاهرة : منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٢ م .
- ١١٣ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

المراجع الأجنبية

1. Aristote : *De Anima* .
2. Aristote : *De Insomniis* .
3. Aristote : *Metaphysique*.
4. Aristote : *De Sensu* .
5. Beare, J : *Greek Theories of Elementary Cognition*. Oxford, 1906 .
6. Brockelmann, C : *Geschichte der Arabischen Litteratur*, Leiden, 1937 .
7. Clifford, Morgan : *physiological Psychology*. New York : Mc Graw - Hill Book Co., Inc., 1943 .
8. Gardner Murphy and Joseph K. Kovach : *Historical Introduction to Modern Psychology*, 6 th ed. London : Routledge & Kegan p. Limited , 1972 .
9. Gilson : *Archives d'Histoire Doctrinale et Litterataire du Moyen Age*, Paris, 1929.
10. I. Madkour : *La place d'Al Farabi dans l'école philosophique Musulmane*. Paris, 1934.
11. James F. Brennan : *History and Systems of Psychology*. New Jersey : Prentice - Hall, Inc., 1982.
12. Janet et Seailles : *Histoire de La philosophie*, Paris, 1925.
13. Jenkins J. G. and Dallenbach, K.M.: Obliviscence during Sleep and Waking
American Journal of Psychology, 1924, Vol.35, PP. 605 - 612 .

14. Jones, M.C. The elimination of Childreu's fears. *Journal of Experimental Psychology*, 1924, I : 383 - 390.
15. Ross, W.D. : Aristote. Trad. Fr., Paris, 1930.
16. Tricot : De l'âme d'Aristote. Paris, 1934.
17. Vaschide, N. : *Le Sommeil et La Réve* . Paris, 1920 .
18. Vaschide, N. et Pieron, M. : *La psychologie du Rêve on Point du Medicale* . Paris.
19. Watson, J. B., and Rayner, R. : Conditioned emotional reactions. *Journal of Experimental Psyclology*, 1920, 3.

للمؤلف

- القرآن وعلم النفس . الطبعة الخامسة . مزينة ومنقحة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٩٣ م .
- الحديث النبوي وعلم النفس . الطبعة الثانية . بيروت : دار الشروق ، ١٩٩٣ م .
- علم النفس والحياة - مدخل إلى علم النفس وتطبيقاته في الحياة . الطبعة الثالثة عشرة - مزينة ومنقحة - الكويت : دار القلم ، ١٩٩٢ م .
- علم النفس الصناعي . الطبعة الثالثة . الكويت : مؤسسة الصباح ، ١٩٨٠ م (نقد) .
- المدنية الحديثة وتسامح الوالدين . الطبعة الثانية . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ م . (نقد) .
- الإدراك الحسى عند ابن سينا . بحث في علم النفس عند العرب . الطبعة الثالثة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ م (نقد) .
- علم النفس الحربى . الطبعة الثالثة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ م . (نقد)
- ملامح جريمة القتل . بالاشتراك مع آخرين . من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . القاهرة ، ١٩٧١ م ، (نقد) .

مكتبة التحليل النفسي والعلاج النفسي

بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي

- معالم التحليل النفسي : تأليف سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي - الطبعة السابعة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- الأنا والهو : تأليف سيجمند فرويد . ترجمة محمد عثمان نجاتي . الطبعة الخامسة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- الكفّ والعرض والقلق : تأليف سيجمند فرويد . ترجمة محمد عثمان نجاتي . الطبعة الرابعة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .
- ثلاث رسائل في نظرية الجنس : تأليف سيجمند فرويد . ترجمة محمد عثمان نجاتي . الطبعة الثالثة . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .

مكتبة أصول علم النفس الحديث

یشرف علی ترجمتها

الدكتور محمد عثمان نجاتي

صدر منها :

- علم النفس الإكلينيكي : تأليف جولييان ب. روتر - ترجمة الدكتور عطية محمود هنا - أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت - الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.

- علم نفس الشواذ : تأليف شيلدون كاشدان - ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة - أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر والملك سعود والكويت - الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ .

- الشخصية : تأليف ريتشارد س. لازاروس - ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم -
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس والإمارات العربية والكويت والملك
سعود . - الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ .

- التعلم : تأليف سارنوف د. ميدنيك ، وهوارد د. يوليو ، واليزابت ف لوفتناس . - ترجمة الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل - أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس ، وجامعة الكويت - الطبعة الثالث ، ١٩٨٨ .

١٩٨٨

– الدافعية والانفعال : تأليف إدوارد ج. موراي – ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز

سلامة - أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر والمملك سعود والكويت - الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .

- علم النفس الاجتماعي : تأليف وليام و. لامبرت ، وولاس أ. لامبرت ترجمة الدكتور سلوى الملا - أستاذ علم النفس المساعد بجامعة القاهرة وجامعة الكويت - الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .

- طبيعة البحث السيكولوجي : تأليف ربي هانيان - ترجمة الدكتور عبد الرحمن عيسوي أستاذ علم النفس بجامعة الإسكندرية وبيروت العربية والإمام محمد بن سعود الإسلامية - الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .

رقم الايداع ٩٢/٥٦٦٣

I.S.B.N. 977- 09 - 0155 - 5

مطابع الشارقة

القاهرة. ١٦ شارع عواد حسني - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس . ٣٩٣٤٨١٤
بجروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



الدراسات النفسانية

عند العلماء المسلمين

للعلماء المسلمين السابقين إسهامات كثيرة هامة في الدراسات النفسانية ، لم تحظ من قبل باهتمام الباحثين في تاريخ علم النفس لمعرفة دورها العام وتأثيرها في تقدم علم النفس وتطوره عبر العصور . فالمؤرخون الغربيون يبدأون ، عادة ، بالدراسات النفسانية عند المفكرين اليونانيين ، وبخاصة أفلاطون وأرسطو ، ثم ينتقلون بعد ذلك مباشرة إلى المفكرين الأوربيين في العصور الوسطى ، ثم في عصر النهضة الأوروبية الحديثة مع إغفال ذكر إسهامات العلماء المسلمين في الدراسات النفسانية التي ترجع كثير منها إلى اللغة اللاتينية .

وليس إغفال ذكر تلك الاسهامات للعلماء المسلمين مقصودا على مؤرخي علم النفس الغربيين ، بل إن علماء النفس العرب المعاصرين والذين يدركون في الجامعات العربية مقررات في تاريخ علم النفس ، يجدون جدوا للمؤرخين الغربيين في إغفال الإشارة إلى تلك الاسهامات .

وقد تصدى مؤلف هذا الكتاب للقيام بهذه المهمة حيث قام بتدريس مقرر في «الدراسات النفسانية عند المفكرين المسلمين» والقائه محاضرات عن «الدراسات النفسانية عند الفارابي» وابن سينا، وأخوان الصفا، والغزالي، وابن رشد، وابن تيمية، وابن القيم الجوزية في الجامعات التي درس بها . وعنى في هذا الكتاب بصفة خاصة بشرح آراء العلماء المسلمين السابقين في الموضوعات النفسانية التي لا تزال تعتبر حتى الآن من موضوعات علم النفس ، مقلداً ، في الأغلب ، وعلى قدر الامكان ، ذكر آرائهم الفلسفية في النفس التي لا تدخل الآن في موضوعات البحث في علم النفس ، فليس هذا الكتاب ، أساساً ، كتاباً في الفلسفة الإسلامية ، وإنما هو كتاب في تاريخ علم النفس عند العلماء المسلمين السابقين .

